المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا
فرع العقيدة

قام الطالب بعمل التعديلات التي طلبتها لجنة المناقشة ،،،

مناقش   مناقش   المشرف

العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الفكرية في غرب أفريقيا [الفرنسية]

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة

إعداد الطالب

صالح إسحاق باميبا

إشراف فضيلة الشيخ

مصطفى محمد حلمي

المجلد الأول

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : العقيدة الاسلامية في مواجهة التيارات الفكرية في غربي أفريقيا (الفرنسية) .

الدرجة العلمية : دكتوراه .

الطالب : صالح إسحاق بامبا

المشرفون : د/كمال جعفر أولاً ، ود/صلاح عبدالعليم ثانيا، ود/مصطفى محمد حلمي أخيراً .

ملخص الرسالة

فقد تكونت الرسالة من مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب ثم خاتمة وملاحق وفهارس . اشتمل الباب الأول (حالة البلاد قبل المدّ الإسلامي) على خمسة فصول تتحدث عن كل من الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية . أما الباب الثاني(دخول وانتشار الإسلام في المنطقة) ففيه ثلاثة فصول : بيان لكيفية دخول الاسلام المنطقة وكيفية انتشاره وعوامل هذا الانتشار . وجاء في الباب الثالث (أثر العقيدة الاسلامية) فصلان : أثر الاسلام في العقيدة والشعائر التعبدية وفي النهضة العلمية . وتضمن الباب الرابع (التيارات الفكرية في المنطقة) خمسة فصول : العلمانية وأثرها في المنطقة ، الأحزاب السياسية بعد الاستقلال ، حركة التنصير ، إحياء القومية الزنجية والتيارات النابعة من البيئة نفسها . وفي الباب الخامس (موقف المسلمين من هذه التيارات) ثلاثة فصول : حركات البعث الاسلامي ، واقع الدعوة ا لاسلامية في المنطقة وطريق الخلاص .

ولقد توصل البحث إلى نتائج ، كان من أهمها :

١ – الاستعمار الفرنسي يهدم الروح المعنوية في بلاد السودان الغربي.

٢ – محاولة أعداء الاسلام إثارة الشبهات حول الاسلام .

٣ – أثر فئة من المثقفين اعتمدت العلمانية والقومية الزنجية لتكون بديلاً عن العقيدة الاسلامية .

٤ – أثّر الاسلام في بداية العصر التاريخي في بلاد السودان الغربي وما وصل إليه من تقدم وتطور بلغ شأوا كبيراً في الحضارة والمدنية فاقت ما كانت عليه أوروبا في القرون الوسطى

٥ – جميع التيارات الفكرية الحديثة ومذاهبها وحركة التنصير المضادة للاسلام ما هي إلا ظلالاً للإستعمار ولا يمكنها إسعاد البشرية . لذلك فإن مستقبل أفريقيا للإسلام إن شاء الله تعالى .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
صالح إسحاق بامبا		

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

(سورة البقرة : ١٣٥)

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (سورة الأنفال : ٣٦)

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وان أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها وان آخرها سيصيبهم بلاء وأمور ينكرونها ، تجيء فتنة فيدفق بعضها لبعض ،فتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف ثم تجيء فيقول هذه مهلكتي ثم تنكشف فمن أحب منكم أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ... الحديث .

رواه النسائي (ج/٧، ص:١٥٣) وهو حديث صحيح وجزم بصحته .


شكر وتقدير

شكر و تقديــر

أتوجه بالشكر والطاعة لرب العزة والجلال (سبحانه و تعالى) الذى من علي بمحض كرمه لاتمام هذا البحث وأعانني عليه برحمتـــه وعفوه ورضوانه فاياه أعبد واياه أستعين في حياتي ،و منه أستلهم السداد في جميع أعمالي سبحا نه و تعالى .

وأقدم شكرى من بعده الى أستاذى الدكتور راشد بن راجـــح مدير جامعة أم القرى على ما بذل من توجيهات ونصائح وحرصه الشديـد على قبولي بهذه الجامعة الميمونه يوم أن كان عميدا لكلية الشريعة والدراسات الاسلامية .. فالله تعالى ،أسأل أن يجزل له في المثوبة والعون ويجزيه عني خير الجزاء ..

كما أقدم شكرى الجزيل الى جميع القائمين على عمادة أصول الدين وأخص بالذكر سعادة الدكتور : علي بن نفيــع العليانـــي ، والدكتور سفر الحوالي والدكتور أحمد ناصر .

كماأتوجه بالشكر الجزيل الى أستاذى فضيلة الشيخ مصطفى محمود حلمي المشرف على هذه الرسالة ،على الرعاية والعناية التي شملني بها والتوجيهات القيمة التي دلني اليها ..

ثم انني أتوجه بالدعاء والاستغفار لفقيدنا الغالي الشيخ عبد اللـه ابن حميد على ما بذله لي طيلة اقامتي في هذه الديار المقدسة ،فاللـه تعالى أسأل أن يسكنه مع الذين أنعم الله عليهم وأن يبارك في عقبه .

كما أقدم شكرى الى فضيلة أستاذى الشيخ محمد قطب الذى درست على يديه مادة المذاهب الفكرية المعاصرة. و الى زميلي الفاضل الشيـــخ

سليمان السلومي وجميع من قدم لي مساعدة ، جزى الله هوءلاء جميعا عني وعن المسلمين خير الجزاء .. انه بالاجابة جدير ، وعلى كل شيء قدير .

وصلى الله على البشير النذير طبيب القلوب والأبدان محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ..

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمـــــــة

الحمد لله نحمده ونستعينه و نستهديه و نستغفره و نتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا .. من يهديه اللـــه فلا مضل له ،ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا اله الا الله وحده .. لا شريك له .. وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وأمينه على وحيه .. بلغ الرسالة وأدى الأمانة و نصح الأمة وبين لها المحجـــة البيضاء التي ليلها كنهارها .. لا يزيغ عنها الا هالك .. وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ..

وأصلي وأسلم عليه ،وعلى آله الطاهرين وصحابته نجـــوم الهدى الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن بيضة هذا الدين الحنيـف ، وبعد :

فقد أعظم الله المنه (سبحانه و تعالى) - على هذه الأمـة الخاتمة با لرسول الخاتم ،محمد صلوات الله وسلامه عليه ،وأكمل لهاالدين وأتم عليها النعمة ورضي لها الاسلام دينا .. وهو دين شمل اعتقـادا في القلب و منهجا سلوكيا عمليا شمل واقع الحياة .. هو الاســلام الذى جاء به نوح ، والذى جاء به ابراهيم ،والذى جاء به موسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ،وجاء به رسل الله وأنبيائه أجمعون .

اذا استعرضنا سجل الأنبياء في السور التي تعرضت في القرآن - سير الأنبياء المتوالين ، كسورة هود مثلا وسورة الشعراء وغيرهما من السور التي تعرضت ما نستطيع أن نسميه في لغتنا الحديثة (شريطـــا)

للأنبياء المتوالين ،سنجد أن كل رسول يأتي يقول لقومه كلمة واحدة هي :

" اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ".(١)

ثم تفسر العبارة بأنها : الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له و تنفيذ أوامره في واقع الحياة .أى انه في ذات الوقت يكون اعتقادا في القلب ومنهجا سلوكيا عمليا يشمل واقع الحياة الانسانية كلها .

هذا هو الدين الذى اشترك فيه جميع الأنبياء فليس هناك دين جاء من عند الله هو عقيدة فقط .. ويترك الحياة لغير دين الله يحكم .. يقول تعالى :

* وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة *(٢)

ولكن من نعم الله عز وجل على هذه الأمة الخاتمة أن كلفها بشيء لم تكلف فيه الأمم السابقة : وهو القيام بتبليغ دين الله الى الناس كافة ،فاعتنق هذا الدين بهذا المفهوم الشامل الرعيل الأول من هذه الأمة وحققوا مفهوم (لا اله الا الله) في واقع حياتهم الذى يشمل اعتقاد القلب ويشمل السلوك العملي .

والسلوك العملي هو : سلوك اجتماعي وسلوك اقتصادى ، وسلوك سياسي وسلوك أخلاقي . هذا هو الدين الذى آمن به الرعيل الأول فتحقق فيهم الوعد الرباني اذ يقول عز وجل :

---

(١) سورة الأعراف / ٦٥ . وتتمة الاية : * والى عاد أخوهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون ... *

(٢) سورة البينة / ٤ .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ،يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (١)

وبهذه العقيدة الصحيحة الشاملة خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأبرار يحملون هذا النور الرباني العظيم الى جميع أقطار العالم القديم الى سهول الأرض وجبالها ، يبددون بهذا النور الفريد غياهب الكفر والالحاد وجميع التيارات الفكرية المعاصرة لهم فاستضاءت به نصف الكرة الأرضية في أقل من نصف قرن واحد من الزمان.

فكانت بلاد السودان الغربي كما سماها الرحالة العرب القدامى أو (أفريقيا الغربية) كما نسميها في لغتنا المعاصرة ، من أوائل بلاد العالم التي استضاءت بهذا النور الالهي .

يقول القلقشندى عن اسلام أهل هذه البلاد - بمايلي :

" وكان أهلها أسلموا من أول الفتح ". (٢)

وهكذا دخل الاسلام في غربي افريقيا في الصدر الأول من القرن الأول الهجرى على أثر دخوله في مصر ضمن فتوحات سيدنا عمر رضي الله عنه الذى عين عمرو بن العاص على مصر والشام ثم عين عمرو بدوره عقبة ابن نافع الفهرى لفتح شمال افريقيا ،فسار الى أطراف المغرب فدخل العاصمة السودانية الأولى القديمة وتعرف باسم مدينة (أودغست)

---

(١) النور / ٥٥.

(٢) صبح الأعشى ٥/٢٨٤.

فكان بذلك دخول الاسلام الى غربي أفريقيا في سنة ٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة والذى يوافق سنة ٦٦١ ميلادية .

وعلى الرغم من أن هوء لاء الدعاة الذين هاجروا لنشر هذا الدين في أقطار العالم القديم قد خدموه خدمة لا مثيل لها في تاريخ البشرية جمعاء قديما وحديثا .

وعلى الرغم من كل ذلك فان المهاجرين بهذا الدين الى بلاد السودان الغربي ، جنوب الصحراء الكبرى (من العرب والبربر) جديرون بأن نقف عندهم وقفة فيها اجلال وتقدير لما قاموا به في هذا المجال .

فقد تخطى هوء لاء الدعاة الصعاب وركبوا البر والبحر بل عبروا الصحراء الكبرى التي تعد بحق أكبر منطقة صحراوية في العالم بأسره . عبروها فوق الجمال لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر حسب ما يرويه الموءرخون ونزلوا هنا وهناك ولم ينسوا قط دعوة هذا الدين في حلهم وترحالهم ..

فحملوا هذه العقيدة الربانية الى قوم كانوا بأمس الحاجة اليها . ولقد كانت الأمة السوداء قبل دخول الاسلام في بلادها أمة موسومة بالهوان في تاريخ شعوب العالم . ولما جاءها الاسلام وجدها أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة فنشر بينهم القراءة والكتابة فصارت في تعداد الأمم القارئة الكاتبة .

ووجدها في جاهلية وهمجية فرفع شأنها الى مصاف الأمم المتحضرة فتمتعت بثقافة الاسلام قرونا طويلة قبل أن تتفتح عيون أوربا للنور بل كانت أدمغة أهلها آنذاك محشوة بخرافات المسيحية وحماقاتها وطغيانها .

وهكذا امتازت هذه المنطقة بالنسبة للدعوة الاسلامية بمايسميه بعض المفكرين (بسباق التتابع) فزمام الدعوة للاسلام حمله العرب - بادئ ذى بدء - في مطلع الاسلام الى افريقية وتسلمه منهم البربر ليندفعوا به الى جنوب الصحراء وهناك أسلموه الى السودانيين الذين قاموا بدورهم فنشروه في أرضهم من منطقة الشمال الى منطقة الجنوب.

و يمكن القول أن هذا النشاط الداخلي الذى قام به الوطنيون لنشر العقيدة الاسلامية كان أبعد أثرا في خدمة الاسلام وأكثر نجاحا اذ صور الاسلام بصورة ثقافة قومية وفكر سوداني أفريقي فلم يعد الدخول فيه دخولا في دين غريب عليهم .. ولكن الدخول في الاسلام يعني الاسهام في تكوين مجتمع افريقي سليم .

من هنا أصبح الانضواء تحت هذه الرايات ضرورية من الناحية القومية و من الناحية الحضارية فوجدت هناك زعامات مسلمة ومراكز اسلامية مشهورة بعضها تجارية و بعضها ثقافية .

وقصارى الكلام أن غرب افريقيا باستثناء بعض مناطق في النيجر الأعلى وعلى طول غينيا كان يمثل وحدة سياسية واحدة تخضع لملك واحد وحكومة واحدة .

و هكذا كان الحال في أواخر أيام امبراطورية غانة لما تسلم المسلمون زمام الحكم . وكذلك امبراطورية صنغاى واستمرت البلاد على هذا الاستقرار السياسي بأيدى أبناء المسلمين طيلة قرون عدة حتى سقطت امبراطورية صنغاى لما غزاها المغاربة تحت قيادة أحمد المنصور

الذهبي عام (١٥٩١م) بجيش مكون من أربعمائة مقاتل . وبعد هذا الغزو المغربي اختفت الامبراطوريات الاسلامية في المنطقة عن مسرح التاريخ الاسلامي بالمنطقة ولم تقم فيها دولة ذات شأن تذكر بل صارت البلاد في منعطف تاريخي خلال قرنين ونصف من أول القرن السابع عشر الميلادى الى القرن التاسع عشر الميلادى لا توجد فيها قوة تحميها فبقيت على تلك الحالة السيئة حتى دهمتها السلطات الاستعمارية الفرنسية فلم تجد قوة مناوئة أمامها الا دويلات كأمثال دولة الحاج عمر الفوتي ، ومملكة الامام ساموري تورى اللذين حاولا استرداد المجد التليد للمنطقة لكن لسوء حظهما اصطدما مع الفرنسيين حين توغلهم الإستعمارى فانهزما أمام أسلحة الفرنسيين المتطورة . من هنا فتح عهد جديد من تاريخ المنطقة وهو وقوع المنطقة بقبضة الاستعمار الفرنسي .

وبهذا وبهذا يصبح قول (وارد) طبيعيا اذ يقول :

" ان الحضارة في السودان الغربي كانت أرقى من حضارة غربي أوربا .. ثم بدأت حضارة السودان تتضاءل بسبب الحروب والخلافات ولكن أوربا أخذت تتقدم بفضل ما تعلمته من العرب . وهذا أفسح الطريق لأوربا أن تستعمر غربي أفريقيا ضمن ما استعمرته من مناطق العالم .. "(١)

وهكذا تدفق المستعمرون على افريقيا من كل صوب واقتحموا أعماقها .. وكان نصيب افريقيا من الاستعمار واسعا وكريها .

----

(١) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ، تأليف الدكتور أحمد شلبي ٦ / ٢٧٥ .

فقد وفدت لها كل الدول الاستعمارية دون استثناء وفدت لها بريطانيا أم الاستعمار ،وفرنسا وبلجيكا والبرتغال واسبانيا ،وحتى ايطاليا التي كانت محدودة الجهد ضعيفة البناء ، اتجهت أيضا الى الاستعمار في أفريقيا . .

وكذلك صاحبت موجة الاستعمار موجات التنصير حتى وصفت هذه المرحلة المعاصرة بأنها امتداد للحروب الصليبية في العصور الوسطى ولكن في أثواب جديدة أشد وأخطر من سابقتها . .

فقد بدأ الاستعمار الفرنسي عقب احتلاله المنطقة بوضع الخطط الاستعمارية التالية :

١ - محاولة جادة في سبيل القضاء على الاسلام واحلال مناهج الغرب في المنطقة .

٢ - الترصد للحركات الاسلامية الاصلاحية .

٣ - السيطرة على التربية والتعليم والثقافة والفنون .

٤ - استخدام النخبة الممتازة والصفوة المختارة لتثقيفهم بالثقافة الغربية لأن هذه الفئة هي التي ستقود البلاد فيما بعد .

ان هؤلاء مع شديد الأسف كانوا ولم يزالوا خطرا على الاسلام من اساتذتهم المستعمرين .

هكذا كان واقع حياة المسلمين في هذا القطاع من العالم الاسلامي ما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه اذ يقول :

" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه . قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ، قال : فمن ؟ ؟ (١)

---

(١) أخرجه البخارى في كتاب الأنبياء باب ما ذكر عن بني اسرائيل ٦ / ٤٨٥ عن ابن سعد .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لينقضن عرى الاسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتي تليها فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة .." (١)

تلك هي الحالة المأساوية التي يعيش فيها جل المسلمين في هذه المنطقة ، وتلك هي التيارات الفكرية التي تواجه العقيدة الاسلامية في المنطقة اليوم ولكن غياب الاسلام عن واقع الحياة والتمسك بالبدع والخرافات من العوامل التي أسهمت في نجاح أصحاب التيارات الفكرية المحاربين للعقيدة الاسلامية في المنطقة.

وبعد :

كان مما من الله تعالى علي أن التحقت بقسم الدراسات العليا الشرعية في كلية الشريعة - مكة المكرمة - فرع العقيدة سابقا ، وفي كلية أصول الدين أخيرا . وأن أدرس مادة المذاهب الفكرية المعاصرة على يد مفكر من أشهر أعلام الفكر الاسلامي المعاصر هو استاذنا محمد قطب حفظه الله تعالى . وأن أختار لرسالتي في الدكتوراة موضوعا في هذه المادة وباشراف الدكتور كمال جعفر رحمه الله تعالى ، ثم الدكتور صلاح عبد الحليم ثم الدكتور مصطفى محمد حلمي حفظه الله تعالى ، وهو المشرف الحالي .

وقد كان من توفيق الله عز وجل أن اختار موضوعا فكريا وهو :

" العقيدة الاسلامية في مواجهة التيارات الفكرية في غرب أفريقيا الفرنسية ".

وقد آثرت هذا الموضوع على غيره لأسباب منها :

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ٥ / ٢٥١ عن أبي أمامة.

١ - وقوع الكثيرين من أبناء هذه المنطقة في الانبهار الشديد بالحضارة الأوربية المادية .

٢ - اهتمام فئة من المستشرقين والمبشرين والباحثين الأوربيين على اختلاف نزعاتهم بدراسة الشعوب المسلمة في القارة الافريقية بعامة وفي غربي أفريقيا بخاصة.

٣ - ما يزعمه الأوربيون من أن التاريخ الافريقي الصحيح والحضارة الافريقية الصحيحة انما يبدآن فقط من بداية العهد الاستعماري للقارة ، في حين هذه الدراسة تثبت ان العصر التاريخي للمنطقة يبتدئ بدخول الاسلام في المنطقة .

٤ - ان هذا الموضوع لم يكتب فيه -فيما أعلم- من وجهة النظر الاسلامية بشكل مفصل شامل ، يشمل الأدوار التاريخية التي مرت بها السلالة السوداء منذ الماضي السحيق الى يومنا هذا.

ان سروري باختيار هذا الموضوع لا يعدله سرور وذلك لسبب واضح هو: أنني ضممت الى المكتبة الاسلامية ما يتعلق بهذه السلالة السوداء من عقيدة وسلوك وذلك شيء قد تجاهله كثير من الجغرافيين والمؤرخين الاسلاميين المعاصرين أو نسوه .

من هنا تظهر لنا أهمية هذه الدراسة ، التي نهجت في كتابة تاريخ المنطقة من ناحية عقيدتها بما يرتبط بالايجاز من جهة والوضوح والشمول من جهة أخرى ، وفي ضوء هذا المنهج لا نعطي تفاصيل الأحداث الا ما رأيناه ضروريا .

كما اتجهنا الى دراسة أحوال هذه المنطقة بطريقة كتابة التاريخ الموضوعي المقارن ولم تكن سردا تاريخيا . لذا تحدثنا عن أحوال البلاد قبل المد الاسلامي عقيدة وسلوكا (أولا) كما تحدثنا عن دخول الاسلام في المنطقة وكيفية انتشاره والآثار المرتبطة على ذلك (ثانيا) ثم تحدثنا

عن أهم التيارات الفكرية الوافدة من أوربا والنابعة من البيئة الافريقيـة المعادية للعقيدة الاسلامية أخيرا .

وفي اعتقادنا أن هذا البحث - بما امتاز به من طريقة تناوله لقضايا المنطقة منذ الماضي السحيق الى الوقت الراهن - يجوز أن هذا الكلام سيكون عونا كبيرا ومرشدا صالحا لأولئك الباحثين عن الحقيقة في القضايا التي مرت بها المنطقة قديما وحديثا كما سيكون اثباتا للحقائق التاريخية المتصلة بهذه السلالة السوداء ودحضا لافتراءات الفئتين (المفرطة والمفرطة) .

لقد آثرت الكتابة في هذا الموضوع الشاق خدمة لدين الله سبحانه وتعالى . وقد عرفت منذ اللحظة الأولى من اختيارى لهذا الموضوع وقبل أن أخوض في عباب بحره الخضم أن مهمتي ليست يسيرة وأن موضوعي ليس سهلا وأن علي أن أغوص في أعماق تاريخ الأمة السودانية منذ فجر تاريخها الاسلامي حتى يومنا هذا بل وأن أجيل النظر في تاريخها القديم السابق لدخول الاسلام في المنطقة وذلك لسببين :

١ - رؤية صورة الحياة الوثنية ومظاهرها وأحوال هذه السلالة السوداء في تلك الفترة .

٢ - الوقوف على مدى التغيير الجذرى الذى أحدثته العقيدة الاسلامية في حياة الناس هناك .

وان قصدى ليس هو مجرد السرد التاريخي بقدر ما هو استعراض لواقع هذه الأمة السودانية قديما وحديثا .

أما المادة العلمية فقد جمعتها من عدة مصادر :

١ - ما كتبه الرحالة العرب القدامى .

٢ - ما توصلت اليه البحوث الأثرية الحديثة .

٣ - الكتب العربية حديثا .

٤ - الكتب الفرنسية و تقارير السلطة الاستعمارية التي توجد حتى الآن في بعض الأراشيف الحكومية في المنطقة .

وقد واجهت كثيرا من الصعوبات في اعداد هذا البحث منها :

١ - عدم وجود المصادر المؤلفة باللغة العربية فيما يتعلق بالسياسة الاستعمارية في المنطقة . على الرغم من بحثي المستمر الذى كلفني بالقيام برحلة ميدانية الى كل من :
مصر - وباريس - والمغرب - والسنغال - ومالي - وساحل العاج - وغانا - ونيجيريا .

٢ - قلة المراجع التي يشمل هذا الموضوع حتى في اللغة الفرنسية مع أني كنت أتفاءل بوجودها .

٣ - عدم وجود متخصصين بالموضوع بشكل عميق ولكن بحثت عمن ألم بالموضوع أو تخصص في جانب من جوانبه وكان له بحث أو كتاب أو مقالة وأجريت الحوار مع أصحابها .

وأما البحث فقد تكون من مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب ثم خاتمة وملاحق وفهارس .

ففي المقدمة تحدثت عن أهمية الموضوع ومبررات اختياره وتكشف عن المنهج المتبع بالرسالة .

وأما التمهيد فقد تحدثت فيه ما يمهد للدراسة الموضوعية للعناصر الأساسية للمشكلة وذلك ببيان بعض الآراء المختلفة حول تاريخ المنطقة وتغنيد ما يحتاج الى ذلك.

وأما الباب الأول : حالة البلاد قبل المد الاسلامي .

ويشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : تطور نظم الحكم في بلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي .

الفصل الثاني : الحالة الاقتصادية قبل المد الاسلامي .

الفصل الثالث : الحالة الاجتماعية .

الفصل الرابع : الحالة الثقافية .

الفصل الخامس : الحالة الدينية في بلاد غربي أفريقيا .

وأما الباب الثاني : دخول الاسلام في السودان الغربي وانتشاره وآثار العقيدة الاسلامية على سكان المنطقة قديما وحديثا .

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : دخول الاسلام وكيفية دخوله في المنطقة .

الفصل الثاني : انتشار الاسلام في بلاد السودان الغربي .

الفصل الثالث : عوامل انتشار الاسلام في المنطقة .

وأما الباب الثالث : أثر المد الاسلامي في بلاد السودان الغربي .

ويشتمل على مقدمة وفصلين :

المقدمة : عن دور الاسلام في انقاذ/ هذه السلالة من هلاك محقق .

الفصل الأول : أثر الاسلام في المعتقدات والشعائر التعبدية .

الفصل الثاني : أثر الاسلام في المنطقة في النهضة العلمية .

وأما الباب الرابع : التيارات الفكرية المعادية للعقيدة الاسلامية في المنطقة .

ويشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : العلمانية وأثرها على المنطقة .

الفصل الثاني : أهداف الأحزاب السياسية بعد الاستقلال .

الفصل الثالث : الدعوة الى احياء القومية الزنجية .

الفصل الرابع : حركة التنصير .

الفصل الخامس : التيارات الفكرية النابعة من البيئة .

وأما الباب الخامس : موقف المسلمين من التيارات الفكرية المعادية للعقيدة الاسلامية في المنطقة وحركات البعث الاسلامي .

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : حركات البعث الاسلامي .

الفصل الثاني : واقع الدعوة الاسلامية في الوقت الحاضر .

الفصل الثالث : طريق الخلاص .

ثم عملت خاتمة بينت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها ثم أتبعتها بملاحق وفهرس للمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات .

تمہید

التمهيـــــد :

غرب أفريقيا بين تفريط أعدائها وافراط أبنائها (دعاة القومية الزنجية) .

التمهيـــــــد

قبل البدء بدراسة أثر العقيدة الاسلامية في الحياة السودانية (١) ببلاد السودان الغربي ، ومواجهة التيارات الفكرية لها ، يجب أن نلقي أضواء كاشفة على حالة المنطقة قبل دخول الاسلام فيها .. وذلك لنستعرض جزءاً مهمّا من أحوال المجتمع السوداني .. اذ لا يمكننا أن نبرز الدور القيادى الذى حققته العقيدة الاسلامية هناك ، الا اذا عرفنا الأوضاع التي كانت قائمة في المنطقة قبيل بدء الدعوة الاسلامية(من عقيدة وسلوك).

---

(١) قد أطلق العرب القدامى (كلمة السودان) وأرادوا بها أصحاب البشرة السوداء بصفة عامة ، ولكن هذا المصطلح -كما عنّاه العرب- يكاد ينصب على سكان غرب أفريقيا فقط .. لأن للعرب أوصافا أخرى لأصحاب البشرة السوداء في غير هذا الجزء من القارة .. فالاصطخرى - مثلا - يصف بلدان السودان الغربي بأن سكانها ليسوا ب" نوبة " ،ولا ب" زنج "ولا ب"حبشة " ولا من البجة ،لأنهم أشد سوادا من الجميع وأصفى . ويصف التكاررة، أبو الفداء " انهم أشبه الناس بالزنوج " وكذلك فعل ياقوت الحموى وغيره . وهكذا رأينا أن العرب اذا أطلقوا كلمة (السودان) لا ينصب إلاّ على سكان أفريقيا الغربية فقط .. ولكن اطلاق هذه الكلمة على غرب أفريقيا ،قد اختفى بعد الاحتلال الاستعمارى الفرنسي الذى شوه معالم البلاد ،فأطلق هذا الاسم على جزء صغير من المنطقة وهو الجزء المعروف الآن باسم(مالي) فسماه الاستعمار باسم(السودان الفرنسي) ،فلأجل تصحيح هذا الخطأ التاريخي أطلقنا كلمة (السودان الغربي) على سكان غربي أفريقيا كما عناه العرب القدامى ونسير على هذا في هذا البحث ان شاء الله.

===

ثم اننا - من الجانب الآخر - لا يمكننا أن نقف على حقيقة أمر المجتمع الاسلامي المعاصر - الذى يعيش اليوم - في ظلمات التيارات الفكرية هناك ، ومدى استقامته على النهج الاسلامي القويم كما كان مطبقا على عهد الامبراطوريات الاسلامية التي أقيمت هناك قبل أن تطوء المنطقة قدم أوربا ، الا اذا عرفنا الصورة التطبيقية في عهود هذه الامبراطوريات الاسلامية .

لأن هذه الصورة التي طبقت هناك ، هي التي تعرفنا مدى انحراف الناس عن العقيدة الصحيحة ، ومدى تأثرهم بالتيارات الفكرية المعادية للعقيدة الاسلامية والمواجهة لها - في الظروف الراهنة - بكل ثقلها وحيلها ودسائسها .. لذا لا يقتصر حديثنا في هذا البحث على جانب مواجهة التيارات الفكرية للعقيدة الاسلامية فحسب وانما هو بحث شامل لأحوال هذه المنطقة قديما وحديثا ..

لذلك سنبتدىء بالحديث عن حالة المنطقة قبل دخول الاسلام هناك ثم نعقب ذلك بحديث عن أثر العقيدة الاسلامية في المنطقة ، كما نختتم الحديث بذكر التيارات الفكرية المعادية لهذه العقيدة الاسلامية فعلى هذا الاساس يظهر لنا بكل وضوح أن المنطقة قد مرت بأدوار عقدية ثلاثة هي :

=== راجع كتاب صورة الأرض لابن حوقل ، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ص ٩٨ وراجع أيضا دولة مالي الاسلامية ، ابراهيم طرخان ص ٥ ، وأيضا كتاب : العلاقات ، عوض الله ص ٤١ . وكتاب موسوعة التاريخ الاسلامي جـ٦/١٧٠ والحضارة الاسلامية تأليف الدكتور أحمد شلبي الطبعة الثالثة ، ديسمبر ١٩٧٨م القاهرة كلية العلوم .

أولا : العهد القديم الوثني :

وهو يبتدىء منذ الماضي السحيق الموغل في القدم وينتهي بدخول الاسلام في المنطقة في القرن الأول الهجرى الموافق بالقرن السابع الميلادى .[1]

ثانيا : العهد الاسلامي :

فهو يبدأ - كما قلنا من نهاية القرن السابع الميلادى[2] الى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى حيث بدأ الاستعمار يتوغل في المنطقة . ..

ثالثا : العهد الحديث الاستعمارى :

فهو يبدأ من نهاية القرن التاسع عشر الى الوقت الحاضر.[3]

---

(١) راجع كتاب افريقيا تحت أضواء جديدة ، باذل دافيدسن ، قد ذكر أن أول حكومة ظهرت في غرب أفريقيا - كما سنوضح ذلك فيما يأتي كانت في القرن الأول الميلادى إنه بداية تاريخ أفريقية الغربية المعاصرة ص ١٢١ . وراجع كذلك : امبراطورية غانة الاسلامية ، ابراهيم طرخان ص ١١ وراجع كذلك موسوعة التاريخ الاسلامي ١٠٣/٦ للدكتور أحمد شلبي .

(٢) راجع دولة مالي الاسلامية ، طرخان ص ٤٧ .

(٣) راجع كتاب تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، شوقي الجمال ص ٤٧ . وراجع كذلك تاريخ الدول الاسلامية بافريقيا الغربية ، زكي عبد الرحمن - القاهرة ١٩٦١م ص (٢٩-٣٩) . وراجع كذلك داخل افريقيا ، جون جنتر ص ٢٣ . يقول في هذا الكتاب :

===

هذا هو موجز الأدوار التاريخية التي مرت بها المنطقة ، والتي نستمر في بيان تفاصيلها فيما يلي :

فلنبدأ - اذن - بالحديث عن تطور النظم السياسية في المنطقة خلال عهدها القديم الوثني .

وانني في هذه الدراسة التي أتحدث فيها عن أحوال السودان الغربي قبل دخول الاسلام فيها ، لا ألجأ الى الاستطراد التاريخي المجرد ، اذ لا يهمنا السرد التاريخي بقدر ما يهمنا تسليط الأضواء على الحقائق المتعلقة بحقيقة هذه السلالة ، لتكون - في الوقت نفسه - دحضا للافتراءات التي لصقت بهذه الأمة السوداء ، لأنه لا يكاد الانسان يجد على وجه الأرض أمة - فيما نعلم - قد تعرض تاريخها للجدل والأقاويل مثل ما تعرض له تاريخ شعوب أفريقيا السوداء في ماضيها كله . فقد أفرط فيها بعض الناس افراطا فاحشا ، كما فرّط فيها البعض الآخر تفريطا فظيعا . .

فأما الذين أفرطوا فيها ، فهم دعاة القومية الزنجية من أبناء المنطقة نفسها ، أغلبهم من أصحاب الثقافة الغربية ، فهم يدعون - بدون أى سند علمي - بأن سكان المنطقة قد بلغوا ذروة الكمال والسؤدد في

=== " ان الجنس المستعمر بدأ عمله الحاسم في افريقيا سنة ١٨٧٠م واستكمله في سنة ١٨٩٨م ، فعلم أن بداية الاستعمار الحقيقية في غربي افريقيا هي سنة ١٨٩٨م حيث تم القبض على البطل الافريقي (سامورى تورى) الذى قاوم الاستعمار عند احتلاله في المنطقة .

عهدها الوثني ، ولولا مجيء الاسلام على حد زعمهم - بقيادة المرابطين (سنتحدث عنهم فيما يأتي -) الذين وضعوا نهاية لهذه الحضارة الافريقية الأصيلة ، ولولا ذلك - كما يدعون - لكانت المنطقة من أرقى الأمم في العالم ، فيجب - اذن - على أبناء الأمة السوداء - أن يبنوا حياتهم الجديدة بعد استقلالهم من الاستعمار الأوربي على القومية الزنجية وعلى الشخصية الافريقية البعيدة عن جميع المؤثرات الخارجية بما فيها الاسلام . (١) اننا لا نناقشهم هنا وانما نريد أن نثبت فقط حقائق تاريخية .. وأما مناقشتهم فستأتي في صفحات قادمة خاصة الباب الرابع الآتي ..

وأما الذين فرطوا في شأن هذه السلالة السوداء ، فهم بعض الكتاب الأوربيين المتعصبين ، انهم قد أنكروا انكارا تاما أن يكون الانسان الافريقي السوداني فصيلة من فصائل بني آدم . وجعلوا بينه وبين القرود نسبا .. وأشاعوا في أوربا - خلال القرنين : الثامن عشر

---

(١) راجع كتاب " من الزنوجة " تأليف الرئيس السنغالي السابق (ليوبول سيده سنغور) خطاب ألقاه هذا الرئيس الذى يعتبر بحق جد الفكرة الزنجية - في جامعة أمروانيوم (بكونغوكينشاسا) بتاريخ ١٧/يناير ١٩٦٩م ص ٩ ، وفي هذا الكتاب أبدى عن رأيه في اقامة الدول الافريقية الفتية على فكرة الزنوجية (Négretude) فقط أو على الشخصية الافريقية على حساب العقيدة الاسلامية ، وسنتحدث عن هذا ان شاء الله في الباب الرابع من هذا البحث عند الحديث عن قضية الزنوجية تحت عنوان أيديولوجية النخبة الممتازة .

والتاسع عشر الميلاديين [١] - ان الافريقيين السود لم يتبدلوا منذ " عصر القردة " و " عصر الحجر " وأنهم لا يملكون ماضيا تقوم عليه حياتهم الحاضرة .. ولا وسائل ينمون بها ويسيرون الى الأمام ، ولا رجاء في خلاص .. [٢]

هذا هو اعتقاد الكثيرين من الأوربيين - قديما وحديثا - في أهل السودان الغربي ، ونسوا أن هذا الاتجاه - ان كان صحيحا - فهو يرجع الى هذه السنين الطويلة التي قضى فيها الافريقيون في تجارة الرقيق التي كانت تمارسها أوربا في المنطقة ردحا من الزمان . (سنصف ذلك في صفحات قادمة) خاصة في الباب الرابع الآتي ان شاء الله تعالى .

والغريب أن هذا الاتجاه التعصبي ضد الانسان الافريقي ، لم يكن من العوام وحدهم .. وانما كانت هناك اتجاهات بعض الفلاسفة الأوربيين ترى ذلك الرأى أيضا ، لنذكر بعضهم كنموذج :

هذا ، (مونتسكيو) [٣] (١٦٨٩- ١٧٥٥) من أكبر فلاسفة

---

(١) انظر كتاب افريقيا تحت أضواء جديدة ، باذل دفيدسن ، الترجمة العربية ص ١١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٦ .

(٣) ترجمة (مونتسكيو) هو شارل لوى دى سكوندا : (١٦٨٩-١٧٥٥) كاتب وفيلسوف فرنسي . تولى منصب رئيس مجلس النواب في مدينة (بوردو) (Bordeau) يعتبر مؤلفه (الرسائل الفرنسية ١٧٢١) وهو نقد للمجتمع الأوربي ، أروع ما كتب ، ثم كتابه الشهير (روح القوانين) الذى يجبين فيه أشكال الحكومات المختلفة . راجع الموسوعة العربية الميسرة ص ١٧٩٠ . (جزآن) الناشر : دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بيروت لبنان ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

الفكر الفرنسي يقول :

" ان لنا حقا مكتسبا في اتخاذ الزنوج عبيدا ، لأن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها الا أن تستعبد شعوب أفريقيا لكي تستخدمها في استغلال هذه " الأقطار الفسيحة ، فما هذه الشعوب الا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس الى أخمص القدم - ولا يمكن أن نتصور أن الله -جلت قدرته وهو ذو الحكمة السابغة- يضع روحا طيبة في مثل هذا الجسد الحالك السواد ". (١)

هذا هو شأن المتعصبين منهم ، وأما المتوسطون فانهم لا ينكرون انسانية السود لأول وهلة ولكنهم يعتقدون (زورا وبهتانا)بأن السود أقل من البيض (عقلا وفكرا وذكاء) . وليس هنا محل الرد على هذا الزعم الباطل ولكن الحقائق العلمية التي سنراها في الباب الأول بالذات، ستتولى على رده..

ان مثل هذا الاعتقاد المتعصب ،يتمثل في قول كل من الفيلسوفين الأوربيين : (هيوم دافيد) و (ترلوب) .

---

(١) نقلا عن كتاب موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية تأليف الدكتور أحمد شلبي الطبعة الثالثة ديسمبر ١٩٧٨ م . القاهرة كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة ٣١٧/٦ .
وراجع كذلك كتابه : سلسلة مقارنة الأديان . وراجع روح القانون لـ(منتسكيو) .

فأما هيوم فقد صرح قائلا :

" ان الانسان الافريقي لا يملك شيئا من الصناعات والعلوم والفنون" (١)

وأما (ترلوب) (٢) فقد حذا حذو (هيوم) في الانتقاص من الانسان السوداني الا أنه تفوق على (هيوم) بقوله : ان السود مثل القرود تماما ، وعبارته :

" ان الانسان الافريقي الأسود لا يملك شيئا من الحضارة التي يعيشها زميله الانسان الأبيض . فيجب عليه أن يقلده كما يقلد القرد الانسان .. " (٣)

هذه هي اتجاهات بعض الفلاسفة الأوربيين تجاه الانسان الأسود ، ولم يكتفوا بهذه الأقوال الملفقة ، بل جعلوها مادة تدرس في المدارس الافريقية في المنطقة فتشربت الجماهير (جماهير المثقفين بالثقافة الأوربية) تلك الأراجيف .. فاذا بالجيل الجديد - خاصة الذين زاروا بعض المدن الأوربية مثل باريس (Paris) - يستهين بتاريخه القومي وأمجاده الاسلامية التليدة وثقافته الذاتية .. وقد سجل هذه الحقيقة (لوثروب ستودارد) في كتابه القيم : " حاضر العالم الاسلامي " اذ يقول :

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة . المصدر السابق ص ١١٦ .

(٢) ترجمة هيوم : هو هيوم دافيد (Hume) (١٧١١) ، فيلسوف ومؤرخ انجليزى ملحد منشيء الفلسفة الظاهرية التي تنبثق من فلسفتي (لوك وبيركلي) له (محاولات في الادراك البشرى) وتاريخ انكلترا . المنجد ص ٧٣٧ .

(٣) افريقيا تحت أضواء جديدة المصدر نفسه ص ١١٦ .

" ان في غرب أفريقيا أجيالا جددا خاصة الذين تطلق عليهم كلمة (ولوف_ Wolof) ان هوءلاء قاطبة كانوا مسلمين ولا يزالون مسلمين ولكنهم بمجيء شبابهم أثناء الحرب الكبرى الى فرنسا حصلت ثورة في أفكارهم وتساهلوا في الدين .. قال :

ولا نقدر أن نقول أن هذه الثورة الفكرية أفادتهم من الوجهة الأدبية .. كلا .. بل صاروا مدمنين للسكر ، بعد أن كانوا لا يذوقون الأشربة المتخمرة أصلا ولم تقصر هذه الكلمة في سور التعليم القرآنية على شرب الخمر بل تجاوزت الى عدم الصوم في رمضان وترك الصلاة.." (١)

تلك هي المأساة الأليمة التي يعيشها الأفريقيون في غربي افريقيا في الوقت الراهن .

وهكذا هدم المستعمرون بتياراتهم الفكرية المنحرفة الدالة على تعصبهم وجهلهم ، الروح المعنوية في نفوس سكان هذه المنطقة السودانية فوقعوا في حروب نفسية أولا .. وعدم الثقة بالنفس ثانيا وفي الانبهار بالحضارة الأوربية الخلابة المظهر أخيرا .. فكان ذلك أمضى سلاح حارب به المستعمرون العقيدة الاسلامية في المنطقة .

---

(١) راجع كتاب حاضر العالم الاسلامي ،الجزء الأول (لوثروب ستودارد) القاهرة سنة ١٣٤٣هـ المطبعة السلفية ص ٢٩٤ مع تغيير طفيف .

فكان لزاما - علينا - اذن - أن نقوم في هذا الباب الأول بالذات بدراسة شاملة لجميع أحوال هذه السلالة السودانية ، السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية والاجتماعية .. اثباتا للحقائق التاريخية المتصلة بهذا الكيان والتي أنكرها الأوربيون المتعصبون ، وبمقارنة بما أثمرته العقيدة الاسلامية لشعوب المنطقة ليتجلى الفرق الجوهرى بين العهدين : (الوثني والاسلامي) وليتبين لنا أن الاسلام هو الذى طوّر بلاد السودان الغربي خلافا لدعاة القومية الزنجية الذين نفخوا في صورة هذه السلالة السوداء حتى أصبحت أكبر من حجمها الطبيعي .. وقالوا - زورا وبهتانا - ان مجيء الاسلام في المنطقة كان السبب المباشر لتأخر البلاد ماديا ومعنويا .. (١)

ومن ناحية أخرى نقوم بهذه الدراسة الشاملة ، تبصيرا لأهل هذه البقعة التي خصصنا لها هذا البحث بما يكيد لهم أصحاب التيارات الفكرية الهدامة..

واعلاما لأخوتي في الاسلام في كل مكان بحال اخوة لهم في هذا القطاع من العالم الاسلامي .

وسنعتمد في تصوير ذلك - أساسا - على الحقائق العلمية مما سجلها الرحالة (العرب) القدامى .. وما توصلت اليه البحوث الأثرية الحديثة . لتتولى هي وحدها ، الرد على تلك المزاعم المشبوهة ، لا على الأقوال المجردة ولا على المناقشات ، الا ما تقتضيه ضرورة البحث ان شاء الله تعالى ..

---

(١) راجع كتاب من الزنوجة المصدر السابق ص ٢ .

الباب الأول

حالة بلاد السودان الغربي قبل دخول الاسلام فيها وعناصر تكوين هذا المجتمع الافريقي السوداني والأسس التي بنيت عليها الحكومات الأولى في هذه المنطقة

ويشتمل هذا الباب على الفصول التالية :

الفصل الأول	: تطور النظم السياسية في المنطقة .
الفصل الثاني	: الحالة الاقتصادية .
الفصل الثالث	: الحالة الاجتماعية .
الفصل الرابع	: الحالة الثقافيــة .
الفصل الخامس	: الحالة الدينيــة .

مقدمة :

قد تحدثنا في التمهيد الذى قدمناه بين يدى هذا الباب ، عما وقع فيه كثير من الكتاب الأوربيين من التفريط في حق هذه السلالة السوداء ، كما تحدثنا أيضا عن افراط دعاة القومية الزنجية الذين نفخوا في صور الزنوجة حتى أصبحت أكبر من حجمها ، وأنكروا أى فضل للعقيدة الاسلامية على سكان المنطقة ، - فنحن - الآن - بصدد الحديث عن حالة البلاد قبل أن تسطع فيها شمس العقيدة الاسلامية ، لتكون هذه الدراسة بمثابة رد فعل على الطائفتين : (المفرطة والمفرّطة) كما تكون - في الوقت نفسه - تحقيقا للحقائق التاريخية المتعلقة بهذا الكيان المظلوم .. قد ظلمه المفرطون القائلون :

" ان الانسان الافريقي ليس له ماض يبنى عليه حياته الحاضرة ".(١)

كما ظلمه المفرطون الذين بالغوا في شأنها لكي يطمسوا آثار العقيدة الاسلامية في المنطقة .. فكأنهم لم يعرفوا ما كان يعيش فيه سكان هذه المنطقة قبل الاسلام من فوضى في الأعمال والسلوك والأخلاق ، والسياسة والاجتماع والاقتصاد .. وكأنهم لم يبلغ في حسهم أيضا بأن الديانة التي كانت سائدة في هذه المنطقة هي عبادة أرواح السلف والحشرات والأشجار والحيوانات من ثعبان وتمساح ونمر وفهد وأسد وكأنهم لم يكن في علمهم أن عناصر تكوين هذا المجتمع السوداني الأول هي القبلية التي يخضع فيها الانسان لتفكير جماعته وسلطانها والتي طمست فيها شخصية الانسان الافريقي السوداني ، لدرجة أن كيانه

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة ، المصدر السابق ص ١١٦ .
وراجع ما كتبناه .

ووجوده مرتبط بوجود قبيلته وعزها وسيادتها ،ولكن لما سطعت هناك شمس العقيدة الاسلامية اتضحت شخصية الفرد ومقوماته وحددت مسئوليته وواجباته تجاه نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه ..

من هنا يظهر لنا جانب من جوانب أهمية هذا الباب حيث سنرى فيه كيفية تطور النظم السياسية في الفترة السابقة لدخول الاسلام هناك وكيف اتخذت هذه الشعوب الوثنية قاعدة أساسية ، ينبثق منها تصورها الاعتقادى ، ونظم الحكم المطبقة ،وعباداتها و معبوداتها واقتصادياتها وجميع شئونها الاجتماعية ...

*

فلنواجه - اذن - هذه الجولة الواسعة في الصفحات القادمة .. ولكننا - نؤكد - دائما - أننا لا نلجأ - في تصوير هذه المنطقة قبل المد الاسلامي - الى الاستطراد التاريخي المجرد وانما الطريقة التي نسلكها في هذا التصوير ،هي دراسة تاريخ المنطقة ،دراسة موضوعية مقارنة .. نقارن بها بين العهدين (الوثني والاسلامي) ذلك ليتجلى للناس (جميع الناس) أن للمنطقة تاريخا موغلا في القدم ،ولكن الاسلام كان عمادها زمن عظمتها وازدهارها .. خلافا لما يدعيه أهل التيارات الفكرية الأوربية ،ودعاة الزنوجة من المثقفين السود بالثقافة الأوربية ..

الفصل الأول

تطور النظم السياسية في المنطقة

الفصل الأول

تطور النظم السياسية في المنطقة

ان معرفة تطور النظم السياسية قبل المد الاسلامي ،تتطلب منا - بادئ ذي بدء أن نرجع الى دراسة تاريخ المنطقة دراسة عميقة، وذلك لنصل الى الحقائق التالية : (نشوء الحكومة الأولى أولا) ، (الحكام الأولون ثانيا) ، (ونظم الحكم المطبقة أخيرا) .

ولنتحدث عن هذه الأمور بشيء من التفصيل ولنلق الأضواء (أخيرا) على العقيدة الوثنية التي انبثقت عنها تلك النظم السياسية والتي كانت تطبق هناك آنذاك .

*

المبحث الأول

نشـــــوء الحكومة الأولى في بلاد السودان الغربي

يخطئ من يتوهم أن تاريخ الســــــــودان الغربي السياسي يبتدئ - لأول وهلة - بابتداء الاستعمار الأوربي سنة ١٨٩٨[١] كما عني بذلك جل الكتاب الأوربيين .[٢] فسنرى من خلال الحقائـــق العلمية التاريخية التي سنثبتها في هذا البحث والتي لاجدال فيها ،

----

(١) راجع تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ،شوقي الجمال ص(٤٩٩) .

(٢) امبراطورية غانة الاسلامية ،ابراهم طرخان ص (١٠) .

ان هذه المنطقة كان لها - قبل الاحتلال الأوربي للمنطقة - تاريخ عريق حافل بالعظائم ،وكانت فيها ممالك كبيرة وحياة دولية مناسبة للبيئة .. قد تحدث عنها الرحالة العرب القدامى (١) ثم أثبتت ذلك البحوث الأثرية الحديثة التي أجريت في المنطقة (٢) وكل ذلك يشير الى وجود امبراطوريات سودانية عريقة قد لعبت دورا هاما في المنطقة قبل التوغل الاستعمارى الفرنسي (انظر الملحق) رقم (٢) .

الا أن المؤرخين جميعا قد صرحوا بعدم معرفة شيء بدقة عن سكان المنطقة الأولين فان المعلومات المتداولة عن فجر تاريخ المنطقة ليست من الدقة بحيث يمكن الاعتماد عليها (٣) .. لأن سكانها الأول ، لم يتركوا لنا وثائق أوسجلات أوآثارا تدل عليهم .. لذلك لم تدون الأحداث المتصلة بهم ..

---

(١) العبرود يوان المبتدأوالخبر (الجزء السادس والسابع)تأليف ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، وراجع كذلك معراج الصعود الى نيل مجلب السود ، مخطوطة أحمد بابا التمبكتي بجامعة إبادن رقم ٨٢/٢٩٣ .

(٢) افريقيا تحت أضواء جديدة ،باذل دفيدسن ص ١٣٩ .

(٣) راجع : Bernard , A., Afrique Septenrionale Et Occidentale (Gogr, Univ) 1, X 1, p. 428

وراجع كذلك امبراطورية غانة الاسلامية . د/ ابراهيم طرخان ص ١٥ .

وراجع كذلك :

Baumann, And Westermann, D' Les Peuples Et Les Civilisations De L'Afrique p.392.
The People of Southern Nigeria, p. 62.

فكل ما نقله المؤرخون عنهم هو : ان سكان المنطقة كانوا يعيشون هناك منذ الاف السنين في مجتمعات قبلية .. لقد كانت القبيلة آنذاك هي الطابع البارز للحياة فيها بل هي كانت عناصر تكوين هذا المجتمع السوداني . ومن المعروف أن النظام القبلي له سلطانه وقوته ويميل دائما الى التمزق والتعصب والأنانية ،لا للوحدة والتجمع ...

" ثم ان القبائل بأفريقيا ،كانت كثيرة التحركات والتنقلات فلم توجد لها مواطن ثابتة يمكن أن تكون مصدرا للتاريخ ولم تكن الكتابة معروفة عند هذه القبائل .. ومن هنا أصبح تاريخها الموغل في القدم ،مبهما غير واضح ..

يقول (محمود كعت) عن ملوك غانة الأوائل وهوفي القرن السادس عشر الميلادى :

" وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ،ولا يتأتى المؤرخ في هذا اليوم ،أن يأتي بصحة شيء من أمورهم يقطع بها ،ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليها .." (١)

---

(١) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار . بدأ تالفه سنة ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩م - نشره هوداس وزميله . باريس ١٩١٣م(ص ٤٢) تأليف القاضي محمد كعت بن الحاج المتوكل (كعت الكرمنى من علماء القرن السادس عشر الميلادى) في بلاد السودان الغربي ،راجع امبراطورية غانة الاسلامية . المصدر السابق ص (١٠٠) .

وعلى هذا فمحاولة تصوير المنطقة قبل دخول الاسلام فيها ، محاولة شاقة وعمل صعب للغاية .. لذا لم يحدثنا التاريخ عن وجود حدود ثابتة في هذه المنطقة ولا عن قيام حكومة مركزية ثابتة تتجمع في ظلالها تلك القبائل المتفرقة المبعثرة في أنحاء المنطقة هنـــا وهناك .

غير أن هذه المعلومات عن المنطقة تبدأ في الوضوح والدقة منـذ القرن العاشر الميلادى فصاعدا . فمنذ هذا القرن بدأ الرحالـــة (العرب) يزودوننا بمعلومات هامة عن سكان هذه المنطقة وعن الممالك التي قامت فيها . (١)

وقبل قدوم العرب لم يكن يعلم شيء عن افريقيا جنوب الصحراء على وجه الدقة والتفصيل (٢) ، ونحن ندين بكل معلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة الافريقية الى فئة قليلة من المؤلفين (العـــرب) انهم ينقسمون الى قسمين أساسيين :

١ - قسم زار المنطقة وكتب عنهـا عن كَثَبٍ .

٢ - قسم سمع عنها وبحث واستقصى وكتب عنها عن كُتُبٍ .

ودَيننا لكل من القسمين كبير ، فاشاراتهم جميعا هامة تثبت للبحث العلمي . فأما الذين زاروها وكتبوا عنها عن كثب ، فقد أجمع المؤرخون المحققـــون على أنهم ثلاثة .

----

(١) راجع دولة مالي الاسلامية ، د. ابراهيم طرخان ص ١٠.

(٢) الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ، د . زاهر رياض ص ٨٢.

Zakari Dramani-Issofou L'Afrique Dans Les Relations International Au XVI' Siecle p.19.

Binge Du Niger De Guinee (Paris 1892)

Le Chatelies A., L'Islam Dans L'Afrique Occidentale pp. 95, 102

السلالات البشرية في افريقية (الترجمة العربية) تاليف سلجان ص ٥٤.

فهم : أولا : (ابن حوقل).[1]

الذى زار المنطقة في القرن العاشر الميلادى ، وان كان المسعودى أول من كتب عن هذه البلاد ولكن ابن حوقل - باجماع المؤرخين - هو أول مكتشف لها وقصته عن السودان الغربي أول القصص عنها . فقد زار أودغاشت[2] (Odaguecht) وكومبى صالح (Komby) عاصمة غانة . ويقول الدكتور ابراهيم طرخان : " وتعتبر المعلومات التي أوردها ابن حوقل ، أقدم معلومات كتبها عالم عربي مسلم".[3]

وثانيا : (ابن بطوطة).[4]

---

(١) ترجمة ابن حوقل : هو أبو القاسم محمد بن العلي الموصلي - (- ٩٧٧) رحالة وجغرافي عربي جاب العالم الاسلامي من الشرق الى الغرب واستمر في جولاته نحو ثلاثين سنة ، درس مؤلفات من سبقوه . ألف كتاب المسالك والممالك أو (كتاب صورة الأرض) توفي ببغداد ، راجع الموسوعة العربية الميسرة ص ١٤ ،ج/١ .

(٢) ستأتي ترجمة مدينة أودغست وغانة فيما يأتي من صفحات قادمة في ص ٢٣

(٣) دولة مالي الاسلامية . المرجع السابق ص ١١ .

(٤) ترجمة ابن بطوطة : هو محمد بن عبدالله اللواني (١٣٠٤-١٣٧٨) رحالة عربي ولد بطنجة قضى (٢٨) سنة يجوب الأرض شرقا وغربا فقطع مسافة لم يقطعها رحالة في العصور الوسطى قدرت بنحو ١٢٠،٠٠٠ كيلو متر كانت رحلته الأولى للحج سنة ١٣٢٥ هـ ، وبعد الحج زار عدة بلدان ثم قام برحلة ثانية الى الأندلس سنة ١٣٥٠ هـ ثم قام بزيارة بلاد السودان سنة ١٣٥٢ هـ ، وقد ترجمت أجزاء من كتابه الى عدة لغات وأما النص العربي الكامل فقد نشر في القاهرة سنة ١٩٠٤م الموسوعة ص ١١ ،ج/١ . دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، بيروت لبنان .

ويعتبر ابن بطوطة من أكابر الرحالة في العالم وقد قام برحلات كثيرة حول العالم استغرقت أربعة وعشرين عاما /، أو ٢٨ عاما ولكن أهم هذه الرحلات كلها هي رحلته الى بلاد السودان الغربي لأنها مكنته من أن يعطي العالم أول معلومات تفصيلية عن الحالات في قلب الجزء الغربي من أفريقيا أى بلاد السودان الغربي . وقد سجل كل ما رآه في (مالي) في كتابه القيم : (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

وقد قدر ما قطعه ابن بطوطة في أسفاره تلك ب (١٢٠,٠٠٠) كيلو متر . ومات سنة ١٣٦٩م (٧٧٠ هـ) .

وثالثا : (الحسن محمد الوزان) [(١)] ليو الافريقي .

وأما حسن محمد الوزان (ليو الافريقي) فقد زار المنطقة بعد ابن بطوطة أى بعد مضي مائتين سنة تقريبا بحيث أن زيارة ابن بطوطة للمنطقة كانت في القرن الرابع عشر الميلادى ... وأما حسن الوزان فقد زارها في القرن السادس عشر الميلادى ... لذلك استطاع أن يأتي

---

(١) ترجمة الحسن الوزان (ليو الافريقي) هو ابن محمد الزياتي : ت ١٥٥٢ عرف باسم ليو الافريقي ، رحالة مغربي ولد بقرطبة وقع في قبضة قراصنة البندقية الذين أرسلوه رقيقا للبابا ليون (١٠) وقضى في روما عشرين سنة ، ويقال انه تنصر وسمي باسم جومانس ليون ، وهناك كتب وصفا لرحلاته في افريقيا بالعربية ثم أصدره بالايطالية (١٥٢٦م) ثم عاد الزياني الى افريقيا حيث مات بتونس .. وظل كتابه لمدة طويلة المصدر الوحيد عن داخلية افريقيا نشر كتابه باللغة الانجليزية سنة ١٦٠٠ ثم ترجمه الى عدة لغات . راجع المصدر السابق ص ١٩٥٠، ج/٢ .

بمعلومات جديدة لا توجد في كتاب ابن بطوطة وخاصة اذا علمنا أن زيارته كانت في أيام دولة (صنغاى) بينما زار المنطقة ابن بطوطة في أيـام دولة مالي .. لذا لايستغني الباحث بأحدهما عن الآخر ..

هوءلاء الثلاثة هم الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها عن كثب فزودونا بمعلومات قيمة عن بلاد السودان الغربي ،لأنها بنت المشاهدة الشخصية أو البحث الميداني في لغتنا المعاصرة .

وهكذا قد ثبت لدينا تاريخيا أن العرب هم أول من اكتشفوا المنطقة السودانية .. فاذا كان الأمر كذلك يجب قبل أن نتحدث عن بقية الرحالة الذين كتبوا عن المنطقة ولم يزوروها ـ أن نقف قليلا عند حقيقة هامة ، فلطالما أخفاها الأوربيون ـ وكثير ما أخفوا كثيرا من الحقائق التاريخية للشعوب الأخرى ..

ان هذه الحقيقة هي أننا قد عرفنا من خلال هذا التقرير أن أول معلومات كتبت عن بلاد السودان الغربي كانت في القرن العاشر الميلادى ، وأن ابن حوقل كان أول من زارها وكتب عنها عن كثب ثم تتابعت الزيارات لهذه البقعة فمثلا : زارها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادى يعنى بعد ما مضى أربعمائة سنة ، ثم بعد مائتين سنة زارها أيضا حسن الوزان في القرن السادس عشر ،هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ثبت تاريخيا لدى جميع الشعوب والأمم أن البرتغاليين هم الذين قاموا برحلة أولية الى هذه المنطقة وذلك في

القرن الخامس عشر الميلادى [(١)] . وقبل هذا التاريخ كانت أوروبا تجهل قلب افريقيا جهلا تاما بسبب وعورة الصحراء وتحكم المسلمين في مسالكها ودوربها واحتكارهم لعمليات الاتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتجارية . [(٢)]

واذا ثبت كل ذلك في التاريخ ،فكيف تدعى أوروبا الآن ،أن المنطقة كانت غارقة في الوحشية أو هي مملوءة بوحوش بشرية . فلم تكتشف

---

(١) يذكر المؤرخون أن أول من وصل الى بلاد السودان الغربي من الأوربيين هم البرتغاليون وذلك تحت حكم (جون) الثاني الذى كان يرمى الى ايجاد مملكة مسيحية في غرب افريقيا ليتخذها قاعدة يتوغل فيها خلال القارة الى الهند فوصلت سفن (فرناندو-بو) في سنة (١٤٧٥م) الى ساحل غانا .. ومع ذلك لم تستطع أوروبا أن تتوغل في داخل القارة الا بعد مضي أربعمائة سنة من الزمن .. فعندئذ استطاع بعض الرحالة الأوربيين أن يتوغلوا في القرن التاسع عشر كامثال (مانغوبارك - Mango Park) و (رينيه كابييه) (Rene) ومن اقتفى أثرهما .

(٢) وقد اعترف أوروبي بهذا التحكم الاسلامي اذ يقول وهو يذكر ذلك بمعرض الذم : " كان يقوم المسلمون في شمال أفريقيا الذين يصرون على منع " الكافرين " من دخول أراضي السودان ". وهذا الأوربي هو دنيس بولم في كتابه " الحضارات الأفريقية" ص ٩ المصدر السابق .
وكل ذلك يدل دلالة واضحة على أسبقية العرب الى المنطقة قبل أوروبا بزمن بعيد لذلك استطاعوا أن يتحكموا في مسالك المنطقة ودروبها وبرغم وضوح هذه الأدلة المتوفرة ، لم يزل من الأوربيين من يدعي أن أوروبا هي المكتشفة للمنطقة لأول مرة .

الا على أيدى الأوربيين (١) فكان الذى يجب على أوربا أن تعترف بالجميل للمسلمين الذين كتبوا تاريخ هذه المنطقة قبل أوروبا بخمسمائة عام (٥٠٠) . على الأقل (٢).

واستفادت أوروبا في خلال هذه السنين من هذا التراث العربي الاسلامي للقيام بالاحتلال والاستعمار ...

ان الحقيقة التي لا غموض فيها أن أوروبا قد بدأت بجمع معارفها عن بلاد السودان الغربي ، عن هذا التراث الاسلامي ، الذى كان هو العمود الفقرى أو الينبوع الرئيسي لمدرسة الخرائط أو معهد الخرائط الذى قام بجزيرة ميورقة في العصور الوسطى (٣) ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى ، لأن أقدم خريطة في ذلك القرن ترجع الى عام (١٣٣٩م) رسمها العالم الميورقى (انجلينودلكرت Angelino - Dulkert) وأشارت هذه الخريطة الى قلب أفريقيا حيث أظهرت (ملك مالي) (Rex Mali) جالسا

---

(١) راجع الحضارات الافريقية ، تأليف دنيس بولمت : على شاهين . المصدر السابق ص ١٠.

(٢) وبيان ذلك : ان ابن حوقل قد زار هذه البلاد في القرن العاشر ولم يصل هناك الأوربيون الا في القرن الخامس عشر الميلادى ، فتكون الفترة الزمنية بينهما خمس مائة سنة .

(٣) راجع امبراطورية غانة الاسلامية . المصدر السابق ص (١٠-١١) ، تأليف ابراهيم طرخان . قامت هذه المدرسة في جزيرة ميورقة ، بعد أن أطاح المسيحيون في مطلع القرن الثالث عشر بالسيادة الاسلامية التي أقامها المرابطون في تلك الجزيرة وغيرها والفضل في اقامتها يرجع الى ابراهام كرسك (A. Rsques) الذى يعمل منجما في بلاط أراعوانه .

على عرشه في زيه الملكي وعلى رأسه التاج ،وفي يده صولجان الملك وفي يده الأخرى قطعة من الذهب في الملحق (١) (انظر الخريطة ٢) .

تلك هي الحقائق التاريخية العريضة الواضحة التي أخفاها الأوربيون وأبرزوا للناس أن اكتشاف المنطقة لم يكن الا على أيديهم . وذلك مجرد دعوى بدون دليل .

والآن بعد أن عرفنا الثلاثة الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها عن كثب ،حان الأوان أن نتحدث أيضا عن أشهر الرحالة العرب الذين كتبوا عن المنطقة من الجغرافيين والمؤرخين . نذكرهم على حسب القرون التي كتبوا فيها أحاديثهم عن بلاد السودان الغربي ، وهو عمل صعب جدا ولكن سنبذل فيه مجهودنا المحدود بمن الله وكرمه.

أولا - القرن العاشر الميلادى :

ان أهم من كتبوا عن المنطقة في هذا القرن اثنان هما :

١ - ابن حوقل .وقد تحدثنا عنه .

٢ - المسعودى (٢) ، فأهمية المسعودى لنا لا تكمن في اشتراكه في مادتنا فحسب ولكن تأثيره على الكتاب الآخرين الذين ندين لهم ... لكونه أول من كتب عن هذه المنطقة ..

---

(١) راجع دولة مالي الاسلامية للمؤلف نفسه ص ٨٧ ،وراجع البرتغاليون في غرب أفريقيا للمؤلف نفسه ص ١٦.

(٢) ترجمة المسعودى : هو المسعودى أبو الحسن علي بن الحسين ت (٩٥٧)م جغرافي ومؤرخ عربي ،ولد في بغداد ،أمضى شبابه في التجوال فزار فارس وترمان والهند والسيلان ومدغشقر

===

ثانيا - القرن الحادى عشر الميلادى :

لقد شهد القرن الحادى عشر ، ظهور عمل على جانب كبير من الأهمية لطلاب تاريخ بلاد السودان الغربي ، ومؤلفه هو أبو عبيد البكرى واسم الكتاب : " المسالك والممالك " ولكن الجزء الخاص ببلاد السودان الغربي من هذا الكتاب اسمه : " المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ". وهو من أجل الكتب التي فصلت القول عن هذه المنطقة السودانية .

ان هذا الكتاب هو أول محاولة للوصف العام لأحوال تلك البلاد سياسيا واقتصاديا ودينيا وعسكريا واجتماعيا وثقافيا وما الى ذلك .

وقد أخطأ بعض الكتاب الأوربيين مثل (باذل دافيدسن)(١) في اعتقاده أن البكرى قد زار بلاد السودان الغربي وكتب عنها عن كثب مثل ابن حوقل وابن بطوطة والحسن الوزان . والحقيقة ان البكرى

=== ومدغشقر وما وراء النهر واذربيجان وجرجان والشام وأخيرا قصد مصر سنة (٩٥٦) واستقر بالفسطاط وبها توفى .
وضع عشرات الكتب أشهرها : " مروج الذهب ومعادن الجوهر " وهو تاريخ عام يبدأ من بدء الخليقة وينتهي سنة (٩٤٧) وفيه حديث مفيد عن سكان بلاد السودان الغربي حيث تعرض وتحدث عن الأصل/لأصل هذه السلالة السوداء .
راجع الموسوعة العربية الميسرة . المصدر السابق ص ١٧٠٠ بتصرف طفيف .

(١) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ص (121) .

وان كان من أجل من كتبوا في هذا الباب الا أنه لم يزر تلك البلاد . ولكنه اعتمد على وثائق من الدرجة الأولى من الأهمية ولا شك أنها كانت في الأرشيف الرسمي لقرطبة ومات (١٠٩٤) م (٤٨٧هـ) .(١)

ثالثا - القرن الثاني عشر الميلادى :

وشهد النصف الأول من القرن الثاني عشر عملا آخر يعتبر أهم مساهمة في عالم الجغرافيا منذ أيام المسعودى ومؤلفه الادريسي واسم كتابه نزهة المشتاق .
وفي القرن نفسه وجدنا جغرافيا مسلما آخر وقد تحدث عن بلاد السودان وهو (ياقوت الحموى) وعمله يمثل قاموسا جغرافيا عظيما . مات سنة (١٢٠٠م - ٥٩٨ هـ) في كتابه : معجم البلدان .

رابعا - القرن الثالث عشر الميلادى :

لم يشهد العالم الاسلامي في هذا القرن عملا عربيا هاما . الا أن ابن سعيد قد كتب عن بلاد السودان ولكن كتاباته قد فقدت ولم يعثر عليها الا كتابه (بسط الأرض في الطول والعرض) . ومع ذلك اذا حكمنا بكثرة ما أشار اليه أبوالفداء وابن خلدون والقلقشندى ،نعلم أن أعماله كانت على درجة كبيرة من الأهمية ويعتبر فقدها خسارة للعلم. قد مات سنة (١٢٨٦م ٦٨٥هـ) .(٢)

---

(١) الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا تأليف الدكتور زاهر رياض ص ٨٤ وراجع كذلك دولة مالي الاسلامية .

(٢) المرجع السابق .

خامسا - القرن الرابع عشر الميلادى :

وقد كتب عن بلاد السودان الغربي مؤلفون كثيرون منهم : ابن زرع (ت ١٣٢٦م) صاحب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ،وأبو الفداء (ت ١٣٣٢م) والعمرى (ت ١٣٤٨م) ونحن ندين لكتابه مسالك الأبصار بكل ما نعرفه عن الحجة الخالدة التي قام بها منسا موسى ملك مالي .. وابن بطوطة السالف الذكر وابن خلدون (ت ١٤٠٥م) ،وقد تحدث عن بلاد السودان الغربي حديثا قيما جدا .

وبعد هذا القرن أخذت الآداب الاسلامية في الضعف بسرعة لذا لم يحدثنا التاريخ عن جغرافيين اسلاميين في القرن الخامس عشر الأفرادا قلائل .

سادسا - القرن الخامس عشر الميلادى :

ومن أهم مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادى : القلقشندى (ت ١٤١٨م) وغيره .. وكذلك المؤرخ المصرى المقريزى (١٣٦٤-١٤٤٢م) (٧٦٦-٨٤٦هـ) .

سابعا - القرن السادس عشر الميلادى :

ان أهم موءرخي القرن السادس عشر الميلادى ، حسن بن محمد الوزان السالف الذكر [١] . ولم يذكر لنا التاريخ عملا عربيا - بعد الوزان في هذا القرن ، وبتعبير آخر ان الرحالة العرب قد توقفوا عن زيارة هذه المنطقة بعد زيارة الوزان ولكن بالرغم من ذلك فاننا نعتمد أكثر ما يكون على الكتاب السودانيين من أبناء المنطقة السودانية ، لكتابة أكثر التاريخ المتأخر للسودان الغربي وهم كثيرون ولكن أشهرهم ثلاثة :

١ - أحمد بابا التمبكتي .

٢ - ألفع محمود كعت .

٣ - عبد الرحمن السعدى .

وسنتحدث عن كل منهم فيما يلي :

---

(١) ان كتابه (وصف افريقيا) من أجل الكتب في مادتنا الا أن هذا الكتاب قد وقع فيه بعض الأغلاط سنبينها ان شاء الله في مطلع الباب الثاني ولكن ذلك لا ينقص من قيمته العلمية .

ما كتبه السودانيون باللغة العربية

لما بحثنا عما كتب هؤلاء الوطنيون عن تاريخ بلادهم ، خلال البحث الميداني الذى قمنا به لاعداد هذا البحث .. توصلنا الى أن ما كتبه هؤلاء يرجع الى القرن السادس عشر الميلادى فقط وما يليه ، فلعل ما كتبوه ، قد فقد أكثرها ولم يصل الينا ما كتبوه قبل ذلك القرن أولم تكتشف بعد ، الا أننا - ولله الحمد - قد عثرنا على عدد لا بأس به مما كتبه هؤلاء الوطنيون سنذكر أسماء بعضه في الباب الثاني ان شاء الله .

والحقيقة أن من أسباب ضياع هذه المخطوطات السودانية حركة الدمار التي لحقت ببلاد السودان الغربي من الحرب الأهلية التي دارت بين الجارتين المسلمتين (الشمال الافريقي والسودان الغربي) سنة ١٥٩٣م [(١)] . ثم قضى على البقية الباقية الكشف الجغرافي الأوربي المشئوم حيث نقل جل هذه الكتب الى المكاتب الأوربية وخاصة المكتبة الوطنية بباريس التي شاهدت فيها خلال البحث الميداني عددا ضخما من المخطوطات السودانية [(٢)] نقلها المستعمرون خلال حركات الاستعمار الأوربي .

----

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٨٠ . وراجع كذلك : الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء تأليف : جوان جوزيف ، ترجمة مختار السويفي . الناشرون : دارالكتب الاسلامية ، دارالكتاب المصرى . دارالكتاب اللبناني ص (٨٥ - ٨٦) .

(٢) وصلت الى هذه المكتبة بتاريخ ١٨/رجب/١٤٠٥هـ ٨ ابريل ١٩٨٥م حيث صورت عددا من المخطوطات الافريقية منها : تاريخ الفتاش لكعت محمود و تاريخ السودان للسعدى عبد الرحمن .

كتب هؤلاء الوطنيون باللغة العربية ، وظلوا كذلك حتى قضى الاستعمار الأوربي على هذه اللغة وحضارتها وتراثها في تلك الأصقاع.

ان المؤرخين البارزين الذين كتبوا عن بلاد السودان الغربي فهم ثلاثة - كما قلنا - الفع محمود (كعت)(١) وأحمد بابا المتوفى في تنبكت عام ١٦٠٧م(٢) وعبد الرحمن بن عبدالله بن عمران السعدى توفي عام ١٦٥٥م.(٣)

---

(١) (كَعْتِ) بفتح الكاف وسكون العين وكسر تاء) وهو من مواطني تنبكت، عاصر أسكيا الحاج ت (١٥٢٩) م سلطان صنغى الاسلامية وصحبه في الحج الى مكة . وكتابه " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار " بدأ في تأليفه عام ٩٢٥هـ / ١٥١٩م ويتضمن وصفا دقيقا لامبراطورية زمن صنغى الأساكى . وقد أكمله حفيده الى حوادث عام ١٦٠٠م ، وقام غيره بالتذييل عليه وتكملته حتى عام ١٦٦٠م وقد نشره المستشرقان الفرنسيان : (هوداس ودولافوس) في باريس عام ١٩١٣م وترجماه الى اللغة الفرنسية . راجع دولة مالي الاسلامية . المصدر السابق ص١٣.

(٢) هو من أعلام العلماء المؤرخين السودانيين على الاطلاق . وله كتاب " الذيل " قد تعلم على يدى عالم من الماندنجو كان هذا العالم تلميذا لجد أحمد بابا . . وقد عثر الرحالة الدكتور بارت (Berth) خلال رحلته في افريقية (١٨٤٩-١٨٥٥) على مؤلف لأحمد بابا يتحدث عن تاريخ لمملكة صنغى ولم يخف بارت اعجابه بمؤلف أحمد بابا وعلق عليه بأنه أعظم ما يضاف الى معلومات العصر الحديث عن تاريخ البشرية في جانب لم يكن معروفا من قبل (المصدر السابق ص ١٤).

(٣) أما عبد الرحمن السعدى السوداني التنبكتي فله كتاب سماه :

===

هناك موءلفات أخرى كتبها العلماء الافريقيون المتأخرون أمثال عثمان دان فودى [(١)] (ت ١٨١٧م) وابنه بلو محمد بلو وقد نهضت الجامعات الافريقية الحديثة في نيجيريا خاصة (جامعة بايرو) و (جامعة دكار) بالسنغال بجمع هذه المخطوطات الافريقية ، وغيرهما من الموءسسات العلمية في كل من جمهورية مالي وغينيا وغانا الحديثة. وقد رأيت جل هذه المخطوطات في تلك البلدان خلال البحث الميداني السالف الذكر .

ظهور الحكومة الأولى

ان هوءلاء - وغيرهم - هم الذين كتبوا عن تاريخ المنطقة السوداء ، فقد جاء فيما كتب هوءلاء أن سكان المنطقة - بعد تجارب عديدة استطاعوا أن يوءسسوا خلال (القرن الأول الميلادى) دولة قوية كبيرة تعد بحق من أقوى الدول المعاصرة لها . وكانت تعرف باسم امبراطورية غانة (Ghana) [(٢)] ، وقد أشار الى هذا التاريخ المذكور ، عدد من الباحثين من المسلمين والأوربيين ولنذكر بعضهم كنموذج :

يقول باذل دافيدسن (Basil Davidson) مبينا أن سكان غربي أفريقيا كانوا موجودين في أماكنهم تلك ، قبل الميلاد .

=== " تاريخ السودان " انتهى فيه الى حوادث سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥ م وكان كتابه مما عثر عليه بارت في مدينة جواندو عام ١٨٥٣م وقد حققه ونشره المستشرقان الفرنسيان (هوداس وبنوا في باريس ١٨٩٨م . راجع: الممالك الاسلامية في افريقيا الغربية ، د . زاهر الرياض ص ٨٩ .

(١) دولة مالي الاسلامية ، ابراهيم طرخان ، ص ١٤ .

(٢) سيأتي مفهوم كلمة (غانة) في نهاية هذا الفصل .

ولكن التاريخ المحقق لقيام أول دولة ،يرجع الى القرون الاولى لميلاد المسيح وعبارته :

" الثابت الذى لا مرية فيه ، ان الحديد غزا أقاليم السقافا هذه من غرب أفريقيا وصار عنصرا حيويا من عناصر التحضير في القرون القليلة التي سبقت الميلاد وانتقلت في نهاية القرون الاولى من ميلاد المسيح الى أقاليم الغابات في الجنوب من السودان الغربي ثم قال :

" ويعلق الباحثون والعلماء أهمية كبرى على هذا التاريخ .. انها بداية افريقيا المعاصرة .. نؤمن بأنها تاريخ مقبولة معقولة تؤيدها كل الشواهد التي نملك الآن .. وليس هناك ما يدحضها من شاهد ..! (١) "

ويسير الدكتور ابراهيم طرخان على هذا المنوال الا أنه تتبع تطورات هذا التاريخ من القرن الاول الى أن صارت هذه المملكة ذات نفوذ وسطوة اذ يقول :

" وأول حكومة قامت في بلاد السودان الغربي ترجع الى حوالي القرن الاول الميلادى ، ثم صارت ذات بأس وسطوة خلال القرن الرابع الميلادى ". (٢)

---

(١) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ،تأليف باذل دافيدسن . الترجمة العربية ،ترجمة جمال م ،أحمد ص (١٢١) وهو ينقل هذه المعلومات القيمة عن العالم الأثرى الفرنسي المعروف في التاريخ باسم (مونى) .

(٢) امبراطورية غانة الاسلامية . المصدر السابق ص ٢١ .

ويوجز ذلك كل من الدكتور أحمد شلبي (١) والشيخ عوض الله (٢) في الجملة التالية وعبارتهما متقاربتان :

" قد بدأ ظهور دولة غانة في القرن الأول الميلادى ". (٣)

هكذا تضافرت الأدلة بأن أول امبراطورية أقيمت في غربي افريقيا، كانت في القرن الأول الميلادى (٣) ثم استطاع حكامها أن يؤلفوا بين هذه الشعوب المتناثرة وأن يمدوا نفوذهم على تلك المساحات الشاسعة التي نسميها - اليوم - في لغتنا المعاصرة ب (غرب أفريقيا الفرنسية). ويسميها الرحالة (العرب) القدامى ب (بلاد السودان الغربي).

وبعد هذه الأدلة القاطعة على وجود امبراطورية عظيمة في بلاد السودان الغربي قبل الاحتلال الأوربي ، لعل قائلاً يقول :

ما هي هذه الدولة ؟ وما موقعها الجغرافي ، ومن هم حكامها وساستها ، وما هي نظم الحكم المطبقة عندهم ؟ ؟

في الصفحات التالية سيجد القارئ أجوبة على هذه الأسئلة ان شاء الله تعالى ...

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/١٠٢.

(٢) العلاقات . تأليف الشيخ عوض الله . المصدر السابق . ص ٤٢.

(٣) هذا هو التاريخ الذى ظهرت فيه امبراطورية غانة ظهورا واضحا وأما وجودها بالمنطقة فقد سبق ذلك بزمن طويل موغل في القدم . فمثلا قد وجد المنقبون في القبور آلات من الحديد وغيرها يرجع تاريخها الى سنة (٣٠٠) قبل الميلاد . أفاد بذلك (باذل دافيدسن) في كتابه " افريقيا تحت أضواء جديدة ص ١٢٠ ، كما قدر العالم الأثرى (مونى) أن شعوب السودان الغربي كانت تذيب الحديد الخام حوالي سنة ٣٠٠ ق.م . المرجع نفسه ص ١٣١.

ونحن نجيب - بدورنا - على هذه الأسئلة فنقول :

لقد كانت من أوائل الدول التي اكتسبت الصيت والثراء في السودان الغربي ،على هذا العهد ، (غانة) ويسميها بعض الجغرافيين بـ " أرض الذهب " منهم الفزارى .(١)

فهي - باجماع المؤرخين من المسلمين والأوربيين ، هي أقدم امبراطورية أقيمت في بلاد السودان الغربي .. بل هي أقدم ماعرف من تجارب الحكم الوطني الناجح في تلك المنطقة .. وقد استمرت وهي تقود بلاد السودان الغربي بجميع أقاليمها الخمسة (اقليم غانة واقليم مالي واقليم كوكو واقليم تكرور واقليم صوصو) (٢) فترة طويلة من التاريخ قدرها المؤرخون بـ (١٣٠٠) سنة.(٣)

---

(١) ترجمة الفزارى : هو الفزارى (محمد بن ابراهيم) (ت نحو ٧٩٦م) أول فلكي كبير في الاسلام والده ابراهيم أول مسلم صنع (الاسطرلاب) وهو آلة قديمة لقياس ارتفاعات الأجرام السماوية (راجع المنجد ص ٥٢٧ . وراجع أيضا الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ١٤٨) .

(٢) وقد كانت بلاد السودان الغربي تنقسم قبل الاحتلال الأوربي الى هذه الأقاليم الخمسة وبعد ما احتل الأوربيون غيروا أسماء هذه الأقاليم كلها ،فأصبحت هذه الأسماء القديمة على الأجيال المتأخرة غريبة بل صارت عند بعضهم من قبيل الأساطير والخرافات فعلى من يريد أن يتعمق في معرفة هذه الأقاليم أن يطلع على كتاب (العبر) لابن خلدون جـ٦ وعلى كتاب صبح الأعشى جـ ٥ للقلقشندى وكتاب مملكة مالي الاسلامية للدكتور ابراهيم على طرخان .

(٣) ابتداء من القرن الأول الى آخر القرن الثالث عشر الميلاديين حيث قضت مملكة مالي الفتية على البقية الباقية من امبراطورية غانة كما سيأتي تفصيل ذلك في صفحات قادمة ان شاء الله تعالى .

فدل هذا الاستمرار والازدهار طيلة هذه المدة الطويلة على قدرة السودانيين على تنظيم وتدبير شئونهم بأنفسهم ،كما يدل أيضا على بطلان وتفنيد مزاعم الأوربيين الذين أنكروا أن تكون للافريقيين (السود) حضارة وأن يكونوا من فصائل بني آدم ..

كانت غانة في ضمير الغيب السحيق آنذاك ،حتى زارها أول جغرافي عربي مسلم هو (ابن حوقل) في القرن العاشر الميلادى - كما قلنا سابقا - فوصفها وصفا موجزا .. ومضت مائة عام تقريبا قبل أن يكتب عن هذه الدولة الجديدة كاتب يفصل للناس دقائق الحياة فيها والتقدم .. فاذا (بعبدالله بن عبد العزيز) الذى اشتهر بلقبه ،أبي عبيد ، وعرف أكثر بنسبته ،البكرى .. فكتب عن هذه المنطقة ما لا غناء للمؤرخ المحدث عن غرب أفريقيا عنه .. وهو كتاب نفيس (المسالك والممالك) ،وأما الجزء الخاص لغرب أفريقيا فقد سمي بـ (المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب)[(١)] لقد جمع فيه كل ما وصلت اليه يده من وصف دقيق منير (لغانة) ولم يترك حقيقة ذات بال الا وتصدى لها بفكر ذكي ،وكان من حظه أن قرأ كثيرا من سجلات بني أمية في قرطبة قبل أين يقدم على كتابه ..

وأتاحت للبكرى أن يختار لكتابه فرغ منه سنة ١٠٦٧ ما أراد من مادة لم تكن قبل ذلك ميسورة.[(١)]

وصف المؤرخين لمدينة غانة

وقد خلف لنا البكرى وصفا ممتعا للعاصمة يدعو الى الاعجاب يروى أن هذه العاصمة كانت مدينتين تبعد كل منهما عن الأخرى ستة أميال ، مليئة كلها بالسكان وكان في واحدة منهما قصر الملك الذى يسكن فيه .

---

(١) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ، باذل دفيدسن ص ١٣٨.

حيث كان معه موظفو الحكومة وجميع السلك الدبلوماسي .. وبنى في هذه المدينة مسجدا لمن يفد اليه من المسلمين رغم كونه آنذاك وثنيا يعبد الأصنام .

أما المدينة الأخرى فقد كان أهلها مسلمين نزحوا من مصر وشمال افريقيا للدعوة والتجارة وأقاموا بها وبنوا فيها اثنى عشر مسجدا يؤدون فيها الصلاة . وقد وصفهم البكرى بأن منهم من خصص بالأذان ومنهم فقهاء وحملة علم يعلّمون الناس العقيدة الاسلامية وعلوم الاسلام وغيرها كما وصف المدينة بأنها كانت ذات حضارة وغنى ، وقصور وبساتين وبها سجون وغابات يقيم فيها سحرتهم وحراسهم .(١) واليك عبارة البكرى :

" ومدينة غانة مدينتان سهليتان : احداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدها يجمعون فيه ، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم .. وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون للخضروات .. ومدينة الملك (الوثني) على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة .. والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط .. وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور .. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك .

---

(١) راجع (المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب) وهو جزء من كتاب (المسالك والممالك) بغداد : مكتبة المثنى ببغداد ، الصفحة (١٧٥) - بتصرف .

" وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ولتلك الغابات حرس ولا يمكن أحد دخولها ولا معرفة ما فيها وهناك سجون الملك ، فاذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره .." (١)

وكما تحدث البكرى أيضا عن قوة غانة الحربية ، فأفادنا بأن في وسع ملك غانة أن يجند للقتال (٢٠٠,٠٠٠) محارب يحمل ٤٠,٠٠٠ منهم الرماح والعصى ، وعبارته :

" وملك غانة اذا اختفل ينتهي جيشه مائتي ألف منهم رماة أزيد من أربعين ألفا .." (٢) (٣)

هذا ليس البكرى وحده الذى انفرد بوصف هذه المملكة ، فقد وصفها أيضا كثير من المؤرخين والجغرافيين ، فاليك -فيما يلي- بعضا من أقوالهم :

وقد وصف الادريسي عاصمة غانة بكلمات موجزة ولكنها شاملة اذ يقول : " غانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو ،وهي أكبر بلاد السودان

---

(١) المغرب : ص ١٧٥.

(٢) المغرب : ص ١٧٧.

(٣) ان مما يدل دلالة واضحة على قوة غانة كما قال البكرى ان المرابطين (سيأتي الحديث عنهم) الذين حولوا امبراطورية غانة الوثنية الى امبراطورية اسلامية ،لما جاءوا في القرن الحادى عشر الميلادى لفتحها ،قد قضوا أربعة عشر عاما ينازلون جيشها القوى قبل أن يتخلى لهم عن عاصمة البلاد . راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ،دفيدسن ص ١٣٨.

قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا .." (١)

وأضاف قائلا :

" ولهم - أى سكان العاصمة - زوارق يتصيدون فيها و يتصرفون بين المدينتين ". (٢)

وأما ابن الوردى فقد وصفها بأنها كانت سوقا عالمية رائجة ، يقول : " هي مدينتان على ضفتي النيل ، ويقصدها التجار من سائر البلاد ". (٣)

ويقول القلقشندى :

" انها مدينتان على ضفتي نيلها احداهما يسكنه المسلمون ، والثانية يسكنها الكفار ". (٤)

وعن المقريزى :

" وغانة مدينتان : احداهما يسكنها المسلمون والاخرى الكفار". (٥)

ثم اذا كان هناك بعض الاوربيين ، قد أنكروا هذه الحضارة السودانية تعصبا لاوربا ، ولكن المنصفين منهم لم يسايرهم في ذلك التعصب الاعمى .. وانما أعطوا لهذه الحضارة حقها .. فعلى ذلك

---

(١) راجع كتاب نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والافاق (طبع حجر) قطعه منه : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس -ليدن ١٨٦٦م ص ٩ تأليف الادريسي .

(٢) المرجع السابق ص ٢١ .

(٣) تاريخ ابن الوردى زين الدين أبو حفص عمر (ت : ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) لندن ١٨٢٣م ص ٢٥٨ .

(٤) صبح الاعشى ٥/ ٢٨٤ .

(٥) الالمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٢٢ .

نسوق اليك بعض أقوال لهؤلاء الأوربيين المنصفين :

كتب اثنان من المستشرقين (الروس) ،يصفان هذه الامبراطورية الافريقية وعاصمتها بمايلي :

" ... وكذلك الاقليم الواقع بين نهرى النيجر والسنغال كان مقرا لحضارة وحكومة افريقية قديمة .. ففي بداية التاريخ الميلادى قامت في هذا الاقليم مملكة تدعى " أوكار أو غانة " وكانت تعبرها الطرق " التجارية ويقطنها قوم يسمون (السيوننكى Sonike) وعاصمتها القديمة هي كومبى صالح التي تقع أطلالها على بعد (٢٠٥) أميال شمالي باماكو الحالية . والحرف الرئيسية لسكانها الزراعة والرعي .. كما كانت هذه المملكة تسيطر على الذهب والملح حتى لقد اشتهرت في قديم الزمان بأنها بلاد الذهب .."(١)

وقد تحدث أيضا في الموضوع نفسه (المسيو بوشيرج بول الفرنسي) في كتاب صار مقررا على طلاب غربي افريقيا . فوصف هذه العاصمة الغانية بأنها كانت من أجمل عواصم العالم المعاصرة لها كما كان امبراطورها قويا وحازما وفيما يلي ترجمة كلمته :

" ان الامبراطور " غانة " كان رئيسا لأقوى أسرة في مدينة (غانة) وكأن جميع الأفراد في بلاد السودان الغربي يقدمون طاعة واحتراما لهذا الامبراطور .

---

(١) موجز تاريخ افريقيا -سافيلييف وفاسيلييف ص ١٣ تعريب أمين الشريف .

وكان الامبراطور (غانا)يسكن في قصر أطلق عليه اسم الامبراطور (غانا) نفسه .

ولقد كانت مدينة غانة هذه ، من أجمل مدن العالم ، وكانت مبنية بالأحجار وأخشاب السنط . كما كانت ذات شوارع فسيحة حيث يمر - في الأعياد - الأمبراطور مع جنوده وحشد كبير من الخدم .(١)

وبعد هذه التصريحات لننتقل - الآن - الى البحوث الأثرية التي أجريت في المنطقة الآن فأقول مع الاحساس بأن ما ذكرناه من أقوال الرحالة والمؤرخين من العرب والأوربيين ، قد أخذ نصيبه من البحث والدراسة عما وصلت اليه العاصمة الأولى لامبراطورية غانة من الرقي العظيم، فلا يزال أمامي بعض المؤلفات ذات الشأن في هذا المضمار (٢) . فهي تحدد لنا مكان هذه العاصمة على التدقيق . .وكما تتحدث عن نتائج الاكتشافات الأثرية التي أجريت في المنطقة للبحث عن أطلال غانة ، والتي تكشف لنا أيضا عن الأدوات المدفونة في الأرض . . . فلا بأس اذن أن نختصر ما كتبه هؤلاء العلماء الأثريين الأوربيين فيما يلي :

---

(١) Histoire Et Civilisation De L'Afrique Noire M Bouchr, J. Paule P.(29).

(٢) راجع امبراطورية غانة الاسلامية تأليف الدكتور ابراهيم طرخان ص ٢٤

وراجع كذلك :
Shinnie, Margrit Ancient Africa Kingdoms , London 1965.

فنقول : قد كان العالم الأثرى الفرنسي دبلاج (Desplagues)
أول من بدأ بهذه الحفائر في عام (١٩٠٧م) بحثا عن أطلال غانة.
فعثر على أطلال مدينة تدل على أنها مزدهرة ،وقال : ان هذه أطلال
غانة ، وانها كانت تقع على جانبي بحيرة صغيرة ،وَحَدَّدَ مكانَها على بعد
نحو مائتي ميل غربي مدينة جني ونحو (٤٠) ميلا شمال شرقي مدينة
كوليكورو الواقعة شمال باماكو .

ثم بعد سبع سنوات قام حاكم فرنسي اسمه (بوني ميزيير)
(B. Mezieres) كان يعمل في احدى المقاطعات في غرب
أفريقيا سنة (١٩١٤م) قام وحفر في موقع المنطقة المشهورة باسم " الساحل"
جنوبي الصحراء الكبرى ،وعثر (بوني) على ما يقنعه بأن هذا الموقع
كان على الأرجح عاصمة غانة التي وصفها البكرى الذى لم تخذله البحوث
التي أجريت من بعد في الاقليم ".

ثم استأنف البحث توماس ومونى (Thomassy and Mauny)
سنة (١٩٣٩م) في موقع كومبى صالح الذى يقع على (٢٠٥) أميال شمال
مدينة (باماكو) على نهر النيجر . واضطرا الى ايقاف العمل حين ما اندلعت
نيران الحرب العالمية الثانية .

ثم أوضح هذان العالمان بعد عناء طويل أنهما قد وصلا الى آثار
المدينة الاسلامية أو القسم الاسلامي من مدينة غانة .. ودلت هذه الآثار
على أن هذه المدينة كانت زاهرة . قد بلغت (ميلا مربعا) في مساحتها ،
وكان سكانها ما لا يقل عن (٣٠,٠٠٠ نسمة) ان هذا العدد - بلا شك -
عدد ضخم بالنسبة لسكان مدن العالم المعروفة آنذاك .(١)

---

(١) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ،بازل دافيدسن ص ١٤٠.

والذى يظهر -بعد دراسة -ان هذه المدينة الاسلامية ،كانت مركز الحكومة الاسلامية التي قامت في غانة بعد فتح المرابطين لها في القرن الحادى عشر الميلادى .. أى عندما صار ملوك غانة على الاسلام..(١) ولم يعثر -حتى الآن -على مدينة الأمبراطورية الوثنية كما أخبر بذلك البكرى يدل ذلك أيضا على أن المدينة الاسلامية هي التي أصبحت العاصمة الحقيقية بعد الغزو المرابطي لغانة . ولكن الحفر لم يتم بعد .

ان هذه المدينة الاسلامية - كما دلت عليها نتائج البحوث الأثرية - كانت مدينة عظيمة يوما من الأيام ،يشير لهذا مبنيان كبيران ، ضخمان عثر عليهما (توماس) بين المنازل العديدة فيها مسجد (انظرالصورة)في الملحق ٥،٦،٧ فعلق على ذلك بازل دافيدسن اذ يقول :

"يدل هذان المنزلان دلالة واضحة على الترف الذى عرفته تلك المدينة وعلى الحجم الذى لم يكن صغيرا بمقاييس ذلك الزمان في أى مكان".(٢)

كان واحد من المبنيين يبلغ (٦٦) قدما في طوله و (٤٢) قدما في عرضه ، ويتكون من طابقين يربط بينهما درج قوى متقن . وفيه سبع حجرات تفتح كل على أختها المجاورة لها ،أما الثاني فكان أكبر من هذا ،به سبع

---

(١) أمبراطورية غانة ،المصدر السابق ص ٣٤ . وراجع كذلك نعيم قداح ص ٥٤ .
وراجع كذلك :

(٢) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ،المصدر السابق ص ١٤٠ .

حجرات " ولا تزال على جدرانها الداخلية بقايا الطلاء الأصفر.[١]

(انظر الصورة) • =في الملحق رقم ٥ •

ولم يعثر المنقبون - حتى الآن - على شيء من الذهب أو الفضة ،
الا أنهم عثروا على " أشياء أخرى علق عليها (مونى - Mauny) :
" بأنها دليل ناصع على حضارة متقدمة ".[٢]

ومن هذه الأشياء المكتشفة التي أثارت هذا التعليق : رماح وسكاكين ورؤوس حراب ومسامير ،وأدوات زراعية مختلفة • • فدل ذلك على صدق مقالة الزهرى الذى وصف أهل غانة بالتفوق / لأنهم استخدموا الأسلحة الحديدية ،وكان ذلك سبب انتصارهم على الجيران الذين كانوا يحاربون بقضبان من الأبنوس •[٣]

ومن هذه المكتشفات أيضا مخزن كبير به أدوات مصنوعة من الحديد •
فأثار ذلك أيضا تعليق (مارجريت شيني) اذ تقول :
" ان هذه لا بد أنها صنعت محليا ".[٤]

---

(١) افريقيا الغربية • قداح ص ٣٣ •
وراجع كذلك : Ancient African Kingdoms London 1965 p 48. Shinnie

وراجع امبراطورية غانة ص ٣٥ •

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ •

(٣) المصدر السابق ص ٣٦ •

(٤) المصدر السابق ص ٣٦ •
وراجع :

ومن الحقائق المذهلة التي - لولا هذه الحفريات - لا يكاد الانسان أن يصدق بأنها من صنع سكان بلاد السودان الغربي آنذاك ، ما عثروا عليه أيضا من مقص حديدي دقيق الصنع ، وعلقت عليه مارجريت شيني مرة ثانية : " بأنه ربما كان من أقدم ما عثر عليه من هذا النوع في أية دولة ".(١)

وعلاوة على ذلك وجدوا في أطلال غانة (المدنية الاسلامية) هذه ، أشياء تبهر العقول ، من ذلك ، كمية كبيرة من الصنج الزجاجية ، فعلق عليها الدكتور ابراهيم بقوله :

" من الواضح أنها كانت تستخدم في وزن الذهب ".(٢)

كما وجدوا فيها أيضا بقايا كثيرة من الأواني الفخارية ، تحمل طابع البحر المتوسط ، وعثروا على سبع وسبعين قطعة من الحجر الملون منها (٥٣ قطعة أو لوحا) منها مكتوب عليها بعض آيات القرآن الكريم بالخط العربي ، بينما تضم الألواح الباقية وعددها (٤٢ لوحا) زخارف ونقوشا مزينة .(٣)

---

(١) راجع : Shennie p.48
راجع كذلك أمبراطورية غانة ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٣) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ص ١٤١ ولكنه ذكر أن الألواح الباقية وكان عددها ٢٤ لوحا ، وأما د/ طرخان فقد ذكر أن عددها ٤٢ لوحا ولكننا نميل الى ترجيح ما قاله طرخان لأنه كتب بعد كتاب دفيدسن وبعد التحقيقات والمقابلات ، فالله أعلم.

هذا جملة ما ذكره بازل دافيدسن في كتابه القيم (افريقيا تحت أضواء جديدة) ثم مشت على منواله الباحثة " مارغريت شيني " في كتابها : (افريقيا القديمة تكتشف من جديد) .. ولكن العالم الأثرى (Mauni) أضاف الى ذلك أنه كشف عن عدد كبير من المقابر من بينها مقابر ملكية (انظر اللوحات) ولم يتم الحفر بعد في موقع كومبى صالح ، وهذا آخر ما عثر عليه حتى عام ١٩٦٥م ولم يعثر للآن على شيء من آثار مدينة الامبراطور .. مدينة الغابة الوثنية ، أو القسم الوثني من مدينة غانة ، ويبدو أنها قد استوعبتها بمرور الأيام المدينة الاسلامية بعدما تحولت غانة على الاسلام ، وغطت تلك المدينة الوثنية ..

هذا ما أكده الكاتب الأوربي (Panikar) اذ يقول :

" انه يوجد يقين معقول قائم على حقيقة أن كومبي هي البلد الوحيد الذى ورد ذكره في المراجع الوسيط (مراجع الرحالة العرب) ، وأن الأساطير المحلية تربط ما بين كومبي صالح وغانة والخرائب التي عثر عليها في كومبي ذات أهمية كبيرة ، وتعبر عن فن معمارى على جانب كبير من الاتقان وكل ذلك يجعلنا نعتقد أن هذا بالعواصم أشبه ".(١)

ويعلن (موني) على هذه الحقائق العلمية الأثرية بقوله :

" اننا نجهل الكثير عن غربي أفريقيا اليوم ، والغموض ما زال يكتنف السنين التي نشأت فيها دول السودان القديم لكن علمائنا لا يختلفون

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ١٠٣/٦.

في أن العنصرين الأساسيين اللذين دفعا بذلك المجتمع القديم دفعا الى الأمام فاقامة هذه الدولة هما :

" صناعة الحديد ، والتجارة الدولية " (١)

ويؤكد بازل دفيدسن ذلك بقوله :

ولا يسرف من يقول ان بعض هذه الدول فاقت في حضارتها الدول التي عاصرتها في أوربا .. " (٢)

ويعقد (بالمر) (٣) مقابلة بين دول غرب أفريقيا في عهد صلاح الدين (١١٣٧-١١٩٣م) وبين كثير من مدن أوروبا فرأى أن دول غرب أفريقيا آنذاك كانت تتفوق كثيرا على المدن الأوربية اذ يقول :

" كان الغرب المسيحي على هذا العهد باقيا على جهالته ، وفظاظته ، ووحشيته ، بينما حملت الثقافة الاسلامية الشعلة للعصور المقبلة ". (٤)

ويتحدث (دافيدسن) في مكان آخر عن هذه الحضارة السودانية فيصرح بأنه ليس فقط أن هذه الدول كانت مثل التي عاصرتها

----

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة ، بازل دافيدسن ص ١٣٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٢.
(٣) المصدر السابق ص ١٣٢.
(٤) المصدر السابق ص ١٣٤.

في أوربا في الناحية العمرانية وتنظيم المدن ولكنها كانت أيضا مثـل مثيلاتها في الناحية الصناعية والفنية ،وعبارته :

" ان سكان غربي افريقيا كانوا يعرفون المعادن منذ زمن بعيد .. وكان أول ما استعطوه : الذهب والنحاس لأنهما معدنان تسهل اذابتهما وتحويرهما ". (انظر الصورة). في الملحق رقم (٨، ٩)

وقد تحدث أيضا عن هذا التقدم الصناعي والفني في غربي أفريقيا كتاب (Histoire De La'Islam Au 16 Ciecle) هو الذى أجمع على تأليفه عقب استقلال المنطقة من الاستعمار الفرنسي ، جميع وزراء المعارف لدول غربي أفريقيا والطغاش عند المؤتمر الذى عقدوه في باريس سنة (١٩٦١م) فجعلوه في الكتب التاريخية التي تدرس في مدارس تلك البلاد .

وقد ورد فيه وصف طويل للمجتمع الغاني وتقدمه في الناحية الصناعية وغيرها فنحن - بدورنا - نوجز ما ورد فيه .

فقد جاء فيه أن المجتمع الغاني كان يتمتع بكثير من الصناع قد تخصصوا في شتى المجالات : كان فيهم الحدادون الذين يصنعون الأدوات المنزلية والزراعية والأسلحة الحديدية .

وجاء فيه أيضا : قد كان في هذا المجتمع عدد كبير من الصائغين (Orfevres) الذين يصنعون الحلي للرجال والنساء ، لقد أتقنوا هذا الفن اتقانا فائقا أيضا .

وأما فن النحت ،فقد كان لهم اليد الطولى كما أتقنوا أيضا حياكة قماش القطن الذى يزرعونه ، وغير ذلك مما يدل دلالة واضحة على التقدم

الصناعي الذى عرفته تلك المدنية السودانية وعلى الحجم الذى لم يكن صغيرا بمقاييس ذلك الزمان ..» (١)

تلك هي العاصمة الأولى لأول امبراطورية في غربي أفريقيا .. وهذه هي الحقائق العلمية المذهلة التاريخية والأثرية ،والتي تفيد لكل ذى عقل أن سكان غربي أفريقيا لم يكونوا يعيشون في عصرهم " الحجرى " حتى أدركتهم أوربا .. بل ان أوربا قد جهلت في العصور الوسطى قلب أفريقيا جهلا مطبقا تماما ، بسبب وعورة الصحراء وتحكم المسلمين في مسالكها ودروبها واحتكارهم لعمليات الاتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتاريخية .. مع العلم بأن بلاد السودان لم تنقطع صلتها بالعالم الخارجي في أى فترة من فترات التاريخ ، (سنصف ذلك فيما يأتي) .. بل لم تحل الصحراء دون هذا الاتصال غير أن معارف أوربا عن القارة ومحاولة اتصالها بقلب القارة ،لم تبدأ بصورة جدية وملحة الا قرب نهاية العصور الوسطى .. ولكن/بدل ما تعترف أوربا بجهلها راحت تدعي وتكذب بأن داخل أفريقيا ليس فيه الا المستنقعات تزيد نتنا الأمطار التي لا تنقطع .. والازعماء يتاجرون في الرقيق .. مع أنها في ذلك الوقت لم تتعد الساحل في مغامراتها واكتشافاتها ولم تتعمق للداخل .. رغم كل ذلك تقول : - زورا وبهتانا - " ان شعوب افريقيا لا تملك ماضيا تقوم عليه حياتها ،ولا وسائل تنمو بها وتمشى الى الأمام ،لا رجاء في خلاص ". (٢)

---

(١) راجع كتاب : Histoire De L'Islam Au 16 Ciecle P. 86

(٢) افريقيا تحت أضواء جديدة ص ١١٦ ، المصدر السابق .

ولكننا رأينا خلال هذا البحث ظلام هذه الدعاوى الأوربية المشبوهة قد تبددت تحت ضوء هذه الحقائق العلمية التي توصل اليها علماء البحوث الأثرية أخيرا والتي دلت على أن غرب أفريقيا لم تكن - فحسب - تعرف الحديد ولكنها أيضا كانت لديها مصانع عديدة .

" كما أشارت الحقائق العريضة والوثائق العديدة التي جمعت بعد القرن الخامس عشر الى أن الشعوب التي كانت تعيش في العصر الحجرى حتى الاكتشافات الأوربية في القرن الخامس عشر ،كانت الأقزام ورجال الغاب ،في جزر الكنارى وفي جزيرة فرناندوبو ، هؤلاء فقط - وربما بعض الجماعات الصغيرة المتفرقة على القارة - هم الذين لم يخرجوا من العصر الحجرى حين جاءت أوربا لتكتشف وتستعمر ،أما غيرهم مثل سكان غربي أفريقيا فقد كانوا حتى على عهدهم القديم يستعملون الحجارة والعظام وكانوا يستعملون بجانبها المعادن أيضا كما تفعل أوربا المعاصرة لهم ..(1)"

فكما كانت هذه الحقائق العلمية التاريخية والأثرية ردا مقنعا على الدعاوى الأوربية ،فهي أيضا كانت ردا في الوقت نفسه على دعاة الزنوجية في المنطقة في الوقت الحاضر . الذين أخذوا عن أساتذتهم الأوربيين ،أن غرب أفريقيا - لولا الاسلام لكانت من أرقى دول العالم ،ولكن الاسلام هو الذى جعل نهاية لهذه الحضارة الافريقية الأصيلة .. فهذه البحوث الأثرية وغيرها قد دلت دلالة واضحة على أن المدنية الاسلامية هي التي كانت مزدهرة بالصناعة والصنّاع والعلماء وأصحاب الحرف . وليست المدنية الوثنية في غانة ، هي التي بلغت هذا المستوى من الازدهار والتقدم الصناعي كما يدعون .

---

(1) افريقيا تحت أضواء جديدة ص ١١٧ .

فدل ذلك أيضا على أن الاسلام هوالذى طور بلاد السودان لذلك لم يكن جويلي (Gouilly) مخطئا في النص الذى سجله في كتابه حين يقول :

" ان العصر التاريخي لافريقيا السوداء ،لم يبدأ الا منذ ظهور الاسلام وأن بالاسلام ولغته وحضارته ،تقدم السود وتطوروا وبلغوا شأوا كبيرا في المدنية ". (١)

وهكذا كانت بلاد السودان الغربي ذات حضارة ورقي وازدهار ولم تكن في عصرها الحجرى كما تدعي أوروبا .. التي كانت تجهل المناطق الداخلية جهلا مطبقا عندما جاءت لتستعمر وتستغل .

ومع كل ما تقدم من هذه الحقائق العلمية الثابتة ، وجدنا بعض الأجيال المتأخرة التي انبهرت بالحضارة الأوربية تقول : ان كان هذا هو حال غرب افريقيا منذ الماضي السحيق ونصيبها من الحضارة الانسانية. فلماذا لانرى -نحن- أثر هذه الحضارة الافريقية في المنطقة في الوقت الحاضر ؟ وانما نرى الآثار الأوربية فقط من المستشفيات وتعبيد الطرق ولبس البناطلين والكرافات وما أشبه ذلك ؟

فنقول - بدورنا - للاجابة على هذه الأسئلة : يجمل بنا أن نجعل الأوربيين أنفسهم ليتولوا الرد على هذا السؤال ..

---

(١) نقلا عن امبراطورية غانة الاسلامية ص ١٠ وراجع ما كتبناه سابقا ، ليس ذلك من باب التكرار وانما هو من باب التلذذ بالموضوع .

تحدث (W.F. Ward) عن ضياع هذا التقدم الافريقي فرأى أن ذلك راجع الى الرق الذى كانت تمارسه أوربا في المنطقة مدة أربعة قرون [(١)] وعبارته كالتالي :

" انه بسبب تجارة الرقيق أخذ كثير من الفنون والحرف في الاضمحلال والتلاشي فكم من العمال وأصحاب حرف قتلوا في الحروب أو أرسلوا عبر البحار ، وكان تهديد القرى بالحرق والمزارع بالدمار خلال الغارات لصيد العبيد ،من أسباب توقف العمران والزراعة ،فلم يكن في استطاعة المرء أن يعرف مستقبله ومستقبل أسرته الى الغد .." [(١)]

- ويؤكد (David Davidson) أن من أسباب ضياع الحضارة الافريقية الاستعمار .. لأن الاستعمار قطع كل صلة بين افريقية الغربية بعد الاستعمار وافريقية الغربية قبله وأنهى حضارة هؤلاء القوم . وفيما يلي عبارته :

" ان البرتغاليين وجدوا شعوب افريقيا تعيش في ثقة ورخاء ثم وضع البرتغاليون بهمجيتهم نهاية لهذه الحياة .." [(٢)]

----

(١) راجع : History of Africa p.101

وراجع أيضا : Africa p. 20.

(٢) راجع : Re Discovery of Africa p. 125.

نقلا عن موسوعة التاريخ الاسلامي ،المصدر السابق ٦/ ٧٥.

وأما (W.E. Abraham) فيَحمِّل المسيحيةَ المسئولية الكاملة في ضياع الفن الافريقي وصناعته اذ يصرح :

" كان المبشرون مجرمين بما اقترفوه من أعمال التدمير للحضارة الافريقية فقد خيل اليهم أن الأفارقة يعبدون تحفهم الفنية ، فجمعوا منها ما استطاعوا جمعها وأوقدوا فيها النيران ، ولعل من معجزات القدر أن بعضها نجا من هذا المصير الأليم "(١) (انظر الصورة) . في الملحق رقم (١) .

وهكذا اعتقد هؤلاء الباحثون الأوربيون أن هذه التجارة هي السبب في هذا التأخر الشديد الذى انحدر اليه السودان الغربي بعد أن كانت لهم في المنطقة ممالك وأقدمها امبراطورية غانة التي نحن بصدد الحديث عنها الآن ..

حقا ان اتجاههم هذا ليس من خيال وانما يصدقه الواقع الذى تعيش فيه شعوب المنطقة حتى يومنا هذا .. لأن آثار الرق كانت فوق ما يتصور الانسان ، فالحروب التي اشتعلت بين القبائل في كل مكان بهذه المنطقة دمرت كل شيء .. وأوقفت كل نشاط ، فقد عرضت أوربا كل صناعتها مقابل العبيد ، ومن هنا لم تكن هناك حاجة لاقامة صناعات بالمنطقة . وأخذ كثير من الفنون والحرف التي ذكرناها آنفا في الاضمحلال والتلاشي ومن يدرى كم من النساجين ، وعمال المعادن قتلوا في الحروب أو أرسلوا عبر البحار ، ليعملوا في تقطيع قصب السكر في جزر الهند الغربية

---

(١) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي . المصدر السابق ٦/ ٧٥ .

وهكذا لم تترك تجارة الرقيق أثرها في تفسخ المجتمعات الافريقية فحسب، بل انها تركت آثارا نفسية عميقة تبدو في الشك والريبة والحذر بل العداء الذى يكنه الافريقي الزنجي للاوربي ،والذى يطبع علاقته بكل أبيض يقابله ..

ان هذه العداوة التي يكنها الافريقيون ضد الاوربيين حتى اليوم لا ترجع فقط الى هذه التجارة المجردة ولكن الافريقي اذا طالع في الكتب التاريخية التي تعرضت لقصة هذه التجارة لا يستطيع أن يملك نفسه من هذه العداوة ..

فهناك العديد من القصص الأليمة التي تخبرنا عن معاملة الرقيق عند الاوربيين فان كان هذا المكان لا يتسع لذكرها كشاهد ولكننا سنكتفي بذكر ثلاث قصص فقط من هذا النوع .

أ - قد ذكر (دندس) وهو من رجال السلك السياسي البريطاني أن هناك بريطانيا من عائلة مشهورة عريقة ، مزق جسم خادمه الافريقي بالرصاص وقال في سبب ذلك " ان الشقي الاسود قدم اليّ قشدة رديئة مع الكعك ". (١)

ب - وقد ذكر أيضا قصة من هذا النوع تعتبر من المضحكات المبكيات ،أن هناك بريطانيا آخر ظل يضرب بالسوط افريقيا يعمل عنده حتى فقد وعيه ثم مات بعد قليل .. وكان السبب أن البريطاني كلف العبد أن يصحب فرسا الى محطة السكة الحديدية على بعد ثلاثين كيلومترا ،ولكن الافريقي المسكين ركب الفرس فكان جزاؤه الموت ... (٢)

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٤٤ القشدة :القشطة(CRÈME) والكعك هي : (GATEAUX) والواحدة:كعكة

(٢) المرجع السابق .

جـ - هناك نوع آخر من العقوبة ربما كان أشد من الموت كما ذكر ذلك الدكتور أحمد شلبي .. وهي أن السادة الأوربيين الذين كانوا في غرناطة عندما رأوا أن عبيدهم الافريقيين يمتصون قصب السكر، راحوا يعالجون المسألة من جذورها فاقتلعوا أسنانهم .(١)

تلك هي أسباب تدهور البلاد . ومع ذلك نجد بعض الأوربيين يتشدقون ويقولون ان من أسباب انهيار الحضارة الافريقية دخول الاسلام هناك الذى يجيز الرق في تشريعاته .. فنقول : ليس هذا محل مناقشة هذه الخرافة والدعاوى التي لا تستند الى دليل علمي سنناقشها ان شاء الله تعالى في الباب الرابع من هذا البحث حيث نبين موقف الاسلام من الرق . وأما هنا يكفينا أن نقول ان الاسلام عارض الرق معارضة شديدة، وحرر عقل الرقيق وقلبه تحريرا تاما من أول لحظة، ووقف من عبودية الجسم موقفا حاسما .. ضيق المدخل للرق، وأفسح المخرج منه .. كما حدد الرقيق حقوقا عظيمة الى أن يختفي الرق اختفاء نهائيا ، فكل من درس الاسلام دراسة حقيقية يعرف ذلك ، وأما هذه الصورة من تجارة الرقيق التي مارستها أوربا حوالي أربعة قرون ابتداء من السنة (١٤٣٤)(٢) الى سنة (١٨٥٠)(٣) فلا يعرفها الاسلام ولا يجيزها بحال من الأحوال وانما هي بضاعة أوربية بحتة وسبب مباشر من أسباب تدهور الحضارة الافريقية ...

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ، المرجع السابق ٦/٤٤٢.

(٢) المرجع السابق ٦/٤٣٥.

(٣) المرجع السابق ٦/٤٤٦.

وبعد هذه الجولة التي رأينا فيها كيف نشأت الامبراطورية الأولى في غرب افريقيا ، وعرفنا أن أسباب تدهور هذه الحضارة يرجع بادئ ذي بدء الى هذه التجارة البشرية البشعة التي كانت تمارسها أوربا في المنطقة ، يجمل بنا أن نتحدث عن العلاقة بين جمهورية غانا الحالية وبين غانة التاريخية القديمة . وقبل هذا يجمل بنا أن نلقي الأضواء على مفهوم لفظة غانة أولا . ـ

مفهوم لفظة غانة

وأما معنى لفظة غانة (Ghana) في لغة السو نتكى (Sonike) فهو (القائد العسكرى)[١] هذا يوافق ما قاله البكرى من أن كلمة غانة كانت (سمة لملوكهم)[٢] .. ثم اتسع هذا المدلول فأطلق على العاصمة التي يعيش فيها الملوك ،وقد أشار الى هذا المدلول (ياقوت الحموى) اذ يقول : " غانة مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان ..."[٣] ثم قال : " غانة كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركا من العربية "[٤].

ثم تطور مدلولها مرة ثالثة ،فصارت علما على المملكة كلها ،مع بقائها علما على العاصمة ،كما تطلق الجزائر على القطر وعلى العاصمة ،.. وكلمة الشام عند السوريين ،تطلق على القطر وعلى دمشق ،ومصر عند المصريين تطلق أيضا على العاصمة وعلى القطر ..

ولهذا يتحدث القلقشندى[٥] والمقريزى[٦] عن هذه الكلمة بهذين المعنيين وعبارتهما واحدة تقريبا هي : " ومدينة غانة محل سلطان غانة ".

---

(١) نعيم القداح ،افريقية الغربية في ظل الاسلام ص ١٠٣ بتغيير طفيف.

(٢) أبو عبيد البكرى ،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٧٤.

(٣) ياقوت الحموى معجم البلدان ٣/ ٧٧٠.

(٤) المرجع السابق مادة غانة.

(٥) القلقشندى ،صبح الأعشى ٥/ ٢٨٤.

(٦) المقريزى ،الالمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الاسلام ص ٢٢ ، وانظر كذلك ابن الفقيه ،كتاب البلدان (ص ص ٢٨ ،٨٧).

ومشى على هذا المنوال على بن سعيد [(١)] اذ يقول : " ومدينة غانة على ضفتي النيل (يقصد النيجر) وبها يحل سلطان بلاد غانة ".

كان هذا لمحة سريعة عما قيل في مفهوم لفظة غامة [(٢)] .

فلنتحدث - اذن - عن العلاقة بين غانة القديمة وغانا الحديثة .

*

العلاقة بين غانة القديمة وغانا الحديثـــة [(٣)]

بعدما انتهينا من معرفة الامبراطورية الأولى التي أقيمت في غـــرب أفريقيا والتي سميت بغانـة ، يجمل بنا أن نتحدث عن العلاقة بين هذه (غانة) القديمة وغانا الحديثة وغينيا . وذلك لكثرة السؤال عن العلاقة بينهمـــا وبين هاتين الكلمتين .

أولا - جمهورية غانا الحديثة :

اذا نظرنا الى الأرض ،سنجد أن ليست هناك أية علاقة بينهمـــا على الاطلاق .. بل يوجد بين البقعتين ،ألف ميل ..

----

(١) راجع ابن سعيد ، بسط الأرض في الطول والعرض ص (٢٤) .

(٢) بهذا التقرير يعلم أن قول (جوى - Gouilly) الفرنسي بأن المراد بغانة هي مدينة (ولاتا) قول مرجوح ولا دليل عليه ذكر ذلك في كتابه : L'Islam dans L'Afrique Occidentale Francaise p. 50.

(٣) قد حرص أبوعبيد البكرى ،الجغرافي العربي الأندلسي الكبيـــر وهويتكلم عن أمبراطورية (غانة) على أن يكتب (غانة) بتـــاء مربوطة في آخرها .. وأما الكتاب المعاصرون فقد كتبوا جمهورية (غانا)الحديثة بألف لينة بعد النون. لذا اتخذنا في هذا البحث هذه الطريقة للتفرقة بين غانة القديمة وغانا الحديثة ..

وبيان ذلك : ان غانا الحديثة لم تكن - قط - جزءاً من امبراطورية غانة القديمه التي كان أهلها من قبائل / السونيكى وهي فرع من شعب الماندنجو

ولم يثبت تاريخيا أن السونتكي أو الماندنجو سكنو غانا الحديثة أبدا !

واذا كان الأمر كذلك ،فلماذا كان الاتحاد في الاسم ؟؟ وقد أجيب عن هذا السؤال بجوابين :

أحدهما : أن شعب الأكان (Akan) الذين يسكنون غانا الحديثة قد تلقوا الكثير من حضارة غانة القديمة التي كانت قد انتشرت خارج حدودها .. وقد جاء الأكانيون من منحنى النيجر بهذه الحضارة وعاشوا في الأرض التي تقوم عليها غانا الحديثة ،وهذا هو السبب الذى من أجله غيرت حكومة ساحل الذهب بقيادة الدكتور (نكروما) ،اسمها فجعلته (غانا) بعد الاستقلال من نير الاستعمار الانجليزى سنة (١٩٥٧م) وذلك لأنها نظرة (١) الى غانة القديمة ، باعتبارها أصل حضارتهم الأفريقية .

ثانيهما : التفسير النفسي للتاريخ :

اننا لا نستبعد أن يكون لهذه التسمية مغزى دينياً .. فان غانة القديمة لم تكن مسلمة عدة قرون مع انتشار الاسلام حولها ،كما أن الكثيرين من الزعماء الافريقيين الذين اقترحوا هذه التسمية الجديدة لساحل الذهب لم يكونوا مسلمين مثل كوني نكروما و(ليبول سيده - سنغور) رئيس السنغال السابق وغيرهما .. مع أن الاسلام كان منتشرا حولهم ...

---

(١) هذا هو رأى كاتب انجليزى اسمه : (W. Warv) في كتابه :
History of Africa 46-47.

نقلا عن موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ١١٥.

فكأنهم أرادوا أن يعودوا بالتاريخ الى الوراء وأن يعدوا دولتهم امتدادا للدولة التي لم تستجب للاسلام فترة طويلة مع انتشاره حولها وانبثاقه في بعض جوانبها .. وهذا هو التفسير النفسي للتاريخ .. فان النفسية لهؤلاء الزعماء الأفارقة ترجمت في هذا التصرف الذى نراه -بحق- التفسير الدقيق لتسمية دولة باسم دولة أخرى لا تربطها بها أرض أو سكان.
هناك أمران يؤكدان ما قلناه :

١ - ان هذين الزعيمين : (كوامي نكروما وسنغور) هما اللذان أسسا القومية الزنجية في غرب أفريقيا عقب استقلال بلادهما .. وقد صرحا أنهما يريدان أن تقوم افريقيا الغربية على فكرة القومية الزنجية ،لا على أية فكرة خارجة من وراء القارة الافريقية سواء كانت دينية أو غيرها [(١)] .. ان هذا الاتجاه وحده يؤكد توكيدا جازما على ما أثبتناه هنا..

٢ - والذى يوضح ما أثبتناه هنا بل يؤكده ،ما قام به المسلمون أيضا زعماء جمهورية مالي الحديثة بعد الاستقلال ، من تسمية دولتهم (السودان الغرنسي) باسم (مالي) التفاتا الى امبراطورية (مالي) الاسلامية القديمة لتكون (مالى) الحديثة امتدادا للدولة التي استجابت للاسلام وهي (مالى) القديمة [(٢)] فترجمت انفعالاتهم التي في نفوسهم

---

(١) ويقصدون بالدينية الاسلام بصفة خاصة وراجع الكتاب الذى ألفه سنغور لبيان رأيه فيه والذى سماه : (من الزنوجة) المصدر السابق ص ٢ وراجع ما كتبناه سابقا.أى في التمهيد ص ٦١.

(٢) راجع دولة مالي الاسلامية ،الدكتور ابراهيم طرخان ص١٧٧ وراجع كذلك موسوعة التاريخ الاسلامي ،المصدر السابق ص١١٩.

هذا التفسير أى ان امبراطورية (مالي القديمة) قد قامت مسلمة وكذلك الحال ان مالي الحديثة تقوم مسلمة مع انتشار الكفر حول كل منهما ففسروا التاريخ بما في نفوسهم .. فكان ذلك أيضا من التفسير النفسي للتاريخ .

وبعبارة أخرى : " ان مالي الحديثة أخذت اسم مالي القديمة ، بعد الاستقلال احياء للمجد القديم ".

من هنا علمنا - علما يقينيا - أن غانا الحديثة سميت ب " غانا " التفاتا الى غانة القديمة لأن كلا منهما تنتسب الى الكفر والوثنية .. وكذلك الحال في مالي القديمة والحديثة ، فكل واحدة منهما تنتمي الى الاسلام .. فكان ذلك هو ما اعتبرناه التفسير النفسي للتاريخ .

ثانيا - العلاقة بين غانة القديمة وجمهورية غينيا :

أمامنا مصدر هام (١) قد تحدث عن هذا الموضوع بحديث مستفيض فنحن نقتطف منه مايلي :

ان لفظة (غينيا) ليست الا محرفة عن اسم (غانة القديمة) ، التقط البرتغاليون هذا الاسم من المغرب فأطلقوه على منطقة غرب أفريقيا بكاملها لذا نسبوا الخليج الذى يسكن فيه الدول الساحلية الى هذه الكلمة فقالوا : (خليج غينيا Le Golfe De Guinee).

---

(١) وهو كتاب الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب تأليف الدكتور زاهر رياض ص ١٥٥.

وذلك أن البربر - بدورهم - كانوا يطلقون اسم غينيا على الزنوج (السودان) كلهم حتى كان في مراكش (بوابة) في القرن الثامن عشر سمى بوابة غينيا أى (بوابة أهل السودان) وهو اسم ظل موجودا حتى انتهاء الملكية الحديثة.

ثم أطلق الفرنسيون عند احتلالهم لغربي أفريقيا هذا الاسم على المنطقة المعروفة باسم (غينيا الفرنسية) (١).

هناك فكرة طريفة يحسن بنا أن نضيفها الى هذا الموضوع وهي مصدر كلمة (الجنيه)..

يفيدنا الدكتور زاهر رياض : أن الجنيه الذهبي البريطاني سمى بهذا الاسم لأنه صك أولا في ١٦٦٢م من ذهب استورد من غرب افريقيا بواسطة الشركة الافريقية لتجارة لندن.." (٢)

كما أفادنا بأن هذه المعلومات القيمة قد أرسلها اليه رئيس الكتاب بالشركة البريطانية عند اعداد كتابه " الممالك الاسلامية في غرب أفريقيا ".. (٣)

ثم انتشرت هذه الكلمة (جينه) في لغات مختلفة مثل : (الجنيه البريطاني) و (الجنيه المصرى) ونحو ذلك.

---

(١) الدكتور زاهر رياض ، الممالك الاسلامية ص ١٥٥.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٥.
(٣) المرجع السابق ص ١٥٥.

بذلك نكون قد قدمنا صورة حية للامبراطورية الاولى لغرب أفريقيا المتمثلة في امبراطورية غانة - التي كانت سمة على ملوكها أولا ثم أطلقت على العاصمة ثانيا ثم أطلقت على المملكة بكاملها التي دامت قرابة (١٣٠٠ سنة) .. ثم حرف بعض الناس الكلمة الى (غينيا) .. ولكن الفرنسيين كعادتهم في اخفاء الحقائق التاريخية للشعوب ، نسبوا هذه الكلمة الى أنفسهم فقالوا في ذلك : " غينيا الفرنسية ".

كما رأينا أيضا ، أن تسمية غانا الحديثة باسم غانة القديمة كان تفسيرا نفسيا للتاريخ لان كلا من الدولتين عاشا في أغلب حياتهما في الكفر مع انتشار الاسلام حول كل منهما .. فمجرد هذه التسمية فسرت لنا ما في نفوس هوءلاء الذين قاموا بهذه التسمية .

كما رأينا أخيرا أن الجنيه الذهبي البريطاني كلمة مشتقة من كلمة (غينيا) أى (غرب أفريقيا) التي كانت تمتاز بكثرة ذهبها (١) .. ثم أصبحت الكلمة شائعة ومستعملة .

وبعد هذه الجولة في محيط التعريف بأول دولة أقيمت في غرب أفريقيا ، حان الاوان أن ننتقل الى الحديث عن حكام هذه الامبراطورية الاولى وساستها الذين قاموا بادارة هذه الحكومة السودانية الاولى في فجر تاريخها .. ونقوم بذلك تحقيقا للحقائق التاريخية ودحضا للغزو الفكرى القائل بأن شعوب افريقيا ليس لهم تاريخ يبنون عليه حياتهم بل ادعى أنهم ليسوا من ذرية آدم عليه السلام أيضا !!!

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٥ .

المبحث الثانـــي

الحكام الأوائل لامبراطورية غرب أفريقيا

لقد اختلف الباحثون في شأن هؤلاء الحكام الأوائل الى عـــدة آراء ، ولكننا نستطيع أن نجمل هذه الآراء في أمرين اثنين لهما أهميتهما الكبيرة :

أ - في تعيين جنسيتهم .

ب - في تعيين الطائفة التي ينتمون اليها .

أ - أما جل الكتاب باللغة الفرنسية (من الفرنسيين أنفسهم والافريقيين) الذين تثقفوا بالثقافة الفرنسية ، فقد أيدوا كون هؤلاء الحكام الأوائل من السود فجعلوا هذه الفكرة من المعلومات الأساسية التي تدرس في مادة التاريخ الأفريقي بغربي أفريقيا ، فأوضحوا " أن الامبراطور الأول في هذه المنطقة كان من الأسرة القوية الغانية السودانية ، وكان جميـــع السودانيين ، يدينون له بالولاء ويقدمون له كل الاحترام ، لكونه ملك الجميع.

وقالوا انه كان هو (غانـة الامبراطور) كان يسكـن في قصر ضخـــم سمي باسمه (غانـة)... (١)

---

(١) اليك النص باللغة الفرنسية نقلا حرفيا :-

" Ghana Etait Le Chef De La Puissance Famille De Ghana, Et Chacun De Noirs Du Soudan Respectait Ghana Son roi. Ghana Habitait Un Grand Palait Au Quel On Avais Donné Son Nom: Ghana ."
Voir : L'Histoire Et Civilisation De L'Afrique Noire. Boucher J. Paul. p. 29.

هذا ما تركه المستعمرون للافريقيين في جميع الكتب التاريخية وكانوا يدبرون من وراء هذه الفكرة غزوا فكريا شرسا .. كانوا يريدون أن يبثوا في أذهان الافريقيين أن غرب افريقيا قامت بقوتها الذاتية منذ الماضي السحيق بدون أن تتأثر بأية مؤثرات خارجية. ولكن المسلمين - بقيادة المرابطين هم الذين وضعوا نهاية لهذه المدنية السودانية الأصيلة في القرن الحادى عشر من ميلاد المسيح [(١)] كما قلنا سابقا.

وأن المسلمين - لم يقدموا شيئا لافريقيا - جنوب الصحراء - الا الدمار والويلات فأنكروا ما قدمه الاسلام من حضارة وعلم للافريقيين - سنصف ذلك - (في الباب الثاني ان شاء الله) ، بل نسبوا الى الاستعمار الغربي أنه وضع بذور الحضارة بالقارة السوداء وأن كل ما بدت بها هناك من "ديمقراطية" وما أدراك ما الديمقراطية وعلم نظم اجتماعية انما كان بفضل الدول المستعمرة. فمثلا يقول (جون جنتر) المتعصب لأوربا : [(٢)]

" ان الأوربيين قد يكونوا نهبوا القارة ولكنهم قد أدخلوا الحضارة اليها كذلك .. الواقع أن الاستعمار هو الذى مهد السبيل الى الوعي القومي الذى يسود اليوم . كما شق الطريق أمام قيام الديمقراطية .. لقد أبطل الأوربيون الرق كما أنهوا حروب القبائل وأنشأوا المواصلات ورفعوا مستويات المعيشة ونموا الموارد الطبيعية وأدخلوا أساليب الزراعة الفنية وحاربوا الملاريا والأ [(٣)] وبئة الأخرى وأوجدوا الرقابة الصحية . ومنحوا السكان

---

(١) ـــ من الزنوجة . المصدر السابق .

(٢) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ٦ / ٧٣ .

(٣) يسمى أيضا : بيروبلازما الخيل (أو ملاريا الخيل) مرض يصيب الغصيلة الخيلية . سببه الاصابة بدويبة تعرف بالبابيزيا .
راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ٤٦٢ .

الأصليين الموظين في تأخرهم نظما تقوم -نظريا على الأقل - على العدالة واحترام القانون وأن يكون هذا القانون هو قانون الرجل الأبيض بطبيعة الحال . . .

وأضاف قائلا :

" وأكثر من ذلك فقد أدخلوا المسيحية والتعليم الغربي ". (١)

هذه هي (بذرة التيارات الفكرية الهدامة) التي غزت بها أوربا سكان هذه المنطقة . . انها لما أرادت محاربة العقيدة الاسلامية ،أفهمت الأفريقيين أولا أنه قد كانت لهم امبراطورية قوية اسمها " غانة " قد أقامها الوطنيون لأول وهلة بدون تدخل أجنبي/ . . بعد ما أنكروا أنسابهم في البداية ثم سارت شوطا آخر فقالت ان هذه الامبراطورية الافريقية العظيمة ما صارت متدهورة منهارة الا بسبب غزو المسلمين لها و هم الذين جعلوا نهاية لهذه الامبراطورية و ذلك لتجعل الشحناء بين الأفارقة والاسلام فان كنتم - على حد زعمها - تريدون المجد والسؤدد فحاولوا اعادة هذا المجد المسلوب بانشاء (قومية زنجية) صرفة فاذا .(بول سيده سنغور) وكوامى نكروما يرفعان هذه الراية وما عرفا ان ذلك في الحقيقة نتيجة لكونهما مدفوعين من قبل المستعمرين - سنوضح ذلك ان شاء الله في الباب الرابع (٢) . . ثم سارت فرنسا شوطا ثالثا ،فأعلنت أن كل ما يدب بأرض أفريقيا من حضارة وعقيدة وعدالة واحترام القانون ، فمرد كل ذلك الى الرجل الأبيض الأوربي .

---

(١) راجع داخل أفريقيا ،جون جنتر ، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ،القاهرة نيويورك ١/ ٢٤ .

(٢) في الباب الرابع سيجد القارئ بيانا لقضية الزنوجة ان شاء الله تعالى .

وهكذا أنكرت الحضارتين : (الافريقية والاسلامية معا) فأسست سياسة قدعرفت في التاريخ بسياسة الامتصاص أو الاستيعاب ،وهذا ماأشار اليه شوقي الجمال اذ يقول :

" وقد ظلت السياسة الفرنسية في المستعمرات الأفريقية لوقت قريب (١) قائمة على أساس تجاهل الحضارات الأفريقية والتقاليد والعادات الوطنية وكانت سياسة (الامتصاص) (٢) أو الاستيعاب التي رسمت تقوم على أساس القضاء على هذه الصلات التي تربط الأفريقيين بماضيهم وبأوطانهم ..(٣)

هكذا وضعت فرنسا بذور الغزو الفكرى بغربي افريقيا ،الاأننا لسنا في حاجة -هنا- أن نناقش هذه الأراجيف - سنتحدث عنها فيما بعد - وانما نريد فقط هنا أن نقول بأن الآراء قد اختلفت حول (الحكام الأوائل في أول امبراطورية) بأفريقيا الغربية .فادعى بعض الأوربيين أنهم سودانيون في الأصل . وذلك ليصلوا الى الغزو الفكرى الشرس على النحو الذى ذكرنا آنفا ..

---

(١) راجع تاريخ افريقيا واستعمارها ، شوقي الجمال ص ٥٤١.

(٢) كلمة الامتصاص : معناها محاولة لجعل الفرنسيين يمتصون الوطنيين ويجعلونهم ينسون أصلهم الافريقي . هذا ما قاله شوقي الجمال في المرجع السابق ص٥٢٧ .
وأما الدكتورزاهر رياض قد ترجم الكلمة بلفظ (المطابقة) بمعنى أنها محاولة لجعل هؤلاء الافريقيين صورة طبق الأصل من الفرنسيين . انظر استعمار افريقيا ،زاهر رياض (١٩٦٥) ص ٣٢١.

(٣) سنتحدث -ان شاء الله تعالى -عن هذه السياسة في صفحات قادمة من هذه الرسالة . وخاصة في الباب الرابع عند الحديث عن اليد الخفية في غرب أفريقيا .

ولكن الباحثين الآخرين والمؤرخين الاسلاميين القدامى لهم آراء أخرى تخالف ما اتجه اليه الأوربيون . فهم يرون أن هؤلاء الحكام كانوا جماعة من البيض هم الذين اعتلوا على عرش هذه الامبراطورية الأولى أول مرة ثم بمرور الأيام استطاع السود أن يطردوا هؤلاء الأجانب ليديروا بلادهم بأنفسهم.

وقد ناقش الامام الفقيه محمود كعت هذا الموضوع مناقشة هادئة فلا بأس أن نذكر هنا خلاصة هذه المناقشة .. يقول :

" وقد اختلف أى قبيلة هم كانوا فيها ؟ قيل من و(عكرى) وقيل من (ونكر) وهو ضعيف لا يصح ..

ثم قال :

" وقيل من الصنهاجة ،وهو أقرب عندى ،لأنهم يقولون في نسبهم (أسكع) والأصح أنهم ليسوا من السودانيين والله أعلم.. " (١)

وهكذا رجح الفقيه محمود كعت المؤرخ السوداني في القرن السادس عشر الميلادى أن هؤلاء الحكام ليسوا من السود ولكنهم من البيض واستدل على ذلك بوجود كلمة (أسكع) في نسب هؤلاء الحكام فهذا شيء مقطوع به أنه لا يوجد في نسب السودانيين أبدا وانما يستعمل في اللغة الصنهاجية فقط بالاتفاق ...

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٤٢.

وأما المؤرخ عبد الرحمن السعدى المؤرخ السوداني الآخر في القرن نفسه فقد وافق محمود كعت ، في كونهم من البيض الا أنه صرح انه لا يعرف أصلهم من البيض فهذا نص كلمته :

" وأول سلطان في تلك الجهة هو قيمغ ،ودار امارة غانة وهي مدينة عظيمة من أرض باغن (Bagana) - قيل ان سلطتهم كانت قبل البعثة إثنين وعشرين ملكا وبعد البعثة ملكها اثنان وعشرون ملكا وهم بيضان في الأصل .

ثم قال :

" ولا نعرف أصلهم وخدامهم عكريون ". (١)

وهكذا اتفق الباحثان السودانيان على كونهم من البيض الا أن محمود كعت رجح كونهم من الصنهاجة وأما عبد الرحمن السعدى فهو يقول : أنه لا يعرف أصلهم.

ب - وأما الطائفة التي كانوا ينتمون اليها فقد اختلف فيها الباحثون أيضا .. فيرى (Wingfield) أن أصلهم الأول جاءوا من بلاد فارس (٢) وهو قول بلا أى سند علمي كما ترى ..

ويتجه بعضهم الى عدهم من اليهود الذين هاجروا الى هذه المناطق عقب تدمير الامبراطور (تيطس) للمعبد وطرد اليهود من فلسطين سنة (٧٠ م).

---

(١) تاريخ السودان ص ٩.

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي . المصدر السابق ٦/ ٤٠.

ولكن (Panikar) الذى روى هذه القصة رد عليهـا بشدة ويقرر أنه لا يوجد شيء في التاريخ يمكن أن يحمل المرء على الاعتقاد بأن اليهود قد تحركوا جنوبا الى الصحراء الكبرى الى ما هو أبعد من مصر والمغرب لأن الجيوش الرومانية نفسها لم تتجه للتغلغل في هذه الجهات (جنوب الصحراء) ثم قال ان اليهود لو جاءوا الى هذه المناطق لتركوا بها أى أثر لليهودية وهو شيء مقطوع بأنه لم يحصل .[1]

وبعد هذا الاستعراض نستطيع أن نقرر مايلي :

- ان كونهم من البيضان (البربر) هو القول الراجح لدينا وذلك للأدلة الآتية :

أ - صلة قرابة البربر ببلاد السودان الغربي قديمة[2] ، فقضية اختلاطهم بالسود شيء لا يختلف فيه اثنان لأنه واقع وملموس ولم يزل أحفادهم موجودين في غرب أفريقيا - حتى الآن ، يعرفون بالطوارق الذين يسكنون الآن في مالي الحديثة وغيرها .

ب - ان التبادل التجارى وحده الذى اعترف به جميع المؤرخين بين الجهتين (المغربية والسودانية) يقوى هذا الترجيح .

جـ - ان أهل غانة السودانيين أنفسهم ، يقولون : ان أسرة بربرية كانت تحكم في بلادهم منذ زمن بعيد ".[3][4]

---

(١) الدكتور أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٤٠-٤١ .
(٢) راجع الشعوب والسلالات الافريقية ، تأليف د . محمد عوض محمد ص ٣٥٣ .
(٣) دنيس بولم (Denis Polume) الحضارات الافريقية ص ٦٩ .
(٤) الموسوعة المرجع السابق ص ٤٠ .

فهذه الأدلة كافية في كون الحكام الأوائل من البيض (البربر) وليسوا من السود ولا من اليهود ولا الفرس .

وأقوى من كل ذلك ترجيح الاماميـن : (محمود كعت وعبد الرحمن السعدى) لهذه المسألة اللذان كانا مؤرخي امبراطورية صنغاى في القرن السادس عشر وقد اعترف بما كتباه جميع المعاصرين لهما والذين جاءوا من بعدهما ..

*

سياسة المنطقة بين البربر والسونيكي

من الثابت - تاريخيا - كما رأينا آنفا - أن الحكام البيض من البربر ، قد وفدوا من الشمال الى الجنوب وهم من قبيلة الصنهاجة البربرية ، فقد كانوا يعرفون ما في هذه المنطقة من ثراء من الناحية الزراعية والمعدنية وخاصة مناهج الذهب التي كانت تحت سيطرة المجتمع السوداني ". (١)

فاستطاع هؤلاء البيض أن يفرضوا أنفسهم حكاما سياسيين حوالي القرن الأول الميلادى - كما قلنا - على السودان ، سكان هذه المناطق الذين سكنوها منذ زمن موغل في القدم ، الذين ينتمون الى قبائل السونيكي وهي احدى فروع قبيلة الماندنجو ..

ومع مرور الأيام ، تم الامتزاج بين البربر والسودان بطريق المصاهرة فاندمجت القلة البربرية في الأكثرية السودانية ، فنشأ جيل جديد ينتسب الى قبيلة السونيكي .. وله دربة البربر ومهارتهم ..

---

(١) موسوعة ٦/ ١٠٤ .

ثم استطاع هذا الجيل من السوننكي السود أن يستولى على زمام الحكم في غرب أفريقيا ابتداء من القرن الثامن الميلادى أى سنة (٧٧٠م)(١) وبهذا التاريخ بدأت صفحة جديدة من تاريخ المنطقة حيث انتهت حكومة البيض من البربر الذين قضوا على عرش غرب أفريقية قرابة ثمانية قرون (ابتداء من القرن الأول الميلادى الى سنة (٧٧٠م) فآلت الحكم الى أبناء المنطقة ليتولوا سياسة بلادهم بعدالة وعطف لأن سياسة هؤلاء الحكام (البيض) كما ذكرها المؤرخون - كانت مبنية على القهر والقمع والارهاب ، ولم تكن فيها أدنى رحمة على المواطنين السود بل كانت تتسم بالظلم والطغيان حيث كانوا يعتبرون الوطنيين السود مجموعة من الوحوش الضارية ،لذا قام أهل البلاد الشرعيين بثورة عاتية ضد هؤلاء الدخلاء المغتصبين المستعمرين فقتلوهم شر قتلة ،بحيث لم يكتفوا بهذا التقتيل المرير ، بل عمدوا من شدة غضبة الجماهير الى شق بطون النساء ليقتلوا الأجنة .

وقد صور لنا المؤرخ السوداني هذا المصير المشين بقوله :

" ثم أفنى الله - البيض - وسلط أراذلهم (السود) على كبرائهم من قومهم .. فقتلوا جميع ملوكهم حتى صاروا يبقرون بطون نسائهم ويخرجون الأجنة ويقتلونهم .." (٢)

هكذا كان مصير الحكام البيض في غرب أفريقيا . ثم يذكر لنا المؤرخون أن أعضاء الأسرة الهاربة من البيض قد اتجهوا الى بلاد تكرور (في السنغال الحالية) حيث اختلطوا بالتكاررة فأصبحت جلودهم أشبه شيء بالزنوج ..

---

(١) أمبراطورية غانة ص (٢٦).

(٢) محمود كعت ،تاريخ الفتاش ص ٤٢.

فغرضوا نغوذ هم أيضا على هوءلاء التكاررة ثم طردهم التكاررة من أراضيهم خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، يقرر الدكتور ابراهيم طرخان :
ان هوءلاء البيض هم الذين اشتهروا فيما بعد باسم (الفولانيين) [١] المنتشرين في جميع أنحاء غرب أفريقيا وخاصة مالي وغينيا وفولتا العليا والنيجر ونيجيريا وساحل العاج والسنغال ،فأغلبهم يعملون برعي الغنم والبقر .

---

(١) امبراطورية غانة الاسلامية ص ٢٧ .

الميلاد الجديد لسياسة غرب أفريقيا

(من سنة ٧٧٠ - ١٢٣٤ م)

قد رأينا - فيما مضى - آنفا أن سياسة الحكم في غرب أفريقيا كانت بأيدى البيض من البربر ورأينا كيف صار مصيرهم والآن نحن بصدد الحديث عن الميلاد الجديد لسياسة غرب أفريقيا التي انتقلت الى أيدى أبناء المنطقة (السود) ..

وقد اتفق المؤرخون أن حكام غانة الجدد من أبناء غرب أفريقيا (السود) كانوا أقوى من أسلافهم البيض اذ عملوا على توسيع حدود ملكهم وقد اتسع ملك غانة ونفوذها في عهدهم حتى أصبحت امبراطوريتهم تشمل المساحات الواقعة بين وادى النيجر والمحيط الأطلسي غربا وبين وادى السودس والصحراء الكبرى الموريتانية شمالا ومنابع النيجر والضفة اليمنى لنهر السنغال جنوبا ..

ولم يكتف نفوذ هؤلاء الحكام الجدد ببسط نفوذهم على أرض السودان فحسب ، بل امتد نفوذهم الى الصحراء .. الى مدينة أودغست (١)

---

(١) أودغست لا وجود لها اليوم ، ولكنها كانت تقع بحسب رواية البكرى على بعد مسيرة نحو شهرين من سجلماسة وخمسة عشر يوما من عاصمة غانة ، ومكانها الآن مدينة تجداربت وتقع ضمن جمهورية موريتانيا وقد اكتشفت أطلالها أخيرا في أيام الرئيس الموريتاني الأول محمد ولد داده وحضر هذا الاحتفال جميع الدبلوماسيين المسلمين في أنوكشاط ... راجع امبراطورية غانة ص ٢٩١ مع تغييرات طفيفة.

سيأتي مزيد - ان شاء الله - في صفحة (٢٣١) بما يتعلق بهذه المدينة (أودغشت) .

سنة ٩٩٠ الميلادية (محلها الآن مدينة تجداوست في موريتانيا) وكانت أودغست عاصمة امبراطورية اسلامية سادتها من البربر ، ووضع حكـــام غانـة عليها حاكما سوننكيا أسود .. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت أودغست خاضعة للسودانيين و تدفع لهم الجزية حتى منتصف القرن الحادى عشر تقريبا .. (١)

وقد خضعت لهم بلدان كثيرة منها مدينة ولاته وأنباره وكوغـــه والوكن وسامة ... وبهذا اصبحت امبراطورية غانة بأيدى أبناء غرب أفريقيا السياسيين أعظم قوة سياسية في السودان الغربي بحيث انها كانت صاحبة السيادة والنفوذ في جميع بلاد غرب أفريقيا .

وخلاصة القول ان امبراطورية غانة تحت سيادة السودانييـــــــن امتدت من ناحية الشمال وخضع لها أغلب قبائل الصحراء الجنوبية وربمـا وصلت غزواتها الى منطقة (آدرار) كما امتدت غربا الى أعالي السنغال وحدود مملكة تكرور كما امتدت شرقا الى قرب تمبكت ، وجنوبا الى أعالـي النيجر وأعالي السنغال وكما امتدت الى منطقة الغابات الاستوائية بحيث اقتربت من مواطن الوثنيين المعروفين في كتب الرحالة العرب باســـم الكفار (اللملمية) (Lem - Lem).

---

(١) راجـع المغرب ص ١٥٩ وراجع كذلك الشنقيطي : الوسيط ص ٤٣٧ وراجع تقويم البلدان ص ٧٢-٧٣ لأبي الغداء .

وقد أشار الى ذلك المؤرخ السوداني ألفع محمود كعت الى قوة ونفوذ امبراطورية غانة وسعة أملاكها في عهد هؤلاء الحكام السودانيين فذكر أن امبراطورية مالي - وارثة غانة - لم يستقم أمرها " الا بعد انقراض دولة كيمغ سلطان المغرب كله بلا استثناء وكل ما فيه وسلطان مالى من عبيده وخدمه ووزرائه ".(١)

وأكد هذا التصريح المسعودى بقوله :

" وتحت يد ملك غانة عدة ملوك وممالك ".(٢)

هكذا ظلت الأسرة السولنكية الجديدة تحكم أمبراطورية غانة حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى باستثناء الفترة التي استولى فيهما المرابطون على العاصمة عام (١٠٧٦-١٠٨٧).(٢) وتقدر باحدى عشر سنة.

وهكذا كانت غرب أفريقيا ذات حضارة وسيادة وصاحبة تاريخ موغل في القدم... فلنتحدث - اذن - عن نظم الحكم المطبقة آنذاك .

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٤٢.
وراجع نزهة المشتاق ،الادريسي ص ١٤ وقداح ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) المسعودى : أخبار الزمان ومن ابادة الحدثان وعجائب البلدان ورقة ٣٩/أ.

المبحث الثالث

نظم الحكم المطبقة في بلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي

اذا تتبعنا نظم الحكم التي كانت مطبقة في المنطقة سنجدها نظما ملكية استبدادية (١) ،بلا أوراق ولا حبر ولا مكاتب . . فكلها أجهزة تعتمد على موظفيهم يُعَيِّنُهُم الملك وفق رغباته الخاصة . . يُعيَّنون ويُنَقَلون ويرقون ويُفْصَلون طبقا لرغباته السامية . ." (٢)

وكانت تكفي - كما ذكر ذلك المؤلفان الأوربيان (رولاند أوليفر وجون فيج) - مجرد ايماءة من رأسه المقدس أو كلمة من فمه المقدس لتعبر عن هذه الرغبة وكان يدور في فلك الملك كوكبة من الموظفين يزيدون أو يقلون طبقا لحالة الدولة الاقتصادية . . . ولهم صبغتهم الرسمية في الدولة.

وكان على رأس الادارة في تلك العهود الوثنية عدد قليل من الرؤساء ذوى المكانة السامية في الدولة ،وعادة كانوا يبلغون في عددهم أربعة رؤساء". (٣)

---

(١) امبراطورية غانة الاسلامية . المصدر السابق ص (٥٧)

(٢) موجز تاريخ أفريقيا تأليف (رولاند أوليفر ،وجون فيج) ترجمة الدكتور دولت أحمد صادق والدكتور محمد السيد غلاب ص ٤٨.

(٣) المرجع السابق ص ٤٨ بتصرف .

ومن هؤلاء الرؤساء ينحدر هرم الادارة من رؤساء الأقاليم والمقاطعات التابعة لحكومة الكهنة يختارون من خدم وأبناء وأحفاد هؤلاء الرؤساء بعد أن يتلقوا تعليما خاصا في القصور الملكية. ولقد كان الغرض الرئيسي من هذه الادارة هو جمع الاتاوات والهدايا للملك والحاشية وكذلك لجمع " مواد " البذخ المختلفة كالنساء والمواد الغذائية والمواد التجارية النادرة كالذهب (١) والعاج والجلود والنحاس والملح والكولا ، كما كانت التجارة الخارجية احتكارا ملكيا باستمرار .

وقد خلف لنا البكرى وصفا ممتعا لتقاليد الحكم في البلاط الوثني في امبراطورية غانة الوثنية وقد ذكر أن الملك الوثني خاصة (تنكامنين) المعاصر للبكرى في القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى - حين يجلس على الايوان لفصل القضاء تحف به خيول تكسوها حلل مذهبة . ويقف وراءه عشرة من الأتباع يحمل كل منهم درعا وسيفا مقبضه من ذهب ويقف على يمينه أبناء الأمراء في امبراطوريته .. عليهم ملابس رائعة وشعورهم مضفورة بالذهب .. ويجلس عامل المدينة تحت أقدام الملك ، وحوله وزرائه

---

(١) امبراطورية غانة . المصدر السابق ص ٦٨ .
واجع كذلك موسوعة التاريخ الاسلامي ص ١٩٥ . المرجع السابق .
واجع كذلك نزهة المشتاق ٦-٧ الادريسي .
واجع كذلك تاريخ ابن الوردى ، زين الدين أبو حفص عمر ص ١٥٨ .
واجع كذلك كتاب صورة الأرض ، ابن حوقل ص ٩٨ .
واجع الممالك الاسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب .
د . زاهر رياض ص ١٠٨ .

كلهم جالسون جلسته وتحرس مدخل المقصورة التي يجلس فيها الملك يسمع المظالم ،كلاب قوية أصيلة لا تغادر مكان الملك وفي أعناقها قلائد من ذهب أو فضة وتبدأ جلسة العرش هذه بالدق على طبلة يضعونها من قطعة خشب طويلة يجوفونها وتسمى عندهم (بالدبا Douba)

واليك -فيما يلي - نص البكرى :

" وهو - أى ملك غانة الوثني - يجلس للناس والمظالم في قبة وحوله عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراءه عشرة من الغلمان يحملون الجحف[1] والسيوف، المحلاة بالذهب ،وعن يمينه أولاد ملوك بلده - أى ملوك الأقاليم والولايات الخاضعة له - قد ضفروا رؤوسهم على الذهب ،وعليهم الثياب الرفيعة ووالي المدينة - أى حاكم أو محافظ العاصمة بين يدى الملك جالس على الأرض ، وحواليه الوزراء جلوسا على الأرض ،وعلى باب القبة كلاب منسوبة - أى أصيلة - لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه ،في أعناقها سواجير[2] الذهب والفضة ،يكون في الساجور عدد رمانات الذهب /والفضة ،وهم ينذرون بجلوسه بطبل يقال له : " دبا " وهو خشبة طويلة منقورة ، فيجتمع الناس فاذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له ..."[3]

وهكذا كان الملوك في تلك الفترة السابقة لدخول الاسلام هناك يقدم لهم فروض الولاء والطاعة المطلقة كما كانت تنسب اليهم مصادر القوى الكهنوتية المقدسة .

---

(١) الجحف بفتح الجيم والحاء جمع جحفة وهو الترس المأخوذ من جلود وليس فيه خشب (المختار - القاموس المحيط) .

(٢) الساجور خشبة تجعل في عنق الكلب ويقال كلب مسوجر (المختار القاموس المحيط) واما (دابا) بلغة السوننك ، طبول ولا زالت تعرف بهذا الاسم هناك.

(٣) راجع البكرى ص : ١٧٥-١٧٦.

وقد كان الملك بعيدا عن العامة الذين يتعامل معهم من وراء حجاب خاص ولا يراه أخلص خلصائه الا نادرا .. ربما فقط عندما يتناول غدائه أو شرابه .. (١)

وفي آخر كل عام يقوم الملك بتقليب أول رقعة من أجل الزراعة كما يبذر أول كمية من الحبوب في الأرض . وتعتمد خصوبة الأرض وانتظام الغيث على ارادته الطبيعية . (٢)

وقد قدم لنا البكرى صورة حية عن أحوال الملوك في تلك الفترة الوثنية فذكر ما يتعلق بقداسة الملوك المطلقة . وذكر أيضا ما يتعلق بمصادر تشريعاتهم والأسس التي بنيت عليها هذه الامبراطورية وعبارته :

" وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم .. وفيها دكاكير (والدكور هو الصنم) و قبور ملوكهم ..

" ولتلك الغابات حرس ،ولا يمكن أحد دخولها ولا معرفة ما فيها .. وهناك سجون الملك .. فاذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره ". (٣)

هكذا أوضح البكرى أن الوثنيين في بلاد السودان الغربي كانوا يقدسون الملك الى حد التأليه .. وكانت الأسس التي بنوا عليها حياتهم هي الوثنية واستمداد الأحكام من أقوال أسلافهم ومن السحرة ، ولم يزالوا

---

(١) المغرب ص ١٧٦.

(٢) موجز التاريخ . افريقيا . المصدر السابق ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق بتصرف .

(٤) المغرب ص ١٧٥.

على ذلك حتى دخلت العقيدة الاسلامية بنورانياتها وتشريعاتها العادلة وثقافاتها الفذة فصار الملوك الوثنيون يختارون الوزراء وأصحاب المال من المسلمين من أبناء السودان الذين اعتنقوا الاسلام أو المسلمين الوافدين من مصر والشمال الافريقي كما أفاد بذلك البكرى (١) .

ولما تحول ملوك غانة الى اعتناق الاسلام في القرن الحادى عشر الميلادى بعد الغزو المرابطي (سنتحدث عنه (٢)) نبذوا وراء ظهورهم جميع الأنظمة الوثنية وليس أدل على ذلك شيء مما حكاه الادريسي من أحوال ملك غانة المسلم والذى كان يحكم خلال القرن الثاني عشر الميلادى وبنى قصره في سنة ٥١٠ هـ - ١١١٦م) اذ يقول :

وهو - أى ملك غانة المسلم - أعدل الناس فيما يحكى عنه ، ومن سيرته قربه من الناس وعدله فيهم ، له جملة قواد يركبون الى قصره كل يوم ، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه ، فاذا اجتمع اليه جميع قواده ، ركب وسار يقدمهم ويمشى في أزقة المدينة وداير البلد ، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له ، فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضى مظلمته ، ثم يرجع الى قصره ، ويتفرق قواده فاذا كان بعد العصر ، وسكن حر الشمس وركب مرة ثانية ، وخرج وحوله أجناده ... وركوبه في كل يوم مرتين سيرة معلومة .." (٣)

---

(١) المغرب ص ١٧٤ .

(٢) المرابطون قصتهم مذكورة في الباب الثاني الاتي في صفحة ٢٦٩ .

(٣) نزهة المشتاق ص ٧ .

بهذه المقارنة البسيطة أدركنا جانبا من جوانب التغيير الجذرى العميق الذى أحدثته العقيدة الاسلامية في نفوس المؤمنين في هذه المنطقة.. بالأمس رأينا ملك غانة الوثني يجلس في قبة لايستطيع أحد أن يقترب منه من الرعايا . فماذا حدث بين عشية وضحاها حتى تغيرت سيرته فبدأ يقترب من الناس ويوصف بالعدالة وحسن توزيع الثروة العامة .

نعم حدث هنا شيء عظيم! وهو العقيدة الاسلامية التي اذ باشرت بشاشتها القلوب تتغير ، وتغير ما حولها ،لذلك لما امتلأ قلب هذا الملك بالعقيدة الاسلامية تغيرت حياته من أساسها / عن حياة الملوك الوثنيين الذين سبقوه وارتفعت روحه وسمت نفسه واتسعت مداركه وتطهرت أخلاقه وتحولت نمط حياته من حياة البذخ الى حياة الرحمة والعطف على الرعايا ،حتى كان من سيرته الجديدة أن يخرج مرتين في كل يوم ليقضي بين الناس وهم في عقر دارهم . ولم يبالغ الرحالة الفرنسي منجوبارك حين أعلن بقوله :

" لقد عمل الاسلام على تطوير بلاد الزنوج ولا يزال يعمل ".(١)

وبعد هذه المقارنة ،لنرجع الى البكرى مرة أخرى ليصف لنا ماذا كان الحكم الملكي في قضية اللباس في هذا المجتمع الوثني في الفترة السابقة على المد الاسلامي .

فيصرح البكرى بأن هذا المجتمع الوثني كان مجتمعا طبقيا ،فقد حكم حكام هذه المنطقة أن يكون هناك فرقا أساسيا بين ما يلبسه الملوك وما تلبسه العامة ،فمنعوا العوام من لباس المخيط والذى جعلوه خاصا

---

(١) دولة مالي الاسلامية . المصدر السابق ص ٠٦

للملوك وأولياء العهد .. يقول البكرى :

" ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده وهو ابن أخته .. ويلبس سائر سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم .."(١)

ثم بين البكرى أن الملك كان يشترك مع شعبه في شيء واحد وهو حلق لحاهم . فقال :

" وهم أجمع يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رؤوسهن "(٢)

وأضاف قائلا :

" وملكهم يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة ،عليها عمايم القطن الرفيعة ..."(٣)

وهكذا كان المجتمع الوثني قبل انتشار الاسلام مجتمعا استبداديا طبقيا .. حيث كان للملوك لبسة خاصة ولسائر الناس كذلك...

---

(١) المقرب ص (١٧٥).

(٢)(٣) المصدر السابق ص (١٧٥) وقد دل هذا النص على أن حلق اللحية لم يكن معروفا عند المسلمين سواء في الأندلس الذى كان يعيش فيه (الكاتب أبو عبيد البكرى) أو في السودان الغربي الذى بدأ الاسلام ينتشر فيه لذلك استغرب من ذلك أبو عبيد البكرى وجعله أمرا شاذا .. وهو كذلك لأن تربية اللحية من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام و من تركه فقد خالف الرسول صلى الله عليه وسلم لورود الأحاديث الكثيرة في شأنها فلا يتسع المكان لذكرها لقوله صلى الله عليه وسلم " خالفوا اليهود واعفوا اللحى و قصوا الشوارب أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

هذا ما كان في شأن نظم الحكم المطبقة في بلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي . واليك فيما يلي ألوانا أخرى من تقاليد الحكم عندهم قبل المد الاسلامي وهي ثلاثة أنواع :

أولا - توريث الحكم في المجتمع الوثني الأفريقي قبل انتشار الاسلام .

اذا بحثنا عن توريث الحكم في هذا المجتمع الوثني سنجد أن هناك صورا كثيرة تتعلق بذلك ولكننا سنتحدث عن أشهرها التي لم يزل لها تأثيرها في المنطقة الى اليوم ..

١ - نظام توريث ابن الأخت.
٢ - نظام وراثة الحكم وقصة الثعبان.
٣ - نظام وراثة الكرسي عند قبائل أشا نتى الوثنية .

واليك -فيما يأتي شرحا موجزا لكل منها :

١ - نظام توريث ابن الأخت :

و من محاسن العقيدة الاسلامية على سكان هذه المنطقة نظام الميراث الرباني الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه من لدن حكيم عليم. فقد انتشرت العقيدة الاسلامية فوجد الناس يمارسون صورا شتى بالنسبة لنظام الميراث وبالأخص نظام توريث الحكم .. و من ضمن هذه الصور التي حاربتها العقيدة في المنطقة نظام توريث ابن الأخت الميراث كله بما فيه الملك. ان سكان هذه المنطقة كانوا يورثون ابن الأخت في وراثة العرش دون الأولاد الشرعيين .. ولم يزل هذا النظام الوثني سائرا

في المجتمعات الوثنية في غربي أفريقيا ،خاصة عند قبائل (باولـــــن - Baoule) و (أييني - Agny) و (أشـانتـــي - Achanty) و (أبورون - Abouron) وغيرها من الوثنيين هناك .

وقد تحدث البكرى عن هذه الظاهرة الشنيعة الظالمة اذ يقول :

" وسننهم أن الملك لا يكون الا في ابن أخت الملك ، لأنه لايشك فيه أنه ابن اخته .. وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به .." (١)

ان هذا النظام قد أضعفه الاسلام ولكن ذلك كان بالتدريـج ولم يكن طفرة واحدة ، حيث بقي بعض المسلمين يتعاملون به حتى أيام امبراطورية مالي الاسلامية (في القرن الرابع عشر الميلادى ١٣٥٢) وقد شهد ابن بطوطة هذه الظاهرة في مدينة (تكدة) السودانية فلم تعجبه وعلق عليها بقوله :

" وذلك شيء ما رأيته في الدنيا الا عند كفار بلاد الملبار من الهنود .. وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون .." (٢)

كما علق على ذلك القلقشندى اذ يقول : بأن هذا العمل جاء :
" على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت ". (٣)

---

(١) المغرب ص ١٧٥.
(٢) تحفة النظار ٤/٤٤٧.
(٣) صبح الأعشى ٥/٢٩٤

ولكنني لما قمت برحلة ميدانية لاعداد هذا البحث في عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م اتصلت بكثير من مفكرى هذه المنطقة في شأن هذه الظاهرة ، فوجدت أنها قد اختفت تماما عند جميع المسلمين - ولا يوجد مسلم واحد في المنطقة يتعامل بهذه الظاهرة الوثنية الا أنها لم تزل باقية عند بعض القبائل كما قلنا سابقا من الوثنيين .

٢ - نظام وراثة الحكم عن طريق الثعبان :

كان في بلاد السودان الغربي أيضا نظام غريب آخر كان الناس يتعاملون به في وراثة الحكم وهو نظام الوراثة و قصة الثعبان .

و قد قص لنا البكرى - صورة عجيبة من صور تولى وراثة العرش في هذه المنطقة . وقد اخبرنا أن جماعة من سكان هذه المنطقة كانوا اذا مات ملكهم يقدمون قربانا لحية قد اتخذوها الها فيخرج من جحرها ليشير الى من يصلح للملك .. وعبارة البكرى :

" ومن ترنفة تصل العمارة بالسودان الى بلد (زافعو Zafiou) وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب ،رأسه كرأس البختى وهو في مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم متعبدين معظمين لتلك الحية و يعلقون نفيس الثياب وحر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب . (١)

---

(١) المغرب ص ١٧٤ .

" وهم اذا أرادوا اخراجه الى العريش تكلموا كلاما وصفروا صفيرا معلوما فيبرز اليهم .. واذا هلك وال من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للملكة وقربوهم اليها و تكلموا بكلام يعلمونه فتدنو الحية منهم ، فلا تزال تشمهم رجلا رجلا حتى تنكز أحدهم بأنفها .. فاذا نكزته ولت الى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه من السير ليجذب من ذنبه أو عرفه بأشد ما يقدر عليه من شعرات فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة لا يخطيهم ذلك بزعمهم .."(١)

هذه صورة أخرى من صور تولى وراثة العرش في بلاد السودان الغربي قبل انتشار الاسلام في ربوعها .. ولكن لما تحولت الحكومات الى الاسلام اختفت هذه الظاهرة اختفاء كاملا .. ولم يعد هناك من يتعامل في تولية الوالي بهذا الأسلوب الوثني السخيف حتى في مناطق الوثنيين من المنطقة ".

فلنتقدم - الآن - الى الصورة الثالثة من صور تولي الحكم في المنطقة :

٣ - نظام الكرسي الذهبي عند أشانتي :

هناك ظاهرة وثنية لم تزل سائرة في المجتمعات الوثنية في غربي أفريقيا حتى الوقت الراهن وهذه الظاهرة هي نظام توريث الحكم عن طريق ما يسمونه "بالكرسي الذهبي" ..

ان هذا النظام الوثني يرمى الى ان يُقَدَّمَ للملك الجديد كرسيٌّ ذهبيٌّ والا لا - يعتبر ملكا شرعيا على الرعية .

وقد ذكر المؤرخون خاصة (المسيو كاثارين سافيدح) قصة

---

(١) المغرب ص ١٧٤- ١٧٥. نكز : لسع ، لا يخطيهم : لا يتجاوزهم.

مشهورة وهي كالتالي :

" انه في القرون السابقة كان في مدينة كوماسي (١) في غانا الحديث /شا حر ماهر يقال له : "أنو تشى" (Anoutchy) استطاع في حضور الملك وجمع غير من الناس أن ينزل من السماء كرسيا ذهبيا معلنا أن هذا الكرسي تقمصت فيه روح شعب الأشانتي .. ومنذ ذلك اليوم أصبح الكرسي أثمن ما يملكون .. ما من ملك جلس فوق هذا الكرسي ولكنه كان يوضع في كل احتفال يقام على جلد فيل .. وفي مركز رفيع الشأن كان يعرض مرة في كل عام في موكب رائع ويحمل عاليا تحت المظلة المخصصة له .."

" واتخذت الأشانتي من الكرسي رمزا لهم أصبحوا في الحرب أعظم نجاحا في أى وقت قبل ذلك .. وكانوا يقابضون الأسرى الكثيرين الذين يقعون في أيديهم وكانوا مبعث رعب القبائل المحيطة بهم .." (٢)

كان هذا نموذجا من نماذج نظم الحكم المطبقة في هذه المنطقة قبل أن يتحول حكامها الى الاسلام...

وبعد .. ماذا يقول دعاة الزنوجية تجاه هذه الحالة التي كانت تعيش فيها شعوب المنطقة قبل الاسلام.. هل هم يريدون أن ترجع شعوب المنطقة الى هذه الوثنية العمياء أم ماذا يريدون بكلمة الشخصية الأفريقية أو الزنوجة ؟؟

---

(١) مدينة في غانا الحديث ولم تزل عامرة .

(٢) قصة افريقيا جنوب الصحراء الكبرى (كاثارين سافيدح) ت:الدكتور راشد البراوى ص (٢٧).

اننا نجيب بدورنا بأنهم لا يريدون شيئا من ذلك وانما يريدون فقط أن تقف هذه الدعوة أمام العقيدة الاسلامية في المنطقة لأنهم يدركون أن لهذه الدعوة خطورة كبيرة تأتي من اثارتها لعواطف اللون والجنس في نفوس الافريقيين السود .. وهذه العواطف ثورة عارمة ضد العقيدة الاسلامية التي ترمى الى أن يكون التجمع في ظل العقيدة فحسب على حساب القوميات والوطنيات والجنسيات ..

فقد رأى هؤلاء الدعاة (من ليوبول سيده سنغور وكوامي نكروما) زعيما هذه الدعوة في غرب افريقيا /ومن معهم/ قد رأوا أن في هذه الدعوة استعدادا قويًا للانفعال نتيجة التاريخ الطويل من الكبت والقهر والعبودية ، الذى فرض على سكان المنطقة . وقد أوعز اليهم المستعمرون أن هذا التاريخ المأسوى يرجع الى الاسلام الذى قضى على حضارتهم السودانية وعلى العرب بصفة خاصة الذين اتخذوهم عبيدا منذ أن نشروا عقيدتهم الاسلامية في المنطقة .

ويؤكد هذه الفكرة الشنيعة أوربي متعصب [1] ويحمل الاسلام والعرب مسئولية تدهور الحضارة الأفريقية ونسى تجارة الرق التي /او ربما/ مارسته/في المنطقة اذ يقول :

" الحقيقة ان حظ القارة الافريقية كان سيئا للغاية فقد عرفت نور اكتشافها جماعة من التجار أغوتهم هذه الأفريقية فكان همهم الوحيد استثمار

---

(١) دنيس بولم في كتابه الحضارات الافريقية . المصدر السابق ، ص ١٠ - ١١ .

ثرواتها الطبيعية . فالعرب والأوربيون كلاهما على السواء لم يأبهوا لحالة السكان المزرية[1] بل اهتموا بالمكاسب التي يمكن الحصول عليها .

ثم قال :

" لذلك نرى التجار العرب و من بعدهم النخاسين الأوربيين قد استطاعوا تدريجيا أن يهدموا تلك الممالك التي حدثنا عنها المكتشفون القدماء . . وهكذا فان الذين جاءوا الى افريقيا فيما بعد لم يجدوا في طريقهم سوى أناس مذعورين و متهورين ".[2]

فلما أراد هؤلاء الدعاة الى الزنوجة أن يقفوا أمام الاسلام في المنطقة أثاروا هذه الدعوة واستغلوا هذا التاريخ المزعوم ليسيئوا العلاقة بين العرب والسود . . الخ الأمر الذى بدأ يهدد طريق التجمع في ظل العقيدة في المنطقة كما بدأ يهدد أيضا الوحدة الافريقية التي أرادوا أن يقفوا بها أيضا أمام العقيدة الاسلامية و ليس هنا محل مناقشة هذه الخرافة .

و انما نريد فقط هنا أن نشير اشارة محدودة الى أن المنطقة - لولا العقيدة الاسلامية - ما كان في استطاعة أهلها أن يقيموا الدول المشهورة من غانة ومالي و صنغاى على أسس سليمة . وقد رأينا آنفا نظم الحكم التي كانت تعتمد عليها الملوك بل قد أخبرنا التاريخ أن مملكة غانة - حتى في حالة وثنيتها - كانت تعتمد كل الاعتماد على الطبقة المثقفة من المسلمين ولم يحل دون أن يتولى المسلمون أسمى المناصب في هذه الحكومة الوثنية ، عدم دخول حكامها في الاسلام . . بل اتخذ الامبراطور الوثني - تنكامنين - قبل أن تتحول غانة الى دولة اسلامية صرفة -

---

(١) معناها : المعيبة. راجع المنجد مادة (زرى) ، والنخاس : بيّاع الرقيق والاسم : النخاسة .

(٢) راجع كتاب : الحضارات الافريقية ، دنيس بولم ، المصدر السابق ص١٠١-١٠١ .

اتخذ كبار موظفي الدولة من المسلمين منهم مستشاريه ووزرائه..

اذ كان المسلمون وحدهم الطبقة المثقفة في المنطقة .. وينطبق هذا على المسلمين من الوطنيين الذين دخلوا في الاسلام قبل حكوماتهم الوثنية ،وعلى كل من هاجر الى غانة من العرب والبربر واستقروا هناك..

فوجود هذه الطبقة المثقفة المسلمة في البلاد كان خير معين على استمرار الحكم في المنطقة .. كما كان بوجودها أكبر الأثر في نمو المدنية الاسلامية التي تحدثنا عنها -سابقا - حيث كانت مزدحمة بالصفوة من العلماء والمثقفين الذين شيدوا المساجد والمدارس الاسلامية فيها".

يقول البكرى :

" وتراجمة الملك من المسلمين ،وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه .." (١)

وهكذا جاء هذا النص القاطع ليرد على هذه الدعوة الى اقامة الحضارة الزنجية في المنطقة بأن الوثنية لم تكن يوما من الأيام من الوضوح لأن تقوم عليها دولة بل كان الملوك الوثنيون - قبل أن يعتنقوا العقيدة الاسلامية يستعينون بالطبقة المثقفة من المسلمين كما أفادنا بذلك الجغرافي العربي المسلم أبو عبيد البكرى الشهير.

وليس البكرى وحده/ الذى قد تحدث عن هذه الحقيقة ، حقيقة أن التاريخ الحقيقي لبلاد السودان الغربي ،يبدأ بانتشار الاسلام، هناك عدد من

---

(١) المغرب ص ١٧٥.

الكتاب الأوربيين المتصفين واليك بعضا منهم :

وقد تحدث الكاتب الأوربي (جويلي Goully) عن ذلك وأكد على أن التاريخ الحقيقي لم يبدأ الا بظهور العقيدة الاسلامية هناك وعبارته كما نقلناها سابقا :

" ان العصر التاريخي لأفريقيا السوداء لم يبدأ الا منذ ظهور الاسلام وأن بالاسلام ولغته وحضارته ، تقدم السود وتطوروا وبلغوا شأوا كبيرا في المدنية ".(١)

ولم يكن دافيدسون مخطئا عندما أعلن بأن " حضارة غانة " ... كانت تفوق حضارة الأنجلوسكسون زمن وليام الفاتح في القرن الحادى عشر الميلادى ".(٢)

ولم يغال سبيتز (Spitz) حين قال :

" ان حضارة السود ابان العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض ...".(٣)

وعلق على أقوالهم البحاثة المسلم الدكتور ابراهيم على طرخان بقوله :

" وقد دلت المصادر العربية الاسلامية على أن البلاد الاسلامية ولا سيما في شمال أفريقيا وفي اسبانيا كانت السوق الرائجة لسلع بلاد

---

(١) امبراطورية غانة الاسلامية . المرجع السابق ص ١٠ وراجع ما كتبناه سابقا .
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٣) المرجع السابق وراجع ما كتبناه سابقا .

السودان .. ومعنى هذا ارتباط بلاد السودان واتصالها بأرقى الحضارات الانسانية المعاصرة .. وكان هذا الارتباط هو صاحب الأثر الأكبر في تشكيل وتوجيه تاريخ بلاد السودان .." (١)

ومن قبل قد أكد هذا الاتصال الجغرافي العربي المسلم الذى زار المنطقة في القرن العاشر الميلادى وهو ابن حوقل اذ يقول :

" وحاجة ملوك السودان الى ملوك أودغست (المسلمة) ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام ويقول أيضا :

" وملك أودغست يخالط ملك غانة ". (٢)

هكذا رأينا نظم الحكم المطبقة ببلاد السودان الغربي كما رأينا أنه بالاسلام وحضارته تقدم السود وبلغوا هذا المستوى المرموق .

فلنقدم الآن نماذج بسيطة من النماذج القضائية في المنطقة ليزيدنا يقينا في التقدم الذى بلغته هذه المنطقة قبل التوغل الاستعمارى .

---

(١) المصدر السابق .

(١) كتاب صورة الأرض ص ١٠١ .

ثانيا - نماذج من نظام قضائي جنائي عند السودانيين في عهدهم القديم.

مقدمـة :

وقد ثبت تاريخيا - (١) أن امبراطور غانة لم يكن ليفرط في الحقوق أبدا بل كان ينظر بنفسه في جميع شئون الامبراطورية .. لذا اذا حس أحد من الرعية أنه قد ظلم في الحكم رفع ظلامته الى الزعيم أو الملك ليباشر بنفسه دراسة القضية.

وقد أورد البكرى خبرا عن الملك (بسى) الذى أورث عرشه لابن أخته (تنكامنين)، مؤداه : أنه ولي العرش وهو ابن (٨٥) سنة وأن بصره قد كف في أواخر أيامه لكنه يباشر الحكم بنفسه ويكتم عن أهل مملكته ذلك ويريهم أنه يبصر فتوضع بين يديه أشياء فيقول :

" وهذا حسن وهذا قبيح ،وكان وزرائه يلبسون ذلك على الناس .." (٢)

وقد أكد على هذا نعيم قداح بقوله :

" كان نظام الحكم يقوم على التقاليد القبلية الافريقية ،فقد كان ملك غانة زعيما كبيرا لقبائل الساراكوله وهو في الوقت نفسه قائد عسكرى ورئيس ديني ، يتبعه الكهنة الذين يقيمون في الغابة المقدسة المليئة من الآلهة .." (٣)

---

(١) نعيم قداح ،افريقيا الغربية في ظل الاسلام ص ١٠٣.
وراجع كذلك شارل جوليان ،تاريخ افريقيا ،ت : طلعت عوضي أباظة مصر : دار نهضة مصر سنة ١٩٦٨م ص ٥٠.
وراجع كذلك (رولاند أوليفر وجون فيج) موجز تاريخ أفريقيا ص ٤٧.

(٢) المغرب ص ١٧٥ ، نعيم قداح : ص ١٠٣.

كما أشار الى ذلك الكاتب الأوربي شارل جوليان بقوله :

" وكانت امبراطورية غانة دولة ذات حضارة سوداء سكانها ينتمون الى جماعة الساراكوليين أوالسوننكة وكان عاهلهم أو (التونكا) ، يرتدى ملابس ويتزين بزينة خاصة ،ورعاياه يظهرون اجلالهم له بأن يخروا عند روءيته سجدا .." (١)

وكان يفصل بنفسه في أمور القضاء واذا دعت الحاجة حكم بنبوات الآلهة دون مجادلة ،وكان يطوف كل يوم بعاصمة ملكه ليتلقى الشكاوى ويحسم المنازعات ". (٢)

هكذا رأينا جانبا من جوانب الأمبراطور السوداني من الأخذ بزمام الحكم في البلاد .. كما رأينا أن الدولة السودانية كانت كما قلنا سابقا أقرب ما تكون الى الدولة ذات الحكومة الاستبدادية : حكومة بلا أوراق ولا حبر ولا مكاتب . وكلها أجهزة تعتمد على موظفين يعينهم الملك وفق رغبته الخاصة وكانت تكفي مجرد ايماءة من رأسه المقدسة أو كلمة من فمه المقدس لتعبر عن هذه الرغبة (٣) وهكذا كانت الحالة في بلاد السودان الغربي فلتتقدم الآن الواثبات نماذج من النظام القضائي الجنائي .

---

(١) شارل جوليان : تاريخ أفريقيا ص ٨١.

(٢) المصدر السابق ص ٨١.

(٣) رولاند أوليفر وجون فيج ،موجز تاريخ افريقيا ص ٤٧.

نموذج من نماذج القضاء الجنائي في بلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي

(النموذج الأول) :

١ - السرقة : ٢ - الزنا : ٣ - السحر :

تعتبر السرقة في المجتمعات الافريقية القبلية - قديما وحديثا - فعلا مشينا للغاية اذا وقعت على أحد أفراد العشيرة أو القبيلة ولهذا كان السارق يتعرض لاحتقار الرأى العام وازدرائه .

وهو بفعلته هذه ، يلحق العار بنفسه وأسرته ، ويعبر الرأى العام عن شعور الازدراء الذى يكنه للسارق بتوجيه الاهانات والشتائم اليه ، والتهكم به والسخرية منه . وقد يأخذ احتقار العام للسارق صورة مقاطعته ونبذه . . ولكنهم يختلفون في ايقاع العقوبات فمثلا ان بعض سكان المنطقة كأهل (ترنفة) من ضواحي غانة ، كانوا يحكمون بأن يخير صاحب السرقة في بيع السارق أو قتله . ذكره البكرى في كتابه المشهور " المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ".(١)

ولدى التوكولور منطقة (ماتام Matam) كان العرف الوثني يجرى في حالة ضبط السارق متلبسا ، باحلال الغرامة والجلد مائة جلدة اذا كانت السرقة شيئا كبيرا . . أما السرقة البسيطة فكان يعاقب عليها بعقاب أخف .(٢)

---

(١) المغرب ١٧٣ .

(٢) محمود سلام زناني : الاسلام والتقاليد القبلية في افريقية ص ١٧٩ سنة ١٩٦٩م بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر .

وأما لدى الفولا في (نيجيريا) فقد كانت السرقة التي تقع نهارا يعاقب عليها في العادة ببيع السارق أو أن يدفع قدر من المال بالاضافة الى رد المسروق .

أما اللص الذى يقبض عليه ليلا فكان من الممكن قتله في الحال واذا افلت من القبض عليه كان يعامل معاملة السارق بالنهار.(١)

النموذج الثاني (الزنا) :

يسود في المجتمعات القبلية الاعتقاد بأن الزنا يضع الزاني ، لا سيما الزوجة في حالة نجاسة . وتنطوى هذه النجاسة على مخاطرة عظيمة للزوج الزاني نفسه ولزوجه وأولادها . ولا بد لاستبعاد هذه النجاسة من القيام بعملية تطهير .

وعملية التطهير هذه تختلف باختلاف القبائل الوثنية . فبعضها مثل أهل مدينة (ترنفسة Taranfah) انهم يحكمون في الزنى أن يسلخ من جلده (٢) ... اذا ثبت ذلك عليه . وأما طريقة الاثبات فلا يكون بالشاهدين وانما يكون بطريقة تعرف عندهم بحكم الماء فلنعد الى البكرى ليحكى لنا هذه المحكمة الغريبة اذ يقول :

---

(١) الاسلام والتقاليد القبلية في أفريقية المصدر نفسه ص١٧٩ .

(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ،أبوعبيد البكرى ص ١٧٩ .

" وببلاد غانة حكم الماء ،وذلك أنه من ادعى عليه بمال أو دم أو غير ذلك عمد أمينهم الى عود فيه حرافة(*) ومرارة وصبت عليه من الماء قدرا ما ،وسقاه المدعى عليه .. فان رماه من جوفه علم أنه برىء و يعنى بذلك و ان لم يرمه وبقي في جوفه صحت الدعوى عليه .." (١)

هكذا كان (حكم الماء) نوعا من نظم القضاء أوالتحكيم في العهد الوثني ..

وعند بعض المجتمعات الوثنية مثل قبائل (اينى Agni) الساكنين حاليا في ساحل العاج أن الزاني عليه أن يدفع قسطا من المال لزوج المرأة ولكن لا يتم ذلك الا أمام شيخ القرية . وهذا القدر من المال يسمونه : (بيلا حيلى Bele Hele) تلك هي عقوبة الزني عندهم . ولم يزالوا على ذلك الى الآن ". (٢)

و مما يستلفت النظر في المجتمعات القبلية أن المرأة الزانية لا تعاقب بنفس الشدة التي يعاقب بها عشيقها .. ففي الأعم الأغلب من الحالات لا تتعرض الزوجة لصورة أو أخرى من صور التأديب يقوم به زوجها أوأحد أولياؤها. (٣)

(*) الحرافة طعم يلدغ اللسان بحرارته .يقال :هذا بصل حريف،أى يلدغ اللسان . المنجد ص ١٢٨.

(١) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ،أبوعبيد البكرى ص ١٧٩.

(٢) مستفادة من البحث الميداني الذى قمت به حول عدد من بلدان أوربا وأفريقيا سنة ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ.

(٣) راجع الاسلام والتقاليد القبلية في افريقيا المصدر السابق ١٨٣.

وقد علل على هذه الظاهرة الدكتور محمود سلام زناتي بقوله :

" ولعل ذلك يرجع الى الاعتقاد السائد بأن الخطوة الأولى في الاغراء بالاتصال الجنسي غير مشروع تصدره أكثر ما تصدره عن الرجل .. فمن الطبيعي أن يتحمل هو النصيب الأكبر من المسئولية ". (١)

هذا من ناحية و من ناحية أخرى ان القاعدة في المجتمعات القبلية في غرب افريقيا حتى يومنا هذا أن اتصال الزوج بغير زوجته من النساء غير المتزوجات لا يعتبر زنا ولا مقتا في المجتمع . ومن ثم فلا جزاء عليه . ولا يكتفى الزوج باتخاذ هذه النساء غير المتزوجات وانما يضم الاولاد الذين وجدهم منها في حفيظة نفوسه و تعترف بهم الدولة قانونيا ، هي صورة من صور تلك/الوثنية التي كانت ولم تزل موجودة في غرب أفريقيا قديما وحديثا (٢) وتوضيح ذلك :

أن الزوج في المجتمعات الوثنية قديما وحديثا في غرب افريقيا ليس مطلوباً منه أن يكون وفيا لزوجته . ولا تؤثم الأسرة ولا المجتمع زنا الزوج الا اذا كان كبير السن . ففي هذه الحالة يكتفون بتوجيه اللوم اليه قائلين أنت شيخ كبير لا يستحسن منك الزنا كما يستحسن من الشباب ..
وأما المسلمون بخلاف ذلك وان لم يستطيعوا أن يطبقوا أحكام الشريعة الاسلامية على الزاني والزانية ولكنهم يتأنفون من هذه الصور الوثنية.

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٣.

(٢) مستفادة من البحث الميداني .

النموذج الثالث (عقوبة السحر) :

ولما كان سكان غرب افريقيا في أيامهم الوثنية الاولى قبل دخول الاسلام قد بلغوا شأوا كبيرا في معرفة السحر والاعتناء به عناية كبيرة كانوا يوقعون العقوبة الصارمة على من قتل أحدا بالسحر .

فلنستمع الى القلقشندى ليحكى لنا هذه الحكاية العجيبة اذ يقول :

" كان الناس هناك -غرب افريقيا- قد بلغوا في معرفة السحر مبلغاً بعيداً وكانت لهم بها عناية كبيرة حتى أنهم كانوا يصيدون الفيل بالسحر حقيقة لا مجازا وكانوا في كل وقت يتحاكمون عند ملكهم بسببه ويقول أحدهم : ان فلانا قتل أخي أو ولدى بالسحر ،والسلطان يحكم على القاتل بالقصاص وقتل الساحر ". (١)

هكذا كان جزاء الساحر في هذا المجتمع القبلي الافريقي هو القصاص أوالقتل .. ولكن السحر لم يزل موجودا عند الوثنيين حتى اليوم (٢)
وقبل أن ننتقل الى الفصل/ الآتي يحسن بنا أن نتحدث أيضا عن ادارة المقاطعات في غانة .

---

(١) صبح الأعشى ٥/
(٢) وأما حد الساحر في الاسلام فيختلف عن هذه الصورة الوثنية ،فانه يقتل فورا كما ورد ذلك في حديث جندب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حد الساحر ضربة السيف(*)وقد أمر سيدنا عمر رضي الله عنه بقتل الساحر كما روى ذلك مالك أن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها (**) وأما عائشة رضي الله عنها فقد أمرت ببيعها فلعل سحرها لم يبلغ حد السيف (***) .
(*) يراجع في هذا الى عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى الامام الحافظ ابن العربي المالكي ٥/٢٤٦ ،مكتبة المعارف بيروت.
(**) مسند الامام أحمد بن حنبل ١/ ١٩٠ ، ١٩١ ،ط: ١/ ٢ ، ١٣٩٨هـ بيروت وراجع شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٢٠١ دارالفكر بيروت.
(***) راجع بدائع المنن في جمع وترتيب مسند الامام الشافعي وسنن أحمد عبد الرحمن البنا المعروف بالساعاتي ٢/ ١٣٨ ،ط/ ١ ، ١٣٦٥هـ مصر.

ثالثا - ادارة المقاطعات في ممالك غرب افريقيا

كان النظام الادارى في غرب افريقيا على درجة عالية من التقدم ، اذا قارناه بالأنظمة الادارية الاوربية في القرون الوسطى . وقد قام باحث أوربي بالمقارنة بين الانظمة الادارية الافريقية وبين الانظمة الادارية الاوربية في القرون الوسطى ، فصرح بأن غرب افريقيا - آنذاك - لم تكن أقل تقدما وثراء وهيبة من أوربا ، بل قال أن القارتين : الافريقية والاوربية لم يكن فرق جوهرى بينهما . وهذا نصه :

" لو ذهبنا في المقارنة بين القارتين : الاوربي والسوداني ، فلا نغالي ان قلنا : ان تمبكتو وجنى وولاتا وجاو وأقادس وأودغست وكومب صالح كانت في سودان العصر الوسيط تحتل عين المكانة التي كانت تحتله (ميلان) في أوربا (ونورمبرج) .

وأضاف قائلا :

" لن يقول أحد أنها كانت على المستوى الذى بلغته مدن أوربا في الثقافة والحضارة والترف ، ولكننا نؤكد أنها لم تكن أقل ثراء منها أو أقل منعة وهيبة في بيئتها التي ازدهرت فيها وفي الزمان الذى ظهرت فيه ، لأن الطرق الجوهرية التي منشأها التقدم الاجتماعي في كل من القارتين : كانت قريبة من بعض قربا يدهش له الانسان ". (١)

---

(١) هوبازل دافيد سون في كتابه القيم " افريقيا تحت أضواء جديدة ص ٢٣٢ .

اذا رجعنا الى المصادر الجادة التي تعرضت للحديث عن التقسيم الادارى لمنطقة غرب افريقية سنجد أنها كانت مقسمة الى خمسة أقاليم رئيسية كل اقليم منها كانت مملكة بذاتها ولكن حكام هذه البلاد استطاعوا أن يوحدوا هذه الأقاليم الخمسة في امبراطورية واحدة سميت بامبراطورية غانـة والاقاليم الخمسة كالآتي :

١ - اقليم غانة .

٢ - اقليم مالي .

٣ - اقليم صوصو.

٤ - اقليم كوكو .

٥ - اقليم تكرور . (١)

فاقليم غانة في غرب اقليم صوصو .. واقليم مالي واقع بين اقليم صوصو واقليم كوكو .. واقليم صوصو وهو في الغرب عن اقليم مالي .. واقلبم كوكوا وهي شرقي مالي .. واقليم تكرور شرقي اقليم كوكو (٢) انظر الملحق الرقم (العاشر)

ومن أهم ملامح هذه المدنية السودانية إتحاد هذه العناصر المختلفة تحت لواء امبراطور واحد وكلها ذات مصالح مشتركة .. وكان الملـــك يقبض على زمام الحكم بقوة وعزم.

---

(١) راجع الشيخ ابي العباس أحمد القلقشندى ، صبح الاعشى ٥/ مصر المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م وقد تحدثنا عن هذه الاقاليم سابقا بشكل موجز وأما هنا فقد أعدنا ذكرها للتوضيح لا للتكرار . راجع ص (٧٥) .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

هذا هو التقسيم الادارى ببلاد السودان الغربي منذ امبراطورية غانة الى أيام وريثتيها : (مملكة مالي ومملكة صنغاى) ولم يقع فيه - طيلة هذه القرون من العهد القديم الوثني الى العهد الاسلامي) - أى تغيير الا بعدما احتلت فرنسا هذه المنطقة فغيرت معالمها تغييرا جذريا بل غيّرت اسم المنطقة بكاملها التي عرفت قديما باسم بلاد السودان الغربي فغيرته فرنسا الى ان صارت تسمى ب " غرب افريقيا الفرنسية ".

وقسمت هذه المنطقة الى ثمانية مستعمرات هي :

السودان الفرنسي ،وغينيا الفرنسية (Guinee Francais) وساحل العاج (، Cote D'Ivoire) وموريتانيا وداهومي والنيجر وفولتا العليا ... فلما جاء الجيل الجديد ما كان باستطاعته أن يعرف شيئا عن ماضي وطنه . لأن سياسة فرنسا كانت مبنية على تجاهل التقاليد الافريقية والحضارة الافريقية . ومحو آثارهما محوا تاما ... والأمر - مع شديد الأسف - وقع كما أرادت هذه السلطة الاستعمارية .. بحيث أصبح الانسان الافريقي - حتى في الوقت الراهن - غريبا فوق أرضه لا يعرف شيئا عن ماضيه وأمجاده التليده وأيام اجداده الزاهرة ، بل انما يعتبر نفسه قردا من القرود التي تعيش على الصيد والأقطاف ...

من هنا يتبين لنا أهمية هذا البحث بحيث جاء ليكشف الغطاء عن وجه هذه الحقائق التي طالما أخفتها السلطات الاستعمارية في المنطقة حتى أصبحت من قبيل الاساطير والخرافات المضللة ولكن الحق - مهما طال الزمن - سيظهر وينتصر باذن الله تعالى .

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ﴾ . الاسراء/١٧ .

لنتحدث أيضا - فيما يلي - عن بقية التقسيم الادارى في المنطقة قبل أن تأتي الظلمات من أوربا التي سموها تقدما وحضارة.

وأما التقسيم الادارى لاقليم غانة بصفة خاصة فقد كان مقسما الى ولايات .

يقول ابن الوردى :

" كان لملك غانة ممالك عديدة فيها ملوك من تحت يده ". (١)

وقد كان للعاصمة وال أو حاكم أو ملك ، ومن أشهر الولايات أوكار وهي نواة امبراطوريـة غانة وكذلك (هوذ) في الوسط والممالك البربرية في الشمال وديارا و (تاكانت) في الغرب وباسيكورو في الشرق وواجادو وكانياجا وبغن (Bagan) في الجنوب . (٢)

تلك كانت ادارة المقاطعات في الامبراطورية الاولى (امبراطورية غانة) في غرب افريقية . وقد كان ملك امبراطورية غانة زعيما كبيرا لقبائل السوننكه وهوفي الوقت نفسه قائد عسكرى ورئيس ديني يتبعه الكهنة الذين يقيمون في الغابة المقدسة مقر الآلهة . (٣)

ولما كانت الامبراطوريات الافريقية مبنية على الاستبداد والقبلية كان حكام المقاطعات والوزراء من قبيلة الملك - وتضم الحاشية النبلاء من زعماء القبائل الاخرى التي كانت تعيش في المملكة . (٣)

---

(١) تاريخ ابن الوردى ص ١٦٠.

(٢) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة ص ٦٠.

(٣) نعيم قداح ص ١٠٣.

(٤) المرجع السابق .

الجيـــش :

يتألف الجيش في هذه الامبراطورية السودانية من عناصر أساسية من قبيلة الملك السوننكه ، ويضاف اليها أفراد من القبائل المرتزقة التـــي تعمل في خدمة الملك . وكما كان لامبراطورية غانة فرق من الحرس تجوب الصحراء لتقر الأمن حفاظا لسلامة القوافل التجارية القادمة عبر الصحراء ، وكان الملك الغاني قائدا عاما للجيش لأنه أكبر زعماء القبائل شأنا وأشدهم قوة . (١) وقد سبق أن نقلنا عن البـكرى اذ يقول :

" وملك غانة اذا احتفل يـنـتـهى جيشه مائتي الف .. منهـم رماة أزيد من اربعين الفا .." (٢)

هذه هي اول امبراطورية اقيمت في غرب افريقيا ، وقد رأينا الحالـة السياسية فيها كما رأينا نظم الحكم المطبقة . وقد كانت دولة جيـدة التنظيم وكانت الأقاليم كلها تقدم لها الولاء . كما كان الموظفون يتجولون في جميع أنحاء المملكة لجمع الضرائب لهذه الامبراطوريةالسودانية القوية .. هذا ما قاله المسيو اندريه و نصه بالغرنسية . (٣) في الهامش

----

(١) نعيم قداح ص ١٠٣ المصدر السابق .

(٢) المغرب ص ١٧٧ .

(٣) Le pays de Ghana Etait bien organise et chaque vassal etait parfaitement soumis au suzerain, les fonctionneurs royaux parcouraient le pays pour encaisser l'impot et chacun payait trubut a l'empereur de Ghana."
Voir: Histoire et civilisation de l'Afrique Noire p. 29.

ونؤكد دائما أن هذا التنظيم الجيد لم يحصل الا بعد دخول الاسلام في المنطقة حيث كان أكثر وزراء الملك من المسلمين وأكثر موظفيه فنكرر ما قاله البكرى في ذلك اذ يقول :

" وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه ". (١)

---

(١) المغرب ص ١٧٥.

الفصل الثاني

الحالة الاقتصاديـــــــــــــــة

يشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

المبحث الأول : الزراعة .

المبحث الثاني : التجارة .

المبحث الثالث : الضرائب .

الفصل الثانـي

الحالـة الاقتصاديـــة

مقدمـــة :

اننا ،كما قلنا - سابقا - سنعمد في اثبات وجود هذه السلالة السوداء في هذه المنطقة قبل التوغل الاوربي فيها - على الحقائق العلمية فحسب ، ليتجلى لنا من خلال هذه الحقائق العلمية التي سنثبتها هنا ،أن المنطقة لم تكن منطقة بوءس وشقاء كما وصفها بعض الأوربيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بل كانت منطقـــة ، لها مواردها المالية وشهرتها في العالم القديم وعظمتها التاريخية . وسنرى هنا أن كثرة أموالها ترجع - بادىء ذى بدء - الى أرباحها التجارية الطائلة .. الا أن هذه البـــلاد - كما سيتضح لنا - كانت في بداية أمرها ،تعتمد على الزراعة التي كانت تنتج أكثر من الاكتفاء الذاتي لذلك وصفت - منذ فجر تاريخها - بأنها بـــلاد زراعية اقطاعية [١] . هذا ما أكده (سبيتز Spitz) اذ يقول :

" ان امبراطورية غانة ، زمن هذه الحكومة كانت زراعية اقطاعيـــة ، غيرأن هذا لم يحل دون افادتها من التجارة والذهب . اذ أن عظمتهـــا التاريخية قامت على ثروتها من الذهب والتبادل التجارى ،وان ملوكها قـــد بلغوا من القوة والثراء بحيث صاروا يلقبون بملوك الذهب كما صارت بلادهم تعرف بأرض الذهب. [٢]

-----

(١) راجع افريقيا في عصرالتحول الاجتماعي تاليف (لويد) ، ت: شوقي جلال ص ٣٠ .

(٢) نقلا عن امبراطورية غانة الاسلامية المصدر السابق ص ٢٥ .

وقد وصل (دافيدسن) في بحثه الى النتيجة نفسها اذ يقول :

" ومن المحقق أن ثمة مجتمعات زراعية حقيقية ، قد قامت في جنوب الصحراء الكبرى (غربي افريقيا) منذ نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ..."(١)

وهكذا أفاد هذان الباحثان الأوربيان أن الحضارة السودانية كانت تعتمد على التجارة والزراعة الناجحة ولكننا ، اذا درسنا هذه الدول في غرب افريقيا دراسة دقيقة ، سنجد ان اقتصادياتها لم تكن قاصرة على التجارة والزراعة فحسب وانما كانت بجانبهما موارد أخرى لا تقل أهمية منهما هي : الضرائب .. فعلى هذا تتحدد معنا مباحث هذا الفصل فيما يلي :

١- الزراعة .

٢- التجارة .

٣- الضرائب .

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة (باذل دافيدسن) ص ٢٩ .

المبحث الأول

الزراعة في غرب افريقيا قبل المد الاسلامي

اذا دققنا النظر في أسباب تفوق غانة في المجالات الزراعية في غرب أفريقيا ، سنجد أنها تتمثل في الأمور التالية :

١ - توفر الأرض الزراعية الخصبة :

ان توفر الأرض الزراعية الخصبة في غرب أفريقيا (١) ، من الأسباب التي ساعدت الدول هناك على هذا التفوق في المجالات الزراعية ، لذا استطاعت أن تمارس الزراعة المتنقلة .. وبيان ذلك : أن الفلاحين اتبعوا في زراعتهم نظام الزراعة بالراحة .. حيث يزرعون الأراضي عامين أو ثلاثة أعوام متتالية ثم يتركونها لتعود سيرتها الأولى فيزرعونها مرة أخرى ..

وكما ساعدت هذه الدول ، تلك الاراضي الفسيحة المنقسمة الى غابات مطيرة وأرض سافانا ممتدة .. "(٢)

٢ - توفر المياه :

من المعلوم ، أن توفر مياه الري (٣) يساعد على وجود الزراعة الجيدة منتجة وكان ذلك أحد الأسباب التي ساعدت سكان المنطقة على النمو والازدهار

----

(١) راجع موجز تاريخ افريقيا تأليف رولاند أوليفر وجون فيج ت : الدكتورة دولت أحمد صادق والدكتور محمد السيد غلاب ص ٤٧ .

(٢) نحن في افريقيا ، كامل مرو ص ٦٣ .

(٣) أى روى - ريا وريا - أى الشرب والشبع فهو ريان ، ريا جمع رواء .

في المجالات الزراعية .. وتوجد في هذه المنطقة أنهار كثيرة وأهمها ثلاثة :

أ - (نهر النيجر) وهو أعظم أنهار غرب افريقيا ، ينبع من فو تاجالون (غينيا) ويتجه الى الشمال مباشرة ثم الى الشرق ثم الى الجنوب . وهو ثالث أنهار القارة الافريقية من حيث الطول حيث يزيد طوله على ٤١٠٠ كيلومترا .(١)

ب - (نهر فلتا) يتجه الى الجنوب مباشرة ويخترق غانا الحديثة من أولها الى آخرها .. و تعتبر - الآن - ملمحا هاما من ملامح التصريف المائي في غرب افريقيا - وذلك بعد انشاء سد الفولتا .(٢)

جـ - (نهر السنغال) ويتجه الى الغرب وهو سادس الأنهار في القارة من حيث الطول وهكذا توفرت المياه في الجهات الأربع جميعها (الشرق والغرب والشمال والجنوب) .(٣)

وأما الأمطار فهي تهطل في اقليم الغابات بغزارة مدهشة وذلك من حزيران (يونيو) الى اكتوبر ولكنها تنخفض كلما اتجهنا نحو الشمال الذى يكثر فيه تربية المواشي .(٤)

---

(١) جغرافية افريقية ، الدكتور فتحي محمد أبو عيانة سنة ١٩٨١ مصر دار الجامعات المصرية ص ٢٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٤) نحن في افريقيا المصدر السابق ص ٦٤ ويؤكد كامل مرو أن معدل هطول الأمطار يختلف باختلاف المناطق وهو على اكثره في الغابات المطيرة يتراوح بين ١٢٠ و ١٦٠ قيراطا في السنة وكلما تقدم الانسان الى الصحراء هبط المعدل حتى يبلغ في اقاصيه عشرة قراريط .

٣ - العناية بالزراعة :

ان عنايتهم بالزراعة ترجع الى عدة أمور هامة نذكر هنا اثنين منها :

أ - كان الملك هناك كأول من يزرع أول حبة في بداية كل عام ايذانا بزمن البذر وتشجيعا للمزارعين . يقول (رولاند أوليفر وجون فيج) :

" ان الملك نفسه في هذه المدينة السودانية يقوم في كل عام بتقليب أول رقعة من أجل الزراعة ، كما يبذر أول كمية من الحبوب في الأرض .." (١)

ب - من شدة عنايتهم بالشئون الزراعية كانت الدورة الزراعية عندهم كل عام مرتين ، كما أفاد بذلك البكرى اذ يقول :

" وهم - أى الغانيون - يزرعون مرتين في العام على ثَرَى النيل " (٢)

وعلاوة على ذلك لحكومة غانة الأولى الفضل في ادخال زراعة القطن وصناعة النسيج - لذا لا نستغرب اذا وصفت هذه المدنية السودانية بأنها امبراطورية زراعية اقطاعية .

---

(١) موجز تاريخ افريقيا ص ٤٧ .

(٢) المغرب ص ١٧٧ . المراد بالنيل هنا نهر النيجر ..

"آثار الزراعة على المجتمع السوداني في غانـــة"

لقد نتج عن مهارة السودان في الفنون الزراعية خير كبير لسكان المنطقة بحيث أدت الى عملية تبادل تجارى ،كما أدت في الوقت نفسه الى زيادة كثافة السكان الذين يعتمدون على المحصول ..

ومن ثم قامت في هذا المجتمـــع السوداني الزراعي ،أنواع مختلفة من التخصص في العمل الذى يستند على الحرف ..

ونجد هذا التخصص في مدينة (كومبي صالح) عاصمة امبراطورية غانة حيث قامت كثير من الصناعات مثل صناعة الحديد التي كانت ضروريـــة لتمد المزارعين بالالات الزراعية .. كما ساعد ذلك على ظهور جماعـــات من الحرفيين.(١)

والموظفين الحكوميين ،هذا ما أكده الكاتبان الأوربيان السالفا الذكر : (رولاند أوليفر -وجون فيج) اذ يقولان :

" ان مهارة الزنوج في الزراعة وما تبع ذلك من نجاح ، هـــي التي ساعدتهم في اقامة الامبراطورية المستقرة القادرة على التحكم فـــي مساحة واسعة ".(٢)

وهكذا صرح هذان الأوربيان المنصفان بأن تقدم بلاد السودان الغربي وازدهاها يرجع - بادئ ذى بدء - الى مهارة سكانها في الفنون الزراعية ..

---

(١) المراد بالنيل هنا نهر النيجر .
Histoire De L'Islam au Siecle p. 48.

(٢) افريقيا في عصر التحول الاجتماعي المصدر السابق ص ٣٠ .
وموجز تاريخ أفريقيا ص ٣٧ .

وهذا ، يدعونا الى مقارنة سريعة بين المجتمعات الافريقية التقليدية

فنقول : من حيث تقسيم المجتمع الافريقي التقليدي أنه ينقسم الى قسمين أساسيين :

١ - رعاة.

٢ - زراع .

فمعظم المجتمعات التي تعيش في شرق أفريقيا كانت - ولا تزال - تمارس الرعي .. أما التي في غرب القارة فقد كانت تمارس الزراعة (Plantation) من هنا نشأ الاختلاف في ثقافة وحياة المنطقتين .

وهذا الاختلاف - اذا بحثنا عنه بدقة متناهية - سنجد انه يرجع الى طبيعة الاتصال .. لأن السكان أكثر كثافة يوجدون في المناطق الزراعية مثل امبراطورية غانة مثلا التي كانت تستقبل دائما - الوافدين من الشمال الافريقي ومصر.. ونتج عن هذا ان الوحدات السياسية والنظم الاقتصادية أبسط في المجتمعات الرعوية عنها في الزراعية .

فقد اعتمدت حياة الناس ، في شرق أفريقيا على تربية الماشية ، وكانت الأبقار تمثل مركزا أساسيا في حياة سكان هذه المناطق ويقوم عليها الاقتصاد .

ورغم ذلك ، ولم تقتصر تربية الحيوانات على الأبقار فقط بل رعوا الأغنام والضان أيضا .

وكانت المكانة الاجتماعية في تلك البلاد في شرق أفريقيا تحسب بالنسبة التي يملك بها الفرد من الأبقار . كما أن هذه الأبقار لا تستعمل في التبادل التجارى ولا تباع بالطبع ، فأدى كل ذلك الى أن يقوم المجتمع الرعوى (١)

---

(١) لمحات في التاريخ الافريقي الحديث ، د / ابراهيم دياب ص ٣٧ جامعة الرياض.

على الاكتفاء الذاتي وذلك لعدم وجود عملية للتبادل التجارى مما أدى الى عدم قيام حرف وصناعات في تلك المجتمعات ، ما عدا بعض الصناعات المحلية البدائية بما فيها صناعة الحديد كما كان هوءلاء الرعاة على حد قول ابراهيم دياب : " يسكنون في قرى صغيرة والقرية تمثل الوحدة الصغيرة ولم تنشأ هناك مدن كبيرة وهذه القرى كثيرة التنقل في نفس الوقت جريا وراء العشب والماء ... " (١)

واذا قارنا حياة واقتصاد وثقافة تلك المجتمعات الشرقية بالمجتمعات الزراعية التي قامت ببلاد السودان الغربي مثل (امبراطورية غانة) وغيرها. نجدها مختلفة اختلافا كبيرا.

فالذى نرى في أوجه هذا الاختلاف بين المجتمعين هو :

أولا - ان المجتمع الزراعي ، لا يقوم على الاكتفاء الذاتي لأن المحصول الزراعي كان - غالبا - يفوق احتياجات المجتمع .. ومعظم مجتمعات بلاد السودان الغربي كانت تنتج أكثر مما تحتاج اليه ، مما أدى الى عملية تبادل تجارى - كما قلنا سابقا - وأدى في الوقت نفسه الى كثافة السكان الذين يعتمدون على المحصولات الزراعية يقول ابن الوردى عن غانة والحركة الاقتصادية فيها :

" وهي أكبر بلاد السودان وأوسعها متجرا ، وهم في سعة من المال ويقصدها التجار من سائر البلاد .. " (٢)

---

(١) المرجع السابق ص٣٧.

(٢) تاريخ ابن الوردى ، ترجمه الى اللغة اللاتينية هيلاندر (S.Hylander) لندن ١٨٢٣ ص١٥٨.

ان هذا الرخاء والسعة في المال لم يكونا وقفا على غانة فقط وانما كانا مستمرين في جميع الامبراطوريات التي أقيمت في المنطقة بعد انقراض غانة . فمثلا نجد ابن بطوطة يصنف امبراطورية مالي ورثة غانة بقوله :

" ان المسافر الى بلاد مالي لا يحمل زادا ولا أداما ولا دينارا ولا درهما انما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج وبعض السلع العطرية ... فاذا وصل قرية ، جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفونى ودقيق اللوبيا فيشترى منهن ما أحب من ذلك ".(١)

ثانيا - وان مما اختلف فيه المجتمع الزراعي عن المجتمع الرعوى قيام أنواع مختلفة من التخصص في العمل الذى يستند على الحرف . وهذا التخصص أوجد نوعا من التجارة والأسواق مما شجع الاتصال التجارى والثقافي بين بلاد السودان الغربي والشمال الافريقي والعالم الخارجي كما أفاد بذلك ابن الوردى في قوله الذى نقلناه عنه آنفا ..

ثالثا - ونظرا الى أن المجتمع الزراعي يستطيع أن يستقبل أعدادا كبيرة من الناس ، فقد استقر فيه الناس . وباستقرارهم نشأت المدن والممالك والدول ..

وقد وصف القلقشندى هذه البلاد بأنها كثيفة السكان اذ يقول :

---

(١) راجع تحفة النظار ٣٩٣/٤ ، ٣٩٤ .

" وهي (بلاد السودان الغربي) مملكة مربعة وجميعها مسكونة الا ما قل ".(١)

هذا هو الفرق الجوهرى بين المجتمعين الافريقيين : (الرعوى والزراعي) : ذكرناه على وجه الايجاز.. وهذه هي الامبراطورية السودانية الأولى وتلك هي مهارتها في الزراعة ،وهاتيك هي آثار الزراعة على هذا المجتمع الزراعي السوداني .. وقد اهتمت أوربا بعد كشف امريكا بمجتمع بلاد السودان الغربي الزراعي ،لأنها رأت فيه مخزنا لأيدى عاملة مدربة على الزراعة تصلح لزراعة قصب السكر والقطن في أمريكا فبدأت تصيد سكان المنطقة الزراعية الى أمريكا صيد الوحوش وتحشرهم حشرا في السفن بحيث لا يجد الواحد منهم مكانا لنومه الا في صفوف متراصة بجوار بعضهم البعض.(٢) واذا اكتشف ان السفينة بعد قيامها أن عدد أفراد الشحنة يزيد عن طاقة سفينته ،فانه لا يجد مانعا ان يتخلص من بعضهم بالقائه في البحر.(٣)

لذا اتفق المنصفون من المؤرخين الأوربيين انفسهم كما قلنا سابقا منهم (W. F. Ward)(٤) على أن تجارة الرقيق كانت السبب المباشر في هذا التأخر الشديد الذى انحدر اليه هذا المجتمع الزراعي السوداني بعد أن كانت في المنطقة ممالك مزدهرة ذات حضارة متقدمة مثل (غانة) التي نحن بصدد الحديث عنها.

---

(١) صبح الأعشى ص ٢٨٢ ، جـ/ ٥.

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي الدكتور أحمد شلبي ٦/ ٤٤١.

(٣) المصدر السابق ص ٤٤٤ . وراجع ما كتبناه سابقا.

(٤) المصدر السابق ص ٧٥.

وبهذه الحقائق العلمية الجليلة التي شهدناها هنا ، يسقط عن المنطقة ما يلصق بها من الدعاوى الكاذبة القائلة بأنها كانت منطقة بؤس وشقاء ، بل العكس هو الصحيح .. لأن وفرة المزروعات دالة على الرخاء والرفاهية والتقدم والازدهار .

المبحث الثانـــــي

التجـــــــــــــارة

ينبغي - في مطلع هذا الحديث عن التجارة في بلاد السودان الغربي ،أن نشير الى نقطتين لهما أهميتهما الكبرى هما :

١ - إِنَّ اسهابنا في وصف النظم الحضارية في بلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي ، فلا يظن انه بمجرد سرد تاريخي أو تطويل ممل بدون فائدة ،حاشا وكلا أن نفعل ذلك ،وانما أردنا بذلك ، التعديل وتصحيح الأفكار الخاطئة التي طالما تشدق بها الغربيون ،من بؤس المنطقة وفقرها . ولولا مجيء المستعمرين (على حد زعمهم) لم يكن الذين سكنوا المنطقة منفكين عما هم فيه من سوء الأحوال . . .

فمثل هذه الدعاوى -اذن - لا يمكن بحال من الأحوال - وبعدما تشربتها الجماهير - أن تزال بكلمة أو كلمتين .. وانما يتم ذلك بحقائق علمية ثابتة وأدلة قاطعة مدمغة .. لذلك أرأينا أن نسترسل قليلا هنـــا لأجل اسهامنا في هذا الموضوع ،لكي يكون بداية لنشر الحقائق وتصحيـح المفاهيم الخاطئة التي تقول : ان المنطقة كانت مظلمة ومنعزلة عن العالـم الخارجي .. وما رأت نور الحضارة الانسانية الحقة الا بعد الاحتلال الأوربي ..

٢ - ان المقصود بالتجارة هي ، ما كانت بين السودان الغربي وبين الشمال الافريقي .. وليس القصد بالتجارة الداخلية ،كما ليس المراد بالتجارة المستوطنين في هذا القطاع الذى نتحدث عنه ، ولكن التجار الذين يغدون بقصد التجارة ثم يعودون لمواطنيهم الأصلية في شمـال

القارة أوخارجها ، هم المعنيون بذلك هنا .. لا لشيء الا لنثبت للناس أن المنطقة لم تكن كما وصفها المتعصبون من الأوربيين بل كانت هناك اتصالات تجارية مستمرة وثقافية دائمة بين الشمال الافريقي والجنوب السوداني الغربي - منذ الماضي السحيق الى حين التوغل الاستعمارى بجيوشه الجرارة وغزوه الفكرى و تياراته الخبيثة .

فلنتحدث اذن - عن كيفية التعامل بين سكان المنطقة و بين التجار الوافدين من الشمال الافريقي و مصر وغيرهما وعن الطرق التجارية والسلع التجارية لأن في اثبات ذلك علميا تفنيدا لتلك المزاعم الأوربية المشبوهة .

أولا - كيفية التعامل التجارى بين السودانيتين والتجار الوافدين من الشمال الافريقي ومصر وغيرهما .

ان مما يدل دلالة واضحة على أن العصر التاريخي لافريقيا السوداء - كما نص على ذلك (جويلي Gouilly)[1] لم يبدأ الا بعد دخول الاسلام ،هناك كيفية التعامل التجارى بين السودان والشمال الافريقي ، وأن بالاسلام ولغته المرموقة (اللغة العربية المجيدة) وحضارته الفائقة ، تقدم السود في جميع النواحي الحضارية وبالأخص الناحية التجارية ..

---

(١) امبراطورية غانة الاسلامية ، الدكتور طرخان ص ١٠ وراجع ما كتبناه .

فقد ذكر الغرناطي [١] كيفية التعامل التجارى في بلاد السودان الغربي وبين الشمال الافريقي قبل دخول الاسلام وأشارالى المتاعب التي كانت تصيب التجار قبل الوصول الى بلاد السودان الغربي .

ذكر أن التجار كانوا يمشون في الرمال كالبحار ،ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم ،ويحملون معهم الزاد لستة شهور .. فاذا وصلوا غانة يبيعون الملح وزنا بوزن ذهب ،وربما باعوه بوزنين أواكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم [٢] لأن الملح لم يكن سلعة متوفرة كماهي في أيامنا هذه بل كان سلعة غالية رفيعة الشأن ومفقودة في أرض السودان .

ومن المتاعب التي ذكرها الغرناطي مشكلة التفاهم بين الطرفين (البيض والسود) عند المساواة والمبايعة ،فلم تكن هناك لغة مشتركة بينهما ،لذا كانت التجارة تتم بين الطرفين بالطريقة التي يسمونها بالتجارة الصامتة أو التبادل الصامت (La Commerce Muete) [٣].

ويعني هذا المصطلح ،التعامل والمساومة أو المبايعة -على حد قول المسعودى ،بين قوم لا يعرف أحدهم لغة الآخر.. فاذا وصل التجاريضربون بطبولهم اعلانا عن وصولهم بالبضائع ثم يضعون في أكوام أو مقادير معينة

---

(١) الغرناطي أبوحامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسي ت ١١٧٠م .

(٢) تحفة الألباب نشره (Ferraro) باريس ١٩٢٥ ص (٤١-٤٢) .

(٣) راجع امبراطورية غانة المصدر السابق ص ٧٠ - ٧١ .

على شاطيء النهر ،ويحتفون ،فيخرج السودان ويضعون بجوار كل كومة أو مقدار من السلع ما يرونه مناسبا له من الذهب ثم يختفون .. فاذا كان ذلك مناسبا يتم البيع والا يتكرر.(١)

تلك هي الحالة التي كانت يجرى عليها التعامل التجارى بين السودان والتجار (البيض) ولكن لما انتشر الاسلام في ربوع هذه البلاد تغير الوضع بحيث تعلم كثير من أبناء المسلمين (السود) اللغة العربية (لغة الثقافة) فصاروا مترجمين بين الشعب السوداني وبين الوافدين من التجار. ولم تقتصر هذه الترجمة في مجالات التجارة فحسب وانما تعدت ذلك حتى دخلت القصور الملكية حيث اتخذ مترجمون من هوءلاء المثقفين السود في البلاط الملكي كما سيأتي بيان ذلك في صفحات قادمة ان شاء الله تعالى ...

وأما ما كان يلقاه التجار قبل دخول الاسلام من متاعب جسيمة بسبب وعورة المنطقة الصحراوية وقلة الماء والمحطات .. فقد أمن المسلمون(٢) -بعد دخول الاسلام هناك - طريقا صحراويا يسلكها الدعاة والرحالة والتجار وذلك بأن حفروا سلسلة من الآبار تصل بين واحات افريقية ومدينة (أودغست)(٣) السودانية التي تعتبر بحق المدينة السودانية الأولى نشرت فيها العقيدة الاسلامية كما سيأتي تفصيل لذلك ان شاء الله تعالى.

---

(١) امبراطورية غانة ص ٧٠ - ٧١.
(٢) في مقدمتهم (عبدالرحمن الفهرى ت(١٤٢) سيأتي ترجمته فيمابعد.
(٣) راجع كتاب مالي ،محمد شاكر ص ٢٢.

فدل كل ذلك على أن الاسلام هو الذى طور بلاد السودان الغربي وليس معنى ذلك ايضا أننا ننكر أية فضيلة للسود ، بل لهم فضائل كثيرة ولكن البلاد لم تزدهر هذا الازدهار الهائل الا بعد دخول الاسلام فيها بحيث ازدادت العلاقات بين غانة وبلاد العالم الاسلامي الشرقي في عهد الحكومة الاسلامية التي قامت في غانة أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ولا سيما بعد أن اتصل ملوك غانة المسلمون بالخلافة العباسية وربطوا أنفسهم بها ، وقاموا في بلادهم ممثلين للخليفة العباسي فانتشرت التقاليد الشرقية في غانة ومنها لبس العمامة وغيرها.

فدل كل ذلك أيضا على أن الحضارة الحقيقية للسودان الغربي هي حضارة الاسلام .. فالذى يريد أن يقيم القومية الزنجية - اليوم - فعليه بالحضارة الاسلامية التي بها تطورت بلاد السودان الغربي وتنورت وليست الوثنية الخرقاء الصماء التي قامت عليها الامبراطوريات القوية المشهورة .. زمن ازدهارها وقوتها .. (١)

---

(١) امبراطورية غانة ، المصدر السابق ص ٨٤ بتصرف .

ثانيا - الطرق التجارية :

وقد كانت هناك بالمنطقة مسالك من الشمال الافريقي الى بـــلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى ، قد أشار اليها المؤرخ اليوناني المشهور باسم (هيرودوت) [١] (ت ٤٢٥ ق٠م) و (بوليبيوس - ت ١٤٠ ق٠م) وبليني الكبير ت حوالي ١١٥ ٠ ثم عرفها التجار مـــن العرب والبربر ،فأيدتها - أخيرا البحوث الأثرية الحديثة ...

فلنعط : كلا .. شرحا موجزا ..

١ - وصف الرحالة العرب للطرق التجارية بين الجنوب والشمال :

قد سار الرحالة العرب في هذه المسالك ووصفوها أدق وصـــف ، وبينوا المراكزالتجارية الكبرى التي تقع عليها ،والمراحل المختلفة بين كل مركز تجارى آخر .. ولذلك سمى كثير من كتب هؤلاء الرحالة بـ (المسالـــك والممالك).

---

(١) راجع دولة مالي الاسلامية ،الدكتور ابراهيم طرخان ص ٩ ٠
ترجمة (هيرودوت) (٤٨٤ - ٤٢٥)ق٠م مؤرخ اغريقـــي ينحدر من أسرة كريمة ولد بآسيا الصغرى وزار بلادا كثيرة منها (مصر) يقال انه (أبو التاريخ) لكون أول من جعله موضوع بحث علمي ولأنه هوالذى أنشأ فلسفة التاريخ يقال انه كان بارعا قديرا على صياغة ما يسمعه من القصص بأسلوب عذب ٠ راجع الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢١ ،ج٢ .

و اذا تصفحنا الجزء الذى بين أيدينا من " المسالك والممالك " لأبي عبيدالله البكرى و هو الخاص ببلاد السودان الغربي والمغرب ،وجدنا تفاصيل دقيقة تهدى السارى و ترشد السالك و تغنينا عن ذكر ما ورد في غيره مما كتبه الرحالة العرب الآخرون والأوربيون أيضا ،وفيما يلي بعض عناوين أبحاثه :

قد وصف البكرى هذه الطرق وصفا دقيقا مبينا المشهور من المدن والقرى في الطريق من مصر الى برقة والمغرب والى بلاد السودان وكما ذكر مدنها الشهيرة واتصال بعضها ببعض والمسافة بينها .. (١)

---

(١) راجع المغرب للبكرى (١-١٧٢) .

- المسافة بين مصر الى برقة والمغرب ذكرها في الصفحة الأولى .
- الطريق من دجل الى الواحات ص ١٤ .
- الطريق من القيروان الى فاس ص ٧١ .
- الطريق من طنجة الى فاس ص ١٠٩ .
- الطريق من فاس الى سجلماسة ص ١٤٠ .
- الطريق من سجلماسة الى اغمات ص ١٥٢ .
- الطريق من سجلماسة الى درعة ص ١٥٢ .
- الطريق من تاودكت الى أودغست ص ١٥٦ .
- الطريق من وادى درعة الى الصحراء الكبرى ص ١٦٣ .
- بلاد السودان ومدنها الشهيرة والمسافة بينها ص ١٧٢ .

ويسير ابن (خرداذبة)(١) على هذا المنوال ولكنه يكثر البحث والدراسة حول المسالك والممالك ببلاد المشرق ويجتزئ الحديث عن افريقية .

ويذكر قدامة بن جعفر وصفا مفصلا للطريق من الفسطاط الى برقة (افريقيا والمغرب)(٢) .

ويورد الاصطخرى تفاصيل دقيقة عن مراحل المسافات من بلد الى بلد بافريقية .(٣)

ويتحدث الدكتور شعيرة(٤) عن أهم طرق القوافل المغربية ذاكرا أنها لم تكد تتغير عما كانت عليه قديما ، وأنها لا تزال قائمة بين المغرب الشمالي وبين السنغال والنيجر .

----

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٨٤- ٨٥ .

(٢) نبذة من كتاب الخراج طبعت في مجلد واحد بعد المسالك والممالك لابن خرداذبة ووصف هذا الطريق يقع في صفحة ٢٢٠ ومابعدها .

(٣) المسالك والممالك ص ٣٧ .

(٤) المرابطون وتاريخهم السياسي ، دكتور محمد عيد الهادى شعيرة ص ١٦ - ٢٢ . وراجع أيضا القاموس الاسلامي جـ٣ ص ٢٥٥ أحمد عطية الله .

٢ - الكشوف الأثرية :

هذا ما ذكره الرحالة العرب من الطريق بين الشمال والجنوب فتبين لنا أن الصحراء الكبرى لم تكن فاصلا بين المنطقتين كما يدعيه هؤلاء الأوربيون .. بل لما جاءت الكشوف الأثرية قد توصلت الى كشف العديد من النقوش والرسومات كانت العربات تجرها الخيول .. كما اتضح من وضع تلك النقوش ان العربات كانت تتبع طريقين في سيرها :

الطريق الأول : من جهة ليبيا الحالية .

الطريق الثاني : من جهة جنوب الجزائر وكلاهما يتجهان نحو النيجر .(١)

وهكذا صدقت الكشوف الأثرية ما قرره الرحالة منذ قرون .

وعلى هذه الطرق أو المسالك قامت مدن تجارية لعبت دورا مهما -فيما بعد - في خدمة الاسلام .. فاذا برزت مدينة تجارية يؤمها البائع والمشترى سرعان ما تصبح مركزا ثقافيا يؤمها المعلم والمريد حتى أصبح من الشائع ان مركز الاحتكاك تبودلت فيها السلع والأفكار .

وقد تغلب الجانب الاقتصادى على بعض المراكز مثل (جنى) وبيغو(Bego) وجانب العلم على مراكز أخرى مثل (كانو) و(بندوكو) و (كونغ Kong) بالأمرين جميعا على حد واشتهر تمبكتو(٢) سواء تقريبا ..

---

(١) د/ شوقي الجمال ،تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ص ٤٧.

(٢) ادم الالورى ،موجز تاريخ نيجيريا ص٥٣.

ويقول باذل دافدسن :

" ان تمبكتو وجنى وولاة وجار وأجارير كانت في السودان تمثل (ميلانو) و (نورمبرج) بالعصور الوسطى ،كانت غنية وقوية ذات نفوذ تفرضه على المناطق المجاورة ،وكانت ترحب بالقوافل التي تأتي من الشمال عبر الصحراء تحمل الخيل والسيوف والأقمشة والسلع الصغيرة .

و تحمل الملح من مناجم الصحراء وكانت القوافل تعود بالذهب والعبيد والأخشاب . . و منتجات المناطق الاستوائية التي كانت تتجمع في بلد (بيجو Begoh) التي كانت مركزا لتجميع الصادرات الاستوائية ، وارسالها الى جني و منها الى الشمال ".(١)

وهكذا كانت هذه المدن مركزا تجاريا عظيما ،خدمت التجارة والمال من جانب وجذبت العلماء والمفكرين -فيما بعد - من جانب آخر وسنوضح مكانتها من المعلم عندما نتحدث في الباب الثالث عن أثر الاسلام في المنطقة.(٢)

---

(١) نقلا عن موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ١٩٥.
وراجع تاريخ السودان للسعدى ص ٢٠-٢١.

(٢) في صفحة ٤٨٨.

ثالثا - السلع التجارية :

قد أجمع المؤرخون على أن الذهب كان السلعة التي اشتهرت بها امبراطورية غانة حتى ملوكها كانوا يسمون بملوك الذهب ،و نضيف الى هذا أن الذهب لم يكن موجودا في أراضيها ،وانما هو في الأراضي الواقعة في الجنوب منها .. وهي منطقة (ونقارة) ولكن ملوك هذه المنطقة كانوا تحت حكم امبراطورية غانة فعلى هذا الأساس نسب الى أراض غانة الذهب.

وقد نبه الى هذا المسعودى اذ يقول :

" و تحت يد ملك غانة عده ملوك و ممالك فيها الذهب يظهر على وجه الأرض يستخرجه أهله ويعملونه قوالب كاللبن ".(١)

ويتحدث اليعقوبي أيضا عن هذا الذهب فيقول :

" وملكها - غانة - عظيم الشأن وفي بلاده معادن الذهب وتحت يده عدة ملوك ".(٢)

ويصرح الادريسي بأن الذهب كان يستخرج من أرض (ونقارة) فقال :
"وتتصل مملكة صاحب غانة بأرض ونقارة وهي بلاد التبر ..".(٣)

---

(١) أخبار الزمان ،ورقة ٣٩ .

(٢) كتاب البلدان ص١٥٧ .

(٣) صفة المغرب وبلاد السودان ص ٦ قطعة من نزهة المشتاق .

ان في هذه التقارير لدليلا واضحا على أن مناجم الذهب لم تكن في أراضي غانة نفسها و انما كان ملوكها يستجلبونه من أماكنها الى غانة ثم يتحكم ملوكها فيما يعرض في الأسواق مخافة هبوط السعر ويذكر البكرى : أن الملك كان يستصفي لنفسه أجود الذهب ويذع ما سواه لشعبه حتى لا تهون قيمة ذلك المعدن .

ثم يقرر البكرى في موضع آخر أن ما يستصفيه الملك كان مرتبطا بالحجم، ابتداء من أوقية الى الرطل .. وأن لبعض الملوك قطعا كبيرة من الذهب تصل الى حجم الحجر الضخم..

و اليك عبارة البكرى بهذا الصدد :

" وأفضل الذهب في بلاده (١) ما كان بمدينة (غيارو) وبينها و بين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوما ،في بلاده معمورة بقبائل السودان مساكن متصلة ،و اذا وجد في جميع بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك لنفسه و ترك منها للناس هذا التبر الدقيق ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدى الناس حتى يهون ،والندرة (٢) تكون من أوقية الى رطل ،و يذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم". (٣)

---

(١) الضمير عائد على ملك غانة.

(٢) الندرة هي القطعة الكبيرة.

(٣) المغرب ص ١٧٧.

وهكذا احتوت الخزائن الملكية ألواح الذهب رمز العظمة ،وكان حجمها كبيرا الى أن أصبحت شهيرة في جزء كبير من العالم المتمدن . ووصل وزن الواحدة منها على حد قول الادريسي ثلاثين رطلا وكان الملك يقيد بها حصانه المفضل .(١)

ولنعد لتجارة الذهب لنقرر أن امبرطاورية غانة كانت تبيعه السى أقطار مختلفة ..

مصر والشمال الافريقي وأوربا ويقال ان أحد التجارالمصريين هو الذى اشترى كتلة الذهب الكبرى التي كانت ملوك غانة يحتفظون بها في قصورهم .. ويقرر باحثون أوربيون أن غرب افريقيا كانت هي المصدر الأساسي للذهب مئات السنين حتى اكتشفت امريكا واليك بعض تصريحاتهم :

- يقرر (باذل دافيدسن - Basil Davidson) مايلي :

" انه ليس من المبالغة أن نقول : ان غربي السودان كان أهم مكان لتصدير الذهب الى دول البحر المتوسط ".(٢)

ويقول (موني) (Mauny)

" كان السودان أعظم مصدر للذهب الى عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى حتى تم كشف اميريكا ".(٣)

---

(١) الممالك الاسلامية ص ١٠٨ المصدر السابق للدكتور زاهر رياض.

(٢) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ص ١٤١.

(٣) راجع امبراطورية غانة الاسلامية ص ٧٠ .

وتقول الباحثة ماجيريت شيني :

" لقد اعتمدت الدول الأوربية على الذهب الوارد اليها عن طريق غانة اعتمادا كبيرا ". (١)

ويتحدث فيج (Fege) عن الموضوع نفسه اذ يقول :

" كان الذهب الواصل - من غرب افريقيا - الى مراكش ، عنصرا هاما في اقتصاد تلك البلاد خلال العصور الوسطى ". (٢)

وهكذا كانت غانة غنية .. وكانت الحياة بها حياة رخاء وغنى بحيث كانت تصدر الذهب والرقيق والجلود والعاج والكولا والصمغ والعسل وكذلك القطن والقمح .

وأما ما تستورده فهي كالتالي :

الملح والنحاس الأحمر والفواكه المجففة ومن بينها التمر ، وكما كانت تستورد كلا من أدوات الزينة والمسابح والودع (٣) سمونه باللغة الماندى كيكي (Keke) أو (كولون - Kolon) .

وكانت هذه السلع توزع في جميع أرجاء غرب أفريقيا . والمعروف أن المسابح كانت تصنع من المغرب فكان ذلك مصدرا ماليا للمغرب بشكل ملحوظ . (٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٢)

(٣) امبراطورية غانة ص ٦٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٥ .

وقد أجمل باذل دافيدسن غنى غانة ورخاءها في الكلمات التاليـــة :

" تقع غانة بين مناجم الملح في الشمال ومناجم الذهب فـي الجنوب ".(١)

وبيان ذلك أن أودغست تقع في شمال غانة فكانت (أودغست) تصدر الملح الى غانة وقد شهد ذلك ابن حوقل في القرن العاشر الميلادى ووصفه بمايلي :

" وحاجتهم - أى حاجة أهل غانة - الى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام ، فانه لا قوام لهم الا به ،بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلثمائة دينار."(٢)

هذه هي أهم السلع التجارية التي كانت مقصد التجار من جميع بلدان الشمال الافريقي ولكن أهم طوائف التجار التي عملت مع غانة ،تجار سجلماسة ،يقول ياقوت :

" وأهل هذه المدينة (أى سجلماسة) من أغنى الناس وأكثرهم مالا ،لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها .."(٣)

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة ص ٨٤ .

(٢) كتاب صورة الأرض ص ٩٨ .

(٣) معجم البلدان ٥٣/٣ وراجع كذلك كتاب نسق الأزهار في عجائب الأقطار تأليف ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ/ ١٩٢٤) .

وهكذا جاءت هذه الحقائق المذهلة لتفند مزاعم الأوربيين القائلين ان أهل المنطقة كانوا قبل الاحتلال الأوربي يعيشون في فقر مدقع وليست لديهم وسائل ينمون بها ويمشون الى الامام ولا رجاء في خلاص .. (١)

وصدق الله تعالى :

* وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا * (٢)

صدق الله العظيم .

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة المصدر السابق ص ١١٦.

(٢) سورة الإسراء آية ٨١

المبحث الثالث

نظـــام الضرائـــــب

من سعادة غانة أن كانت في الشمال منها مصادر الملح وفي الجنوب الذهب ... وكانت علـى الطريق تنتفع كثيرا بتبادل هاتين السلعتيـن بين الاقليمين .. (١)

اذ كانت حاجة الجنوب للملح شديدة ،لا تقل عن حاجة الشمـال للذهب حتى كان الذهب يستبدل بالملح وزنا بوزن وتارة بوزنين . (٢)

وبعبارة أدق وأوضح .. لم يكن الملح - كيومنا هذا - سلعة ميسورا كان أهل الجنوب يشترون مثقاله بمثقال ذهب لحاجتهم اليه .

وترتب على ذلك أن ملوك غانة - وقد أدركوا الثراء الذى تدره هذه السلعة الدولية - كانوا يطمحون أبدا الى احتكار مصادر الذهب في الجنوب في أرض (وانقرة) . وكانوا يهدفون فوق هذا الى الاستيلاء علـى أهم مصادر الملح في الشمال خاصة تلك التي كانت في (تغزى) فـي الصحراء الكبرى الشمالية .

ولم يكتف ملوك غانة بذلك بل كانوا يطمحون الى التحكم في الطريق الموصلة بين هذين المصدرين الأساسيين من مصادر الثراء.

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة . تأليف باذل دافيدسن ص ١٤١ .

(٢) كتاب صورة الأرض ،ابن حوقل ص (٩٩)

وكان من نصيب غانة ان استطاعت احتكار الذهب و ان لم يستطع احتكار الملح ، ولكن امبراطورية مالي وريثة غانة اقتربت من النجاح في الوصول الى الهدفين .(١)

والشاهد القوى الآخر على معرفة الغانيين بفنون التجارة و على حذق الملك و مهارة مرشديه لهذه الفنون تنظيمهم للجمارك تنظيما لا يختلف في مبدائه العامة عن تنظيم الدول الحديثة لهذه الأداة التي تؤثر كثيرا على التجارة .

يحدثنا البكرى عن هذه المهارة(٢) اذ يقول :

" ان ملك غانة كان يفرض دينارا من الذهب تجبى له على كل حمل حمار من الملح يدخل المدينة ، ودينارين على كل حمل يخرج منها ، لعلمه أن الملح والذهب يحفظان قيمتهما دائما على أن السلع الأخرى كانت مهمة أيضا . . فقد كان كل حمل من النحاس القادم لغانة من مناجمه في الصحراء الجنوبية يدفع فيه للملك خمسة مثقالات (عملة ذهبية كانت تساوى الأوقية) بينما كانت السلع الأخرى تدفع ضعف هذا المقدار.(٣)

---

(١) يرجع الى موسوعة التاريخ الاسلامي المصدر السابق ص ١١٧ فمابعده.

(٢) المغرب المصدر السابق ص ١٧٦ ولكن بتصرف طفيف .

(٣) افريقيا تحت أضواء جديدة . المصدر السابق ص ١٤٢.

فكل هذا يدل على أن غانة استحدثت ثراءها من التجارة والضريبة وانها استمتعت بفترة طويلة من الاستقرار والحكم المركزى القادر الناجح ..

ولما وقف الكاتب الاوربي (باذل دافيدسن) على هذه الحقائق الثابتة التي تنفي ما ألصق بالمنطقة من التأخر والهمجية ما وسعه الى أن صرح بالتصريح التالي :

" نذهب في المقارنة بين القارتين : الأوربية والسودانية فلا نغالي ان قلنا : (ان تمبكتو وجني وولاتا وجاو وأقادس وأودغست كانت في سودان العصر الوسيط تحتل عين المكان التي كانت تحتله (ميلان) في أوربا (ونورمبرج) .

وأضاف قائلا :

" لن يقول أحد أنها كانت على المستوى الذى بلغته مدن أوربا في الثقافة والحضارة والترف ، ولكننا نؤكد أنها لم تكن أقل ثراء منها أو أقل منفعة وهيبة في بيئتها التي ازدهرت فيها وفي الزمان الذى ظهرت فيه ..

يقول في الصفحة نفسها :

" لا يحسبن أحد أن هذا الاضطراب وتداخل الدول وتكاثر العناصر المتنافرة كان وقفا على غرب أفريقيا وحدها ، كانت أوربا كذلك على ذلك العهد .. ورغم أن التباين بين القارتين كان تباينا منبثقا من الاختلاف بين خطوط العرض التي يعيش فيها كل شعب .

فان الطرق الجوهرية التي مشاها التقدم الاجتماعي في كل من

القارتين كانت قريبة من بعض قربا يدهش له الانسان ". (١)

ثم اختتم هذه المقالة القيمة بقوله :

" فقد كانت التجارة هنا و هناك قوة دافعة للامام نشأ معها الحكم المركزى من نواة صغيرة الى أداة فعالة تحيط بالكثير من شئون النـــاس ، كما نشأت معها (الضرائب) في المجتمع .. "(٢)

وهكذا يقول هذا المنصف الأوربي بهذا التصريح الذى لا يحتاج الى أى تعليق وانما نقول فقط :

" الفضل ما شهد به الأعداء ".

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ . بتقديم وتأخير وفيه تصرف طفيف أيضا .

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعيـــــــــــــــة

وفيه المبحثان التاليان :

المبحث الأول : مفهوم وتكوين الأسرة في بلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي .

المبحث الثاني : طبقات المجتمع في غربي أفريقيا .

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية

مقدمة :

ونأتي - الآن - للحديث عن الحياة الاجتماعية ببلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي . لا لأجل السرد التاريخي ولكننا نريد بذلك أن يكون تاريخا موضوعيا نقارن به بين الحالتين : (الوثنية ، والعهد الاسلامي) كما قلنا سابقا . وليتبين لنا - بوضوح - أن تقدم هذه المنطقة لم يكن الا بعد ما دبت فيها العقيدة الاسلامية وانتشرت خلافا لما يدعيه دعاة القومية الزنجية ، الذين رفعوا شأن المنطقة حتى صارت أكبر من حجمها . . ولأجل كل هذا نريد هنا أن نتحدث عن الحالة الاجتماعية في ناحيتين فحسب هما :

١ - مفهوم وتكوين الأسرة في المنطقة .

٢ - طبقات المجتمع .

فعند دراسة هاتين الناحيتين يظهر الفرق الجوهرى بين الحالتين المذكورتين لنعط لكل منهما شرحا موجز . .

المبحـــث الأول

مفهوم وتكوين الأسرة في بلاد الســـودان الغربي قبل المد الاسلامـــــي

ويتكون هذا المبحث من :

١ - مفهوم الأسرة .

٢ - تكوين الأسرة .

١ - مفهوم الأسرة :

من المعلوم أن البناء الاجتماعي في امبراطورية غانة قد قام علـــى النظام القبلي شأن غيرها من الامبراطوريات الافريقية والممالك التي قامت هناك غير أن قيام حكومة مركزية مسيطرة - مثل حكومة غانة ووريثتيها : (مالي وصنغاى) ،ساعد على اضعاف التناحر بين القبائل .. كمـــا أن الاسلام لما أصبح - فيما بعد - دستور هذه الدول كان أكبر عامل فـــي اضعاف العصبية القبلية وان لم يقض عليها تماما حتى اليوم .

فالحديث - اذن - عن بيان مفهوم الأسرة عند سكان هذه المنطقة حديث طويل ومتشعب ولكننا نستطيع أن نجمله فيما يلي ،فنقول :

اذا بحث الانسان عن مفهوم الأسرة في المجتمعات القبلية الافريقية يجده مختلفا عن مفهومه المألوف .

فالمألوف عند الناس اذا سمعنا كلمة "أسرة" فالذهن يتجه بنا -بادئ ذي بدء - الى تلك الجماعة الصغيرة التي تضم الزوج والزوجة وأولادهما غير المتزوجين .

لكن هذه الصورة ليست هي الصورة الوحيدة للأسرة في المجتمعات القبلية الافريقية فمفهوم الأسرة عندهم - لأول وهلة - هو ما يعرف : (بالأسرة الممتدة) أى تمتد الأسرة المألوفة فتشمل - فضلا عن الأب والأم - اخوة الأب وأولادهم والأحفاد وأتباعهم من العبيد (١) - ويسمون هذا في لغة ماندى ،ب (فاصو) (Fasso) أى (وطن الوالد) هذا هو مفهوم الأسرة عند المجتمع القبلي الافريقي ..

فكل أسرة من هذا المفهوم الشامل ،تتخذ لنفسها مكانا خاصا من القرية يسكنون فيه لايشاركهم فيه أحد من أفراد الأسر الأخرى .

ورب الأسرة هو عادة أكبر أعضائها من الذكور .. وقد يسمح العرف بعزل رب الأسرة اذا لم يكن في مستوى منصبه واحلال عضو أصغر منه سنا محله .. وخاصة اذا كان الأصغر من جهة الأبوة والأكبر من البنوة فيقدم الذى هو من جهة الأبوة على الذى هو من جهة البنوة وان كان أكبر منه سنا .

---

(١) يجب أن نفرق هنا بين المجتمع الأبوى وبين المجتمع الأمي .. فالمجتمع الأبوى فهو الذى نتحدث عنه هنا . وأما المجتمع الأمي فهو كما قلنا سابقا ان الميراث كلها يؤول الى ولد الأخت على النحو الذى شرحناه سابقا . فكل ذلك صور من الصور الجاهلية لا يقرها الاسلام ابدا . تاريخ افريقيا الغربية . كانال وينان (C anale Niane).
نقلا عن افريقيا الغربية ، نعيم قداح ص ٣٦ .

ان الصورة الوثنية الجاهلية الكامنة في هذا المفهوم للأسرة ، هو ان لرب الأسرة في هذا المجتمع القبلي الافريقي على افرادها ، في العادة نفس الحقوق التي للأب في الأسرة بمعناها الضيق". (١)

وبيان ذلك أنه اذا مات أحد من أفراد هذه الأسرة الكبيرة تصبح ميراثه ملكا لرب الأسرة بصرف النظر عن أولاده وزوجاته فلا نصيب لأحدهم في ذلك الميراث .. ان هذه الصورة - بلا شك - صورة وثنية جاهلية - لا تقرها الفطرة السليمة - فضلا عن الدين الاسلامي دين العدالة والاحسان . لذا لماجاءت العقيدة الاسلامية الى هذه المنطقة استطاعت أن تخفف من هذه الظاهرة وان لم تقض عليها - حتى الآن - قضاء تاما .
وأما تعدد الزوجات في تلك الفترة فكانت تعتبر من المفاخر والرفعة في المجتمع حتى كان أقل ما يتزوج به بعض الملوك من النساء يساوى ٣٣٣٣ امرأة . وأما العامة فلا يوجد عندها حد ولا قانون .

ولكن لما انتشرت العقيدة الاسلامية في تلك الربوع وحددت عدد الزوجات الحرائر الى أربع زوجات لم يعد أحد منهم الى هذه العادات الوثنية الظالمة (٢) الا الوثنيين الذين لم يزل بعضهم يفعلون ذلك الى الآن .

---

(١) تاريخ أفريقيا الغربية . كانان وينان (Canale Niane)
نقلا عن افريقيا الغربية ، نعيم قداح ص ٣٦ .

(٢) الاسلام والتقاليد الافريقية ، محمد سلام زناتي ص ٢٧ .

المبحث الثانـي

طبقات المجتمع في غربي أفريقيـا

ان الطبقية كانت فاشيـة في جميع المجتمعات الافريقية ،تجدهم يقسمون المجتمع الى عدة طبقات بل كانوا يقسمون العمل بين النـــاس أيضا . . .

فاذا رجعنا الى المجتمع الذى كان يعيش في غانة سنجده ينقسم الى طبقتين رئيسيتين متميزتين :

. أولا - الطبقة الارستقراطية والملكية والحاشية والنبلاء والقواد وأضرابهم وكان الملوك الأوائل لحكومة غانة وهي في عهدها القديم الوثني ، من آل (سيسى) [(١)] فقط . فظلت هذه الأسرة وحدها تحكم البلاد حتى مطلع

----

(١) قد استطاع الباحثون أن يصلوا الى تواريخ بعض ملوك غانا من آل سيسى فيجمل بنا أن نثبت بعضها هنا :

١ - كايا منغاسيسى كان يحكم حوالي سنة ٧٧٠ م وهو أول حاكم أسود بعد ما انتهى حكم البيض .

٢ - بنتجزى دوكورى كان يحكم حوالي عام ٧٩٠ م .

٣ - تكلان (Tikalan) كان يحكم حوالي مطلع القرن التاسع الميلادى .

٤ - تلوتان آوبولاتان (Tloutan) وهو ابن السابق كان يحكم حوالي عام ٨٣٧ م.

===

القرن الثالث عشر الميلادى باستثناء الفترة التي استولى خلالها المرابطون على عاصمة غانة من (١٠٧٦-١٠٨٧).

وكانت هذه الاسرة لها مميزات خاصة في جميع الحقوق، حتى في اللباس.

ثانيا - الطبقة الثانية وهي من عامة الشعب بمختلف فئاته.
وتمارس الطبقة الأولى سلطة كبيرة بسبب استلامها للقيادة وتملكها للقوة. ففرضت على الطبقة الثانية أنواعا من السخرة.. أى عمل بدون أجرة.

وأما تقسيم الأعمال بين الناس في هذا المجتمع الطبقي فقد كان متنوعا بين الزراعة والصناعة و ممارسة بعض الحرف الأخرى.. فيما يشبه التخصص، فمثلا اشتهرت عشيرة كوروما (Koroma) بصناعة الحديد وهي تشكل مع غيرها من العشائر التي تمارس المهنة ذاتها قبيلة الحدادين الذين كان لهم مركز مرموق نظرا لحاجة الدولة الماسة الى مصنوعاتهم.[x]

=== ٥ - بسى (Beci) حوالي ١٠٦٣م.
٦ - تنكا منين وهوابن أخت السابق ولي عرش غانة حوالي عام ١٠٦٣ م وكان لقب (كيمغ) أن ملك الذهب يطلق على جميع ملوك غانة والكلمة مستعملة حتى الآن في غرب افريقيا بمعنى شيخ القبيلة.. فيقولون له (جيمغ - به) (Kemogoba) أى الشيخ الكبير.
راجع امبراطورية غانة ص ٢٧ - ١٨٠ وتاريخ السودان ص ٩، وتاريخ الـ ص ٤٢.

الا أن هناك ظاهرة وثنية في هذه المهنة و هي أن أهل بلاد السودان الغربي كافة - قديما وحديثا - يكرهون الحدادين في ناحية واحدة يعني ناحية المصاهرة ، فلا مصاهرة بينهم وبين قبائل الحدادين اعتقادا منهم أن من تزوج منهم من قبيلة الحدادين تزول البركة منه الى الأبد فما زال الناس حتى الوقت الحاضر يحملون هناك هذه الفكرة رغم كونهم مسلمين -

ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل تعدى الحدادين حتى وصل الى الشعراء أيضا يسمونهم (جيليبة Djeliba) فهم الذين يحفظون الانساب والوقائع الهامة .. وهم الذين يمدحون الملوك والأغنياء والعظماء .. أى الصحفيين في لغتنا المعاصرة وهم السفراء بين الملك والشعب . و مع كل ذلك اصبحوا منبوذين لأجل الفكرة الوثنية القائلة : (ان أية مصاهرة مع هؤلاء الشعراء تزيل البركة من الانسان من ماله وأولاده وكل ما يملك) ان هذه الفكرة لم تزل سائدة في المجتمع السوداني بغربي أفريقيا) الى يومنا هذا لا فرق في هذا بين مسلم وكافر ... فالكل يكرهون هذين الصنفين من الناس .

و كما كرهوا الصنفين كرهوا أيضا كل من يزاولون صناعة الأحذية فلا يصاهرونهم أبدا من القديم الى اليوم . (١)

هكذا رأينا نموذجا عن حياتهم الوثنية في الفترة السابقة للاسلام.

---

(١) راجع : Histoire de L'Afrique Occidentale : Niane et C anale conakry 1960.

وراجع افريقيا الغربية في ظل الاسلام تأليف نعيم قداح ، عمرالحكيم ص ٣٦.

وراجع كذلك : L'Histoire de L'A.Of: Jaunet et Barry Paris 1949 p.

الفصل الرابع

الحالة الثقافيـــــــــة

فيه تمهيد ومبحثان :

المبحث الأول : الناحية اللغوية .

المبحث الثاني : اللغات الثقافية في غرب أفريقيا .

الفصل الرابع

الحالة الثقافيـــــــة

تمهيد :

ان الحديث عن الثقافة حديث عن كلمة قد خفي مدلولها الصحيح على كثير من الناس ، رغم كـثرة استعمالها في المجتمعات . .

فهم لا يطلقون لفظة الثقافة الا على الذين درسوا اللغات الغربية ولكن العكس هو الصحيح ، فيحسن بنا - اذن - وقبل أن نتحدث عن ثقافة بلاد السودان الغربي ، أن نرجع الى معاجم اللغة العربية والأجنبيـــة للوصول الى معنى شامل . . . والى بيان شاف يبين خطأ هذا الاتجاه الذى أصبح من التيارات الفكرية التي حوربت بها العقيدة الاسلامية فـــي المنطقة .

فاليك فيما يلي تفاصيل ذلك :

فالثقافة في معناها اللغوية السريع ، يدل على الحذق والفطنـــة (Culture) يقال : ثقف الرجل ، اذا صار فطنا (١) كما يقال أيضـــا

---

(١) راجع لسان العرب ، تأليف الامام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد ابن منظور الافريقي ٩/ ١٩ .
وراجع كذلك تاج العروس من جوهر القاموس ، محمد مرتضـــى الزبدى ٦/ ٥١ وراجع كذلك محيط المحيط ، تأليف المعلم بطرس البستاني ١/ ١٦١ .

(تثقيف العلم أو الصناعة صار ماهرا ،أو حاذقا فيهما [(١)] كما أفاد بذلك ابن منظور . [(٢)]

ويتحدث (ابن فارس) في أن من معانيها اللغوية أيضا :
الظفر بالشيء ،واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ [(٣)]
وقوله تعالى : ﴿ فاما تثقفنهم في الحرب ﴾ [(٤)] ،وقول الشاعر :

فاما تثقفوني فاقتلوني
وان أثقفت فسوف ترون بالي [(٥)]

---

(١) لسان العرب ١٩/٩ .
(٢) انظر مقاييس اللغة لابن فارس أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا جـ١ مادة ثقف .
(٣) الاية في سورة البقرة آية ١٩١ .
(٤) سورة الانفال ٧٥ والمعنى هنا :
حيث وجدتموهم في حل وحرم. وأصل الثقف : الحذق كما سبق ولكن يتضمن معنى المسك فالظافر بالشيء يمسكه : فالقياس بأخذهما مأخذا واحدا .
(٥) والبيت في اللسان تحت مادة ثقف .

وينبه الزمخشرى على أن معناها المجازى : التأديب والتهذيب والتقويم فيقال : " ولولا تثقيفك وتوفيقك لما كنت شيئا " كما يقال : " وهل تهذبت ،وتثقفت الا على يدك " وأشار أيضا الى أن من معانيها المجازية : الملاعبة بالسلاح فيقال : " ثاقفه فتثقف : أى لاعبه بالسيف فتغلب ".[(١)]

ويذكر (بطرس البستاني)[(٢)] أن الكلمة تدل أيضا على تقويم الرمح وتسويته . فيقال : (ثقف الرمح) قومه وسواه بالثقاف فالثقف في عرف الشعراء (الرمح).

كما مشى العلامة الجوهرى[(٣)] على منوال الزمخشرى فيرى أن الكلمة تستعمل استعمالا مجازيا ومثل ذلك قوله :

" الثقافة : كل ما فيه استنارة للذهن و تهذيب للذوق " .

هذا بعض ما قيل من معاني هذه الكلمة اللغوية والمجازية ...

---

(١) أساس البلاغة ،تأليف الامام العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ص ١٢٤.

(٢) كتاب محيط المحيط المرجع السابق ١/ ١٦١.

(٣) الصحاح في اللغة والعلوم ،تجديد صحاح للعلامة الجوهرى للمصطلحات العلمية والفنية ١/ ٣٤٥.

وأما المعنى الاصطلاحي فهو أشمل من ذلك .. فقد اصطلح أن الثقافة هي أسلوب الحياة السائد في أى مجتمع بشرى ." (١)

و هي التي تميز المجتمع الانساني عن التجمعات الحيوانية وتستمد من تاريخ أى شعب من الشعوب ،فتصبح العادات والافكار والاتجاهات لهـذا الشعب ثقافة له ثم تنتقل الى الأجيال المتعاقبة ." (٢)

من هنا أدركنا أن اطلاق كلمة الثقافة على المثقف الأوربي فقط خطأ فاحش ولكننا نقول : ان هذا التعريف هو نفس تعريف الحضارة فما هو الفرق بينهما حينئذ ؟

فالمحقق أن الثقافة شيء والحضارة شيء آخر كما أشار الى ذلك كل من (د . جبور عبد النور والدكتور سهيل ادريس) فقالا :

" ان الثقافة ذات طابع فردى و تنصب بخاصة ،على الجوانب الفكرية والروحية واللغوية ، في حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعي .." (٣)

---

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية تأليف اسماعيل ابراهيم ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق .
وراجع معجم متن اللغة ،موسوعة لغوية حديثة للعلامة أحمد رضا جـ١ مادة ثقف.

(٣) راجع المنهل قاموس فرنسي عربي ص ٧١ .
وراجع الصحاح في اللغة والعلوم. الجوهرى مادة ثقف .

فعلى هذا التقرير، نخلص الى القول ان الثقافة تتناول في جوهرها ناحيتين لهما أهميتهما الكبرى :

١- الناحية اللغوية.

٢- الناحية الفكرية.

لنعد - الآن الى الحديث عن الناحية الثقافية عند سكان بلاد السودان الغربي لنقف على نصيبهم من هاتين الناحيتين :

المبحث الأول

الناحيـة اللغويـــــة

لما كانت اللغة تعتبر العامل الرئيسي لنقل الثقافة ،وان كانت أنماط السلوك والاتجاهات الأخرى تكتسب بوسائل أخرى فيحسن بنا -اذن - أن نبتدئ باللغة فنؤجل الحديث عن الناحية الفكريـــة والروحية الى الحديث عن الحالة الدينية في غرب أفريقيا الآتية. فنقول : ان الناحية اللغوية تشتمل على ناحيتين هما :

١ - الكتابة.

٢ - الخطابة .

و اليك -فيما يلي - توضيحا لكل منهما عند أهل السودان الغربي ..

١ - الكتابة :

قد أجمع المؤرخون العرب القدامى الذين تحدثوا عن ثقافة هـذه المنطقة عن كتب بل عن كتب أيضا ،على أن أهل السودان الغربي لم تكن عندهم أية معرفة بالكتابة قبل المد الاسلامي فاكدوا تقريرهم هذا بأن العرب عند القدوم على هذه الديار لم يعثروا على كتابة ما باللغات المحلية.(١)

فدل هذا - بكل تأكيد - على عدم وجود الكتابة عندهم يدونون بها تاريخهم المبكر والأحداث المتعلقة بها ..

---

(١) حسن الوزان ليون الأفريقي ،وصف افريقيا ص ٨٠.

واضافة الى ذلك ، ان الباحثين في عهد الكشوف الأثرية الحديثة قد صرحوا بأنهم لم يعثروا على أية كتابة فوق القبور أو فوق جدران عمارة ما فدل هذا أيضا على عدم وجود كتابة يسجلون بها ثقافاتهم الذاتية (١) وانما وجدوا الكتابة بالخط العربي فقط ...

وقد وصف رولاند أوليفر وجون فيج حالات الدول السودانية آنذاك في النص الذى نقلناه عنه سابقا اذ يقول :

لقد كانت الدولة السودانية - آنذاك - حكومة استبدادية وحكومة بلا اوراق ولا حبر ولا مكاتب وكلها أجهزة تعتمد على موظفين يعينهم الملك وفق رغباته الخاصة... وكانت تكفي مجرد ايماءة من رأسه المقدس أو كلمة من فمه المقدس لتعبر عن هذه الرغبة (٢)

ولكن ذلك كان قبل أن ينتشر هناك الاسلام ، ولما انتشر الاسلام كان أكثر وزرائه من المسلمين .

وهكذا اتضح لنا جليا ان أهل السودان لم يكونوا يعرفون الكتابة قبل المد الاسلامي وبالاسلام وثقافته بلغوا شأوا بعيدا من الثقافة والتقدم والازدهار .

ولست أدرى ماذا يقول دعاة القومية الزنجية تجاه هذه الحقائق العلمية الجادة ، أو عندما يقررون ما كتبه عدد من الباحثين الأوربيين

---

(١) الدكتور ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة ص ٨٢ .
(٢) موجز تاريخ افريقيا ص ٤٨ .

المنصفين كامثال منغوبارك (Mango Park) الرحالـــة الفرنسية اذ هويصرح بالحقيقة التاليـة :

" لقد عمل الاسلام على تطوير بلاد الزنوج ولا يزال يعمل ". (١)

وأمثال القمص ستانلي (Stanley) :

" لا يمكن أن ننسى أن الاسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت الى تقدم وتطور عمارة افريقيا الواسعة ". (٢)

---

(١) راجع دولة مالي الاسلامية المصدر السابق ص ٦٠

(٢) المرجع السابق ص ٦٠

٢ ـ الناحية الخطابية :

فقد رأينا في السطور الماضية أن الأفارقة في السودان الغربي ، لم تكن لديهم معرفة بالكتابة ،ولكن المؤرخين ـ كافة ـ لم يختلفوا في وجود لغة يتخاطبون بها وينشرون بها ثقافاتهم الذاتية وحضارتهم من تاريخ وعادات و تقاليد وأفكار وأسلوب حياة ..

فقد أثبتوا أن هذه السلالة كانت لديها فصاحة فائقة في ألسنتهم وخاصة شعرائهم الذين هم السفراء بين الملوك والشعب يسمونهم بلغة الماندى ب (جيلبه Djeliba) يوجد لكل أسرة كبيرة واحد من هؤلاء ،مهمته كما أفاد بذلك الدكتور ابراهيم طرخان ـ " حفظ كل مايتعلق بتاريخ الأسرة من سجلات وأخبار متواترة و يتعين على هذا الشخص أن يكون ملما دائما بأمجاد الأسرة التابع لها . وكان هؤلاء على درجة كبيرة من سعة المعرفة وتنوعها فضلا عن المقدرة على أدائها .." (١)

بيان ذلك : ان هؤلاء الشعراء كانوا يعرفون جميع أنسابهم وتاريخهم بل جميع عاداتهم وتقاليدهم الموروثة .. فيستطيع أحدهم عند مناسبة الولادة أو الموت أن يقف أمام الجماهير فيذكرهم بأمجادهم التليده و تاريخهم الموغل في القدم وعاداتهم التي يجب أن يتمسك بها الأجيال الجدد و يتربون عليها فلنستمع الى المسعودى الذى كتب عن المنطقة وأهلها في القرن العاشر الميلادى اذ يقول :

----

(١) دولة مالي الاسلامية ص ٨ ، المصدر السابق .

" وهم - السودان - أولو فصاحة في ألسنتهم و فيهم خطباء بلغتهم ، يقف الرجل منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم ".

وأضاف قائلا :

" ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم ، وليس لهم شريعة يرجعون اليها بل رسوم لملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم .."(١)

و نستنتج من هذا النص الصريح مايلي :

أولا : أن أهل السودان الغربي كانت في ألسنتهم الفصاحة كما كانت لديهم المقدرة على أداء المعارف التي كانوا يتوارثونها أبا عن جد ..

ثانيا : كانوا على علم متقدم في فن الخطابة.

ثالثا : كانت توجد عندهم معرفة بسياسة الرعية تستمد من عاداتهم و تقاليدهم الوثنية الا أن الاسلام كان عمادهم زمن ازدهار المنطقة وتقدمها .

رابعا : كانت عندهم معرفة تامة بتاريخ أسلافهم وأنسابهم .

هذا وصف ضئيل عن الحالة الثقافية ببلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي . فلنتحدث الآن عن اللغات الثقافية في هذه المنطقة.

---

(١) مروج الذهب ١٧/٢.

اللغات الثقافية في غرب أفريقيا

تتميما للفائدة ،نود أن نختتم هذا الفصل بذكر اللغات الثقافية التي كانت سائدة في الامبراطوريات السودانية مثل غانة ووريثتيها (مالي وصنغاى).

وهي اللغات الثقافية ذاتها حتى في الوقت الراهن في المنطقة.

توجد في هذه المنطقة لغات كثيرة تنقل بها الثقافات الى المجتمع ولكن أشهرها ثلاث :

١ - لغة الماندى. Mand

٢ - لغة ولوف . Wolof

٣ - لغة الغلاته. Foulata ou Peuls

واليك بيانا مختصرا .. لكل منها :

أولا - لغة الماندى :

ان هذه اللغة تحتل الدرجة الثانية بعد اللغة العربية في نشر الثقافة في المنطقة قديما وحديثا.

وكلمة (ماندى Mende) لها معاني عديدة ولكن أشهرها أنها مصطلح لغوى أكثر من جنس فهو يطلق ويراد به مجموعة القبائل المتكلمة بلغة ماندى .(١)

---

(١) د. ابراهيم طرخان دولة مالي ص ٩٢ وتنتشر لغة الماندنجو في العصر الحاضر في المناطق الجبلية بأعلى نهر السنغال وتتركز القبائل المتكلمة بها في أقاليم سانجاران (Sangaran) وجانجاران (Gangaran) وبامبوك (Bambouk) ووادى غامبيا الأدنى ،كذلك تنتشر هذه القبائل شمالا حتى الصحراء.

ولهذه اللغة أهمية كبيرة كانت احدى فروعها وهي السوننكي سائدة في امبراطورية غانة كما كانت هي اللغة الرسمية في امبراطورية مالي الاسلامية التاريخية العظيمة . ولكثرة انتشارها في جميع الأوساط العلمية فيغرب افريقيا عرفت بأنها لغة الاسلام لأنها لا يتكلم بها - غالبا - الا مسلم.. وبها تفسير القرآن عند غالبية سكان المنطقة بما في ذلك القطاع الأكبر من (مالي الحديثة وغينيا وغامبيا وسيراليون و بعض المناطق السنغالية وشمال كل من ساحل العاج وغانا الحديثة والجزء الكبير من فلتا العليا ...

فروع لغة ماندى :

ان أهم فروع لغة ماندى أربعة :

١ - لغة جولا .	Djoula
٢ - لغة المالنكي .	Malinke
٣ - لغة البمبارا .	Bambara
٤ - لغة السوننكي .	Soninke

وتوضيح ذلك فيما يلي :

١ - ان فرع (جولا) يتكلم بها - غالبا - سكان ساحل العاج والمعلوم ان سكان ساحل العاج المسلمين - كما سيأتي تفصيل ذلك - قد هاجروا بعد تدهور امبراطورية مالي التاريخية ،من مواطنهم الأصلية و واستوطنوا في ساحل العاج سنة ٤٠٠ اهم.(١)

---

(١) Histoire de L'Islame au 16- siecle
" " la Cote D'Ivoire
" " " " D'Ivoire.

ولما كان غالبيتهم تجارا ،أطلق على لغتهم (ماندى جولا) أى أهل ماندى التجار .. ثم بمرور الأيام أصبحت الكلمة تستعمل لتكون مضادة لكلمة (كافر) .. اذا قيل : ان هذا الرجل (جولا) معناه أنه مسلم لذا أصبحت تعرف بلغة المسلمين .. وأما المناطق التي تتكلم بهذه اللغة فهي كالتالي :

١ - منطقة كونج .

٢ - منطقة بندوكو .

٣ - منطقة جيميني .

٤ - منطقة بونا .

٥ - منطقة أوجيني . وسناما : القديمة والحديثة .

٦ - منطقة مانكونو .

٧ - منطقة طوبا .

٨ - منطقة غانوى .

٩ - منطقة سيفيلا .

١٠- منطقة كوروغو .

١١- منطقة بونديالي .

١٢- منطقة فيريغي .

١٣- منطقة كاتيولا .

١٤- منطقة باربو .

هذه هي الأماكن التي تتكلم هذه اللغة الثقافية (لغة جولا) رسميا الا أنها منتشرة في جميع انحاء ساحل العاج حتى أماكن الغابات الكثيفة + وقد استعارت هذه اللغة كثيرا من مفرداتها من اللغة العربية حتى قيل

ان كلمات هذه اللغة كلها مفردات عربية . وقد قام كثير من الباحثين بجمع هذه الكلمات العربية التي تسربت في هذه اللغة . مثل الدكتور ابراهيم طرخان في كتابه القيم دولة مالي الاسلامية.(١)

١ - فرع المالنكي أو المانكا (Maneka).

انها تطلق على فرع لغة الماندى الذى يتكلم بها سكان غينيا بما فيها سكان مدينة كانكان (Kankan) وقد يطلق على هذا الفرع كلمة (ماندنكان -مورى Mandinka - Mory) أو (مانكا -كان - Manigakan).

فهي عندهم لغة الثقافة ولتفسير القرآن الكريم وكانت هي اللغة الرسمية في مملكة الامام ساموري توري (ت : ١٩٠٠ م) ،كما كانت هي لغة البطل الافريقي أحمد سيكوتورى (ت : ١٩٨٤م) .

٣ - فرع (البمبارا) ويحرف الى البانمانا (Bamanna)

ان الناطقين بها قبيلة مشهورة في جمهورية مالي الحديثة .

وقد اعتبرت هذه القبيلة امتدادا لمملكة مالي التاريخية القديمة بعدما عاشت قرونا طويلة في حياة الوثنية وكان الاسلام يحيط بها من كل مكان ولكنها لم تعتنقها الا في القرن التاسع عشر الميلادى .

---

(١) فالذى يريد المزيد من هذا فعليه أن يراجع الكتاب المذكور في الصفحات (١٩٠-١٩٧) فسيرى مصداق ما قلنا.

فلغة البمبارا هي اللغة السائدة في مالي الحديثة [١] واحتلت مكان لغة الماندى بعدما هاجر أغلبية اهلها الى الجنوب (ساحل العاج وغينيا وسيراليون) [٢].

و يلاحظ على هذه الفروع الثلاثة (الجولا والماندنكا والبمبارا) تتشابه في اللهجة والنظم الاجتماعية والثقافية غير انها تفترق عن بعضها البعض ، نتيجة لاختلاف أماكن اقامتها و مدى انتشارها . .

٤ - فرع السوننكي كانت هي اللغة الرسمية في امبراطورية غانة العظيمة و هي منتشرة في عدة أماكن في غرب افريقيا وخاصة الساكنين جنوبي نهر النيجر . و تعرف بلغة (نونو Nono) في مدينة (جنى) .

فقبائل البمبارا تطلق على هذه اللغة اسم لغة (ماركا) .

---

(١) مملكة مالي الاسلامية ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) راجع امبراطورية غانة الاسلامية د . ابراهيم طرخان ص ٢٠ .

ثانيا - لغة ولوف (Wolof) :

هذه اللغة لها أهميتها الكبرى في نشر الثقافة في هذه الربوع انها اللغة التي يتكلمها بعض سكان السنغال وهي اللغة التي تفسر بهاالقرآن -أهل ولوف .. من هنا أخذت قدسيتها عندهم .الا أنها لغة غير منتشرة في كثير من بلدان غرب أفريقيا .

ثالثا - لغة الغولاته (Tovlata ou Peuls) :

انها لغة تنتشر في النيجر والسنغال وغينيا ونيجيريا والكمرون وتشاد وموريتانيا ومالي الحديثة . ولكن الكثيرين من أهل هذه اللغة يتكلمون بالعربية مع لغتهم (لغة الغلاتة) وقد ظهر ممن يتكلم بهذه اللغة زعيم مشهور يقال له : عثمان (دانفديو) وقد انتصر عثمان دانفديو على ولايات الحوصا السبعة في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٤) م وثبت ملكه سنة (١٨١٠)م واستطاع بذلك ان ينشر الاسلام بين الوثنيين وقبائل الهوصا وقد ظل حكمه هناك حتى قام الحكم البريطاني في نيجيريا سنة ١٩٠٠م.

هكذا رأينا جانبا مهما من جوانب الحالة الثقافية في بلاد السودان الغربي .

و قبل الحديث عن الحالة الدينية يحسن بنا أن نشير الى نقطة مهمة قد غفلها كثير من الناس . وهي أن وجود هذه اللغات الثقافية

---

(١) عبدالله بن محمد : تزيين الورقات ص ٥١ و ص ٥٥ .

عند سكان هذه المنطقة لدليل قاطع على بطلان أقوال الأوربيين من عدم انسانية السود . وتذكير لهؤلاء المسلمين الذين نسوا هذا الجزء نسيانا كاملا .. ودليل ذلك أن المؤرخين المحدثين الذين تحدثوا عن الأسرات الحاكمة في العالم الاسلامي لم يتحدثوا عن هذه المناطق أي حديث . وعندما تذكر غرب أفريقيا يكون ذلك مرتبطا بالاستعمار فقط .

أما الجغرافيون المحدثون أيضا فعندما رسموا خريطة العالم الاسلامي وهي تتسع من قرن الى قرن لم يضمنوا تلك الخريطة بلاد السودان الغربي .. فحصر التاريخ الاسلامي في نطاق العالم العربي فقط خطأ كان لا بد أن نضع حدا له .

لذلك كله ان سرورنا باثبات هذه الحقائق المتصلة بهذا الكيان السوداني لا يعدله سرور ... وذلك السبب واضح هو أننا استطعنا أن نثبت ما يكون ردا على المزاعم الأوربية المشبوهة ضد هذا الكيان وتذكيرا لهؤلاء المسلمين من الجغرافيين والمؤرخين الذين لم يذكروا هذا الجزء في نطاق العالم الاسلامي .. (١)

---

(١) وان مما يسرنا أيضا أن بعض الباحثين قد انتبهوا أخيرا الى هذا النسيان فبدؤوا يكتبون عن هذا القطاع من العالم الاسلامي لنذكر منهم الدكتور أحمد شاكر والدكتور أحمد شلبي والدكتور ابراهيم طرخان وغيرهم فالله نسأل أن يجزيهم على ذلك وأن يكثر أمثالهم في العالم الاسلامي .

الفصل الخامس

الحالـة الدينيـــــــــة

في غربي أفريقيا قبل المد الاسلامـــــــــي

فيه مقدمة ومبحثان :

المبحث الأول : صور الوثنية في غربي أفريقيا .

المبحث الثاني : المعبودات عند الوثنيين في غرب أفريقيا .

الفصل الخامس

الحالـة الدينيـــــة

مقدمـــة :

في الفصل السابق قد تحدثنا أن الثقافة تتناول في جوهرهاناحيتين (لغوية وروحية) فقد فصلنا القول في الناحية اللغوية والآن نحـــن بصدد الحديث عن الناحية الروحية والفكرية .. فنقول :

ان الباحث عن الحالة الدينية في منطقة غرب أفريقيا ، قبل المـد الاسلامي هناك سيجد أن المنطقة كانت مشحونة بالأساطير والديانـــات الوثنية ،حتى بلغت شأوا بعيدا من التنوع والكثرة .. وذهبت بسكـــان المنطقة الى آفاق بعيدة من التخيلات والتصورات الخرافية ،تاه فيها العقل الانساني السوداني ..

ولو ألقينا نظرة فاحصة في صور الوثنية التي عرفت في هذه المنطقة تجعل العاقل حيرانا لكثرتها و تنوعها وعدم اتجاهها الى جهة معينة ، فاليك فيما يلي نماذج من المعتقدات الوثنية في هذه المنطقة .

المبحث الأول

صور الوثنية في غربي أفريقيا

المعلوم ان الوثنية شيء واحد في جوهرها ولكن لها عدة صور ومظاهر وخاصة في هذا القطاع الذى خصصنا له هذا البحث .

ان صور الوثنية التي ظهرت في غرب أفريقيا متعددة ولكننا اذا دققنا فيها النظرة وقارناها بصور الوثنيات التي عرفت في التاريخ الانساني ،نستطيع أن نجملها في حالتين أساسيتين : حالة عامة وحالة خاصة .

واليك -فيما يلي توضيحا لكل من الحالتين :

١ - الحالة الأولى :

هي اشتراك غربي أفريقيا في الوثنيات التي عرفت في التاريخ الانساني ويتضح ذلك في الأمثلة الآتية :

(١) (ديانة طبيعية) :

نجد مثلا - أديانا طبيعية تدور المعتقدات فيها حول ظواهر طبيعية وتتجسد هذه الظواهر (في تماثيل) تحاط بأساطير كما كان الحال عند الاغريق (١)

---

(١) الاغريق اسم قديم لليونان تؤلف مملكة (١٢٩٨٨ كم ٢) و (٨٣٥٨٠٠٠) نسمة وتقع في القارة الأوربية . راجع الموسوعة العربية الميسرة ١/ ١٩٩٥.

والرومان (١) الى حد ما عند الآشوريين (٢) والبابليين (٣)(٤) ان هذه الصورة قد وجدت أيضا في غرب أفريقيا ، بكثرة .. لقد اشتهر السودانيون في غرب أفريقيا منذ القديم بمهارتهم ومواهبهم في نحت التماثيل التي كانوا يصنعونها للعبادة وغيرها يقول : (İNAKORİN-BROWN) في ذلك مايلي :

" اشتهر زنوج الساحل الغربي من القارة الافريقية منذ القدم بمهاراتهم ومواهبهم في الفنون .. فأهالي(داهومي) أظهروا براعة عظيمة في الحفر على الخشب لا سيما في حفر مقاعدهم وعصيهم وتماثيلهم .

" وشعب الآشانتي اشتهروا أيضا في نحت التماثيل كما اشتهروا في صناعة الحلي والجواهر الآنية المتقنة والموازين و مختلف الثاقيل النحاسية الدقيقة التي كانت تستعمل في وزن التبر .

" لقد تميز شعب(بنين) بعماله المهرة في الحفر على الخشب والعاج

---

(١) (روما) : سكانها ١٩٤٤٠٠٠ في وسط ايطاليا قرب الساحل الغربي على ضفتي نهر التبر عاصمة ايطاليا ، وفيها (الفاتكان) مقر البابوية يطلق عليها المدينة (الخالدة والمقدسة) . راجع الموسوعة ص ٨٩٨ .

(٢) آشور : امبراطورية قديمة قامت بغربي آسيا حول مدينة أشور ، الواقعة في أعالي نهر دجلة .

(٣) بابليون : اسم مدينة مصرية وجدت في القرون الوسطى جنوبي موقع القاهرة ويراد بهذه المدينة القديمة والحصن الذى أقامه الرومان لا تزال بقايا هذا الحصن باقيا الى اليوم في قصر الشمع ، سقط في قبضة العرب في ٩ ابريل ٦٤١ . راجع الموسوعة ١/ ٢٩٦ .

(٤) محمد جلال عباس ، المد الاسلامي في افريقيا ص ١٨ .

واشتهروا لذلك شهرة عظيمة حتى انها عرفت طريقها في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين الى المتاحف الأوربية .(١)

و هكذا كانت التماثيل- من المعبودات الوثنية في غرب أفريقيـــا .

٢ - ديانية انسانية :

أو نجد مثلا - أديانا انسانية يؤله بعض الأشخاص الذين لهـــم دور في حياة الشعوب لما تركوه من مبادئ و تعاليم ، وفلسفات اجتماعيـــة خاصة ، تعتز بها هذه الشعوب لدرجة تأليه أصحابها . .

وتوجد مثل هذه الديانات في قارة آسيا وأهمها :

البوذية (٢) والزرداشتية (٣) والعبادة هنا تقدم لهذا الانسان فقط ، لذا سميناها بديانة انسانية .

----

(١) نقلا عن كتاب موسوعة التاريخ الاسلامي المصدر السابق ص ٨٩ ينقله عن كتاب (The story of the Negro p.44) ولكن بتقديم وتأخير .
وراجع كذلك الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء تأليف جوان جوزيف ترجمة مختار السويفي ص ١٢١ .

(٢) البوذية : معناه : في اللغة السنسكريتية (المتنور) وهو اللقـــب الذي يسمى به من أسس مذهب البوذية - تتسم حياته بطابـــع الأساطير . . ولكن المتفق عليه عموما هو أنه ولد حوالي (٥٦٤) وتوفي حوالى سنة ٤٨٣ ق.م عاش حياة رغد واطمئنان ثم انقطع الى النظر في الشقاء الانساني . وبينما كان (بوذا) تحت شجرة التين المقدس تلقى/وحي رسالة التنوير الكبرى وترجمت تعاليمه الــى العربية بعنوان (انجيل بوذا) .

(٣) (الزرداشتية) مذهب ديني اسم مؤسسه زرادشت (Zaradost)

===

ان هذه الصورة أيضا قد كانت معروفة في جميع أقطار المنطقة وخاصة في قبائل موسى الذين كانوا يقدسون ملكهم مورونابه (Moronaba) الى درجة التأليه بحيث كانوا يسجدون له لايستطيع أحد أن يقف على قدميه لتقديم تحية له وانما كانوا يجلسون حوله ناكسي روءوسهم . (١)

٣ - ديانة طبيعية انسانية :

أو تجد ديانة (طبيعية انسانية) تبتدىء بالايمان باله واحد من الجمادات مثل عبادة الشمس ثم ينتهي بعبادة الملك والأسرة المالكة التي تتأله هذه الاله المزدوج .. فقد سميت بديانة (طبيعية انسانية) لكونها تتميز بتقديس ظاهرة لها فعاليتها في حياة الناس ، وتستمد منها الأسرة المالكة قوتها التي تحكم بها ، مثل الديانات القديمة التي توءمن باله واحد مثل الشمس و يحيطه باسطورة تنتهي الى الحق المقدس للملك أو للأسرة المالكة مثل أسرة فرعون فقد أصبح الناس هناك في نهاية المطاف يعبدون الشمس كما يعبدون الملك فرعون نفسه في آن واحد .

ان هذه الصور قد ظهرت في غرب افريقيا . قد كان الوثنيون هناك وفي مقدمتهم قبائل السوننكى يعبدون (الداكور والجمع الدكاكير) فأقاموا له معبدا في " الغابة المقدسة " وهو المكان الذى تمارس فيه العبادات الدينية والعقيدة المحلية في غانة .. وهو مكان في غاية التقديس

=== الى القرن (٧ و ٦ ق.م) هو زعيم ديني فارسي . وهذه الديانة ترقى الى الاصلاح ثم أصبح بمرور الأيام الى ثنائية وعقائده الفاسدة راجع الموسوعة العربية الميسرة ص ٩٢٢ .

(١) راجع غرب افريقيا في ظل الاسلام ،نعيم قداح ص ١٠٣ .

ويحيط به جو كثيف من الغموض ،ويقوم " الكهنة " بحراسته ليلا و نهارا ، ولا يسمح لأحد بالدخول اليه الا باذن خاص ولمرة واحدة طوال حياته ، حتى الملك نفسه كان لا يدخل هذه الغابة المقدسة الا مرة واحدة فقط. هي يوم تتويجه واعتلائه عرش الملك .

يقول البكرى :

" حول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم (والداكور : الصنم) وقبور ملوكهم. ولتلك الغابات حرس ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة ما فيها . . وهناك سجون الملك ،فاذا سجن فيها أحد ، انقطع عن الناس خبره . ." (١)

ثم بمرور الأيام أصبحوا يعبدون الملك نفسه كما يقدسون الأسرة الملكية أيضا ويسجدون للملك اذا أرادوا أن يقدموا له تحية.

يقول البكرى :

" فاذا دنا أهل دينه منه ، جثوا على ركبهم و نثروا التراب على روءوسهم فتلك تحيتهم له . ." (٢)

ولا تقتصر هذه العبادة في حياة الملك فقط ولكنهم أيضا يعبدونه بعد موته أيضا ويذبحون له الذبائح ويقربون له الخمور .

---

(١) المغرب ص ١٧٦ وراجع ما كتبنا سابقا.

(٢) المغرب ص ١٧٦ وراجع ما كتبناه سابقا.

يقول البكرى :

" و اذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره ثم أتوا به على سرير قليل الفرش فادخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتى كالجبل الضخم ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل الى ذلك الكوم الا من موضع واحد .. ". (١)

وقال أيضا :

" وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور .. ". (٢)

ان هذه الصور الوثنية السالفة الذكر قد شاركت فيها غرب افريقيا الا أنها تمتاز بصورٍ أخرى من الوثنيات نتحدث عنها فيما يلي :

<u>الحالة الثانية :</u>

فيما سبق قد تحدثنا عن صور الوثنيات التي شاركت فيها غرب افريقيا واننا الآن بصدد الحديث عن صور أخرى من الوثنيات لا تكاد تجد مثلها في غير هذه البلاد .

---

(١) المغرب ص ١٧٦.

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها.

ان هذا النوع الغريب من الوثنيات لا تعتمد أبدا على عنصر واحد تدور حوله المعتقدات والأساطير ، كما لا توجد هناك أية رابطة بين عنصر وعنصر من هذه المعتقدات .. ولكنها تدور حول مبادئ اعتقادية متعددة تتلخص فيما يلي :

أولا - الايمان بالكائن العلوى :

كان الوثنيون هناك قديما وحديثا يؤمنون ايمانا جازما في وجود اله علوى أو كائن علوى .. فكل وثني هناك يحمل في ذهنه هذه العقيدة[1] ، والدليل على ذلك ، انك تجد كل قبيلة من هذه القبائل الوثنية ،قد اوجدت اسما خاصا لهذا الكائن العلوى : فالوثنيون -مثلا- من قبيلة (باولى) (Baoule) الساكنين في جمهورية ساحل العاج يسمون هذا الكائن العلوى (نيامه Gnamien) ويعنون بذلك الله سبحانه وتعالى .

ان هذا النداء الفطرى الذى يؤمن به كل من لم تتعطل فيه أجهزة الاستقبال الفطرى ، قد آمن به سكان هذه المنطقة ولكنهم مع وجود هذه العقيدة الفطرية ،تجدهم يخلطونها بخرافات وأوهام ،تجعل العامل حيرانا .

نلخص هذه المعتقدات فيما يلي :

---

(١) المد الاسلامي المصدر السابق ص ٢٠ تأليف جلال عباس .

١ - تقديس بعض الشخصيات التي لها تاريخها وأهميتها في حياة الشعب وتتمثل في روح القائد أوالملك الذى قاد الجماعة الى وطنه الحالي مثل الاسطورة التي ترويها قبائل البمبارى في مالي الحاليةبتأسيس دولة البمباراة الوثنية في (سيجو) .

تقول الاسطورة المحلية :

" البامباراة بزعامة اخوين هما : براما نجولو(Bramangolo) (ونيانجولو - Niangolo) هرب هذان الاخوان أمام خصومهما وقفزا في النهر حيث أنقذتهما سمكة وحملتهما الى الشاطيء الآخر، وتخليدا لهذه النجاة الحق كل من الاخوين لقبا باسمه هو (كولو بالي) (Kouloubaly) ومعناه : الناجون دون استخدام زوارق . هكذا ذكرها الدكتور ابراهيم طرخان . (١)

ان وجه الاختلاف بين هذه العقيدة والعقيدة البوذية هو : ان البوذية تقوم على عبادة شخصية بوذا لكونه قد ترك لأصحابه مبادىء وتعاليم اخلاقية وفلسفات اجتماعية خاصة . فهم (أتباعه) يتبعونه على ذلك وأما هوءلاء الوثنيون فهم يقدسون الاخوين لكونهما - فقط - قد نجوا من الغرق دون استخدام زوارق . فهذا هو سبب تأليههم لهما . لذا صار جميع أفراد قبائل كولو بالى (Kouloubaly) يحملون هذه العقيدة الخرافية .. ويستميتون في سبيل تقديسها .. (٢)

---

(١) دولة مالي الاسلامية ص ١٧٢ .

وتارة يكون هذا المقدس حيوانا من الحيوانات أوحشرة من الحشرات ... يذكر المسيو بول مارتن في ذلك قصة غريبة ومفادها :

١ - ان قبائل (وترا) (Ouattara) في مدينة (بندوكو Bondoukou) كانوا يقدسون النمر أو الفهد اعتقادا أن هذا الحيوان كان منذ زمن قديم جدهم الأعلى الذى تناسل منه جميع قبائل (وترا) .. فيجب - اذن - على جميع أفراد (وترا) ، اذا لاقوا هذا الجد الأعلى أن يفرقوا له بين الأصابع مع اخفاء الابهام في باطن اليد ... وذلك تخليدا لذكرى هذه الحادثة التاريخية " الخالدة العظيمة ". (١)

---

(١) ETUDE SUR L'ISLAM EN CÔTE D'IVOIRE, P. 413.

وأما قبائل (تورى Toure) في مدينة (كوروغو Korogo) بساحل العاج فهم يعتقدون - كما أفادنا بذلك المسيو بول مارتي - (Paul Marty) أن جدهم الأعلى هو النمر أيضا (Soli) ولكن سبب كونه جدهم الأعلى يختلف عما ذكرته قبائل (وترا) السالفة الذكر .. فقبائل تورى هذه يرون في سبب ذلك أن أحد أجدادهم منذ قديم الزمان قد قدم معروفا لهذا الحيوان ، حيث نزع من رجله شوكة ثم كان يداوى جرحه حتى شفى .. ولم يكتف بذلك بل كان يقدم له طعاما في مدة مرضه هذه .. لذا اتخذوه جدا أعلى لهم فيحرم عليهم أكله لأنه جدهم الأعلى أى (تانا Tana) . الشيء المحظور.

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤١٣ .

ثانيا - تقديس أرواح السلف والاعتقاد الجازم في بقاء تأثيرهـا على حياة الأفراد والأسرة بعد الوفاة والاعتقاد أن أى فرد من أفراد القبيلة اذا خرج عن دائرة هذه العادة الوثنية يعرض نفسه للهلاك اما أن يموت أو يصيبه مرض مستعص وأشد من كل ذلك ،هو الاعتقاد أن الأموات هم المشرعون الحقيقيون للاحياء .. فلا يجوز لأحد أن ينشيء تشريعا جديدا بعدما ماتوا .

ثالثا - تقديس بعض الأصنام لذواتها لا لتكون وسائط بينهم وبين الكائن العلوى .. هناك أمثلة كثيرة لذلك ولكننا سنلتقي هنا بأسطورة واحدة تعرف عندهم بقصة (واجاد وبيدا) وهي حية كانوا يعبدونها ويقدمون لها احدى الفتيات في كل سنة ويقال ان هذه الحية هي التي كانت تتولى على تنصيب الملوك . فلنرجع الى البكرى ليقص هذه القصة العجيبة التي لا يكاد الانسان يصدقها لو لم تكن مكتوبة بيد أمينة مثل يد أبي عبيد البكرى الجغرافي العربي الأندلسي المشهور اذ يقول :

" هناك صنف من السودان في بلد (زفيقو) التابع لغانة ، كانوا يعبدون حية كالثعبان العظيم ، كان ذا عرف وذنب ، رأسه كرأس البختي وهو في مغارة بالمفازة ، وعلى فم المغارة ،عريش وأحجار ومسكن قوم متعبدين معظمين لتلك الحية ويعلقون نفيس الثياب وحرّ المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللباس والشراب - وهم اذا أرادوا اخراجه الى العريش تكلموا كلاما وصفروا صفيرا معلوما فيبرز اليهم - واذا هلك (وال) وأرادوا من يتولاهم ، جمعوا كل من يصلح للملكة وقربوهم اليها .. وتكلموا بكلام يعلمونه فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلا رجلا حتى تنكز أحدهم بأنفها ، فاذا نكزته

ولت الى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه من السير ليجذب من ذنبه أوعرفه شعرات فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات .. لكل شعرة سنة لا يخطيهم ذلك بزعمهم ..»(١)

هذه بعض الحالات العقدية كانت تعيش فيها غرب أفريقيا قبل المد الاسلامي .

---

(١) المغرب ١٧٦ قد استدللنا بهذا التقرير أولا لمناسبة توليه الحكم وأما هنا فقد أعدناه لمناسبة المعبودات التي كانت تعبد في بلاد السودان الغربي قبل دخول السودان فيها .

المبحث الثاني

العبـــــــادات

هكذا كانت منطقة السودان الغربي تعيش في هذه المعتقدات التي جعلتهم دائما - في شغل شاغل بممارسة العقيدة والعبادات المترابطة بها ،وشملت هذه - العبادات جميع نواحي الحياة .. تراهم يؤمنون بكائن علوى ، بل يوجهون اليه بعض العبادات خاصة .. وفي الحين الآخر يوجهون عبادات أخرى الى أرواح الملوك أو الأسلاف و يمكن أن نحصر هذه العبادات التي شغلتهم في أمور رئيسية هي :

١ - العبادات التي توجه الى الكائن العلوى ، هي التي تتعلق بظواهر الطبيعة ، كالمطر والفيضانات ،والخسوف والكسوف ، وغير ذلك مما يشعر الانسان بخطره أو فائدته .. ففي مثل هذه الأمور لا يتجهون الى الالهة المزعومة ولا الى الأرواح أو الملوك و انما يسألون ، لدفع ذلك الكائن العلوى .. و تارة يتوسلون الى هذا الكائن العلوى بمن يرجون فيه خير .. يحكى لنا البكرى قصة غريبة في مثل ذلك مفاده :

انه كان في مدينة ملل أو (مالي) قبل انتشار الاسلام فيها ملك قد أصاب بلاده قحط و جفاف شديد فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها .. فصادف هذا البلاء الشديد وجود ضيف مسلم عنده وكان على جانب كبير من فهم الدين .. فشكا اليه الملك(الوثني) ما أصابهم من ذلك فاشترط له الضيف المسلم أن يؤمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .. ثم يتبع ما أنزل الله من شرائع . فقبل الملك

هذا الشرط . فخرج به المسلم ليلة الجمعة فصليا حتى الصبح فعندئذ نزل الله عليهم الغيث . فأمر الملك بكسر الدكاكير و حسن اسلامه واسلام أهله ولكن رعيته ظلوا وثنيين فأطلقوا على هذا المسلم التائب اسم المسلماني . (١)

و اليك نص البكرى اذ يقول :

" عرف ملك (مالي بالمسلماني) (٢) لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها/، ولا يزدادون الا محصا وشقاء وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرىء القرآن ويعلم السنة ، فشكا اليه الملك مادهمهم من ذلك ، فقال له : أيها الملك ! لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته ، و بمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الاسلام كلها ، لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك ، و ان تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك " من عاداك و ناواك " فلم يزل به حتى أسلم و أخلص نيته ، وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه ، و علمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ، ثم أمهله الى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا ، وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده ، و برز الى ربوة من الأرض ، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه ، يأتم به ، فصليا من الليل ما شاء الله ، والمسلم يدعو والملك يؤمن فما انفجر الصباح الا (والله) قد أعمهم بالسقى فأمر الملك بكسر الدكاكير - أى الأصنام - وأخرج السحرة من بلاده ، و صح اسلامه واسلام عقبه وخاصته ، وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكهم منذ ذلك الوقت بالمسلماني ." (٣)

---

(١) المغرب ص ١٧٨ .

(٢) فقد أشار القلقشندى الى اسم اول من أسلم من ملوك مالي وهو برمندانه راجع صبح الاعشى ٥/١٩٣ وراجع ذلك العبر ٥/٤٣٣ .

(٣) المغرب ص ١٧٦ . وسيأتي هذا النص في ص ٢٠٧ .

وهكذا رأينا أن الوثنيين في غرب أفريقيا كانوا يؤمنون بالكائن العلوى لذا كانوا يطلبون منه انزال المطر وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بظواهر طبيعية ولكنهم لا يستمروا له على ذلك بل سنراهم فيما يأتي انهم يطلبون المدد والعون من ارواح السلف وغير ذلك.

٢ - وأما العبادات التي تتعلق بالشئون الاقتصادية كعبادات الخروج الى الصيد أو المرعى أو أعياد البذر والحصاد فهم يشركون فيها فتارة يوجهونها الى الكائن العلوى وأغلب الأحيان يوجهونها الى دكاكيرهم كما رأينا في قصة الشعبان السالفة الذكر أوالى أرواح السلف . وليست عندهم قاعدة ثابتة في ذلك. (١)

٣ - هناك بعض العبادات توجه فورا الى ارواح السلف أوالى أرواح الموتى دون الكائن العلوى وهي تتعلق بالحياة الاجتماعية أوالفردية كاحتفالات الزواج والبلوغ والختان والمرض والموت وغير ذلك . (٢) ففي هذه الأحوال المذكورة لا يتدخل فيها الكائن العلوى وانما تختص ارواح السلف فمثلا عند الزواج يطلبون البركة من ارواح السلف وكذلك عند الموت وغيرهما مما جعل وثنيتهم بعيدة عن أغلب الوثنيات.

---

(١) المد الاسلامي في افريقيا ص ٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥.

٤ - السحر :

قد كان في هذا المجتمع الوثني العناية بالسحر بشكل فظيع .
ولم يزل كذلك عندهم الى الوقت الراهن .

ان هوءلاء الوثنيين مع كونهم موءمنين بالكائن العلوى ولكنهم لا يخافونه في شيء من الأشياء بل ليس لهم في مجتمعهم وتشريعاتهم له نصيب الا في بعض الأحوال الشاذة و قد كانوا ولم يزالوا يخافون من السحر والسحارين ، في الشدائد والنوازل .. فلأجل خوفهم الشديد من السحر كانوا يعلقون التمائم والتعاويذ على أولادهم و على كبارهم أيضا .. مع اعتقادهم الجازم أن لا عاصم من الشرور الا هذه التمائم .. لذا تجد الواحد منهم يعلق تميمة في عنقه وتميمة في خاصرته و تمائم على عضديه وتمائم في جيبه و تمائم في قلنسوته (Bonnet) وهكذا الدواليب .

وقد أداهم هذا الخوف الشديد دون الكائن العلوى - من المشعوذين أى (تونتيكي) (Tontigui) أو (Feticheur) الى العناية بمعرفة الطب من الأشجار ، حفاظا على نفوسهم من السحارين والنفاثات في العقد .

ويذكر لنا القلقشندى عن العمرى ما يوءكد ذلك اذ يقول : (١)

" وأهل هذه المملكة (السودانية) كثير فيهم السحر ، ولهم به عناية حتى أنهم في بلاد الكفار منهم يصيدون الفيل بالسحر حقيقة لا مجازا ..

---

(١) صبح الأعشى ٥/ ٢٩١ .
وراجع كذلك العلاقات - الشيخ الأمين ص ٦٤ .

التعليق : السحر محرم بالنص القرآني : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ البقرة:

وفي كل وقت يتحاكمون عند ملكهم بسببه ويقول أحدهم : " ان فلانا قتل أخي أو ولدى بالسحر والسلطان يحكم على القاتل بالقصاص و قتل الساحر . "

هكذا كان المجتمع الوثني في غرب أفريقيا يؤمنون بالكائن العلوى ولا يخافونه أبدا و انما كان خوفهم من السحارين والمشعوذين .

٥ - الذبائح :

ومن الوثنيات الشائعة في غرب افريقيا قديما وحديثا الذبح للأموات والطبخ لهم في أيام مخصوصة مثل الأيام الثلاثة الأولى ثم في اليوم السابع فالاربعين ثم في رأس السنة ثم يجتمعون في بيت الميت لشرب الخمور و ترتيل الأناشيد الجنائزية الوثنية وللأسف الشديد ان هذه العادة قد اتخذها المسلمون سنة وجعلوها في صميم الدين الاسلامي ينفقون في ذلك الأموال الباهظة ويذبحون الابقار مثل الوثنيين الكفار ثم يجتمعون مثلهم في دارالميت للأكل والشرب وتوزيع اموال اليتامى بينهم . وفي مقدمة هؤلاء أدعياء العلم الذين يأتون الى هذه الجنائز بعمائم كبار لا لطلب الاستغفارلهذا الميت الراحل ولكن ليوزعوا بينهم أموال هذه الذرية الضعاف الذين خلفهم الميت ... ان هذا العمل المنكر سموه (سارغة) (Saraga) أى الصدقة .

هذا هو شأن الرجال وأما النساء فهن أيضا يجتمعن في هذه الدار للبكاء والعويل والنياحة . و تحصل في أمثال هذه الاجتماعات والاختلاط بين الرجال والنساء منكرات أخرى يستقبح ذكرها هنا (انا لله و انا اليه راجعون) فقد ذكر البكرى .. ان هذه الذبائح وغيرها عادة من عادات

الوثنيين منذ أيام امبراطورية غانة الوثنية اذ يقول :

" وهم يذبحون لموتاهم الذبائح و يقربون لهم الخمور ". (١)

والغريب في هذه الوثنية ان الوثنيين مع اعترافهم بوجود كائن علوى ولكنهم لا يأبــون به في مثل هذه المناسبات انما يذبحون باسم أرواح الموتى والأصنام وكأن هذا الكائن العلوى غير موجود .

تعليق لا بد منه :

تلك نماذج من الحياة الدينية في غرب افريقيا قبل ظهور الاسلام هناك ولكن قبل أن نمضي في ذكر اسطورة الجد الأعلى من الحيوانات الشائعة هناك يحسن بنا أن نعلق على ما سبق بما يلي :

فنقول : والجدير بالذكر اذا نظرنا في هذه المعتقدات بعيــن المعقول سنجد فيها عناصر تهدى الانسان الى الحقيقة الاعتقادية ،وتنير له السبيل ان وجد هناك من يوجهونهم التوجيه السليم الى العقيــدة الصحيحة في الله.

و بيان ذلك : ان اعتقادهم بوجود كائن علوى هو أهم هــذه العناصر و يليه اعتقادهم ببقاء روح الأسلاف وانتقالها الى عالم آخـــر ثم اعتقادهم بمخلوقات غير انسانية بعضها خير وبعضها شرير .. وكذلك دفنهم حاجات الميت معه لأنه يحتاج اليه في حياته الثانية أى الحياة الآخرة.

---

(١) المغرب ص ١٧٦. وراجع نعيم قداح ص ٣٥.

فلا شك ان هذه المعتقدات هي التي ساعدت الافريقيين على قبولهم للاسلام.. فلما جاء الاسلام بالايمان بالله واليوم الاخر والملائكة والنبيين وكتبه والقدر خيره وشره ، لم يتعارض شيء من ذلك مع ضمائر الافريقيين .. لذا كانوا - ولم يزالوا - يدخلون في دين الله أفواجا ..

هذا ما أردنا أن نشير اليه قبل اتمام هذا البحث .

ولكننا - نكرر دائما - أن هذه الاعتقادات وان كانت ساعدتهم على قبول العقيدة الاسلامية ...لا يمكن بحال من الأحوال أن تقوم عليها دولة ذات انظمة ثابتة مستقرة لذا أجمع المؤرخون المنصفون على ان الاسلام كان عماد دولة غانة عند ازدهارها وقوتها .. وقد نقلنا نصوصا عن البكرى بهذا الصدد .. و من تلك النصوص قول البكرى ان كبار موظفي الملك ومستشاريه ووزرائه من المسلمين حتى في العهد الوثني وعبارته :

" وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه ". (١)

---

(١) المغرب ١٧٥ وراجع ما كتبناه سابقا .

فماذا يقول دعاة القومية الزنجية - وفي مقدمتهم (ليوبول سيده سنغور [١] والدكتور كوامي نكروما [٢] - تجاه هذه العقائد الخرافية التي كانت تعيش فيها بلاد السودان الغربي قبل دخول الاسلام هناك. هل يريدون أن نعود الى الوثنية التي نقلنا منها الاسلام ، فنعبد أرواح السلف ونأكل الجيف ونعيش كالماديين المعاصرين أم ماذا يريدون بالشخصية الزنجية أو الزنوجة ؟

------- -------------

(١) كان رئيسا لجمهورية السنغال .

(٢) كان رئيسا لجمهورية غانا الحديثة .

اسطورة الجد الأعلى من الحيوان في غرب أفريقيا

الآن ، مع علمنا أن الحديث عن الحياة الدينية في غربي أفريقيا ، اخذ نصيبه هنا من البحث والدراسة ، لا يزال أمامي مؤلف نفيس جليل القدر في هذا المضمار ألفه واحد من مشاهير الرحالة الفرنسيين وهو المسيو بول مارتي (Paul Marty) الذى كرس مجهودات جبارة لدراسة أحوال المسلمين في غربي أفريقيا .. وقد استطاع هذا البحاث خلال ثماني سنوات أو أكثر أن يخرج من هذه الدراسة بمجلدات كبار.(١)

فأفادنا عن أحوال المسلمين وغيرهم من الوثنيين في هذه المنطقة مع المام تام ببيان تقاليدهم وعقائدهم .. ومن هذه المعلومات التي تحدث عنها قصة أسطورة الجد الأعلى من الحيوانات في غرب أفريقيا .. وها نحن نترجم من المجلد الخامس ما يخص مادتنا هذه .

---

(١) وأهمها . خمسة مجلدات هي :

أ - الاسلام في موريتانيا والسنغال .

ب - الاسلام في السنغال .

جـ - الاسلام في غينيا (فوتاجالون) .

د - الاسلام في السودان مالي .

هـ - الاسلام في ساحل العاج .

راجع : Etude sur l'Islam en Cote D'Ivoire p.497.

وقد تحدث المسيو (بول مارتي Paul Marty) عن هذه الأسطورة وفصل القول فيها تفصيلا فنحن نوجزه فيما يلي اذ يقول :

" يوجد عند كل أسرة في غرب أفريقية من الأسر السودانية ما سمي بلغة الماندى بـ (تانا Tana) ومعناه : الشيء المحظور. (١)

وبيان ذلك : يجب (في العادات السودانية) أن تتخذ كل أسرة أساسا (en principe) ما يسمى في لغة ماندى بـ (تانا) أى جدا أعلى طوطميا من الحيوان .. بحيث يصبح هذا الحيوان مقدسا لدى أفراد هذه الأسرة فيحرم عليهم أكلها تحريما أبديا ...

وأما الرابطة التي تربط بين الأسرة وبين هذا الجد الحيواني فهو ما يسمى بلغة ماندى بـ (جامو Diamou) معناه : "لقب الأسرة " وهو باللغة الفرنسية (le nom Patronymique de la famille Generalis'ee)

فأى مخالفة - حسب عادتهم - لهذا النسب الحيواني ، تؤدى بصاحبها الى الموت أو تؤدى على الأقل الى أمراض شديدة مستعصية لذا لاتكاد تجد أحدا في هذه المنطقة يفرط في تعظيم هذا الجد الحيواني . ان هذه العقيدة كانت في المنطقة منذ الماضي الموغل في القدم وهي كذلك موجودة عندهم حتى الآن لا فرق في هذا بين مسلم ووثني . واليك فيما يلي نماذج من هذا (تانا) (Tana) (الشيء المقدس المحظور) .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .

١ - (أسرة التمساح) أو (بامبا) أو باللغة الفرنسيـــة (Caiman) هذه الأسرة تدعي أن جدها الأعلى هــو التمساح (بامبا) فعلى ذلك يحرم أكل لحم هذا الحيوان على جميـع أفراد بامبا (Bamba) ،فمن أكل هذا اللحم من أفراد هـــذه الأسرة يؤدى حياته الى الخطر من موت أو كف للبصر . . . كما يزعمون .

٢ - (أسرة فرس النهر) أو ميلي (Meli) (Hippopotame) هم المالينكي (Malinke) ان هذه الأسرة لها عشائر كثيرة نذكر بعضها فيما يلي :

أ - الأسرة الملكية : (Famille Royale) ،

وهـم :

كايتا (Kaita) أو كوتـا (Koita)

باغايوغو (Bayayogo) كامارا (Kamara)

وجدهم الحيواني هو : الفأرة التي تسكن شجر النخيل .

ب - أسرة الأشراف : (Famille de Noble)

وهم :

كورما (Koroma) كوناتي (Konate)

سيسوكو (Sissoko)

جدهم الأعلى الحيواني : النمر (La Panthere)

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٢ من المصدر الأصلي .

ت - أسرة الشعراء (La Famille des Griots) :

وهم :

كوياتي (Koyate) جباتي (Diabate)

دومبه (Dom baa) جوباتي (Djoubati)

وجدهم الحيواني الأعلى هو :

أي (كاغانا Kagana) : عظاية (L'Iouahe ou Lezard)

ج - أسرة تاغورو (Tagoro) :

وهم :

تونكارا (Toungara) ماغازا (Magaza)

كوناتي (Konate) توري (Toure)

جدهم الأعلى الحيواني هو : الأفعى السامة ذات مثلث الرأس

(Serpent Trigona ce phle)

د - أسرة تاغووارا (Tagouara) :

وهم :

جاراباسو (Djarabassou) تراوري (Traore)

كوناتي (Konate)

وجدهم الأعلى الحيواني هو :الأفعى ذات المثلث الرأس .

هـ - أسرة الفيل (La Famille D'Elephant) :

وهم :

ساماكي (Samake) سيس (Sise)

دامبيلي (Dambele).

مدنية بندوكو في ساحل العاج : Bondoukou en Cote D'Ivoire

١ - أسرة وترا - جدهم الأعلى هو : النمر (La Pentbere).

٢ - جاباغاني جدهم الأعلى هو : النمر (La Penthere).

٣ - كاباغاتي جد هم الأعلى الحيواني هو : النمر (La Penthere)

جد هم الأعلى الحيواني هو : الثعبان البزاق .

٤ - أسرة التميتي : يعلنون بأن جد هم الأعلى من الحيوان، هو نفس جد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو : (الخنزير) (١) (Le Parc)

نعوذ بالله من ذلك.

مدنية بونا في ساحل العاج (Bouna) :

أسرة سيسى	الأسد	Le Lion
أسرة تراورى	الكلب	Le Chien
أسرة تورى	بابا التمساح .	Le Caima

وأسرة كمارا وجارا جدهم الأعلى من الحيوان هو : الخنزير البرى. (٢)

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٤ هذا بهتان مبين - فلم يرد شيء من هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) Etudd sure L'Islam en cote d' Ivoire , Paul Marty p. 414.

وأخيرا ان الجد الأعلى الحيواني لأسرة فوفانا (Fofane)
ودوسو (Dosso) مثل الجد الأعلى لأسرة وترا وهـو
(وارا Wara) La penthere . (١)

*

كان ذلك مجمل العقيدة التي كانت سائدة في بلاد السودان الغربي قبل انتشار الاسلام فيها . .

العقيدة التي ضاع فيها عقل الانسان الافريقي . ولما جاءت العقيدة الاسلامية بدأت الحياة الحقيقية التي يليق بالبشر تدب في كل شيء ،فبدأ الافريقي يدرك بأن الأشجار والحيوانات لم تخلق الا من أجل الانسان فلا تستحق أن تقدم لها العبادة . . فدخلوا في الاسلام أفواجا عن طواعية و محبة حتى أصبحت العقيدة الاسلامية تعتبر ديانة افريقية محلية صرفة كما تعتبر المسيحية عندهم ديانة أجنبية دخيلة.

فسنرى مصداق ذلك عندما نقرأ الصفحات التالية من الباب الثاني الآتي وسيتبين لنا أن ما يتجه اليه بعض الغربيين من انكار الدور القيادى الذى حققته العقيدة الاسلامية في المنطقة هو شيء يخالف الواقع . . .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٥ .

الباب الثاني

دخول الاسلام وانتشاره في بلاد السودان الغربي
ومناقشة الأفكار التي تدور حول دخوله وانتشـــاره
مع بيان الأدوار التارخية التي انتشر فيهـــــا
منذ القرن السابع الى القرن العشرين الميلاديين ،
وبيان عوامل هذا الانتشار وآثار العقيـــــــدة
الاسلامية على سكان المنطقة السودانية قديمـــا
وحديثا .

يشتمل الباب الثاني على ثلاثة فصول :

مقدمـــة .

الفصل الأول : دخول الاسلام وكيفيته في بلاد السودان الغربي .

الفصل الثاني : انتشار الاسلام وكيفية هذا الانتشار فـــي بلاد السودان الغربي مع بيان الأدوار التاريخية التي انتشر فيها منذ القـــرن الأول الى القرن الخامس عشر الهجريين أوالقرن السابع الى القرن العشرين الميلاديين . يعني حوالي أربعة عشر قرنا .

الفصل الثالث : عوامل انتشار العقيدة الاسلامية في بلاد السودان الغربي .

الباب الثانــــي

مقدمــة :

ان الحديث عن دخول العقيدة الاسلامية في بلاد السودان الغربي (غرب افريقيا) حديث عن عقيدة أمدت المنطقة بمشا عل الضوء في مختلف الشئون ..

فالاسلام دين ودولة ..

وبشيء من التفصيل هو : الايمان بإله واحدٍ وبرسالة محمدٍ صلى الله عليه وسلم وبما حوته هذه الرسالة من عقيدة و عبادات و معاملات وتشمل المعاملات أمــور السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق . دين كهذا كانت بلاد السودان الغربي في أمس الحاجة اليه وكانت الوثنية هي الاعتقاد السائد المتمثــل في عبادة الحيوانات من الثعابين (١) والتماسيح والنمور والكلاب من جهة ، وعبادة الأنهار والكواكب والأبطال وأرواح السلف من جهة أخرى. (٢)

---

(١) راجع المغرب ص ١٧٥ .
وراجع ما كتبناه سابقا في الباب الأول .

(٢) راجع : Etude sur L'Islam en cote d'Ivoire , Paul Martu p.412.
وراجع أيضا موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ١٠٠ بتصرف.

وبالاضافة الى ما تقدم كان الانسان عاريا خصوصا في مناطق الغابات الاستوائية التي كان العرى هو الحال الغالب ، كما كان تسلط القوى على الضعيف هو أسلوب الحياة .. ولم يكن هناك دستور للعمل أو المدينة فلما طرق الاسلام قلب المنطقة ودخل سكانها في دين الله أفواجا انقشعت ظلمات الجهل والعادات السيئة وأخذ الاسلام يضع قواعد حياة سليمة تليق بالبشر و يأخذ بأيديهم الى الطريق المستقيم فاذا بالأمة الجاهلة بالأمس قد أصبحت في تعداد الأمم المتحضرة القارئة الكاتبة ..(١) وقد أشار الى هذه الحقيقة ،حقيقة ان العقيدة الاسلامية هي التي طورت السودانيين حتى بلغوا بواسطتها شأوا بعيدا من المدنية والرقي والازدهار .. واليك -فيما يلي - بعضا من أقوالهم بهذا الصدد فمثلا يقول جمع من الباحثين (Gouilly) :

" ان العصر التاريخي لافريقيا السوداء لم يبدأ الا منذ ظهور الاسلام وأن بالاسلام ولغته وحضارته تَقَدَّمَ السود و تطوروا و بلغوا شأوا في المدنية ."(٢) كما نقلناه سابقا .

---

(١) الاسلام في نيجيريا اليوم والأمس وغدا تأليف الشيخ آدم الألورى ص ٥٥ .

(٢) امبراطورية غانا الاسلامية . ابراهيم طرخان ص ١٠ .

ولم يبلغ (بوذورث سميث) حدَّ الشَّطَطِ حين انتهى الى الحقيقة القائلة :

" ان أقبح الرذائل وهي تقديم الانسان قربانا ،ووأد الأطفال ، أحياء ، تلك الرذائل ، وقد اختفت فجأة والى الأبد . .ألأهالي الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة وأشباه عراة بدءوا يرتدون الملابس بل أخذوا يتأنقون في ملابسهم ،والأهالي الذين لم يغتسلوا قط - من قبل بدأوا يغتسلون ،بل انهم يكثرون من الاغتسال ،لأن الشريعة الاسلامية تأمر بالطهارة ". (١)

ويتحدث (سبيتز - Spitz) عن الموضوع نفسه اذ يقول :

" وأما حضارة السودان ابان العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض ". (٢)

وأما باذل دافيدسون فهو يرى أن حضارة السود بعد دخول الاسلام فيها كانت متفوقة على أرقى حضارات أوربا في القرون الوسطى حيث يقول ان حضارة غانة احدى الامبراطوريات القوية في غرب افريقيا كانت تفوق حضارة الأنجلو سكسون زمن وليام الفاتح في القرن الحادى عشر الميلادى ". (٣)

---

(١) انتشار الاسلام في القارة الافريقية ،حسن ابراهيم حسن ص ٧٩. وراجع كذلك حاضر العالم الاسلامي ٢٩٣/١ تأليف لوثروب ستودارد .

(٣) امبراطورية غانا المصدر السابق ص ١٠.

كما لم يبالغ توماس (هودكير) حين أعلن :

" ان انتشار الاسلام في غربي افريقيا كان يعني شيئا كثيرا بالنسبة لغرب افريقيا فقد كان يعني من بين ما يعنيه وجود ارتباط أكثر تدعيما بين العالمين : العربي والسوداني عبر الصحراء وكان يعني ذلك نمو التعاليم الاسلامية وعلومها ." (١)

هكذا اعترف هؤلاء المنصفون من الاوربيين بأن العقيدة الاسلامية هي التي أشعلت نور المعرفة في هذه المنطقة السوداء ، خلافا لما يدعيه أصحاب الاراجيف القائلين بأن الاسلام هو الذى وضع نهاية للحضارة السودانية الاصيلة ... ولكن المصادر الجادة التي سنثبتها ستكذب هذه الاراجيف التي لا تستند الى دليل علمي سوى التعصب وحب البروز فقط .

واذا عرفنا أن الاسلام هو الذى طور هذه البلاد من الوحشية الى الحضارة الانسانية الحقة ، بقي هناك أن نعرف أيضا كيفية دخول هذا الدين الرباني العظيم ، التي يدور حولها الجدل والخلاف ، بحيث يقول بعض الناس ، الاسلام لم يدخل الا عن طريق القوة والغزو المسلح الذى اتخذه المرابطون أسلوبا لنشر الاسلام . وكما يقف جل الكتاب الاسلاميين

---

(١) راجع : فجر التاريخ الافريقي ، توماس هودكير ص ٢٦ .
وراجع كذلك الاسلام والثقافة العربية في افريقيا حسن احمد محمود ، ص ٥٣ .

ومعهم بعض الأوربيين المنصفون موقف المعارضة التامة - فيثبتون بالدلائل القاطعة أن العقيدة لم تنتشر هناك الا بطريقة سلمية بطيئة .

فمهمتنا - اذن - ليست يسيرةً فيجب علينا أن نتتبع تاريخ دخول الاسلام وانتشاره منذ أن بزغ نوره في المنطقة الى الوقت الحاضر . ذلك لنصل الى تبيين القول الراجح من هذين الرأيين .

الفصل الأول

كيفية دخول الاسلام في بلاد السودان الغربي

الفصـــل الأوّل

كيفية دخول الاسلام في بلاد السودان الغربي

ان كيفية دخول الاسلام في بلاد السودان الغربي موضع نقاش وجدل بين الباحثين من الأوربيين والاسلاميين ، فنتج عن هذا الجدل والنقاش اتجاهان مشهوران :

١ - اتجـــاه يقول أربابه ان الاسلام انتشر بطريقة سلمية قام بها دعاة وتجار فدخل الناس في الاسلام عن طواعية واقتناع.

٢ - اتجاه يقول أصحابه ان الاسلام انتشر بالقهر والارهاب والتخويف.

واليك فيما يلي أدلة كل منهما مع مناقشة ما يحتاج الى مناقشــة وبيان القول الراجح من الاتجاهيـن . وبدون ذلك لا نستطيع دراسة الكيفية لدخول الاسلام وانتشاره في المنطقة دراسة صحيحة .

الاتجاه الأول :

ان أصحاب هذا الاتجاه وهم الرحالة العرب القدامى الذيـــــن زاروا المنطقة وكتبوا عنها عن كتب أو كتبوا عنها من مصادر موثوقة بهـــا كأمثال ابن حوقل (١) والادريسي (٢) والبكرى (٣) وابن بطوطة (٤)

----

(١) كتاب صورة الأرض ص ، وراجع : De la Ronciere 1.p.85

(٢) نزهة المشتاق ص ٦.

(٣) المغرب ص ١٧٢ وراجع : De la Ronciere 1.p.85.

(٤) تحفة النظار ٤/٤٣٣.

وابن خلدون [١] والقلقشندى [٢] وغيرهم .

ان هوءلاء كلهم يوءكدون -أن الاسلام قد انتشر بطريقة سلمية بطيئة . وتزخر المراجع التي سنشير اليها بتقرير هذه الحقيقة ... كما أيَّد جلُّ الكُتَّاب المعاصرين هذا الاتجاه . وأما أنواع أدلة هذا الاتجاه فكثيرة جدا ولكننا نستطيع أن نجملها في نوعين فقط :

النوع الأول : تصريحات بعض الباحثين :

النوع الثاني : أمثلة لدعاة قد نجحوا في نشر هذه العقيدة بطريقة سلمية قديما وحديثا .

النوع الأول : تصريحات توءيد بانتشارالاسلام بطريقة سلمية :

وقد استدل أصحاب الاتجاه الأول على أن الاسلام قد انتشر بطريقة سلمية بعدّة أقوال ،ولكننا سنكتفي هنا بما تحدث به كاتب مسيحي منصف هو :" هوبير ديشان "[٣] الذى كان حاكما للمستعمرات الفرنسية بافريقية الغربية سنوات طويلة وشاهد بنفسه تقدم الاسلام وانتشاره هناك ،يقول هذا الكاتب المسيحي المنصف :

ان انتشار دعوة الاسلام بافريقية لم تقم على القسر ،وانما قامت على الاقناع الذى يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا الا ايمانهم

---

(١) العبر ، ص ٣٢٢.

(٢) صبح الأعشى ٥/١٩٣.

(٣) ديانات في افريقية السوداء ص ١٢٨-١٢٩.

العميق بدينهم ،وكثيرا ما انتشر الاسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم الى قوم فكان اذا ما اعتـنقه الارستقراطية (١) وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة ،وقد يسر انتشار الاسلام أمر آخر ،هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ،لا لبس ولا تعقيد في مبادئه وسهل التكييف والتطبيق فـي مختلف الظروف .. ووسائل الانتساب اليه أيسر و أيسر ، اذ لا يطلب من الشخص لاعلان اسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين .. وقد حبَّبَ الاسلامَ الى الافريقيين مظاهرُه الجميلةُ البعيدةُ عن التكلف مثل الثوب الفضفاض والمسبحة والكتابةالعربية والوقار الديني وشعائر الصلاة مما يضفي على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ،فالذى يدخل الاسـلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ،وانه قد ازداد من القوة والحيوية ".

الى آخر ما ذكره هوبير ديشان من الأوصاف العديدة مما يؤكد فَضْحَ القولِ بان الاسلامَ قد انتشر في هذه المنطقة بالسيف أوبالقسـر . فلنتحدث الآن عن النوع الثاني من أدلة القائلين من أن الاسلام انتشـر فقط بطريقة سلمية .

---

(١) ارستقراطية : باليونانية سلطة خواص الناس . وفي العلوم السياسية الحكم بوساطةخير المواطنين لصالح الدولة . وكفكرة سياسية لأفلاطـون في" الجمهورية " راجع الموسوعة العربية الميسرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م دار نهضة لبنان للطبع والنشر بيروت - لبنان ١/ ١١٦.

النوع الثاني : من أدلة القائلين بعدم استعمال القوة في نشر الاسلام بالمنطقة .

ان هذا الفريق قد ضربوا أمثلة عديدة للاثبات بأن الاسلام لم ينتشر بالقهر والارغام في هذه المنطقة ،فنحن نقتطف من هذه الأمثلة مايلي . نذكر منها مثالين وقعا في القديم ومثالين في الحديث .

أولا - في القديم :

١ - اسلام ملك التكرور :

ان مما ينفي نفيا قاطعا أن الاسلام انتشر بالقوة والقهر .. اسلام ملك التكرور ،ويعرف باسم (وارجابي بن رابيس) حوالي (٤٣٢هـ/١٠٤٠م) (١) الذى يمثل اسلام أول عائلة مالكة في بلاد السودان الغربي وكان له الفضل في اسلام التكرور وأهل سيلا (Silla) .

ويذكر البكرى أن اسلام هذا الملك قد تم عن طريق الدعوة (٢) لا بالقهر والقوة بدليل أن أعدادا كبيرة من سكان مملكة غانة قد اعتنقت الاسلام على يد التكرور وملكهم. وهذا يثبت لنا أن التكرور (أو التكارنة في العامية) قد لعبوا الدور القيادى الأول والأساسي في نشر الاسلام بين القبائل الواقعة في النطاق السوداني (السافانا La Savane) قبل ظهور المرابطين سنة ١٠٧٦م .

---

(١) امبراطورية غانة الاسلامية ،د. ابراهيم طرخان ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق .

وفيما يلي عبارة البكرى :

" ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل . (مدينة تكرور) أهلها سودان وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير والداكور عندهم الصنم حتى وليهم (وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الاسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها وتوفى وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فأهل تكرور اليوم مسلمون .." (١)

هكذا يقرر هذا الجغرافي المسلم المشهور بأن انتشار الاسلام قدكان بالدعوة السلمية ،وذكر اسم هذا الملك الموفق شاهدا على ذلك.. كما أكد أن هذا الملك لم يكتف باسلامه ولا باسلام رعيته بل قام أيضا بدعوة سلمية يدعو جميع البلدان المجاورة منها مدينة (سيلا Silla) وأمر قومه بتحطيم الأصنام ، وأهمية عمله هذا تكمن في أن تكرور كانت أول قبيلة صاحبة دولة أسلمت في بلاد السودان الغربي .. يقول البكرى :

" وتسير من مدينة تكرور الى مدينة سلى وهي مدينتان على شاطئ النيل أيضا. وأهلها مسلمون أسلموا على يدى وارجابي رحمه الله وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوما في عمارة السودان .." (٢)

---

(١) المغرب ص ١٧٢ وارجابي هذا هو الجد الأعلى لقبائل جابي (Diaby) المنتشرة في كل من السنغال وغامبيا وغينيا ومالي وساحل العاج ولهم نشاطات في الدعوة الاسلامية حتى الآن . مستفاد من البحث الميداني سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) المغرب ص ١٧٢ وراجع كذلك لمحة من التاريخ الافريقي ،للدكتور ابراهيم دياب ص ٤٩ وراجع كذلك امبراطورية غانة الاسلامية ،

===

ان هذا النص لا يدع مجالا للشك من أن الاسلام قد انتشر في المنطقة بطريقة سلمية على يدى هذا الملك الداعية الموفق رحمه الله تعالى وأمثاله البررة . ومن ذلك التاريخ الى اليوم تجد أهل التكرور يستميتون في نشر الدعوة الاسلامية كما فعلها جدهم الأعلى (وارجابي) .. ولأجل موقف تكرور النبيل تجاه العقيدة الاسلامية ،أطلق أهل الشرق كلمة تكرور على جميع البشرة السوداء . والحقيقة ان تكرور كان اقليما من أقاليم بلاد السودان الغربي وهي الآن ضمن أراضي جمهورية السنغال .

ان هذا الدليل وحده كاف لبيان زيف القول بأن الاسلام قد انتشر هناك بالقوة والقهر والتخويف . ولكننا - نظرا - الى نزاهة البحث العلمي سنعزز هذا الدليل بمثال آخر وهو اسلام أول ملك لمملكة مالي التاريخية العظيمة وهو مثال لا يقل عن المثال الأول قوة وأهمية في الاشارة الى أن الاسلام قد انتشر بطريقة سلمية هناك .

٢ - اسلام ملك مالي على يدى داع من المسلمين :

ان الذى يؤكد تأكيدا جازما على أن الاسلام انتشر في المنطقة انتشارا سلميا قصة اسلام أول ملك من ملوك الماندنجو التي يرويها البكرى ونقلها عنه بعض كتاب الغرب .. فلنستمع الى البكرى حيث يقول :

== المصدر السابق ص ٤٣ . وراجع كذلك صبح الأعشى للقلقشندى ٥/ ٣٠٠ .

وأما قبائل سلا أيضا موجودة الآن في كل من السنغال و غينياومالي وغامبيا وساحل العاج خاصة في مدينة تسمى مدينة (تيمي) (Tiemé) الاسلامية القديمة سنتحدث عنها فيما يأتي من صفحات ...

" عرف ملك مالي بالمسلماني ، وانما سمي بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها ولا يزدادون الا مخصا وشقاء وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكا اليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرايع (١) الاسلام كلها لرجونا لك الفرج مما أنت فيه وحلّ بك وان تعمّ الرحمة أهلَ بلدك وان يحسدك على ذلك من عاداك وناواك فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيّته . وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلّمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ثم استنابه الى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده / يأتم فصليا من الليل ما شاء الله والمسلم يدعو والملك يؤمّن فما انفجر الصباح الا (والله) قد أعمهم بالسقي فأمر الملك بكسر الدكاكير واخراج السحرة من بلاده وصح اسلامه واسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون فوسموا ملوكهم مذ ذاك بالمسلماني .. " (٢)

-----

(١) ان كتابة كلمة (شرائع) ب (شرايع) بالياء هي طريقة المغاربة.

(٢) المغرب ص ١٧٨ وراجع ما كتبناه سابقا في الباب الأول فقد استدلنا بهذا النص هناك لبيان عقائد السكان ولكن أعدناه هنا للاستدلال على أن الاسلام انتشر عن طريق الدعوة السلمية . فلا تكرار ولا نسيان ، قد ذكرناه في صفحة ١٨٠.

وهكذا دلت هذه القصة على أمرين لهما أهميتهما الكبرى لما نحن بصدده :

١ - عرفنا من خلال هذه القصة أن أول ملك من ملوك مالي دخل في الاسلام عن طريق الدعوة قام بها أحد المسلمين في بلاده .

٢ - بقاء أهل مملكة هذا الملك على شركهم دليل قاطع على أن الاسلام انتشر عن طريق الدعوة السلمية . والا لأرغم هذا الملك أهل مملكته على اعتناق الاسلام. ولكنه تركهم حتى أسلموا عن اقتناع و رضى .

ثانيا - في الحديث :

- أ وأما في الحديث فمعنا نص له كبير الأهمية وهو من مطبوعات مجلس العموم البريطاني ،التي صدرت في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢م، ويدل دلالة واضحة على ما حققه الاسلام لمعتنقيه بافريقية من رقي جذب الناس اليه وجمعهم حوله ،وعلى أن الاسلام انتشر بطريقة سلمية، وفيما يلي هذا النص النفيس ، نفيس لأن الفضل ما اعترف به العدو .

يقول هذا النص البريطاني مايلي :

" منذ مدة لا تزيد على سبعين عاما ،استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن (سيراليون) من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلا ،اسمها بلاد (الماندنجو) ،وكما هي العادة عند فقهاء هذا الدين (الاسلام) ، فتح هؤلاء مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد ، وجروا على عادات المسلمين وخاصة في عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق . وقد أقاموا لأنفسهم شرائع (١) استخرجوها من القرآن واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل

---

(١) هذه الطريقة الشرقية في كتابة " شرائع " بينما المغاربة يكتبوها "شرايع " بالياء .

من السكان . وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية ، جلبوا الى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبياً ، كما جلبوا اليها الاتحاد والطمأنينة . وكان من أثر ذلك ، أن ازداد السكان زيادة سريعة ، وانتقل الى أيديهم شيئا فشيئا كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها . أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فانهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للماندنجو ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشريعة ".(١)

وأضاف قائلا :

" وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير ، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الاسلامي في أمن وسلام انتشارا سليما ، في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة الماندنجو ، حاملا تلك المزايا التي تتغلب فيما يظهر دائما على خرافات الزنوج ".(٢)

هذه هي الحقائق التي توجد سرا مكتوما في مجلس العموم البريطاني ولكن أوربا تظهر للناس ما يخالف هذه الحقائق ، فتقول :" ان الاسلام لم ينتشر في أفريقيا الا بالقهر والتخويف " ولكننا - بمنه تعالى - قد كشفنا الغطاء عن هذا السر المكتوم .

---

(١) The ride of Btitish west Africa pp . 130-121

وراجع موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/١٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٨ .

ب ـ(بولى مارتي) يثني على جهود (كراموكو صالح بمبا) ودعوته السلميةالناجحة في بلاد جيميني ب(ساحل العاج) :

ان مما استدل به الباحثون على/الاسلام كان -ولم يزل ينتشربطريقة سلمية ،ما ذكره المسيو بول مارتي (Paul Marty) الباحث الفرنسي الذى استطاع أن يكتب عن أحوال المسلمين ابان الحكم الاستعمارى الفرنسي في عدة مجلدات كماوصفناها سابقا - فكان المجلد الذى تحدث فيه عن كيفية انتشار الاسلام في ساحل العاج سماه : الاسلام في ساحل العاج (L' islam en cote d'ivoire) .

وقد تحدث(بول مارتي) عن جهود عالم كبير موفق / استمات فى سبيل نشر العقيدة الاسلامية هناك ، يعرف باسم (كراموكو صالح بامبا) - (Karamoko Salia Bamba) .

ويذكر (بول مارتي) أن لهذا المربي الجليل صفات جليلة حميدة، ونستطيع أن نوجز أعماله الجليلة في خدمة الاسلام بطريقة سلمية في الأمور التالية :

أولا - نشأته الدينية .

ثانيا - تأسيسه مع أصحابه ، الحي الاسلامي في مدينة وبكلا .

ثالثا - بناء المسجد الجامع بالاشتراك مع أصحابه .

رابعا - نشر العقيدة الاسلامية عن طريق التعليم والدعوة السلمية الناجحة .

فاليك فيما يلي شرحا موجزا لكل من هذه النقاط :

أولا - نشأته الدينية :

لقد ولد (كراموكوصالح بامبا) (Karamoko Salia Bamba) في مدينة (بندوكو B-endoukou) (١) بساحل العاج .

---

(١) مدينة بندوكو كما وصفها المؤرخ الفرنسي (بول مارتي (Paul Marty) تعتبر من أهم المدن الاسلامية في ساحل العاج الا أن تأسيسها قد تم على أيدى الوثنيين قبل سنة (١٠٤٣م) ويعرف هؤلاء الوثنيون باسم (أبورن (Abouron) ثم انتقل المسلمون اليها بعد تخريب مدينة (بيغو Bego) التي تعتبر أول مدينة اسلامية في منطقة الجنوب و تقع في جمهورية غانة الحالية . وكانت قرية صغيرة أى (بندوكو) ولكنها سرعان ما صارت من كبريات المدن الاسلامية هناك . .

ان العناصر المسلمة التي انتقلت من بيغو الى بندوكو تقدرب : (٢٫٠٠ نسمة) وتتكون بأربع أسر كبارهي : (نومورو (Noumourou) أو (الحدادون (Les Forgeronts) و قبيلة (ليقبى) (Ligbi) الا أن أغلبيتهم انتقلوا الى الاستيطان في دبكلا تحت قيادة سيدهم سنوسي جابي سيأتي ذكره بعد غزو ساموري تورى . وقبيلة (كارجولا) (Kardjoula) و قبائل (و ترا) وأخيرا قبيلة (مالاغا) أو (مارالا) (Marala) أو(هاوسا (Haoussa) التي كانت تقدرب (٣٣٨ نفسا) وكذلك قبيلة (ويلا) (Waiela) و تقدرب (١٣٤) نفسا ، ثم انقسم المسلمون الى تسعة قبائل : تيمتي ، دنزو ،كومالا ، مارالا ، كارجولا ،كوكو ،نينيا ، و يالا وكومبالا ، وتذكر المراجع ان انتقال المسلمين من مدينة بيغو الى يندوكو قد تم في القرن الثامن عشر الميلادى

راجع : Etu de sur le L'Islam en cote d'Ivoire ص ٢١٦ - ٢١٩ .

وذلك في سنة (١٨٨٠م) وهو ابن اسحاق بامبا الملقب باسحاق (وبيرى) (Obere) ابن صالح بامبا ابن ادريس بامبا ، الذى نزح من مدينة فوكولان (Foukoulan) ثم اتخذ مدينة بندوكو دار اقامة له.

وقد تلقى (كراموكو صالح بامبا) تعاليمه الأولى في مدينة بندوكو على يد الشيخ الكبير المسمى ب (كراموكولاسينا (Karamoko Lassina) من قبيلة (دنزو) (Donzo) ثم انتقل الى مدينة (دبكلا عاصمة بلاد جيميني) حيث أخذ الطريقة القادرية عن الشيخ (أحمد كونتا) (Ahmadou Kounta) الذى هاجر الى (دبكلا) من مدينة (جنى) (Djene) (بمالي الحالية) ثم تعلم فنونا أخرى على أيدى علماء أجلاء من مدينة (كونغ) (Kong) الذين كانوا يترددون بين (كونغ و دبكلا) . فأصبح بذلك مفتيا في هذه المدينة وما جاورها وانتشر صيته في كل مكان من هذه المنطقة بغزارة العلم والتقوى والصلاح والاستماتة في سبيل نشر التعاليم الاسلامية هناك حتى التحق بالرفيق الأعلى في سنة (١٩٥٨م) رحمه الله تعالى رحمة واسعة ...

ثانيا - مشاركته في تأسيس حي اسلامي بمدينة دبكلا :

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يغادر (كراموكو صالح بامبا) مسقط رأسه المحبوب مدينة (بندوكو) (Bondoukou) مهاجرا الى مدينة دبكلا .. وذلك بتدبير من الله تعالى ، لأن يصبح مصدر اشعاع النور الاسلامي في هذه المدينة (دبكلا) التي كانت أغلبية سكانها تدين بالوثنية وعبادة أرواح السلف وفي مقدمتهم زعيم المدينة

الملقب بـ (نـــوه - Noh) (١) + وقد كان هذا الداعية المظفـر يكره مغادرة مدينته المفضلة مدينة آبائه وأجداده يعنى أبواه (اسحـــاق وبيرى) بن صالح باما ابن اديس باما .

---

(١) وقد كانت بلاد جيميني (Djimini) آنذاك كما أفادنـا بذلك بول مارتي تعيش في الوثنية ما عدا أربعة أماكن هي :

١ - مدينتا دبكلا (يعني كانت دبكلا مدينتان احداهما هي مدينة سكان جيميني الأصليين تسمى بدبكلا كـــــــورو (Dabakala Koro) ويوجد بين المدينتين كيلو متر واحد فقط والأخرى (دبكلا جولاسو) (Dabakala Djoula-sso) فهي المدينة التي بناها المهاجرون من بندوكو تحت قيادة زعيمهم : سنوسي جابي .. ومعه الشخصيات البارزة من كراموكو صالح باما وعماه : ادريس (بيماوا) وادريس (بتوغوبابا) باما . وأمـــــا الشخصيات البارزة في دبكلا كورو فـهم : بامورى كوليبالي وكـان جده عامورو أول من أسلم هناك وقد تم اسلامه على يد عمر جابغتي من قبيلة ماندى ثم بعد ذلك انتشر الاسلام في هذه المدينة .

٢ - مدينتا ساتاما (Deux ville de Satama)
- ساتاما سوكورا : فقد كان الرجل البارز فيها في تلك السنيـــن يعني القرن التاسع عشر الميلادى هو با - سارلنوغو - فوقانا) ومات (١٨٨٩)م (Ba-Saranorho fofana)
- ساتاما سوكورو التي تعتبر أما لستاما سكورا . وكانت قبيلة تورى أشرف القبائل فيها وفي مقدمتهم : فاموريبا تورى مات ٢٧/١٠/١٩١٥م .

٣ - موريـــلا - جولاسو (M. Borla)
تعتبر أهم مدينة اسلامية في المنطقة بعد (ساتاما سوكورو) قد كان فيها في القرن التاسع عشر (٨٠٠) نسمة و مدرستان و مسجد جامع

===

. . . .

=== واحد قد بني في سنة ١٩١٩م .. يقول بول مارتي في صفحة ٢٠٩ من كتابه المذكور وقد كان في مدينة (مبورولا) أسرة كريمة قامت بالعمل الاسلامي منذ قرنين (يعني منذ القرن السابع عشر الميلادى وكانت بيدها جميع شئون الدعوة الاسلامية من الامامة وغيرها . وتلك الأسرة الكريمة هي أسرة (غرانبوتي - Gramboute) من أصل قبيلة (سينوفو Senohfo) . وكان الرجل الأول الذى أسلم من هذه الأسرة الكريمة (كراموكو مامادو - Karanoko Mamadou) قد أسلم في القرن السابع عشر الميلادى بواسطة عالم جليل من قبيلة (كاماغاتي) (Kamagate) الذى جاء من مدينة (كونغ - Kong) واستوطن في مدينة (مبورولا) وتسميها العامة بـ (وغورا - Gbogora) وقد تناسل من هذا الرجل الموفق يعني امامادوغرانبوتي رجال عظماء وهم كالتالي (كراموكوعلى) و (فيريمورى غرانبوتي Fere mori Granboute) ، (كراموكو يحيى) فيريمورى (مامادى) ، (يحيى)(فيريمورى يحيى) ، (كرموكوسناسى) (كراموكوبيمادن) (Bimmadin) فمنذ القرن السابع عشر الميلادى الى اليوم هم المسئولون عن الدعوة الاسلامية في المدينة وأخيرا قد بنى الأخ الفاضل ، الحاج - (أحمد به) مدرسة اسلامية على الطراز الجديدفي هذه المدينة سنة ١٩٨٥ وجزاهم الله خيرا عن الاسلام هناك ، في هذه المدينة أسرتان أيضا قد خدمتا الاسلام أيضا وقامت به خير القيام هما :

١ - جاباتي ، ٢ - أسره بايكورو - Baikoro) وأما أسرة جاباتي فقد كان أول رجل منها سكن في هذه المدينه اسمه : (اموروجاباتي - Amoro Diabate) وهو من أسرة (ماندى - Mande) يقال أن جدهم الأعلى وصل في في هذه المدينة من (ماندى) منذ القرن الثاني عشر الميلادى

===

....

=== ولكن (بول مارتي) يستبعد هذا... واما أسرة (بايكورو)
فقد كان الرجل البارز فيها في القرن الثامن عشر هو سليمان
بايكورو من أسرة (سينوفو Senoufo) قد اعتنق الاسلام
على يد عالم اسمه اسحاق من (ماندى) وأخذ الطريقة القادرية
من الشيخ فيريمورى غرانبو تي . وكانت ولادة سليمان هذا سنة
١٨٧٠م (بول مارتي ص ٢٤٠). وقد كانت هناك مدينة اسلامية
لا تقل عن مدينة (مبورولا) حماسة بالنسبة للعمل الاسلامي حيث
كانت توجد فيها منذ قديم زمان حركات اسلامية عديدة هي
مدينة (داغارا - Dagara) قد كان رجل العالم البارز
فيها في القرن التاسع عشر الميلادى ، الشيخ بمور كوليبالي
المولود نحو ١٨٤٠م من أسرة (ماندى - Mande) قد
نزحت من النيجر الأوسط (مالى) وقد كان في هذه المدينة
(٥٥٠) مسلما في ذلك الوقت وأربع مدارس اسلامية ومسجد من
أجمل المساجد التي بنيت هناك على الطراز السوداني . وقد كان
بها أيضا عالم جليل قد ترك وراءه شهرة عظيمة من القداسة
(Renom de Saintete) ذلك العالم هو كراموكو يقال له :
(كورو بيما - Koro-Bema) الذى أخذ الطريقة القادرية
من عالمين آخرين عظيمين هما :

١ - (الحاج ماماجابي) ، ٢ -(والحاج اسحاق جابي)
اللذين نشرا الاسلام هناك أيضا الا أنهما يرجع أصلهما الى بلاد
التكرور في فوناتورو بالسنغال و من ذرية وارجابي بن رابيس السالف
الذكر . الداعية المثالي .. ثم ان كراموكوصا لح باما الذى نحن
بصدد الحديث عنه قد تزوج بنت الحاج ماماجابي المسماة ب
(سيتي جابي) فجاءت منها ذرية طيبة خدمت الاسلام ولم
تزل تخدم الاسلام الى اليوم وان المبتلى بكتابة هذه الرسالة
من أحفاد هذه المرأة الصالحة. ===

ولكن الله كان يريد أن يفعل به أمرا عظيما .. يريد أن يرفع به راية الاسلام خفاقة في سماء دبكلا ويعلو به كفة العقيدة الاسلامية على كفة الوثنية التي كانت سائدة من بلدان جيميني ..

وهكذا هاجر هذا المربي والداعية الاسلامي من مدينة بندوكو شرفها الله تعالى وكان في معيته عدد غفير من الأهالي والعبيد ووجهاء الناس وفي مقدمتهم عماه : بيمابامبا الملقب ب (بيماقبيما) (Bimma Gbema) وبابابامبا الملقب ب (غوطوغبابا) (Goutougo Baba) فاستوطنوا جميعا في دبكلا . وكان أول عمل باشروه هناك هو طلبهم من الزعيم الوثني السالف الذكر (نوة كوليبالي) (No Coulibaly) الذى ولد سنة ١٨٩٠م أن يسمح لهم بانشاء حي اسلامي في هذه المدينة . فلما تم بناؤه سموه ب (دبكلا - جولاسو) (Dabakala - Djoulasso) ومعناه : (دبكلا الاسلامية) . وكان توزيع الأعمال فيها كالتالي :

=== وأخيرا كانت هناك في بلاد جيميني مدينة اسلامية أخرى يقال لها (وندراما) (Ouandarama) كان بها (٣٠٠ نسمة) وأغلبيتها كانت مسلمة وكان (بوروما - Boroma) (تندوساما - Tendoussama) العالم البارز آنذاك المولود في سنة ١٨٧٥م من أسرة كانت تسكن في مدينة كونغ ثم استوطنت في هذه المدينة راجع بول مارتي ص ٢٠٨ .

١ - تعيين سنوسى جابي أميرا لهذه المدينة الاسلامية الفتية ولما مات ناب عنه ماماجابي أخوه .

٢ - تعيين كراموكوصالح بامبا للأمور الجسيمة التالية :

أ - القيام بالشئون الاسلامية من الدعوة و تعليم الأولاد . لذا بنى في داره مدرسة كبيرة .

ب - أن يكون قاضيا مسلما في المحاكم الفرنسية الاستعمارية.

ج - و اماما أعظم في هذه المدينة و مفتيا لجميع المسائل الدينية.

و نهض كراموكوصا لح بامبا بهذه الأمور كلها وقام بها خير القيام الا أن مات سنة ١٩٥٨م وقد شهد له (بول مارتي) بذلك ومدحه اذ يقول (١) : " Ce Sont Des Jeunes Gens Tranguilles Et Corects"

" انهم (يعني هو وعميه السالفي الذكر) "فتية هادوءون ومعتدلون"

ثالثا - مشاركته الفعالة في تأسيس مسجد جامع في الحي الاسلامي (دبكلا جلاسو).

وقد ذكر الموءرخ الفرنسي (بول مارتي) أن الذى يرجع اليه شرف بناء هذا المسجد هو كراموكوصا لح بامبا وعماه (باباباميا وبيماباميا) وأما بقية الناس كانوا تبعا لهم .

وقد تم بناء هذا المسجد عام ١٨٩٨ م ثم استمر على قواعده حوالي ستين سنة ولما مات الشيخ السنوسي قد دفن في داخل هذا المسجد (٢) وأما

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٢) رغم أن الشريعة لا تجيز دفن الأموات في داخل المسجد ،نجد دائما المسلمين في غربي افريقيا قديما وحديثا يدفنون الرجال العظماء في مساجدهم اذا ماتوا ان هذه الظاهرة يجب وضع حد لها .

صالح باميا (صاحب القصة) قد دفن خارج المسجد في الناحية الشرقية . ولم يزل قبره أمام هذا المسجد ثم جدد بناءه أحد أحفاد سنوسي جابي اسمه : (نوح جابي) الملقب بـ (بيير بيبيون Pierre Billon) لأنه جاء من أب فرنسي وأم سودانية وقد جدد هذا البناء في سنة (١٩٨٥ م) بتكلفة أكثر من (٣٠٠٠٠٠٠٠٠) فرنك بناه على الطراز المغربي وقد حضر يوم افتتاحه جمع غفير من وجهاء ساحل العاج .. وخاصة الحاج اسحاق باميا الولد الأكبر لكرموكو صالح باميا السالف الذكر وجماعة من مدينة بندوكو تحت قيادة العالم المشهور باسم " أبو حارس " وترا .. والمسجد لم يزل يؤدي دوره في هذه المنطقة الى اليوم .. وقد كنت حاضرا يوم افتتاحه سنة ١٩٨٥ م .

رابعا - التدريس والاستماتة في الدعوة :

يذكر (بول مارتي) أن الشيخ كراموكو صالح باميا لما وصل في اقليم جيميني عمد بعد تأسيسهم الحي الاسلامي - الى بناء مدرسة اسلامية في داره تقع على بعد ١٥٠ متر من المسجد الجامع من الناحية الشمالية وتضم (١٢) تلميذا ولكن بفضل جهوده ونشاطاته في الدعوة قد بلغ تعداد تلاميذه أكثر من (٥٠٠) تلميذا قبل موته ولا تكاد تجد أحدا من أبناء هذه المدينة وما حولها الا وقد درس في مدرسته .. ولما مات سنة ١٩٥٨ م عندما بلغ ٧٨ سنة من عمره / حسب المعلومات التي سجلها (بول مارتي) (١) .

---

(١) Voir , L'Islam En cote d'Ivoire D. 2o4.

انتقلت شئون الدعوة الى أولاده وفي مقدمتهم ابنه الأكبر الحاج اسحاق بمبا الساكن مدينة ابيدجان . والذى عين أخيرا الامام الأكبر في الجامع الكبير في حي ترشفيل . ولم يزل كذلك الى حين كتابة هذه الأسطر يعني (١) سنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

كان هذا بعض أدلة الفريق الأول الذين يرون أن الاسلام لم ينتشر في بلاد السودان الغربي عن طريق القوة والارهاب بل يقولون ان الدين الذى انتشر في المنطقة عن طريق القوة والقهر هو : النصرانية. فلنرجع الى (توماس أرنولد) لنقتبس منه بعض الفقرات الدالة على أن نشر المسيحية بهذه المنطقة قد تم في كثير الأحوال بواسطة القسر والعنف والالزام اذ يقول :

" في سنة ١٨٧٨م عقد الملك جون مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد في كافة أنحاء المملكة، وألزم المسلمون بالتعميد خلال ثلاث سنوات والوثنيون خلال خمس سنوات بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة ،فأذاع بعد أيام قليلة مرسوما أنذر فيه كل الموظفين المسلمين ،بأن المهلة الممنوحة لهم هي فقط ثلاثة أشهر ،ويعلق (Massala) الذى ينقل عنه (T.Arnold) أن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الاجبارى ولكنه كان تنصيرا عديم الأثر ،ويرون أنه شاهد بعضا من هوءلاء يخرجون

---

(١) مستفاد من البحث الميداني في سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
وقد مات الحاج اسحاق بمبا بتاريخ ٢ / ١٤١٢ هـ في مدينة أبيدجان ودفن في مقبرة حى (كوماسى) وقد حضر جنازته جمع غفير لم تشهد مدينة أبيدجان مثله أبدا رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتمسون فيه رجلا مباركـــا من رجال دينهم يمحو ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه.(١)

وبعدما تحدثنا عن بعض أدلة القائلين بأن الاسلام قد انتشـــر في بلاد السودان الغربي عن طريق الدعوة السلمية.

قد حان الأوان الآن أن نتحدث عن أقوال الفريق الثاني مع مناقشة آرائهم..

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص (١٤١-١٤٢).

الاتجاه الثاني - بعض أقوال الذين يدّعون بأن الاسلام انتشر في المنطقة بالقهر والارهاب .

بعد أن تحدثنا عما اتفق عليه أكثر الباحثين والمؤرخين القدامى والمعاصرين ،من أن انتشار الاسلام قد تم هناك عن طريق التجارة والدعوة السلمية البطيئة،نود هنا أن نتحدث أيضا عن بعض أقوال المعارضين الذين يدعون (زورا وبهتانا) أن الاسلام لم ينتشر هناك الا بالقوة والقهر . فاليك -فيما يلي - بعضا من أقوالهم مع مناقشتها . .

قد تحدث (توماس أرنولد) عن هذا الموضوع فأكد تأكيدا جازما أن الاسلام قد دخل في المنطقة نتيجةً لغزو المرابطين لها في القرن الحادى عشر الميلادى وبنى اتجاهه هذا على ذلك ،ليصل الى أن الاسلام انتشر هناك بالارهاب الشديد الذى أرغم الناس على الدخول في الاسلام ولم يكن ذلك عن طواعية أبدا وعبارته :

" . . . أثّرت حركة المرابطين في قبائل السودان الوثنية وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش سنة ١٠٦٢م وثاني أمراء دولة المرابطين ، حافلا جدا بدخول الناس في الاسلام وأخذ الكثيرون من الزنوج الذين كانوا جهلة يتعلمون مبادئ محمد . . ." (١) صلى الله عليه وسلم.

ويسير (دنيز بولم - Denis Polme) على منوال توماس أرنولد ويعلن أن السود لم يدخلوا في الاسلام الا لأجل خوفهم من المرابطين اذ يقول :

---

(١) الدعوة الى الاسلام المصدر السابق ص ٢٦٨ .

" ولقد كان لتأثير المرابطين والخوف منهم ما حمل بعض الشعوب السوداء العائشة في تماس بهم على الاسلام : كتوكولور وسراكولى وديبولا وبعضا من الماندنغ ... "(١)

وهكذا يرى هذان الأوربيان وغيرهما أن الاسلام دخل في بلاد السودان الغربي عن طريق الغزو المسلح .. ولكننا بعد بحث مستفيض أدركنا أن الذين يقولون بذلك من الأوربيين ، أخذوا هذا القول أو هذا الخلط التاريخي عن كتاب الحسن الوزان المسمى ب (ليو الافريقي) ، .. الذى يعتبر كتابه " وصف أفريقيا " من المصادر الأولية التي أفاضت على الأوربيين معلومات أولية عن قلب افريقيا خاصة بلاد السودان الغربي .(٢)

---

(١) الحضارات الافريقية ، دنيز بولم ترجمة نسيم نصر . بيروت - باريس ص ٧٠ .

(٢) وقد ألف كتابه هذا في سنة (١٥٢٨) في ايطاليا وفي اللغة الايطالية . فقد نشر راموزيو هذا الكتاب سنة ١٥٥٠م (٩٥٧هـ) في مدينة البندقية أى قبل ٤٤١ عاما هجريا . وفي سنة (١٥٥٥)م ظهرت الترجمة الفرنسية بجهود (تامبورال) وفي اللاتينية في عام (٩٦٦هـ) (١٥٥٦م) في مدينة انفرس البلجيكية وفي سنة ١٦٠٠م ظهرت الترجمة الانجليزية على يد (جون بورى) وفي اللغة الهولندية في عام ١٦٦٥م وفي سنة ١٨٠٥ تمت ترجمته الى الألمانية ، وفي سنة ١٨٩٦م ، ظهرت طبعة ايطالية حديثة وفي ١٨٩٦م أعاد براون نشر الكتاب بالانكليزية اعتمادا على طبعة بورى بينما كان يعمل (سن) . أشرف على نشره بالفرنسية في باريس ، في عامي ١٨٩٦م و ١٨٩٨م . وهكذا الدواليب .

===

. . . .

=== وبعد نفاد الطبعة الفرنسية التي نشرها شيفر ، قام الطبيب الفرنسي الجنرال (أبيولار) ، الذى سلخ شطرا كبيرا من حياته في أقطار المغرب العربي ، ولا سيما في المملكة المغربية قام بتحقيق كتاب الوزان مع شروح إضافية . ولكن المنية عاجلته سنة ١٩٤٩ م وحالت دون نشر مخطوطه الى أن حصل أصدقاؤه العلماء الثلاثة : (ت . مونو) ، (هـ . لوت) و (ر . مونى) على المخطوط من أرملته ؛ وعملوا على طباعته مع اضافات لا يستهان بها على الشروح والتعليق وظهر الكتاب في حلته الجديدة سنة ١٩٥٦ م (١٣٧٥ هـ) ضمن جزأين . وهذه النسخة هي التي اعتمد عليها الدكتور (عبد الرحمن حميدة) في الترجمة . وذلك بمبادرة من كلية العلوم الاجتماعية في جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية . وبمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول المنعقد في مطلع عام ١٣٩٩ هـ أو ١٩٧٩ م . راجع مقدمة كتاب وصف افريقية الترجمة العربية .

ان الحسن الوزان هو - فيما نعلم - أول من نشر هذا الاتجاه ،وعنه نقل الكتاب الأوربيون/ قوله أن الاسلام دخل أول ما دخل في بلاد السودان الغربي على أيدى المرابطين الذين أرغموا الناس على الدخول فيه . و هذا نص كلمته :

" . . . وقد حكم يوسف ،ملك مراكش ومؤسسها مع أقوام ليبيا الخمسة حكموا هؤلاء الزنوج وعلموهم الشريعة الاسلامية والمعارف الضرورية لسلوكهم في الحياة . فدخل الكثير منهم في الاسلام ،حينئذ أخذ تجار بلاد البربر يقصدون هذه المبادلة مختلف السلع ،حتى انهم تعلموا لغاتهم . . . "(١)

هذا ما سجله (الحسن الوزان) في هذا الكتاب الذى كان المرجع الأساسي لمعرفة قلب بلاد السودان الغربي عند كثير من الأوربيين . فقال به كثير من الباحثين الأوربيين ،ويسايرهم فيه ،أيضا كثير من أصحاب النظرة المتسرعة من المسلمين الذين لم يتعمقوا في دراسة تاريخ هذه المنطقة السودانية .

ففيما يلي -نود أن نناقش مصدر هذا القول لنعرف هل لهذا الرأى قاعدة اعتمد عليها أو أنه مجرد التخمين أو الافتراءات والمزايدات على الناس ؟ وسنبدأ بالمناقشة من ناحيتين فقط :

---

(١) وصف افريقيا ،الحسن الوزان ص ٥٣٣ - ٥٣٤ .

الناحية الأولى : قوله : ان يوسف بن تاشفين قد حكم هؤلاء الزنوج فكان ذلك الحكم بداية لدخول الاسلام في السودان الغربي .

فنقول : ان هذه المعلومات - لا شك - لا تمت الى الحقيقة بصلة، بدليل أن يوسف ومرابطيه لم يواصلوا عملية الفتح السوداني بعد وفاة أبي بكر عمر أبدا . بل ان سيادة المرابطين - كما سنوضح ذلك فيما يأتي - لم تدم على السودان أكثر من احدى عشرة سنة فتولى على سلطة غانة ابناؤها السودانيون ولم يحك لنا التاريخ أبدا أن يوسف بن تاشفين وصل في بلاد السودان الغربي . فاليك فيما يلي أقوال الباحثين المدققين في ذلك :

يقول الدكتور ابراهيم طرخان :

" ان سيادة المرابطين على غانة أو نفوذهم فيها لم يستمر طويلا ، فقد استعاد السوننك استقلالهم عقب وفاة أبي بكر زعيم المرابطين عام١٠٨٧م وتفرق كلمتهم من بعده ".(١)

هنا نص آخر له أهميته الكبرى يدل دلالة واضحة على أن يوسف ابن تاشفين لم يحكم أبدا بلاد السودان الغربي .. وهو لكاتب أوروبي (جوان جوزيف) اذ يقول :

" وفي سنة (١٠٨٧)م بعد (١١) عاما من سقوط كومبي في أيدى المرابطين ،استطاعت عشيرة السيسي (Sisse) تحت قيادة (كيامغا) ،وهي العشائر المحاربة القوية التي تنتهي الى قبائل

---

(١) امبراطورية غانة الاسلامية ص (٤٧) بتصرف طفيف .

السونينك أن تعود الى اعتلاء عرش الامبراطورية وتحاول تحرير أراضيها ولكن الامبراطورية كانت مفككة (بعد تحريرها من المرابطين) وأصبحت شعوبها وقبائلها " شيعا منعزلة ، لم يعد يربطها اتحاد من أى نوع كان .. واستمرت محاولات ملوك (السيسي) في اعادة توحيد أراضي وشعوب الامبراطورية لمدة تزيد على مائة سنة دون جدوى .. وأخيرا في سنة ١٢٠٣م ، استطاعت قبيلة (سوسو) (Sosso) التي كانت تُكِنُّ العداءَ دائما لقبائل السونينك المسلمة ، أن تغزو أراضي الامبراطورية المحتضرة ، واستولت عليها وعلى كل ما زال موجودا من كنوزها وثرواتها ، بل واستولت أيضا على كل شعب الامبراطورية من قبائل السونينك وحولتهم الى عبيد .

" وهكذا اختفت أول امبراطورية افريقية سوداء ظهرت وازدهرت في العصور الوسطى ". (١)

هذا هو منطق التاريخ ، الدال على أن يوسف بن تاشفين لم يحكم أبدا بلاد السودان الغربي لأن البلاد آلت بعد احدى عشرة سنة فقط الى السودانيين الذين استمروا يحكمون بلادهم تحت راية التوحيد حتى تغلبت عليهم قبائل (سوسو) الوثنية فقضت على امبراطورية غانة ثم قضت عام (١٢٤٠م) دولة مالي على دولة صوصو و غانة معا .. ولست أدرى من أين أخذ الحسن الوزان هذه المعلومات الزائفة ، التي لا تمت بالحقائق التاريخية بصلة لا من قريب ولا من بعيد ؟

---

(١) الاسلام في ممالك افريقيا السوداء ص ٦٢ دار الكتب الاسلامية .

وقد فند الدكتور ابراهيم طرخان مزاعم الحسن الوزان هذه بقوله :

" والمحقق أن الكثير من سكان امبراطورية غانة قد اعتنق الاسلام قبل القرن الحادى عشر الميلادى ،وأنه منذ فتح المرابطين لعاصمة غانة ازداد عدد الداخلين في الاسلام كما أسلم ملوكها (١) وأصبحت الحكومة اسلامية منذ ذلك الوقت وظلت كذلك حتى اختفاء غانة من التاريخ سنة ١٢٤٠ م ". (٢)

ويقول الادريسي : " أما حكومة غانة الاسلامية فقد عملت على الاتصال المباشر بالخلافة العباسية في بغداد وأجبرت رعاياها على لبس العمامة". (٣)

فعلمنا من خلال هذه النصوص أن الحسن الوزان ليس له مستند في هذا الاتجاه . فلو قال : ان أكثر ملوك غانة قد اعتنقوا الاسلام بسبب الغزو المرابطي لكان ذلك صوابا فقد أشار المؤرخون الى هذه الحقيقة ، منهم القلقشندى اذ يقول :

----

(١) راجع صبح الأعشى ٢٩٣/٥ .
وراجع غرب افريقيا في ظل الاسلام ، قداح ص ٣١ . العبر ٢٩٣/٥ ، ٢٠٠/٦ .

De la Ronciere, l,p.(86) CH , La decouverte de L'Afrique au Moyen-Age Le Caire, 1925.

(٢) امبراطورية غانة . المصدر السابق ص ٤٧ الديانات في افريقيا السوداء ، ديشان ص ١٢٣ .

(٣) نزهة المشتاق ص ٦ .
انظر كذلك : De la Ronciere,l.p(85).

" فلما أسلم الملثمون من البربر ، تسلطوا عليهم - أى على ملوك السودان بالغزو حتى دان الكثير منهم بالاسلام .. "(١)

فدل ذلك على أن المرابطين لم يكونوا أول من أدخل الاسلام الى بلاد السودان الغربي في القرن الحادى عشر الميلادى كما هو متواتر عند الأوربيين الذين اعتمدوا على رواية الحسن الوزان .. فبعد هذه المناقشة الهادئة لنتحدث الآن عن الناحية الثانية التي أخطأ فيها الحسن الوزان في هذا الموضوع .

الناحية الثانية : فقد زعم الحسن الوزان أن ازدهار التبادل التجارى وُجِدَ في المنطقة نتيجةً لغزو المرابطين لها .

فنقول : ان هذه المعلومات أيضا لا تقل خطأ عن الأخطاء السابقة بدليل أن تخريب أودغست وانهيار قوة غانة بفعل المرابطين ، قد ألحق الضرر بازدهار الطريق التجارى بين المنطقتين : الشمالية والجنوبية . وقد أشار الى هذه الحقيقة الدكتور عبد الرحمن حميدة الذى قام بترجمة كتاب ليو الافريقي من الفرنسية الى العربية اذ يقول :

" الأمر على عكس ما يقول ليو الافريقي ، لأنه يبدو أن تخريب أودغست وانهيار قوة مملكة غانة بفعل المرابطين قد ألحق أكبر الضرر بازدهار الطريق التجارى الغربي المار من موريتانيا الحالية " أهـ (الهامش)(٢)

---

(١) صبح الأعشى ٥/٢٩٣ .

(٢) وصف افريقيا ، الحسن الوزان ص ٥٣٤ .

ثم اختتم هذا التصريح مبينا أن يوسف بن تاشفين وأصحابه لم يحاربوا أبدا بلاد السودان الغربي بعد موت زعيمهم أبي بكر. وكما قرر أن انتشار الاسلام هناك بدأ به لأول وهلة - دعاة وتجار مسلمون وعبارته كالتالي :

" لا يبدو أن يوسف بن تاشفين ومرابطيه قد واصلوا عملية الفتح السوداني بعد وفاة أبي بكر بن عمر ، و مهما كان عليه الأمر فان دخول الزنوج في الاسلام بصورة بطيئة - وهو لا يزال مستمرا حتى أيامنا هذا يعود فقط للدعاة ولتجار مسلمين "(أ هـ - الهامش) .(١)

وهكذا ظهر لنا جليا أن ما يقوله الأوربيون - اعتمادا على كتاب الحسن الوزان - من " أن الاسلام انتشر ودخل هناك بالقهر عن طريق المرابطين ، معلومات خاطئة ومضللة بل ان العكس هو الصحيح . ان الاسلام - كما سيأتي - قد دخل المنطقة قبل المرابطين بأربعة قرون اعتبارا من القرن السابع الى القرن الحادى عشر الميلاديين فدل كل ذلك على أن كتاب ليو الافريقي - ان كانت فيه - مزايا رفيعة - الا أنه لا يخلو من أخطاء تاريخية . فقد أشار الى ذلك الدكتور عبد الرحمن حميده الذى قام بترجمته الى العربية ، فيحسن بنا أن نستمع اليه ليعطينا قيمة هذا الكتاب العلمية .

يقول :

" ان لكتاب ليو الافريقي مزايا رفيعة ، ولا ينكرها من أطلع على هذا الكتاب النفيس والذى يعتبر من أثمن المصادر ، ولكنه مع هذا يبدو حاويا على عدد ضخم من الأخطاء الناجمة عن أسباب عديدة ".(٢)

---

(١) وصف افريقيا ص ٥٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .

فذكر من الأسباب مايلي :

" فقد كتب ليو الافريقي كتابه اعتمادا على الذاكرة التي كانت رائعة ... ولكنها لم تكن أمينة كل الأمانة ولا معصومة ، فقد ارتكب أخطاء بارزة جغرافية و تاريخية واعتمد أحيانا - على روايات رحالة غير صحيحة ..ثم إنه لم يقرأ مذكراته مرة ثانية بدقة .. وهكذا تتعذر قراءة نص ليو الافريقي الا في ضوء شرح مفصل ".(١)

هكذا أيضا اتضح لنا أن كتاب ليو الافريقي يتضمن بعض المعلومات الصحيحة ولكنه -في الوقت نفسه- يحتوى على أخطاء تاريخيه وجغرافية ،ومن ضمن هذه الأخطاء التاريخية ،الموضوع الذى تحدثنا عنه آنفا . فيجب تصحيحه في الكتب التاريخية وبيان ما هو الحق في ذلك.

وبعد هذه المناقشة التي عرفنا من خلالها أن المرابطين ليسوا أول من أدخلوا الاسلام في المنطقة . وأن يوسف بن تاشفين لم يصل بفتوحاته -قط- بعد موت عمه أبي بكر الى بلاد السودان الغربي . بعدما عرفنا كل ذلك فمن هم اذن الرواد الأول الذين ارتادوا بلاد السودان الغربي لنشر الاسلام ؟ وأين و متى كان ذلك العمل الاسلامي العظيم ؟

في الصفحات التالية سنرى الأجوبة على كل ذلك ان شاء الله تعالى .

---

(١) وصف افريقيا ص ٢٤ ، ٢٥ .

المبحث الثالث: من هو أول من ارتاد المنطقة لنشر الاسلام وأين ومتى كان ذلك ؟

بعدما تحقق لدينا أن المرابطين ليسوا أول من نشر الاسلام في المنطقة فمن هو الذى قام بذلك اذن ؟

فالجواب : قد أكدت المصادر التاريخية الجادة على أن أول من وطأت قدمه أرض السودان الغربي لنشر الاسلام ، هو عقبة بن نافع الفهرى ، كما أفادت تلك المصادر أن هذا الحدث التاريخي قد وقع في القرن الأول الهجرى وبالتحديد سنة (٤٣) هـ وأن مدينة أوداغست (Odaguest) (١) كانت أول مدينة سودانية وقع فيه الأمر العظيم ، وقد اكتشفت أطلالها أخيرا . (انظر الصورة) رقم (٤) .

---

(١) مدينة أوداغست لا وجود لها اليوم ، ولكنها كانت تقع بحسب رواية البكرى على بعد مسيرة نحو شهرين وسجلماسة ، وخمسة عشر يوما من عاصمة غانة ، وسكانها الآن مدينة تجدارست (Tegdaoust) شرقي منطقة تاكانت (Tegant) وتقع ضمن جمهورية موريتانيا الحديثة . أ هـ ما قاله د . ابراهيم طرخان في كتابه امبراطورية غانة ص ٢٩ . وقد اكتشفت أطلالها أخيرا من قبل العالمين الأثريين : دفيس (Devisse) وروبار (Robert) وذلك بتاريخ ٢٩/ يناير (A.F.P.) . وقد حضر الاحتفالات هذا اليوم الرئيس الموريتاني محمد ولداده ومعه جمع غفير من الدبلوماسيين ونشر ذلك في جريدة موريتانية . كما قلنا سابقا في ص٢٢ او ٧٤ انظر صورة قطعة منها عثرنا عليها خلال البحث الميداني في سنة ١٤٠٥هـ أو ١٩٨٥م . انظرها في الملحق رقم (٤) .

فيما يلي - نسوق للقارئ بعض أقوال العلماء الدالة على ذلك :

فقد أورد ابن الأثير في كتابيه « الكامل في التاريخ [(١)] ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة [(٢)] خبرا يدل على ذلك وعبارتهما متقاربة ، فقال :

" ... فانتهى عقبة بن نافع الى لواتة ومزاتة في سنة (٤١) وافتتح غدامس في سنة (٤٢) وافتتح مواضع من (بلاد السودان) وودان من حيز برقة في سنة (٤٣) .

فدل هذا التقرير دلالة واضحة على أن عقبة بن نافع هو أول من فتح بلاد السودان الغربي لنشر العقيدة الاسلامية .

ويسير عبد الله بن صالح على منوال ابن الأثير ويوافقه في هذا التاريخ اذ يقول :

" ان عقبة بن نافع هو الذى غزا لواتة في سنة (٤١) وفتح غدامس في سنة (٤٢)هـ ، وافتتح كورا من كور السودان سنة (٤٣) [(٣)].

ويقول البكرى :

" وقد صرف عقبة همته الى غزو الواحات القريبة من فزان وودان وزويلة (والسودان) " [(٤)].

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ص ٢١٢ .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ / ٤٢٠ .
وراجع كذلك ابن عذارى ١ / ١٥ ، أبو المحاسن ١ / ١٢٤ .

(٣) عبد الله بن صالح (الاستيعاب) ص ٢١٨ . راجع المقريزى : الخطط المجلد الثاني بيروت ص ٦٩ . وراجع الكندى كتاب القضاء والولاة ص ٣٢ .

(٤) المغرب ص ١٤٥ .

ويذكر محمود شاكر وصفا مفصلا عن البلاد التي فتحها عقبة بن نافع من المغرب الى بلاد السودان اذ يقول :

" واستمر عقبة بن نافع في تقدمه على ساحل المحيط الأطلسي حتى وصل الى بلدة (نول) في أقصى بلاد المغرب حيث كانت بعض قبائل الملثمين تنزل فيها . واستطاع عقبة اخضاعها لسلطان الاسلام . وفتح بعد ذلك (مسوفة) وبنى فيها مسجدا ترك فيه من يعلم الناس مبادىء الاسلام وفي هذه الأثناء دخلت صنهاجة التي كانت تقيم في المغرب ،الاسلام ،وبهذا وصل عقبة بن نافع الى أطراف الصحراء وفتح الطريق للاسلام كي ينتقل الى - (بلاد السودان) حيث كانت/تنتقل القوافل عبر الصحراء (بين السودان)وبلاد المغرب ".(١)

هكذا اتفقت كلمة هؤلاء المحققين على أن عقبة بن نافع هو أول من فتح بلاد السودان الا أنهم لم يذكروا أسماء المدن التي نشر فيها عقبة الاسلام ..

لذا يجب علينا مرة أخرى أن نرجع الى مراجع أخرى للوقوف على أسماء هذه المدن السودانية التي نشر فيها الاسلام لأول مرة في تاريخ المنطقة.

---

(١) محمود شاكر ،مالي ص ١٨-١٩.
وراجع (مالي) للمؤلف أيضا ص ١٩.

أورد الشيخ آدم الألوري تفاصيل قيمة عن هذه الحادثة العظيمة ، فأكد تأكيدا جازما على أن عقبة بن نافع قد وصل في فتوحاته الى مدينة أودغست السودانية السوننكية وعبارته :

"قد عين سيدنا عمر رضي الله عنه ، الصحابي الجليل عمرو بن العاص واليا على مصر والشام ثم عين (عمرو بن العاص) عقبة بن نافع الفهري لفتح شمال افريقيا فسار عقبة الى أطراف المغرب وأخضع الملثمين للاسلام.. ثم وصل هو ومن معه الى العاصمة الأولى لبلاد السودان الغربي هي مدينة أوداغست (وهي مدينة سودانية سوننكية ولكن حكامها كانوا من البربر الصنهاجة) فاعتنقوا الاسلام " فكان ذلك دخول الاسلام الى غرب افريقيا". (١)

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن أن عقبة قد وصل أيضا الى غانة وبلاد التكرور اذ يقول :

" ان عقبة أوغل في بلاد السودان وفتح بلاد التكرور وغانة ".

وهكذا من خلال هذه النصوص عرفنا أن عقبة بن نافع قد افتتح - بادىء ذى بدء - من بلاد السودان " مدينة أودغست " (٢) ثم فتح غيرها . ولم تبلغ سنة (٦٠هـ) الا وقد وجد في غانة ١٢ مسجدا . يقول الدكتور طرخان :

" فقد أشار أحمد بابا مؤرخ صنغى الى وجود اثني عشر مسجدا في

---

(١) الاسلام في نيجيريا اليوم وغدا - ص ٣٦-٣٧ .
وراجع كذلك محمود شاكر ، السنغال ص ٣ .

(٢) يقول محمود شاكر : ان أودغست تشبه مكة المكرمة حيث تقع بين جبلين حسب رأى ياقوت الحموى ، وكانت تعد من أهم مراكز الثقافة الاسلامية في غربي افريقية تقع بين خطي عرض ١٨ و ١٩ شمالا أى في بلاد موريتانيا كانت محطة تجارية لبلاد السودان الغربي .
راجع مالي ص ٢٢ .

مدينة غانة (كومبي صالح حوالي عام ٦٠ هـ = ٦٧٩ ".(١)

ومن قبل قال القلقشندى مؤكدا أن الاسلام وصل في غانة في وقت مبكر جدا وعبارته :

" وكان أهلها - أهل غانة - أسلموا في أول الفتح ".(٢)

هكذا وصل الاسلام في غرب أفريقيا بواسطة هذا التابعي الجليل ، عقبة بن نافع الفهرى . هذا ما اتفق عليه الجمهور من الباحثين والمؤرخين . ويخالف هذا الاجماع كاتب دائرة المعارف الاسلامية ، فلا تميل الى الأخذ بهذا الرأى القائل بوصول عقبة بن نافع الى بلاد السودان الغربي اذ تقول :
" صحيح أن بعض الروايات تذهب الى أن الفاتح عقبة بن نافع قد بلغ بلاد السودان ، الا أن هذه الرواية ليست فيما يظهر جديرة بالتصديق ".(٣)

ونحن نقول لكاتب هذه المقالة : هل هناك شيء يمنع من وصول هذا الفاتح الى بلاد السودان ؟ بعدما ثبتت الاتصالات بين الشمال الافريقي وجنوب الصحراء قبل وعند مجيء الاسلام ؟

واضافة الى ذلك ان جميع هؤلاء المؤرخين الكبار الثقات أكدوا وصول عقبة بن نافع الى بلاد السودان الغربي ، خاصة (أودغست) وليس هناك ما يدعو هؤلاء المؤرخين جميعهم الى التحيز لوصول عقبة بن نافع في غربي أفريقيا ..

----

(١) دولة مالي الاسلامية ص٤٧ .

(٢) صبح الأعشى ٥/ ٢٨٤ .

(٣) راجع دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثاني عشر ص٣٢٨ مادة (س) وراجع كذلك دكتور عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ٢/ ١٩٢ .

وأرى أنه لو لم تصل الينا من هذه الروايات الكثيرة التي تثبت وصول عقبة بن نافع الى بلاد السودان الا رواية ابن الأثير في كتابيه : " الكامل في التاريخ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة" لكفتنا دليلا بحيث استطاع ابن الأثير أن يحدد لنا تحديدا دقيقا سير عقبة بن نافع من بلاد المغرب الى بلاد السودان فيذكر أن وصوله الى لواتة ومزاته كان سنة (٤١) ووصوله الى غدامس كان في سنة (٤٢) ووصوله الى بلاد السودان وودان كان ذلك في سنة (٤٣) ، ولم يخالف أحد من المؤرخين في ذلك أبدا على النحو الذى ذكرناه سابقا [(١)] ، بل أيدوه ووافقوه على ذلك ، فانكار دائرة المعارف

---

(١) من الملاحظ أن بعض المؤرخين وافقوا الجمهور على وصول عقبة الى بلاد السودان لنشر الاسلام ولكنهم كتبوا عقبة بن عامر بدل عقبة ابن نافع الفهرى ، ولعل هذا غلط منهم لأن رواياتهم لا تقاوم الروايات السابقة التي رواها الجمهور . وممن قال انه عقبة بن عامر الذى فتح (كوار) (أحمد يوسف بن أحمد الدمشقي) المشهور بالقرماني في كتابه : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ص ١١٢ والامام (زكريا بن محمد بن محمود القزويني) في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٩ . وان الصحيح كما ذكرنا هو عقبة بن نافع الفهرى رحمه الله تعالى .

والكور : يقع جنوبي فزان وهي كما ذكره القزويني ناحية من بلاد السودان .

الاسلامية وصول طلائع الفتح الاسلامي الى منطقة غربي افريقيا أمر لا يمكن أن نقبله على علاته بدون سند تاريخي ..

وأخيرا نصرح لكاتب هذه المادة في دائرة المعارف الاسلامية ونطلب منه الاتيان ولو بدليل واحد ينفي ذلك ولغيرها ممن يحذو حذوها ينفي وصول عقبة الى بلاد السودان الغربي . فان لم تفعلوا - ولن تفعلوا - فان الفاتحين المسلمين جميعا قد خدموا الاسلام ونشروه ولكن الذين عبروا الصحراء الكبرى لينشروا العقيدة الاسلامية في بلاد السودان الغربي ، جديرون بأن نقف عندهم وقفة فيها اجلال و تقدير .. لما قاموا به من انقاذ هذه السلالة السوداء من عبادة أرواح السلف والحيوانات والأحجار . وعلى رأسهم عقبة ابن نافع الذى لم يكن فتحه للسودان فتحا حربيا أبدا بل كان فتحا دينيا وحضاريا .. والذى ضحى في سبيل نشر العقيدة الاسلامية في هذه المنطقة حتى أصبح شهيدا على أرض أفريقيا سنة (٦٣) قبل اتمام فتح هذه الأراضي كلها .. بأن تآمر على قتله الروم وأمثالهم من المغاربة .

ولكن مجهودات عقبة بن نافع لم تذهب سدى بعد استشهاده ، فالله سبحانه و تعالى هيأ لمواصلة الدعوة الاسلامية في تلك البلاد .. رجلا آخر لا يقل عنه شجاعة وحماسة لدينه وهو (موسى بن نصير) الذى سنتحدث عنه في الصفحات الآتية ان شاء الله تعالى .

دور موسى بن نصير :

أفادت المصادر أن موسى بن نصير لا يقل عن عقبة بن نافع في قيادة الجيش بل يصرح محمود شاكر بأن " موسى كان أبعد نظرا من عقبة ابن نافع "(١) لأنه استطاع على تقريب البربر اليه وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب في الادارة كما استطاع أن يتصل بقبائل الملثمين التي تنتشر في اقليم الصحراء الكبرى حتى بلاد السودان الشمالي فدعاهم الى الاسلام مرة أخرى فأقبلوا عليه ودانوا به ،فبنى المساجد في مدينة أغمات التي غدت من أهم مراكز الثقافة الاسلامية في المغرب الأقصى وعلى حدود الصحراء ..

وهكذا كان موسى بن نصير الرجل الثاني الذى وصل الى بلاد السودان الغربي للدعوة ،ولم يكتف موسى بن نصير بالدعوة وبناء المساجد بل أخذ يفقه الناس في الدين (١) وعين الفقهاء في المدن ليعلموا الناس القرآن الكريم وقواعد الاسلام و مع انتشار الاسلام انتشر تعلم اللغة العربية واقيمت المعاهد .

وتابع خلفاؤه خطوته .. فقد استطاع عبد الرحمن الفهرى (٢) أن يوء من طريقا صحراويا يسلكها الدعاة والرحالة والتجار وذلك بأن حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات افريقية ومدينة أودغست .

---

(١) محمود شاكر ،السنغال ٢١ ،وراجع كذلك مالي للموءلف ص ٣٨ .

(٢) عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عرف بالصقلي لطوله وزرقة عينيه وشقرته ، كان بافريقية أيام استيلاء عبد الرحمن الداخل الأموى على الأندلس فقاومه ، ودعا الى بني العباس قتل غيلة عام ١٤٢هـ . مالي المصدر السابق ص ٢٢ .

وقد وصفهم محمود شاكر بقوله :

" واستطاع جنود موسى بن نصير بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء ،وأن ينشروا الاسلام بين القبائل الضاربة جنوب الصحراء من السودان . كما استطاع التجار ببلاد المسلمين وبلاد السودان أن يؤدوا نفس العمل ".(١)

هكذا لم يكن موسى بن نصير فاتحا فحسب بل كان سياسيا بارعا .

هذا وقد حاول الأمويون أيضا أن ينشروا الاسلام في داخل بلاد السودان الغربي لذا أرسل بنو أمية سنة (١٠٢) في عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان جيشا الى غرب افريقيا لنشر الاسلام ولكن التاريخ لم يخبرنا أن هذا الجيش قد قام بأعمال حربية بل أفاد البكرى بأن ذرية هذا الجيش كانوا في غانة وعرفوا هناك باسم (الهنيهين) .. واليك عبارة البكرى :

" وببلاد غانة قوم يسمون الهنيهين -من ذرية الجيش الذى كانوا بنو أمية أنفذوه الى غانة في صدر الاسلام ، وهم على دين أهل غانة .. الا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحوهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه .." (٢)

---

(١) السنغال ،محمود شاكر ص ٢١ .

(٢) المغرب ص ١٧٥ .

هكذا بذل كل من هوءلاء في نشر الاسلام ببلاد السودان الغربي .

وهكذا أيضا استمر الحال في تقدم وازدهار حتى قامت دولة الأدارسة [(١)] في المغرب فقامت بنفس المهمة. فقد جاوز نفوذها منطقة المغرب الأقصى الى الصحراء الكبرى التي تفصل بلاد المغرب عن اقليم السودان .. فنشروا الاسلام هناك بل كان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ الثقافة العربية في المغرب الأقصى و غربي افريقية .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن :

" ومما ساعد على هذا التوسع أن هذه الدولة قامت بقصد الجهاد ابتغاء مرضاة الله و نشر الاسلام بين القبائل الزنجية الضاربة الى الجنوب .. وكانت القبائل الملثمة حديثة العهد بالاسلام قد أرادت أن تسهم في حركة الجهاد . وكانت هذه الخطوة بالغة الأثر في انتشار الاسلام في غربي أفريقيا" . [(٢)]

هكذا وصل نور الاسلام في غربي افريقيا بواسطة عقبة بن نافع أولا وموسى ابن نصير ثانيا ودولة الأدارسة أخيرا ثم أخذت العقيدة الاسلامية تنتشر في المنطقة وأخذت طريقها في أدوار تاريخية سنصفها فيما يلي .

---

(١) أسس هذه الدولة ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب وهو أخ محمد ذى النفس الزكية الذى خرج على العباسيين في المدينة كما خرج أخوه الثاني وهو ابراهيم في البصرة في العام نفسه ،أما هو فقد نجا وأخوه الثالث يحيى من معركة (فخّ) في المدينة فذهب الى مصر فالمغرب سنة ١٦٩ هـ . راجع (مالي) ص٢٢ تأليف محمود شاكر . المصدر السابق .

(٢) انتشار الاسلام في القارة الافريقية ص١١٩ .

وهكذا - أيضا - أكدت هذه النصوص فضح القول بأن انتشار الاسلام بدأ في القرن الحادى عشر فقط - على أيدى المرابطين - وأن انتشار الدعوات الاسلامية تم بالسيف أو بالقسر والارهاب ..

ان هؤلاء المغرضين أصحاب الادعاءات يريدون من وراء هذه الدعاوى أن يثبتوا للناس بأن التاريخ الافريقي الصحيح والحضارة الافريقية انما يبدآن - فقط - من بداية العهد الاستعمارى للمنطقة وأن ماتشهده افريقية الآن من ديمقراطية - وكذلك ما هو قائم فيها من أنظمة اجتماعية ، الفضل في ذلك كله يعود الى المستعمرين .

ومن المؤكد أن محاولة اثبات هذه الادعاءات المشبوهة كان هو الهدف الكامن في انكارهم الدور القيادى الذى حققه الاسلام في المنطقة .. فقالوا : انه (الاسلام) انتشر عن طرق القوة والذعر والارهاب . أو انه دين لم يصل الى افراد الشعب الافريقي و انما اعتنقه بعض ولاة الأمور فقط الى آخر ما يقوله المستعمرون ...

لنواجه - الآن - جولة أخرى لنرى فيها الأدوار التاريخية التي انتشر فيها الاسلام في هذه المنطقة ، لنبرهن بكل ذلك على أن الاسلام لم ينتشر بالقهر والارهاب و انما انتشر عن طريق الدعوة السلمية قام بها دعاة مخلصون فان وجد هناك بعض من استعمل القوة فباعتبار آخر سنبينها فيما يلي .. ان شاء الله تعالى .

الفصل الثاني

انتشار الاسلام في بلاد السودان الغربي

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الدور الأول من انتشار الاسلام في المنطقة وهو فترة ما قبل غزو المرابطين ،وكان رواده التجار والدعاة من العرب والبربر .

المبحث الثاني : الدور الثاني ، دور التجدد الديني وهو فترة ما بعد غزو المرابطين .

الفصل الثانــي

انتشار الاسلام في السودان الغربي

مقدمــة :

بعدما تحدثنا في الفصل السابق عن كيفية دخول الاسلام في هــذه المنطقة ،نعود ـ الآن ـ فنتحدث عن كيفية انتشاره ،منذ القرن الأول الهجرى الى القرن الخامس عشر الهجرى أوالقرن السابع الى القرن العشريــــن الميلاديين ...

من المعلوم أن المسلمين ، مهما ابتعدت ديارهم عن مركز الدعــوة الاسلامية الأولى (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ،يعتقدون اعتقادا جازما أن هذا الدين الرباني ،دين البشرية جمعاء ،وأن المسلم أيا كانت جنسيته يحس بأن الاسلام دينه يغذى اتجاهاته الروحية ، و ينير له السبيـــل ، ويهديه لما فيه خير الدنيا والآخرة..

ولا يحس مسلم أيا كانت جنسيته أنه دخيل على جماعة المسلمين. أو أن الاسلام عقيدة غريبة عليه.. فالمسئولية تجاه نشر هذه العقيــدة والدعوة اليها يشترك فيها العربي وغير العربي .. وقد قام العـــرب بنصيبهم من المسئولية ،فنشروا هذه العقيدة الربانية في مدينـــــة أودغست (Odaguest) السالفة الذكر (العاصمة الأولى لبلاد السودان الغربي) ،نشروها من غير اهمال أو تقصير بعدما تخطوا الصعاب وركبوا الخيول حتى عبروا هذه الصحراء الكبرى ،ونزلوا هنا وهناك فحلـــوا

الاسلام الى هذه السلالة السوداء تحت قيادة قائدهم عقبة بن نافع الفهرى سنة ٤٣هـ.[١]

وسنرى صورا من نشاط المسلمين غير العرب من البربر والسودان ، لنشر الاسلام داخل المنطقة السوداء .. وهذا يتطلب منا أن نتتبع العقيدة الاسلامية وهي تنتشر منذ القرن السابع الميلادى أو القرن الأول الهجرى الى الوقت الراهن.

فالمهمة - اذن - ليست يسيرة ، لأن الاسلام لم ينتشر في المنطقة في وقت واحد أو حتى في أوقات متقاربة ، وقد توجد - تارة - بين بعض هذه الفترات وبعضها ، عدة قرون .. ولكننا - بمنه تعالى ، سنحاول بقدر الامكان أن نضع حدا زمنيا دقيقا لتاريخ انتشار العقيدة الاسلامية في المنطقة. وذلك لسببين أساسيين هما :

أولا : ان الرحالة العرب القدامى الذين ندين لهم في معرفة التاريخ المبكر لهذه المنطقة ، لم يكن ما كتبوه شاملا لجميع فترات انتشار الاسلام في المنطقة .. وان كان ما كتبوه يمتاز بصدقه ودقته ، بحيث جاءت البحوث الأثرية الحديثة موافقة لما كتبوه . وقد أشار الى ما كتبه هؤلاء الذين لم تخذلهم البحوث الأثرية الحديثة - الدكتور كوامي نكروما الرئيس الأول لجمهورية غانا الحديثة اذ يقول :

" ان الرحالة العرب كانوا غير متحيزين فيما دونوه عن افريقيا .. ونحن مدينون لهم فيما كتبوه عن ماضينا ".[٢]

---

(١) ــ مالي ، محمود شاكر ص١٨ - ١٩.

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ، الدكتور أحمد شلبي ٦/ ٣٥١.

بيد أن هؤلاء الرحالة الكرام ،قد توقفت زيارتهم لبلاد السودان الغربي في حدود القرن السادس عشر الميلادى (١) . فبعد هذا التاريخ لم تشهد بلاد السودان الغربي عملا عربيا في هذا المجال .. حتى ان السودانيين الذين سجلوا تاريخ بلادهم بعدما توقف العرب عن زيارة المنطقة قد عاشوا أيضا في الفترة نفسها (٢) يعني (القرن السادس عشر الميلادى) ، فبقي تاريخ انتشار العقيدة الاسلامية حوالي أربعة قرون متتالية مبهما غير واضح يعني اعتبارا من القرن السادس عشر الى القرن العشرين الميلاديين اللهم الا ما كتبه بعض العلماء الافريقيين المتأخرين كأمثال (عثمان دان فودى) في القرن التاسع عشر ،وابنه (محمد بيلو) ، صاحب كتاب " انفاق الميسور في فتح بلاد تكرور " .. وما كتبه العالم الفلاني عبد القادر دان تافا يعني كتابه : " أخبار بلاد الهوسا والسودان " ،وما كتبه البحاثة الشيخ آدم الالورى المعاصر أعني كتابه القيم موجز تاريخ نيجيريا . وغير ذلك .. ان هذه الكتب وان كانت مفيدة جدا لكنها لم تتعرض لتاريخ البلاد تعرضا شاملا ،بل لم تتحدث عن كيفية انتشار العقيدة الاسلامية ،

---

(١) ان آخر من زار بلاد السودان الغربي من الرحالة المسلمين هو حسن ابن الوزان (ليو الافريقي) سنة ١٥١٠م وكان قد أرسله الى صنغاى شريف فاس مولاى محمد القائم مؤسس دولة السعديين ويبدو أن ليو الافريقي في هذا التاريخ لا يزال دون العشرين من عمره وبعده (أى الوزان لم يحك لنا التاريخ عن عمل عربي آخر في هذا المجال ،راجع وصف افريقيا تأليف حسن الوزان (ليو الافريقي) ص ٢٠.

(٢) كأمثال احمد بابا التمبكتي (ت ١٦٠٧م) وعبد الرحمن السعدى (ت ١٦٥٥م) و محمود كعت (ت ١٥٢٩م) .راجع/ الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ،د. زاهر الرياض ص ١٦١.

في مناطق الغابات ،وانما ركزت جل اهتماماتها على ما كان يجرى في بلاد الهوسا والسودان الأوسط والحروب التي خاضها الفولانيون ضد البرنـو والهوسا. وقلما تحدثت هذه الكتب عن انتشار الاسلام في منطقة الغابات والمناطق الساحلية .

ثانيا - ان الاستعمار الفرنسي عندما جاء في أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ارتبطت كتابة التاريخ لانتشار الاسلام في المنطقة -غالبا- في خدمة النصرانية الغربية والاستعمار الغربي .. ومع ذلك قد يستطيع الباحث أن يستفيد من ذلك في الناحية التاريخية البحتة ، مثل ماكتبه الباحث الفرنسي (مسيو بول مارتي M. Paul Marty). قد سبق أن تحدثنا عن ذلك.

وأما ما كتبه الباحثون المسلمون المتأخرون فهو يمتاز أيضا بدقة وشمولية الا أنهم أيضا وقفوا بالاسلام عند حدود منطقة السفانا السودانية ولم يذكروا حديثا واحدا عن كيفية انتشار الاسلام في منطقة الجنوب (منطقة الغابات) فكأنهم لم يتبين لهم الدور القيادى الذى حققه شعب الماندنغ في هجرته الميمونة بالاسلام من منطقة السفانا الى منطقة الجنوب (ساحل العاج) وما حولها من مناطق للاستيطان والاقامة هناك. وذلك بعدما انهارت مملكة مالي التاريخية سنة ١٤٠٠ الميلادية (١) وقد سكت المؤرخون

---

(١) Histoire de l'Islam au 16 Siecle

وراجع كذلك : Histoire de cote d'Ivoire M. Andrex

وراجع أيضا : Histoire de la cote d'Ivoire m.Kerlep

عن ذلك سكوتا تاما ولا فرق في هذا السكوت بين أصحاب الموسوعات في التاريخ الاسلامي كأمثال الدكتور أحمد شلبي الذى ندين له بكثير من تاريخ الاسلام في غرب افريقيا والدكتور ابراهيم طرخان البحاثة في كتابيه :

(١) امبراطورية غانة الاسلامية .

(٢) دولة مالى الاسلامية.

والشيخ عوض الله الأمين في كتابه القيم :

- (العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي)

والأستاذ حسن ابراهيم حسن وكتابه :

- (انتشار الاسلام في القارة الافريقية)

وغيرهم لا يتسع المكان لذكرهم .. فاستغل المستعمرون هذا السكوت عن تاريخ الاسلام في المنطقة منذ أربعة قرون ولم يكتب فيه أحد من المسلمين بطريقة شمولية ،استغلوا هذا السكوت الطويل ليقولوا للناس :ان افريقيا مثل امريكا وغيرها من البلدان التي لم تكتشف الا بعد وصول الأوربيين فيها : بل أعلنوا بأن " الاسلام وقف على تخوم الغابات الكثيفة حيث لا تتجاسر أفراس العرب والبربر ولا غيرهم على التوغل فيها .."(١)

ونحن -اذ نكتب هذه الأسطر- نعلم علما يقينيا -أن هؤلاء الباحثين الاسلاميين المعاصرين لم يقصدوا بسكوتهم هذا موافقة الأوربيين في هذا الاتجاه ،ولكن قد تكون ندرة المصادر التي تتحدث عن ذلك سببا في ذلك السكوت . وخاصة اذا علمنا أن هذه المصادر التي تتحدث عن انتشار الاسلام

---

(١) الاسلام في السنغال ،عبد القادر سيلا ص ٤٥.

في مناطق الغابات قد كتبت باللغة الفرنسية .. كتبها بعض المثقفين الافريقيين من أصحاب الثقافات الغربية ، لما أدركوا وجود دسائس في تاريخ المنطقة من قبل المستعمرين ،فبدءوا يميزون بين الحقائق التاريخية للمنطقة وبين ما دسه المستعمرون فيه من مكر وتشويه وغزو فكرى ... ولعل هذه الكتب لم تصل الى أيدى الكتاب والمؤرخين الاسلاميين الذين كتبوا تاريخ المنطقة وسكتوا عن كيفية انتشار الاسلام في الناحية الجنوبية حيث الغابات فعلى سبيل المثال نذكر من هذه الكتب ما يلي :

أ - كتاب يصور لنا تاريخ الاسلام في العالم على وجه العموم وفي غرب افريقيا على وجه الخصوص خاصة ما يتعلق بتاريخ انتشار الاسلام في منطقة الغابات في الجنوب .. وهجرة أهل مالي (الماندنغ) من أرض السفانا الى منطقة الغابات في الجنوب ،وقد أجمع على تأليف هذا الكتاب النفيس - كما قلنا سابقا - وزراء للدول الافريقية المعنية والملفاس عقب استقلال بلادهم. وذلك في أثناء المؤتمر الذى انعقد في باريس سنة ١٩٦٤ م فاتفقوا جميعا على اعادة تاريخ المنطقة خاصة ما يتعلق بنشر الاسلام فيها. فكان الكتاب المتفق على تأليفه هو :

(١) L'Islam au 16em Siecle

---

(١) هذا الكتاب من الكتب المقررة على طلاب المرحلة المتوسطة في تلك البلدان .. أى دول افريقية الغربية الفرنسية والملفاش.

ب - كتاب آخر تناول الحديث عن كيفية انتشار الاسلام في منطقة الغابات في الجنوب و قصة هجرة أهل مالي الى الاستيطان في الناحية الجنوبية (ساحل العاج وما جاورها من البلدان) .. آلفه ميسوء (I - N Koulou) الافريقي العاجي وعنوان الكتاب كالتالي :

Histoire de la cote d'ivoire.

ج - وكتاب آخر تناول الموضوع نفسه و بنفس العنوان و هو من تأليفات المسيو (Andre) .. وغيرذلك من الكتب التي تعرضت لبيان كيفية انتشار الاسلام في المنطقة بصفة عامة ولم تترجم - بعد الى اللغة العربية .

ولعل هذه الكتب لم تصل بعد الى أيدى هوءلاء الموءرخين الذين سكتوا عن الجزء الجنوبي من بلاد السودان الغربي (ساحل العاج وما جاورها) .

ولأجل هذا كله سأعمد في بيان كيفية انتشار الاسلام في المنطقة بصفة عامة وفي منطقة الغابات في الجنوب بصفة خاصة ،الى ايراد بعض تفاصيل فيها الوضوح والشمول ،وبهذا سنكون قد أضفنا الى مادة التاريخ الاسلامي تاريخ انتشار العقيدة الاسلامية الذى يجهله أغلب شعوب غربي افريقيا جهلا مطبقا . وليس ذلك عند العامة فحسب ،بل عند جميع الأوساط العلمية هناك.

وعلى هذا الأساس نقوم - بادىء ذى بدء - برسم صورة سريعة تعتبر اطارا نسير في ضوئه وموجزا نستمر في تفصيله ..

فبوجه عام ،أننا أدركنا بالاطلاع والبحث المستفيض أن العقيدة الاسلامية قد انتشرت في هذا القطاع من العالم الاسلامي (بعد دخوله) ، في القرن الأول الهجرى ،في فترتين تاريخيتين لهما أهميتهما الكبرى .

الدور الأول (فترة ما قبل غزو المرابطين)

الفترة الأولى :

تبدأ من القرن السابع الميلادى الى القرن الحادى عشر الميلادى أو القرن الأول الهجرى الى القرن الخامس الهجرى .. والذين قاموابالدعوة الاسلامية طيلة هذه الفترة هم : التجار من العرب والبربر والدعاة منهما . ومدتها أربعة قرون تقريبا ..

الدور الثاني (فترة ما بعد غزو المرابطين)

الفترة الثانية :

تبدأ من القرن الخامس الهجرى الى القرن الخامس عشر الهجرى أو القرن الحادى عشر الى القرن العشرين الميلاديين .. وهي التي اصطلحنا عليها ب (حركات التجدد الديني في المنطقة) ومدتها - تقريبا ، تسعة قرون .. ورواد هذه الفترة هم أربعة أصناف :

١ - المرابطون .. وتبتدئ دعوتهم من سنة (١٠٦٧م) و تنتهي في سنة (١٠٧٨م) يعني احدى عشرة سنة فقط .

٢ - الأسر المالكة .. ومدة دعوتها خمسة قرون تقريبا اعتبارا من آخر القرن الحادى عشر الى نهاية القرن السادس عشر الميلاديين .

٣ - الصوفية (القادرية والتيجانية) ومدة دعوتها ثلاثة قرون اعتبـــارا من آخر القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر الميلادى .

٤ - معلموا المدارس العربية (كرموكو) ،أعني في أيام الاستعمار وبعده.

هوءلاء هم أهم من قاموا بتجديد الدعوة الاسلامية بالمنطقة حتى الآن .. لنعط كلا منهم شرحا موجزا ..

المبحث الأول

الفترة الأولى لانتشار الاسلام في المنطقة

تبدأ من سنة ٤٣ هـ - الى القرن الخامس الهجرى (القرن السابع الميلادى الى سنة ١٠٧٦م) .

وقد سبق أن أشرنا الى أن عقبة بن نافع الفهرى كان أول من نشر الاسلام في مدينة (أودغست) السودانية وذلك في سنة (٤٣هـ) . وقبل ذلك قد كانت الصلة وثيقة للغاية بين بلاد المغرب وبين بلاد السودان الغربية (افريقية الغربية) ،وكان المحيط الأطلسي وطرق القوافل البرية تربط بين المنطقتين برباط وثيق ، مما ضمن قيام علاقات برية وبحرية لم تتوقف في أى عصر من العصور ولم تكن المنطقة منعزلة عن العالم كما تدعي ذلك أوروبا ،ولو رجعنا الى المصادر الجادة التي تزخر بالحديث عن العلاقات التجارية بين القطرين : (الشمالي والجنوبي) ،لأدركنا أن الدعاوى المشبوهة التي تتشدق بها أوربا قائلة : " ان تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى - بصفة عامة ، ظل مجهولا تقريبا حتى قدوم الرجل الأبيض" (١) كلمة هو قائلها و ليس من ورائها أى سند علمي .. بدليل أنه قد ثبت تاريخيا وجود علاقات تجارية بين الشمال والجنوب منذ الماضي السحيق ،منذ قبل الميلاد ،وقد كتب هيرودوت عن الـ(Gramaites) أى ذوى البشرة البيضاء وعن (Ethiopians) و تعني هذه الكلمة ذوى الوجوه المحروقة أى السكان أصحاب البشرة السوداء أو السمراء .

---

(١) راجع كتاب داخل افريقيا تأليف جون جنتر ، ص ٢٠ - ٢١ الترجمة العربية والمراد بالرجل الأبيض الأوربي المستعمر.

فلفظ الأثيوبيين كانت بمثابة لفظ السودان بالنسبة للعالم اليوناني والرومان ويقصدون بها التفرقة بين الأسود والأبيض. (١)

كما أكد هذا المؤرخ اليوناني السالف الذكر (هيرودوت) على أن الليبيين (Libyains) وهم سكان واحة الفزان، يغزون الأثيوبيين تقع أراضيهم في جنوب أراضي الليبيين (٢) وهذا يعطينا الدليل على وجود علاقات منذ القرن الخامس قبل الميلاد ،بين طرفي الصحراء : (الشمالي والجنوبي) .

وأصرح من كل ذلك ،ما ذكره الدكتور ابراهيم المؤرخ الاسلامي يشير الى أن القائد الروماني (سبتموس فلاكوس) (Sep. Flaccus) وصل حوالي ١٦ ق.م الى حدود بلاد السودان ،وأن رحلته استغرقت ثلاثة شهور. . كما أشار الى أن الرومان هم الذين أطلقوا اسم النيجر عليه . فان (بليني الكبير) سماه : (Ni-Gin) "ومعناه : نيل الأجناس السوداء". (٣)

---

(١) راجع لمحات للتاريخ الأفريقي ،د. ابراهيم دياب ص ٤٢.
وراجع أيضا دولة مالي الاسلامية ،د. ابراهيم طرخان ص ٩ .
وراجع العلاقات ،تأليف الشيخ عوض الله ص ١٥٥.

(٢) راجع لمحات للتاريخ الافريقي . المصدر السابق ص ٤٢ بتصرف.

(٣) دولة مالي الاسلامية . المصدر السابق ص ١٠.
ان هذا لا يتعارض مع قولنا بأن أول حكومة قامت في هذه المنطقة اعتبارا من القرن الأول الميلادى ان هذا التاريخ هو التاريخ الذى ظهرت فيه الحكومة الأولى . وأما السكان فقد كانوا هناك منذ الماضي السحيق لا يعلم مداه الا الله. .

ومن هذه التسمية اللاتينية ، اشتق كتاب العصور الوسطى في أوروبا اسم نيجرتيا (Nigritia) وعنوا به كل اقليم افريقيا .[1]

ومثل هذه المعلومات التي أوردها القدماء وهي على سبيل المثال لا الحصر ، لها - بدون شك - قيمتها العلمية في اثبات العلاقات بين السودان الغربي والعالم الخارجي .. ولهذا يظهر لنا بكل وضوح أن هذا الاتجاه الأوروبي القائل :

(أن هذه المنطقة قد حكم عليها أن تعيش منطوية على نفسها .. هذا اتجاه غير سليم بل هو اتجاه متعصب .. بدليل أن أوروبا ، في القرن الخامس عشر فقط عرفت الشواطيء الافريقية اذ اكتشفها البرتغاليون صدفة أثناء بحثهم عن طريق الهند سنة ١٤٨٨م والا لا يخفى على كل باحث منصف وجود علاقات متينة بين الشمال والجنوب عبر الأجيال .. فلما جاء الاسلام الى بلاد المغرب صار له صدى سريع في مناطق الساحل الغربي[3] التي تشغلها الآن موريتانيا والسنغال وغينيا ومالي ، وسرعان ما تبنى الملثمون الاسلام منذ عهد مبكر ، فبدأوا يواصلون حركة المد الاسلامي التي وصلت اليهم وسرعان ما صارت أودغست قاعدة اسلامية ينطلق منها نور الاسلام الى بقية بلدان غرب

---

(١) دولة مالي الاسلامية . المصدر السابق ص ١٠ .

(٢) راجع الحضارات الافريقية تأليف بولم دنيس . ت : علي شاهين ص ٩ . وراجع الحضارة الافريقية تأليف بولم دنيز ت : نسيم نصير ص ٩ - ١٠ .

(٣) انتشار الاسلام في القارة الافريقية ، حسن ابراهيم حسن ص ٨٨ .

افريقيا فازدهر التبادل التجارى بينها وبين بقية بلدان غرب افريقيا .وهذا ما أشار اليه ابن حوقل الذى تحدثنا عنه في الباب الأول والذى زار المنطقة في القرن العاشر الميلادى اذ يقول :

" وحاجة ملوك السودان الى ملوك اودغست ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام (١) .. وملك أودغست يخالط ملك غانة ". (٢)

ولم يكتف ملوك أودغست الاسلامية بهذا التبادل التجارى فحسب بل قاموا أيضا بالدعوة الى الاسلام.. ويذكر عن الملك الأودغستي (تيبوتان) (Tibotan) أنه كان شديد التحمس لنشر الاسلام بين قومه وبين السودانيين المجاورين من ناحية الجنوب .

وأن ملك (تين يروتان) ابن ونسيو بن نزار الأودغستي كان قد بلغ من سعة النفوذ وقوة السلطان ما جعله سيدا على أكثر من عشرين من ملوك السودان كلهم يؤدون له الجزية..

ويذكر ابراهيم طرخان أن هذا الملك كان يحكم ما بين(٩٦١ - ٩٧١)م (٣)

---

(١) راجع كتاب صورة الأرض ص ٢٠١.

(٢) كتاب صورة الأرض ص ٢٠١.

(٣) راجع كتاب امبراطورية غانة . المصدر السابق ص ٤٩.

ومن هنا نستطيع القول انه في القرن التاسع الميلادى كان الاسلام قد صار الدين الرسمي على الأقل لاحدى ممالك افريقيا الغربية [(١)] .وكانت المملكة هي امبراطورية أودغست الاسلامية . [(٢)]

وعلاوة على ذلك ،كانت هناك الهجرات من الشمال الى الجنوب أهم وسيلة لانتشار الاسلام بين السودانيين وقوام الهجرات هنا كان مصدره (العرب والبربر) وأما العرب الذين ماجت بهم أقاليم الشمال فلهم صلة وثيقة بالصحراء والجفاف فليس بدعا أن يقتحموا الصحراء الكبرى ،وأن يتخطوا الفيافي ،ومن هنا يمكن للقارئ أن يتخيل قوافل التجارة ووفود الرحالة وجماعات الدعاة في سلاسل لم تتوقف ، تروح و تجيء بين الشمال والجنوب عبر الصحراء .

وأما البربر سكان الشمال الذين تدفقوا على الاسلام منذ عهد مبكر فقد اتجه كثير منهم نحو الجنوب واقتحموا أرض السودان حيث نزلوا بلاد السنغال فصار السودانيون يتأثرون بثقافتهم وفي مقدمتها الدين الاسلامي ،ومن هنا نشرت هذه الهجرات البربرية دين الاسلام في

---

(١) لمحات للتاريخ الافريقي . المصدر السابق ص ٤٩ .

(٢) أودغست (Odaguest) وقد قلنا سابقا أن أودغست كانت مدينة في طرف الصحراء الجنوبي . وهي مدينة سودانية ولكن حكامها كانوا من البربر. وهي المدينة التي نشر فيها عقبة بن نافع الاسلام. ذكرناها في ص ١٢٢ وفي صفحة ٢٣١ وقبل ذلك في ص ٧٤ .

بقاع واسعة على الساحل الغربي لافريقية وجنوب الصحراء .. (١)

وبمرور الأيام قد تم الاختلاط التدريجي بين الوافدين من البربر وبين السودانيين أصحاب الأرض ، وكان هذا التزاوج من أهم دواعي الاختلاط ،ونشأ جيل جديد يغلب فيه الدم السوداني من جانب ،وثقافة البربر من جانب آخر ويدين بالاسلام .

وهكذا بدأ الاسلام ينتشر في بلاد السودان الغربي منذ القرن السابع الميلادى ولم يأت القرن الحادى عشر الذى يعتبر - بحق - الحد الفاصل بين الفترتين : (الأولى والثانية) حتى أصبح الاسلام واسع الانتشار في جميع أنحاء المنطقة وكثر المسلمون بامبراطورية غانة التي لم يزل ملوكها وثنيين الى هذا القرن المذكور ، فأصبحت هناك بلاد خاصة بالمسلمين مثل مدينة (غيارو) (٢) التي يقول عنها البكرى :" ومنها كثير من المسلمين ". (٣)

ومثل مدينة (يرسنى) (٤) التي يتحدث عنها البكرى الواقعة غربي غيارو يسكنها المسلمون ...

وقد تحدث البكرى عن انتشار الاسلام في هذه الفترة الأولى يعني من القرن السابع الى القرن الحادى عشر الميلادى بحديث شيق ،يقول

---

(١) لمحات للتاريخ الافريقي . المصدر السابق ص ٤٨.

(٢) المغرب ص ١٧٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه ص ١١٧.

البكرى أن الامبراطور الوثني لغانة كان يعتمد على المسلمين لأنهم كانوا أكثر كفاءة وأعلى مستوى من سواهم وعبارته :

" وكان تراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه ". (١)

بل كان الملك وهو وثني يؤثر المسلمين وكثر المسلمون بامبراطورية غانة فأصبحت هناك بلاد خاصة بهم كما قلنا كما أصبحت العاصمة شطرين : شطر للمسلمين وشطر للملك وقومه من غير المسلمين ، ويرينا وصف الرحالة العرب حضارة الاسلام متمثلة في الفرق الكبير بين شطرى المدينة أو بين مدينة المسلمين ومدينة الوثنيين ، لنرجع الى البكرى مرة أخرى ليصف لنا شطرى هذه العاصمة الغانية السودانية اذ يقول :

" ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه (أى يؤدون فيه صلاة الجمعة) ولها الأئمة والمؤذنون ، وفيها فقهاء وحملة العلم وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات. (٢) "

" ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة ، والمساكن بين المدينتين متصلة ، ومبانيها بالحجارة وخشب السنط ، وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور .. وفي مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس الحكم .. وحول مدينة

---

(١) المغرب ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥.

الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ، ولتلك الغابات حرس ، ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة ما فيها .. وهناك سجون الملك فاذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبره ... "(١)

نستطيع أن نستنتج من هذه النصوص جملة من الحقائق العلمية التاريخية تتعلق بنشر الاسلام في هذه الفترة من تاريخ نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة .

أولا - ان ما يدعيه النصارى المستعمرون أن الاسلام قد انتشر في المنطقة عن طريق المرابطين فقط الذين استعملوا القوة والقهر لنشر الاسلام فهو مجرد كذب ... فقد كذبهم وضع المسلمين في حكومة غانة الوثنية في غرب أفريقيا ، ولم يكتف المسلمون في هذه الحكومة الوثنية بالتعايش السلمي مع الوثنيين وانما كان أكثرهم موظفين حكوميين في حكومة غانة الوثنية .. ولم يمنعهم اسلامهم من أن يتولى بعضهم المناصب الهامة في الحكومة الوثنية ، وحسبنا ما ذكره البكرى عن كبار رجال الحكومة الوثنية .

" وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك بيت ماله وأكثر وزرائه ." (٢)

---

(١) المغرب ص ١٧٥ وراجع ما كتبناه سابقا واعادة هذه النصوص للأهمية وليست تكرارا ولا نسيانا .

(٢) المغرب ص ١٧٥. وراجع كذلك افريقيا تحت أضواء جديدة . بازل دافيدسن ص ١٣٧.

وليس معنى هذا أيضا أن المسلمين كانوا يركعون أمام الامبراطور الوثني - حاشا وكلا - ان الاسلام قد ضمن لأتباعه في هذه الحكومة الوثنية حياة أفضل . لذلك كانت أكثر حاشية الملك - كما قلنا - من المسلمين . وكان أكثر جنوده من المسلمين كذلك . . وهذا جعل القوة الاسلامية تسير قدما نحو السيطرة على السلطة . . والذى يدل على أن المسلمين لم يكونوا أذلة في الحكومة الوثنية ، ما كان يكنه الامبراطور الوثني للمسلمين من الاحترام والتبجيل . . من ذلك نهيه المسلمين عن الركوع أمام الملك لأن ذلك يتنافى مع مبادئ دينهم الاسلامي . . وهو ما يفعله أهل دينه الوثنيون يقول البكرى :

" ان أهل دين الملك كانوا اذا دنوا منه جثوا على ركبهم ، ونثروا التراب على رؤوسهم . فتلك تحيتهم له . . وأما المسلمون فانما كان سلامهم عليه تصفيقا باليدين . . "(١)

وقد كان هذا الاحترام وذلك التبجيل الذى كان يقدمه الملك الوثني للمسلمين مما دفع بالكثير من صفوف الوثنيين الى صفوف المسلمين لينعموا بهذه المكانة في قصور الملك .

---

(١) المغرب ص ١٧٥ . ان هذا التصفيق ليس مما أمر به الاسلام وانما هو شيء استحسنوه وفضلوه على الركوع لبشر .

وهكذا كان الاسلام يزحف بخطى سريعة في امبراطورية غانة يعني جميع أقاليمها الخمسة (اقليم غانة ، اقليم مالي ، اقليم التكرور ، اقليم صوصو ، واقليم كوكو أو صنغاى) من القرن الأول الهجرى الى القرت الخامس الهجرى أو من القرن السابع الى القرن الحادى عشر الميلاديين .. فلما جاء فتح المرابطين في هذا القرن اندفعت الجموع نحو الاسلام عن طوعية وحب بعد أن حطمت دعائم الشرك والوثنية . وأصبح الاسلام طابع هذه الامبراطورية عن رضى شعوب المنطقة والاقتناع . والدليل على ذلك ان الملوك الجدد الذين اعتلوا عرش غانة المسلمة بدءوا يوطدون علاقاتهم مع الخلافة العباسية في بغداد (١) - ولم يكن اندفاع الجموع الى الاسلام - بعدما حطمت الحكومة الشركية والوثنية عن طرق القهر كما أصبح ذلك شائعا في الأوساط العلمية في أوروبا وافريقيا السوداء .

ونحن نقول لهؤلاء المرجفين : ان الأمر لو كان كما تدعون فعليكم أن يفسروا لنا بقاء الوثنيين الذين ظلوا جنبا الى جنب مع المسلمين تحت الدولة الغانية لما تحولت الى الاسلام ، وفي ظل دولة مالي وصنغاى اللتين قامتا على الاسلام من أول يوم ؟

---

(١) الالمام ، المقريزى ص ٢٢ وراجع كذلك امبراطورية غانة الاسلامية ، المصدر السابق ص ٤٩ ، وراجع كذلك نزهة المشتاق ، الادريسي ص ٦ . وراجع كذلك تاريخ ابن الوردى ص ١٦٠ .

ومع كل دولة اسلامية حكمت في بلاد السودان الغربي (غرب افريقيا) أيضا . ويرينا المؤرخون أن هذه الدول التي قامت على الاسلام في المنطقة قد حكمت المنطقة حوالي ستة قرون متتالية اعتبارا من القرن الحادى عشر الى القرن السادس عشر الميلاديين ومع ذلك بقي فيها الوثنيون الى يومنا هذا .

والتاريخ يعيد نفسه .. انظروا الى أوضاع الناس في غرب افريقيا في الوقت الراهن ولو كان المسلمون يقهرون الناس على الدخول في الاسلام ،لم يبق أحد في المنطقة من الوثنيين .. والدليل على ذلك توجد هناك عدة دول تنتسب الى الاسلام ولم ترغم الوثنين على الدخول في الاسلام مثل جمهورية غينيا التي يشكل عدد المسلمين فيها ٩٥ ٪ وكذلك السنغال يبلغ عدد المسلمين فيها ٩٠ ٪ وكذلك النيجر ٩٥ ٪ وموريتانيا أيضا وحتى الدول التي يحكمها رجال لا ينتسبون الى الاسلام مثل ساحل العاج وداهومي (بنين) وفلتا العليا (بوروكينا فاصو) فمعظم شعوب هذه الدول مسلمون فمثلا ان ساحل العاج فيها ٦٥ ٪ من المسلمين ..

ولو كان الأمر كما يدعون لما بقي هناك وثني باق على وثنيته ولكن المسلمين هنا اختاروا للدعوة الاسلامية طريق الاقناع والحجة الدامغة أولا .

يقول آدم عبدالله الألورى والمفكر الافريقي المعاصر :

" ولو كانت تلك الدول والحكومات الاسلامية (من غانة المسلمة ومالي وصنغاى) كانت ترغم الناس على الدخول في الاسلام أو كانت تأخذ بالسيف لما استطاع التنصير أن يعثر على من يعتنق المسيحية ،بل تحب النصرانية أن يبقى الانسان الافريقي /لا دينيا خير لها من أن يكون مسلما "(١)

---

(١) الاسلام في نيجيريا اليوم وغدا ،تأليف الشيخ آدم الألورى ص ٥٧ .

ثانيا - وقد ذكرنا أن غانة استمرت في الحياة الوثنية منذ القرن الأول الى القرن الحادى عشر الميلاديين ،وليس معنى ذلك أن الاسلام لم يدخل هذه الامبراطورية قبل هذا التاريخ . بل قد وصل فيها الاسلام منذ زمن مبكر.. ولكن المسلمين في هذه الفترة (القرنين السابع - الحادى عشر) كانوا أقلية فلم يصبح الاسلام طابع الدولة ، الا منذ فتح المرابطين لها في سنة ١٠٧٦ الميلادية (١) ودلينا على قدم الاسلام في غانة قبل هذا التاريخ مايلي :

١ - ان نمو الحيّ الاسلامي بعاصمة غانة ،أو المدينة الاسلامية (كومبي صالح) لدليل قاطع على أن الاسلام قد دخل في غانة منذ زمن مبكر ، لأنه ليس من المعقول ولا من المألوف أن تكون قد ظهرت مرة واحدة أو في زمن قصير ، بحيث أصبحت تضم اثني عشر مسجدا.. وأنها صارت موطنا لعدد كبير من فقهاء المسلمين وعلمائهم من العرب والبربر والسودانيين الذين اعتنقوا الاسلام ودرسوه .. كيف . وقد صرح القلقشندى بأن الاسلام قد وصل هناك منذ فتح بلاد المغرب اذ يقول :

"وكان أهلها - أهل غانة - أسلموا في أول الفتح ". (٢)

---

(١) امبراطورية غانة الاسلامية . المصدر السابق ص ٤٦.
وراجع كذلك . الاستقصاء ٢/ ٢٠-٢١ وراجع كذلك الحلل الموشية ص ١١ ، الديانات في افريقيا السوداء ص ١٢٢-١٢٣ هوبير ديشان
وراجع كذلك : De pedrals p.147
Laronciere ج1, p.p. 48, 134
Et etude sur l'Islam et les tribus maures paul Marty p.2.

(٢) صبح الأعشى ٥/ ٢٨٤.

ب - ان الاسلام والوثنية عاشا في بلاد السودان الغربي جنبا الى جنب بدليل استخدام الامبراطور عددا كبيرا من المسلمين في حكومة غانة الوثنية لأن المسلمين كانوا هم الطبقة المثقفة هناك .

هذا ولم تكن مجهودات البربر موقوفا على الهجرة والتبادل التجارى فحسب بل كانت الجامعات المغربية وغيرها تؤدى الدور نفسه أيضا . . لقد أصبحت القيروان أول مركز ثقافي اسلامي بافريقية ، اذ غلب الفكر والمدارس على بعض مساجدها مما نقلها من طبيعة المسجد الى طبيعة الجامعة . فظلت القيروان مفتوحة الأبواب حتى دب الاسلام خلف الصحراء فتوجه اليها عدد كبير من أبناء بلاد السودان الغربي فتعلموا بها الدين واللغة العربية كما تعلموا في الجامعات المغربية الأخرى مثل جامعة القرويين بفاس وجامعة زيتونة بتونس . . ولما أصبحت مدينة (تمبكتو) (سنصفها فيما يأتي) - من المراكز الثقافية في بلاد السودان الغربي كانت وثيقة صلة بجامعة القرويين وجامعة الزيتونة.

واذا ذكرنا دور الجامعات المغربية في نشر الثقافة الاسلامية في المنطقة ،فلا بد أن نذكر دور الأزهر الشريف الذى - يعد - بحق - آنذاك مركز الثقافة الاسلامية في العالم الاسلامي كله . . ومكانة الأزهر في العالم الاسلامي لا تعدلها مكانة ،ومنذ قرون عديدة والأزهر مفتوح الباب أمام طلاب بلاد السودان الغربي ولم يزل كذلك الى اليوم .

هذا وصف ضئيل من المجهودات التي قد بذلها التجار والدعاة من العرب والبربر في تلك الفترة الأولى لنشر الدعوة الاسلامية في المنطقة.

وأخيرا ان هذه الحقائق العلمية التي أثبتناها هنا تدل دلالة واضحة على " أن العرب والبربر الذين جاءوا الى هذه الديار الافريقية لم يكونوا مستعمرين مثل الأوربيين ولم يكن همهم الوحيد هو التجارة فحسب بل كانوا يأتون بالبضائع والأفكار التي هي العقيدة الاسلامية اذا عرفنا هذا لا نلتفت الى أقوال المرجفين كأمثال (بولم دنيز) الذى أداه تعصبه الى أن يسوى بين مجيء العرب الى المنطقة والاحتلال الأوربي فيرى أن كليهما قد أساء الى سكان المنطقة اذ يقول :

" لم تكد أفريقيا تعرف حتى جذب اليها سوء حظها تجارا لا هم لهم الا ثرواتها الطبيعية من العرب ثم من الأوربيين وكلهم لا يعنيهم من المجيء الى هذه المنطقة غير الفوائد التي يمكن أن يجنوها منها .." (١)

ولا شك ان هذه التسوية بين مجيء العرب والاحتلال الأوربي من أصرح الأكاذيب .

والآن لنتحدث عن الفترة الثانية من نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة وهي (فترة التجدد الديني) لنرى لونا آخر من النشاطات التى بذلت أيضا في سبيل نشر الاسلام في هذا الجزء من العالم الاسلامي الفسيح .

---

(١) راجع الحضارة الافريقية ص ٢ .

المبحث الثانــي

الدور الثاني من أدوار انتشار الاسلام في المنطقة

حركات التجدد الديني في نشر الدين الاسلامي في بلاد السودان الغربـي وهي تمتد عشرة قرون متتالية ،ابتداء من القرن الحادى عشر الى القـــرن العشرين الميلاديين .

*

مقدمـــة :

بعد هذه اللمحة الموجزة التي حاولنا خلالها أن نثبت -بشكل واضح لا غموض فيه - أن الاسلام ،قد انتشر بعد دخوله في القرن الأول الهجـرى أو القرن السابع الميلادى ،في دورين رئيسيين ،وقد تحدثنا عن الدور الأول حيث أثبتنا أن هذا الدور قد استغرق أربعة قرون ،وبينـا أن رواد تلك الفترة هم :(التجار والدعاة من العرب والبربر) الذين تعاونـوا لخلق جو اسلامي بالمنطقة لاثبات العقيدة الاسلامية بدل العقائد الوثنية التي كانت تسود المنطقة ردحا من الزمان .

نصل - الآن - للدور الحاسم لتاريخ المنطقة وهو دور التجـــدد الديني في نشر العقيدة الاسلامية في هذه البقعة السوداء ..

ولا شك أن هذا الدور الثاني ،هو أهم الأدوار نشرت فيها العقيـدة الاسلامية في المنطقة .. وهي سلسلة من الحركات الداخلية بحيث تصلـح كل واحدة منها للدراسة الأكاديمية الجادة .

وليس غريبا أن نرى كثيرا من المؤرخين والكتاب الغربييـن

يتخذون هذه الفترة التاريخية بداية لدخول الاسلام في المنطقة ،اذا علمنا جسارة الأحداث التي وقعت في هذا الدور الهام الذى لا يقل أهمية من الدور الأول الذى ذكرناه سابقا ان لم يتفوق عليه .. لامتيازه بقيام نشاط داخلي ، نابع من البيئة نفسها قام بالهدف نفسه.

ولا نكون مبالغين -ان قلنا- ان هذا النشاط الداخلي من المرابطين والأسرة المالكة ،كان أبعد أثرا في خدمة الاسلام وأكثر نجاحا ، اذ صور الاسلام بصورة ثقافة قومية وفكر افريقي ، فلم يعد الدخول في الاسلام ، تبعية لدولة غريبة أو اعترافا بدين جماعات من الخارج بل أصبح وقوفا تحت رايات يحملها زعماء ينتمون الى نفس المنطقة ، كما أصبح التدين بالاسلام يعني الاسهام في تكوين مجتمع افريقي أصيل.

" ثم يمتاز انتشار الاسلام - بصفة عامة -في هذه المنطقة بعامل هام نادر وجوده في كثير من بلدان العالم الاسلامي التي انتشر فيها الاسلام.

وهذا العامل هو : سباق التتابع ، فقد حمل العرب زمام الدعوة للاسلام في مطلع الاسلام الى افريقية ،وتسلمه منهم البربر ليندفعوا به جنوب الصحراء ،وهناك أسلموه الى سكان السودان الغربي .. فتسلمه منهم هؤلاء السودانيون لينشروه في أرض السودان الغربي التي لم يبلغها - قط - الدعاة من العرب والبربر . فقد وقف العرب والبربر بالاسلام في منطقة السافانا (الأحشاس) فقط ولكن أبناء المنطقة قاموا بجدارة ونشاط ،الى مناطق الغابات فنشروه فيها ولم يزل أحفادهم يقومون بالدور نفسه الى الوقت الراهن . وهذه الميزة كادت تكون لهذه المنطقة فقط ..

وفي هذا المبحث سنعيش مع هؤلاء العظماء الداعين الذيـــن قاموا بحركات التجديد الديني في المنطقة وهم كالتالي :

١ - المرابطون (من سكان الصحراء الكبرى) .
٢ - الأسر المالكة (التكرور ،والسونينكي والماندنغ وأسكيا تورى) .
٣ - الصوفية (القادرية والتيجانية) .
٤ - معلموا المدارس (ابان الحكم الاستعمارى وبعده) .

هـذه هي أهم الحركات التي كانت - ولم تزل -/بعضها تحاول تجديد الدعوة الاسلامية في المنطقة ،منذ القرن الحادى عشر الى القرن العشريـن الميلاديين . ففيما يلي تفصيل لما أجمل ...

أولا - المرابطـون :

و تعتبر حركة المرابطين (٤٢٨ - ٥٤٠)هـ[(١)] أول هذه السلسلة في التجديد المستمر عبر القرون (العشرة) التي ختمت بحركة الدعـــوة السلفية وانشاء الجمعيات الاسلامية في المنطقة .

وقد سبق أن أشرنا في مناسبات عديدة ،الى أن المرابطين ليسوا أول من أدخل الاسلام في بلاد السودان الغربي في القرن الحادى عشر الميلادى - كما هو الشائع والمتواتر عند كثير من الكتاب الغربييـــــن .

---

(١) لمحات من التاريخ الافريقي الحديث ،ابراهيم دياب ص ٥٧ .
ان هذا التاريخ لا يمثل تاريخ دعوة المرابطين في غربي افريقيا فقط بل يمثل دعوتهم في غربي افريقيا الى الاندلس ،أما مدة دعوتهم في غربي افريقيا فهي (١١) سنة فقط .

بل ان الاسلام وصل الى تلك البقاع في القرن نفسه الذى ظهر فيه ،وهو القرن السابع الميلادى وبالتحديد في سنة ٤٣ هـ [١] ولكن المرابطين قد أدوا دورا هاما في نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة الا أن حركة المرابطين هذه قد اختلف الناس في الغرض الأساسي الذى دفعهم الى القيام بها .. فيرى جل الكتاب الأوربيين أن الغرض الأساسي للقيام بهذه الحركة هو مطامع المرابطين في ثروات غانة المعدنية من الذهب وغيره ... بينما يقرر أكثر الباحثين الاسلاميين بأن الغرض في ذلك هو محاولة لنشر العقيدة الاسلامية في بلاد السودان الغربي [٢] التي كانت تعيش تحت الحكومات الوثنية ،رغم دخول الأغلبية من شعوب المنطقة في الاسلام قبل ملوكهم الوثنيين ...

فهذا يقتضينا أن نذكر موجزا من تاريخ هذه الدعوة ،ليساعدنا على ترجيح أحد هذين الرأيين على الآخر ..

فنقول وبالله التوفيق :

وقد اتفقت المصادر في ذكر الحدث الذى أدى الى ظهور حركة المرابطين ،فقد ذكرها كل من البكرى [٢] وابن خلدون [٣] والقلقشندى [٤]

---

(١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٢١٢ وأسد الغابة ٤٢٠/٣ للمؤلف نفسه .

(٢) المغرب ص ١٧٠ .

(٣) العبر ٣٧٣/٦-٣٧٤ تأليف ابن خلدون .

(٤) صبح الأعشى ٢٩٣/٥ .

وغيرهم ،في أن يحيى بن ابراهيم الجدلى (ت: ١٠٥٦)م كان الزعيم السياسي لهذه الحركة ،كما كان عبدالله بن ياسين الجزولي (ت : ١٠٥٩)م المرشد لها .(١)

كما تذكر المصادر أن يحيى بن ابراهيم (الزعيم السياسي) قد خرج للحج في رؤساء من قومه من الصنهاجة وخاصة قبيلة جدالة وذلك في سنة (١٠٤٠م) وعند رجوعه من أداء الفريضة نزل بمدن المغرب مرتادا أسواقه متاجرا وزائرا ،فأحس بالفرق الشاسع بين المنطقتين :

أ - منطقة المغرب الاسلامي المليء بالحياة العلمية .

ب - وبين المنطقة الصحراوية التي يملؤها الجهل بالاسلام .(٢)

فالتقى في مدينة القيروان بأحد فقهاء المالكية ويدعى بأبي عمران الفاسي).(٣)

وبالتدارس معه اتضح له الفارق العظيم بين اسلام قبيلته وبين ما رأى وسمع بالاسلام الموجود في مكة المكرمة والمدينة المنورة ومصر والقيروان ..(٣)

---

(١) دولة مالي الاسلامية ،الدكتور ابراهيم طرخان ص ٤٩.

(٢) راجع لمحات في التاريخ الافريقي الحديث . المصدر السابق ص ٥٨ بتصرف .

(٣) المغرب ص ١٧٠ وراجع دولة مالي الاسلامية ص ٤٩.
وراجع أيضا موسوعة التاريخ الاسلامي ١٠٧/٦.

(٤) العبر لابن خلدون ٣٧٣/٦.

وصول مذهب الامام مالك الى بلاد السودان الغربي

وتذكر المصادر التاريخية أن أبا عمران الفقيه المالكي قد تعجب لجهل يحيى بن ابراهيم ،مما دفع يحيى الى أن يطلب من أبي عمران الفاسي معلما يرسله معه ليعلمهم القرآن و يقيم لهم الدين .. و بتعبير آخر .. يرشد مواطنيه من سكان الصحراء الكبرى والسودانيين ،في شئون دينهم ودنياهم.. فبعث أبو عمران معهم فقيها مالكيا حازما يدعى (عبدالله بن ياسين)الذى كان يتعلم على وجاج بن زلوى المقيم في مدينة ملكوس المغربية . والذى كانت داره تسمى بدار المرابطين (١) .. فصار عبدالله بن ياسين يقيم لهذا الدين ويعلمهم القرآن والشرائع الاسلامية ،من هنا فتح على سكان هذه المنطقة باب جديد من فهم الدين الاسلامي على مذهب الامام مالك ومن هنا أيضا نستطيع أن نوءرخ لدخول مذهب الامام مالك أنه وصل الى المنطقة في القرن الحادى عشر الميلادى و بالتحديد في سنة (٤٤٠هـ) الموافق بسنة (١٠٤٨م) (٢) على يدى هذا العالم المالكي (عبدالله بن ياسين) رحمه الله تعالى رحمة واسعة الذى التف حوله جمع غفير من الصنهاجة بقيادة يحيى بن ابراهيم ،ثم لم يلبث يحيى هذا الى أن مات وبعد موته افترق أمر الملثمين ،و تركوا الأخذ عن عبدالله بن ياسين وذلك لما يأتي :

---

(١) لمحات في التاريخ الافريقي ص ٥٨ .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ١٠٧/٦ الدكتور أحمد شلبي .

١ - لما رأى عبدالله بن ياسين وهو المعروف بحزمه وشـــدة تمسكه بدينه ، ابتعاد سكان الصحراء عن الفهم الصحيح للعقيدة الاسلامية وانحراف بعضهم وخاصة سكان مدينة أودغست التى تسمى - من شدة انحراف سكانها -ب (بابل الصحراء الكبرى) . لما رأى ذلك ، بدأ يعلمهـــــم بجدارة وشدة .. من هنا استصعبوا عمله هذا ،وافترقوا عنه لما تجشمـــوا فيه من مشاق التكليف (١) وقد ذكر البكرى أنواعا كثيرة من هذه التكاليـــف التي فرت منها قبائل صنهاجة .. ولم تكتف هذه القبائل بترك الاخـــذ عنه فحسب ، بل ثارت عليه وأحرقت منزله مما دعاه للهروب من بينهم والاعراض عنهم كليا (٢) والدخول في الرباط .

ب - دخول عبدالله وأتباعه في الرباط .

فلما انتبذ عبدالله وأتباعه الذين وجدوه خير معلم للاســـــلام على مذهب الامام مالك - ودخلـــــــوا في الرباط ،ابتعدت عنه تلك القبائل كليا .. من هنا اتخذ عبدالله بن ياسين هو وأتباعه مـــن البربر (والسودان) خاصة من أهل التكرور ،قاعدة يرابطون فيها للجهاد ضد الكفار من الصنهاجة والسودانيين او اصلاح عقيدة المسلمين الذيـــن اعتنقوا الاسلام ولكن لم يلتزموا بأحكامه ان هوءلاء لم يكونوا / مسلمين حقيقييـــن في نظر المرابطين (٣) و هكذا تفرغ عبدالله بن ياسين للعبادة والتأملات

---

(١) العبر ٦/ ٣٧٣ .

(٢) المغرب ص ١٦٦ .

(٣) دولة مالي الاسلامية . المصدر السابق ص ٩٤ وراجع ابن الاثير ٩/ ١٣١ ،روض القرطاس ص ٨٧ - ٨٩ .

الروحية والتعليم و تربية عقائدهم قبل الخروج الى الناس بالدعوة والجهاد (١) ..
وقد تنسك معهم في هذا الرباط عدد كبير منهم أبو بكر ابن عمر من روساء
بني لمتونة الذى أصبح خلفا ليحيى بن ابراهيم بعد موته.. وكما كان
معهم كثير من قبائل تكرور بل كانت هذه القاعدة التي سميت ب(الرباط)
في جزيرة في حوض نهر السنغال يعني أرض (تكرور) الذين كان الاسلام
منتشرا بينهم وهم تابعون لملكة (تكرور). (٢)

من هنا تبرز ميزة أخرى لأهل التكرور .. فقد قلنا سابقا أنهم كانوا
تحت قيادة ملكهم (وارجابي بن ربيس) سباقين الى الاسلام وتظهر
لنا هنا أيضا ميزة أخرى هي : اشتراكهم مع المرابطين في هذا الرباط .
وعلاوة على ذلك كان معهم ابن ملكهم المسمى ب (لا بى بن وارجابي).

فقد كان هذا الاختلاط في هذا الرباط بين السودان والبربر يمثل
أيضا وسيلة للاندماج لخلق مزيج جديد يضع وحدة العقيدة في مكان أسمى
من وحدة الجنس والوطن واللون.

وكما يظهر لنا من هذا الاختلاط بين السود والبيض في هذا الرباط
أمران لهما أهميتهما الكبرى :

---

(١) الدعوة الى الاسلام ،أرنولد توماس ص ٣٥٢-٣٥٣ من الترجمة العربية .

(٢) لمحات في التاريخ الافريقي . المصدر السابق ص ٥٩.

١ - اذا اطلقت كلمة المرابطين شمل جميع من كانوا في هذا الرباط من السودانيين (تكرور) وصنهاجة . وعدم فهم ذلك أوقع كثيرا من الباحثين في غلط تاريخي فهم يرون أن المرابطين هم أناس من البيض من قبيلة الصنهاجة فقط قاموا بهذه الدعوة والأمر بعكس ذلك بل كان جل المرابطين من السود لأن الرباط كان في أرضهم في جزيرة يقع عليها ميناء (سان لويس) بجمهورية السنغال الحالية . وقد أكد ذلك الدكتور ابراهيم طرخان اذ يقول :

" وكانت تعاليم المرابطين قد اجتذبت الكثير من زعماء التكرور والماندنجو واحتلوا (السودانيون والصنهاجة) بعد ذلك مدينة كومبي صالح عاصمة غانة عام ١٠٧٦م وعينوا عليها حاكما مسلما" (١).

٢ - يدل قيام هذا الرباط على أرض تكرور المسلمين دلالة واضحة على أن الاسلام كان موجودا في أرض السودان قبل الغزو المرابطي منذ زمن بعيد . وكيف لا وقد اشترك سودانيون مع البيض الصنهاجة في هذا الغزو ، وخاصة (لا بي بن وارجابي) ملك أهل تكرور.

وأما بالنسبة للدروس التي كانت يلقيها على المرابطين ، عبدالله بن ياسين فقد أشار اليها الدكتور أحمد شلبي اذ يقول :

" وكانت دروس عبدالله بن ياسين للمرابطين معه تشمل اصلاح أخلاق الفرد ، كما كانت تهاجم نظم الحكم القائمة التي ترهق الرعية بالضرائب الفادحة" (١).

---

(١) راجع دولة مالي الاسلامية ص ٤٩ وراجع كذلك المغرب ص ١٥٣-١٥٤ ، وراجع كذلك تقويم البلدان ص ٢٦٠ . تأليف أبو الفداء .

وأما البكرى فقد أفادنا بالخطبة الأولى التي ألقاها عبد الله بن ياسين عند خروجهم من الرباط الذى قضوا فيه عشر سنوات. أفادنا أن المرابطين لما دخلوا في هذا الرباط فتسامع بهم من في قلبه مثل حبة من خير فتسابقوا اليهم ودخلوا في عبادتهم هذه وغيضتهم . فلما تكاثر في هذا الرباط مريدوه من البيض والسود حتى صاروا ألفا هتف فيهم فقال :

" انكم لن تغلبوا عن قلة ،و قد تعين علينا القيام بالحق والدعاء اليه وحمل الكافة عليه فاخرجوا بنا لذلك . . ." (١)

وأما العلامة ابن خلدون فقد قرر أن خروج المرابطين من الرباط كان سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، في عدد ضخم . وقصدوا "أول ما قصدوا مدينة سجلماسة فدخلوها غلابا وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات وأسقطوا المغارم والمكوس واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها واحدا منهم فهلك يحيى بن ابراهيم سنة سبع وأربعين وأربعمائة " (٢) فعين أبا بكر ابن عمر خلفا له الذى قاد الجماعة نحو فتح بلاد السودان التي كانت تدين أغلبيتها بالاسلام الا أن حكامها كانوا وثنيين فأراد أبو بكر أن يحطم الدعائم الوثنية

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/١٠٧ وراجع كذلك الدعوة الى الاسلام تأليف أرنولد توماس ص ٣٥٢-٣٥٣ من الترجمة العربية.

(٢) المغرب ص ١٦٤ وانظر أيضا موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/١٠٧.

(٣) العبر ٦/٣٧٣ بتصرف. وراجع أيضا الحضارة الاسلامية في افريقيا تأليف دنيس بولم ت: على شاهين ص ٩٤ وراجع أيضا تاريخ أفريقيا تأليف شارل أندريه ص ١٨.

التي وقفت أمام اقامة شريعة الله العادلة في هذه البقاع .. وأمام وصول هذه العقيدة السمحاء الى القلوب . من هنا توجه المرابطون نحو امبراطورية غانة تحت قيادة أبي بكر اللمتوني (ت ١٠٨٧م) وفي حياة عبدالله بن ياسين المرشد الموفق ، فاحتلوا مدينة غانة بعد قتال مرير دام قرابة أربع عشر سنة ، ثم انتصرت العقيدة الربانية على العقيدة الوثنية .. ومن سعد سكان المنطقة أن دخل في الاسلام الأمبراطور نفسه بعد سقوط بلاده للمسلمين .. فعين المرابطون حاكما مسلما من المرابطين لتطبيق شريعة الله في أرض السودان وذلك في سنة (١٠٧٨م) وفي ذلك يقول القلقشندى :

" فلما أسلم الملثمون من البربر تسلطوا عليهم (أى ملوك غانة بالغزو حتى دان الكثير منهم بالاسلام ". (١)

ومنذ ذلك الوقت أى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى يمكن أن يؤرخ لامبراطورية غانة المسلمة حتى انتهاء تاريخها في مطلع القرن الثالث عشر الميلادى أى سنة (١٢٤٠م) أى دامت غانة المسلمة (١٦٤) سنة .

هكذا كانت ظهور هذه الحركة وهكذا صارت غانة في تعداد الدول الاسلامية بفضل هذا الغزو المرابطي ..ومن خلال هذا الاستعراض السريع يظهر بكل وضوح أن القول بأن المرابطين كانوا يريدون بغزوهذا نهبا وسلبا لذهب غانة قول غير صحيح لا نقبله الا بسند تاريخي واضح .. ولا ريب

---

(١) صبح الأعشى ٢٩٣/٦ .

ان أى عاقل يقرأ التاريخ المرابطي كما استعرضنا يدرك كل الادراك بأن المرابطين لم يقوموا بهذا الغزو لمصالح شخصية ولا لنهب أموال السودان أبدا ولكن لما كان الناس دائما على درجات متفاوتة، فليس في استطاعة كل واحد أن يعرف مواطن العبر - لأول وهلة من النصوص، فيجمل بنا أن نعود الى هذا النص مرة ثانية لنشير الى المواطن التي تدل دلالة واضحة على أن الغرض بهذا الغزو كان خالصا لوجه الله تعالى ،ففيما يلي اشارات الى ذلك :

١ - ان الذى ينفي أن يكون هذا الغزو لغرض دنيوى تاريخ المرابطين نفسه الذى تحدثنا عن جزء منه .. فقد رأينا ما جرى بين يحيى بن ابراهيم وبين أبي عمرو الفاسي وما نتج من ذلك من ارسال العالم المالكي عبدالله بن ياسين. ان كل ذلك ينفي نفيا قاطعا أن يكون الغرض لهذا الغزو لأجل المصالح الشخصية البحتة ..

ولو رجعنا مرة أخرى نتأمل في هذا التاريخ لعرفنا أن المرابطين قاموا بهذه الدعوة لوجه الله فقط بدليل أن عبدالله بن ياسين لقي بمقابل هذه الدعوة ما لقيه من اهانة وطرد حتى أحرق المدعوون بيته لما يتجشمون - من تعاليمه .. ولو كان عبدالله يريد الدنيا لما صار الأمر الى مثل هذا الحد. ولكنه صبر وانتبذ من الناس ليكوّن جماعة يؤمنون بالعقيدة الاسلامية ايمانا راسخا وينفذون أوامر ربهم ولا يخافون في الله لومة لائم وكان الأمر على النحو الذى ذكرناه سابقا .

٣ - آثار الدعوة المرابطية :

ان الذى يدعونا الى الاعتقاد بأن دعوة المرابطين كانت لوجه الله تعالى ، تلك النتائج الطيبة التي نجمت عنها ، لأن صلاح الدعوة ، أية دعوة يعرف بنتائجها . فلنذكر بعضا من هذه النتائج :

أ - تعتبر حركة المرابطين من أولى الحركات المتتالية التي أدت الى تنمية و تعميق وانتشار الاسلام في بلاد السودان الغربي . وقد كان الاسلام قبل هذه الحركة ينتشر ببطيء شديد وذلك لوجود رؤساء وثنيين على زمام الحكم . ولما أزيلت تلك القواعد الوثنية بسبب حركة المرابطين اندفع الجموع - عن طواعية - الى اعتناق العقيدة الاسلامية وكان الامبراطور نفسه (تنكامنين) (Tounka Menine) من الأوائل الذين اعتنقوا الاسلام بعد هزيمته .

ولم يكتف ملوك غانة السودانين الجدد بالاسلام فحسب بل راحوا فورا يوثقون صلاتهم بالخلافة العباسية ببغداد .(١)

فترتب على استيلاء المسلمين الأفارقة على السلطة بعد هذا الغزو ، ووجود عائلات مسلمةعلى رأس الدول السودانية وتوطدت علاقات تلك العائلات بالدول الاسلامية في بقية العالم الاسلامي . فأصبحت بلاد السودان الغربي قطاعا من العالم الاسلامي ، فاذا بالملوك السودانيين المسلمين يستجلبون الكتب لهم وذاعت في السودان شهرة عدد من العلماء وكان لهم أثر بارز في

---

(١) الامام للمقريزى ص ٢٢ وراجع أيضا صفة المغرب والأندلس والسودان ص ٦ - ٧ .

الحركة العلمية والثقافية ، سنذكر بعضهم في صفحات قادمة .. وكان للطلاب اقبال على العلم دفعهم للهجرة الى خارج بلادهم الى الحجاز ومصر والمغرب وقد زاد عدد طلاب بلاد السودان الغربي في مصر (في الأزهر) حتى أصبح لهم رواق باسمهم "رواق التكرور" (١) وقد نال العلماء في بلاد السودان مكانة مرموقة فهابهم السلاطين وحلوا على ارضائهم ويقول أحمد بابا التنبكتي عن الشيخ محمد بن عمر بن محمد أمين " لا يخاف في الله لومة لائم يهابه السلاطين في دورهم ويزورونه في داره ولا يقوم لهم ولا يلتفت اليهم يهدونه بالهدايا العظام ". (٢)

ب - وعلى الرغم من أن سيادة المرابطين لم تستمر طويلا ، بل كانت قصيرة العمر بحيث لم تدم سوى احدى عشر عاما فقط ، فسرعان ماتخلصت غانة من هذه السيادة على اثر وفاة ابي بكر بن عمر أمير المرابطين سنة (٤٨٠هـ - ١٠٨٧م) (٣) و مع كل ذلك كانت القيادة الروحية والثقافية في أيدى المرابطين .. حتى أصبحت كلمة (مرابط) مرادفة لكلمة العالم.

---

(١) لمحات في التاريخ الافريقي الحديث . المصدر السابق ص ٦١.

(٢) راجع كفاية المحتاج بمعرفة من ليس بالديباج ص ٣١ ، ١٠٧،٥٥.

(٣) تاريخ افريقيا ، شارك اندريه ص ٨١ وراجع الدعوة الى الاسلام أرنولد توماس ص ٣٥٣ الترجمة العربية وراجع المغرب ، ص ١٦٧.

وحتى لما احتلت فرنسا المنطقة سنة ١٩٠٠م بدأت تستعمل هذه الكلمة وتطلقها على كل عالم مسلم يقولون : (Le Marabout) ثم استعملت كلمة "مرابط" مع مرور الأيام في معنى ضيق حيث صارت لا يطلق الا على نوع خاص من العلماء وهو ذلك العالم الذى يقصده الناس ليدعوا الله لهم في قضاء حوائجهم والعملية التي يقوم بها هذا العالم يسمونها بـ : (Le Maraboutage) أى طلب الحوائج عند الله بواسطة المرابط . (١)

جـ - من الآثار الطيبة التي نجمت عن هذه الدعوة استيلاء المسلمين الأفارقة على السلطة السياسية في بلاد السودان الغربي فكان ذلك من العوامل المساعدة على انتشار الاسلام فمنذ ذلك الوقت تحولت امبراطورية غانة الى امبراطورية اسلامية وكانت دولة مالي وصنغى على الاسلام منذ البداية وكذلك دولة بورنو ودولة الهوسا ،كل ذلك يعني - من بين ما يعنيه - أن المسلمين من أبناء المنطقة صاروا بعد هذا الغزو يحكمون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فهؤلاء الحكام السود كانوا يصنعون كل الامكانيات الممكنة والمتاحة لهم في يد العلماء ويقربونهم لمجالسهم ويقيمون الحدود الشرعية وكان العلماء يمثلون الطبقة الحاكمة مثل مجالس الشورى وغيرها (٢) . كما سنتحدث عن ذلك بالتفصيل انشاء الله.

---

(١) مستفاد من الرحلة العلمية سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٢) لمحات في التاريخ الافريقي . المصدر السابق ص ٦١ بتصرف .

د - هكذا كان دور المرابطين واضحا كالشمس لا غموض فيه ويكفي ذلك ايضاحا أن المرابطين هم الذين أنشئوا مدينة تمبكتو على منحنى النيجر وسرعان ما أصبحت مركزا اسلامية وثقافيا وتجاريا في بلاد السودان الغربي .

وهكذا ترجح لدينا أن دعوة المرابطين كانت لوجه الله لذلك نتجت عنها هذه النتائج المثمرة الطيبة فكانت باكورة خير للتجدد الديني في المنطقة بعد ركوده الطويل طيلة أربعة قرون مضت قبلها ..

فلنتحدث الآن عن دور الأسر المالكة في نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة هذا الدور الفريد الذى كان من نتائج دعوة المرابطين .

ثانيا - دور الأسرة المالكة في تجديد الدعوة الاسلامية.

ببلاد السودان الغربي ومدتها ستة قرون .

وتبدأ من تاريخ (١٠٧٦ الى سنة ١٥٩٣ الميلاديين) .

وقد تحدثنا عن دور المرابطين في تجديد الدعوة الاسلامية بالمنطقة والآن سنعيش مع الأسر المالكة المشهورة التي لها دور بارز في الدعوة الاسلامية كما قلنا سابقا ان هذا الدور من أهم الأدوار بالنسبة للدعوة الاسلامية بحيث أصبح الاسلام ثقافة قومية ذاتية لذا استماتت في سبيله جميع الأسر التي استولت على السلطة السياسية في المنطقة فأهم الأسر التي نهضت بأعباء مسئولية الدعوة الاسلامية في المنطقة كالتالي :

١ - أسرة التكرور (زعيمة دولة التكرور) .

٢ - أسرة السونينكي (زعيمة دولة غانة) .

٣ - أسرة الماندنغ (زعيمة دولة مالي) .

٤ - أسرة أسكياتورى (زعيمة صنغى) .

فلنعط لكل منها شرحا موجزا .

١ - أسرة التكرور :

ان منطقة بلاد السودان الغربي قد ظفرت لنشر دعوة الاسلام بأقوى القبائل وأعظمها شأنا استطاعت أن تستولى على السلطة السياسية وتقيم ممالك وامبراطوريات اسلامية هناك ،ومن أشهر تلك القبائل المظفرة أسرة التكرور .. لقد كانت هذه الأسرة كغيرها من قبائل السودان الغربي ، تعبد الأصنام وأرواح السلف حتى أكرمها الله بملك رشيد/ اعتنق الاسلام ثم أمر جميع

مملكته بالدخول في الاسلام فامتثلوا أمره .. وكان ذلك حدثا تاريخيا لا تنساه ذاكرة بلاد السودان الغربي ،واليك عبارة البكرى :

" ان مدينة تكرور أهلها سودان ،وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكور (والدكور عندهم الصنم) حتى وليهم (وارجابي ابن رابيس) فأسلم وأقام عندهم شرائع الاسلام وحملهم عليها و حقق بصائرهم فيها وتوفى وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة (٤٣٢) فأهل تكرور اليوم مسلمون ". (١)

ان رجعنا الى هذا النص الجاد نصل الى جملة من الحقائق تميز هذه القبيلة النبيلة عن غيرها من القبائل السودانية في غرب أفريقيا وهي كالتالي :

أ - ان دخول هذه الأسرة في الاسلام كان حدثا تاريخيا لا تنسى وذلك -كما رأينا -أن الاسلام انتشر في هذه المنطقة في صفوف الافراد قبل قيام الحكومات .. ولكن قبيلة التكرور خالفت هذه القاعدة بأن دخلت في الاسلام حكومة وشعبا دفعة واحدة .. فكان ذلك مما أدهش المؤرخين قديما وحديثا .

ويذكر المؤرخون أن هذا الحدث التاريخي الذى يفتخر به كل تكرور ،قد وقع في القرن الحادى عشر الميلادى والخامس للهجرة أى قبل موت وارجابي (٤٣٢هـ/١٠٤٠م) و قبل غزو المرابطين لغانة بسنوات كثيرة لأنه (الغزو) وقع في سنة ١٠٧٦م. (٢)

---

(١) المغرب ص ١٧٢ - ١٧٣.

د/أحمد ابراهيم دياب ،التاريخ الافريقي الحديث ص ١٥٠ - ١٥٩.

ب - لأنّ اسلام ملك التكرور الذى يمثل اسلام أول عائلة مالكة فكان ذلك عنصرا هاما في ازدياد انتشار الاسلام.. لأنهم لعبوا الدور الأوّل والأساسي في نشر الاسلام بين القبائل الواقعة في النطاق السوداني (السافانا) قبل ظهور المرابطين . وكان له الفضل في اسلام أهل سيلا (Silla) . وكانت المسافة بين سيلا وبين غانة عشرون يوما كما يقول البكرى ومن ثمّ فان أعدادا كبيرة من سكان غانة قد اعتنقت الاسلام على يد أسرة التكرور وملكهم ..

جـ - قد اشتركت أسرة التكرور - كما مر ذلك - مع المرابطين في غزوهم لغانة لنشر الاسلام ، ثم يزيد التكرور فخرا أن كان مع هؤلاء المشتركين ابن ملك التكرور اسمه : (لابي - Laby) (ابن وارجابي (Diaby) يقول البكرى :

" وكان مع يحيى بن ابراهيم (قائد المرابطين) عدد كثير من السودان وكان معه لابي بن وارجابي رئيس تكرور .. "(١)

وهكذا فازت هذه الأسرة المجيدة بشرف الاشتراك مع المرابطين في نشر الاسلام في غانة وغيرها.. لأنها عرفت الاسلام قبل غيرها فقامت فيها بعد أودغست حكومة اسلامية تطبق شريعة الله سبحانه - فمنذ ذلك الوقت وفد أناس منهم لمصر لطلب العلم الديني ..وهذا ما دعا أهل مصر " أن يطلقوا كلمة تكرور أو دكرور (Dakourir) على جميع سكان المنطقة السوداء .. كما مر بنا ذلك..

---

(١) المغرب ص ١٦٨.

ان هذا الاقليم (تكرور) هو الذى أمد كثيرا من بلدان السكان في غرب افريقيا بأهم رجالاتها الدينية وخاصة السنغال وسا حل العاج وغيرهما .

وأما السنغال فقد أمدها الاقليم برجال عظماء كالتالي :

١ - الحاج عمر الفوتي (ت ١٨٦٤م) الداعية المشهور الى التيجنية (١) وسنتحدث عنه عند حديثنا عن دور الصوفية في نشر الاسلام ببلاد السودان الغربي .

٢ - ماباجاخوبا (ت ١٨٦٧م) (Mabadia Khoba) الذى قام بالحركة الاسلامية المشهورة ،ضد (تيدو) (Tidou) وهي فئة باغية كما أفاد بذلك الاستاذ عبدالقادر سيلا ،كانت منتشرة في مختلف أنحاء السنغال في القرن التاسع عشر . وكانت بيدها السلطات القائمة آنذاك . . وكانت تعيش على السرقة والنهب والسلب ،بل تمارس كل أنواع المنكرات والموبقات فأيد الله هذا الشيخ (التكرورى) بأن قام بهذه الثورة العارمة ضدها فأخمدها بعدما وحد أغلب الممالك السنغالية للقيام ضد هذه الطائفة الطاغية.(٢)

ثم لم يزل الشيخ يواصل انتصاراته للمد الاسلامي هناك حتى تصدت له القوى الاستعمارية المضادة في معركة (صومب) (Sombe) حيث استشهد الشيخ ماباجاخابوا التكرورى فحمل لواء الحركة بعده ابنه وأخوه . . .

---

(١) المسلمون في السنغال ،عبد القادر سيلا ص ٣٥ .

(٢) المسلمون في السنغال ،عبد القادر سيلا ص ٣٦ .

٣ - الحاج مالك سي التكروري (١٨٢٣م) وقد قدم هذا الشيخ خدمات جليلة للاسلام في السنغال .

و من أشهر هذه الخدمات مسجده الفاخر الموجود - حتى اليوم - في وسط مدينة (دكار - Dakar) عاصمة جمهورية السنغال .

وهو مسجد مبني على الطراز الجديد يتوافد اليه المصلون في جميع أوقات الصلوات الخمس وخاصة صلاة العصر بحيث يجلسون بعدها للذكر الذى يستمر الى صلاة العشاء . . ان هذه الحالة مستمرة دائما بدون انقطاع.

وقد شاهدت حلقات الذكر هذه أيام أن كنت في (دكار) أثناء رحلتي الميدانية لاعداد هذه الرسالة وذلك بتاريخ ٢٧/رجب سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م فسألت أحد الحاضرين في هذه الحلقة /كبيرة مجموعة ،عن شأن هذا المسجد الذى يتوافد اليه الناس بهذا الشكل الفريد دون سواه ؟

فقيل لي : " انه مسجد بناه (الحاج ملك سي) الذى يعد من رواد الطريقة التيجانية الاولين " ثم ذكر لي أشياء كثيرة من أعماله الجليلة لا يتسع المكان لذكرها . (١)

٤ - الشيخ أحمد بامبا (ت ١٩٢٧م) الذى يعد من العلماء المشهورين في السنغال من الذين استماتوا في سبيل عقيدتهم الاسلامية ومناقب هذا الشيخ الجليل تحتاج الى شرح أطول من ذلك و يكفيه فخرا

---

(١) سنتحدث عن دور التيجانية في نشر الاسلام في غرب أفريقيا كما نتحدث عن أضرار هذه العقيدة التيجانية على أهل هذه المنطقة .

مسجده الكبير الموجود حاليا في مدينة (طوبى) ولم يزل تلاميذه يعلمون الناس على نهجه وعلى الطريقة التيجانية التي كان أحد رواته المشهورين .

وأخيرا فان جهود هؤلاء وغيرهم من علماء منطقة (تكرور) كثيرة جدا وقد كانت من أسباب انتشار الاسلام في السنغال .

وهذا ما أشار اليه الباحث الأوربي (موللين) (Mollin) اذ يقول في أثناء زيارته لبعض أقاليم السنغال في القرن التاسع عشر .:

" يحصل الاسلام كل يوم على تقدم ، وسيصبح قريبا للدين الوحيد لاقليم (كاجور) اذ بقي القصر وحده متشبثا بالوثنية ".

ثم أضاف قائلا :

" الحصانة التي تجعل شخص الداعية المسلم مقدسا (١) عند الأمراء الوثنيين مثل ما هو محترم لدى المسلمين مما يساعد على انتشار الاسلام عند هذه الشعوب ".(٢)

هكذا أسهم تكرور في نشر الاسلام ببلاد السودان الغربي وبالأخص منطقة التكرور/ في السنغال .

هذا وقد تحمل أحفاد (ورجابي) أعباء مسئولية الدعوة الى الله خلفه الى أبعد مدى . ولم ينسوا دينهم حيثما حلوا . .

---

(١)

(٢) المسلمون في السنغال . المصدر السابق ص ٣٦ .

وقد انتشرت قبيلة (جابي) من ذريته في كل من مالي وساحل العاج وغيرهما ، واليك فيما يلي بعض شخصيات قبيلة جابي المنتسبين الى جدهم الأعلى (ورجابي بن ربيس أمير التكرور) .

أ - فاجيغيبا جابي -(Vadjiguiba Dajby)

حوالي سنة ١٨٨٥م ، الذى كان داعيا مشهورا واماما في المسجد الكبير بمدينة (ساماتيغيلا) (Samatiguola) بساحل العاج ، كما كان لديه عدد كبير من طلبة العلم . . وقد انتفعوا بعلومه جدا . وقد تعلم الطريقة القادرية في مدينة (كنكان) في غينيا من مدرسة طريقة القادرية .

فلا غرو قد كان أبوه (كاراسوا ماماجابي) (Karasso Mamadou Diaby)

رئيسا لجميع العلماء في المنطقة والمولود بها سنة ١٨٢٥ كما كان ذا شأن عظيم (Consideration) .(١)

ب - عثمان جابي والد (كاراسوماما دوجابي) المذكور الذى قد اتسع نفوذه الديني في جميع أقطار هذه المنطقة وقد شاهد ذلك (المسيو ريني كايتي) الرحالة الفرنسي بتاريخ ١/٨/١٨٢٧ (1st Aout / 1827 ويؤكد هذا الرحالة أن عثمان جابي قد كان نافعا لجميع الضيوف لا فرق في هذا بين مسلم وغيره . ويذكر أنه كان قد وجد لديه كل حفاوة وتكريم عندما كان ضيفا عليه وعبارته باللغة الفرنسية كالتالي :

J' etait etranger, sous la protection de l'Alimamy de Samatiguila... "(2)

---

(١) Paul Marty, etude sur l'Islam en cote d'Ivoire p.110.

(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .

هناك علماء كثيرون كان لهم دور بارز في الدعوة الاسلامية في ساماتيفيلا لم نذكرهم هنا مخافة الاطالة ، ولكن قبل أن ننتقل الى أسرة أخرى يحسن بنا أن نلفت الأنظار الى بعض أسرة جابي قد انتقلوا الى منطقة (دبكلا) (Dabakala) للدعوة والارشاد وكان من مشاهيرهم :

أ - الحاج اسحاق جابي ١٨٨٠ - والحاج محماجابي أخوه وأمثالهما .. لقد تركوا آثارا طيبة لنشر الاسلام في هذه المنطقة وخاصة في (أمانفي) (Amanfi) من قرى مدينة (دغارا) ساحل العاج ثم سار على نهجهم أولادهم . وأخص بالذكر : باباجابي والحاج ابراهيم جابي الذى كان اماما في مدينة بابواسو(ساحل العاج) ولم يزل أحفادهم على هذا النهج القويم .. من يوسف جابي والحاج محمد جابي الذى كان اماما في مدينة دبكلا جولاسو (Dabakala Diolasso).

ثم آل أمر الدعوة الاسلامية أخيرا الى الشيخ الفاضل الحاج محمد السنوسي الساكن في مدينة (دالووا) بساحل العاج وله تلاميذ كثيرون .. رحمهم الله تعالى جميعا .(١)

ب - أسرة سيلا (Silla):

ان هذا الاسم مأخوذ من اسم مدينة كانت في اقليم (تكرور) (فوتا تورو) (السنغال) وقد أسلم أهل سيلا على يد (وارجابي) السالف الذكر الذى ينتسب اليه جميع قبائل جابي (Diaby) على الراجح .. يقول البكرى :

---

(١) مستفاد من الدراسة الميدانية سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
وقد مات هذا النبغ في التسعينات

" وتسير من مدينة (تكرور) الى مدينة (سيلا) وهي مدينتان على شاطيء النيل أيضا وأهلها مسلمون . . أسلموا على يدى (وارجابي) (War Diaby) رحمه الله وملك سيلا يحارب كفارهم ". (١)

وهكذا اتضح لنا أن وارجابي الذى يمثل الجد الكبير لقبائل (جابى) المنتشرة في جميع أنحاء غرب أفريقيا - كان له الفضل في اسلام أهل سيلا . . وأما أهل سيلا أيضا لما دخلوا في الاسلام لم يكتفوا بذلك بل قاموا - كما قال البكرى - يحاربون كفارهم.

ان هذه الأسرة المجيدة (أسرة سيلا) لم تنفك عن دعوة الاسلام منذ ذلك القرن (القرن الحادى عشر الميلادى) الى اليوم وهم نشطون في ذلك لذا انتشروا في جميع أنحاء المنطقة . . يوجد بعضهم في السنغال وبعضهم في مالي وبعضهم في ساحل العاج. (٢)

وأما الذين سكنوا في ساحل العاج فلهم دور بارز في دعوة الناس الى الاسلام فاليك فيما يلي بعض نشاطاتهم في نشر الدين الاسلامي :

(مدينة تيمي - Tieme) ودورها في نشر الاسلام .

لقد ذكر الرحالة الفرنسي بول مارتي (Paul Marty) ان مدينة (تى - بيمي) كانت أول مركز ديني في منطقة وجيني (Odienne) لقد لعبت دورا هاما في توطيد العقيدة الاسلامية في هذه المنطقة.

---

(١) المغرب ص ١٧٢-١٨٣.

(٢) مستفاد من البحث الميداني .

وهذا نص بول مارتي :

Tiemé semble etre le centre musulmans plus ancien de la region. (1)

والفضل في ذلك على حدقول (بول مارتي) يرجع الى رجل فاضل داعية مثالى من أسرة سيلا المجيدة يقال له : (فارا كابا سيلا) - (Fara Kaba) .

لقد كان هذا الجد الأعلى لأسرة سيلا في مدينة (تي - ييمي) (Tiemé) أول من قام بدعوة الناس الى الله في هذه المدينة المباركة وذلك في القرن الثامن عشر الميلادى قادما من بلدة (سيغو) مالي الحديثة ثم أقام في هذه المدينة (تي ييمي) فكان أحفاده هم الذين عمروا هذه المدينة (٢) ولم يزالوا كذلك الى اليوم (٢).

وقد زار هذه المدينة الرحالة ريني كاييي سنة (١٨٢٨م)م فوصفها بأنها كانت مدينة جميلة ذات أشجار غناء ة يسكنها المسلمون من الماندنغ ويسكن فيها معهم بعض الوثنيين الا أن المسلمين جعلوا بينهم وبين الوثنيين جدارا فاصلا بين الطائفتين .. مما يدل على حرص المسلمين على التمسك بالتقاليد الاسلامية (٣) وفيما يلي نذكر بعض الشخصيات الاسلامية بهذه المدينة تتميما للفائدة أيضا ..

---

(١) Etude sur l'Islame en cote d'Ivoire , paul Marty (p.118).

(٢) المرجع السابق ص ١١٨.

(٣) المرجع السابق ص ١١٩.

١ - (ماميرى سيلا) (Mameri Silla) :

كان هذا الشيخ من الشخصيات البارزة في مدينة (تي ييمي) وفي منطقة (وجييني) (Odjenne) كلها . لقد كانت الدعوة الى دين الله هي همه الوحيد ،وكيف لا ؟ يذكر أنه تلقى علومه من أكبر العلماء المشهورين آنذاك بالمدينة ،يقال له : (ماكوني مامادو (Makone Mamadou الذى كان جده رئيس جميع العلماء - آنذاك - في منطقة وجييني (Odjenne) والذى بنى المسجد الكبير في مدينة (تي-ييمي) بالطين والقش (Chaume) على الطراز السوداني (Stule Soudanai).

ويذكر ريني كاييي (Rene Kaillé) انه كان يتردد دائما على هذا المسجد لطلب مزيد من التقوى والورع من الله تعالى رغم كونه مسيحيا وهذا نص بول مارتي :

La Mosque ou caillé fit ses devotions

٢ - (مورلاى سيلا بن تيباسيلا) (Moulay Silla) :

وهو كذلك من ذرية الشيخ (فاراكاباسيلا) موءسس أسرة سيلا في تى ييمي (Tiemé) وقد كان الشيخ مورلاى سيلا رئيس مدينة تي ييمي (Tiemé) وخواصها . ولد حوالي سنة ١٨٧٧م .وقد قام بدعوة الاسلام خير القيام الى أن مات . (١)

---

(١) Etude sur l'Islame en cote d'Ivoire p.120.

٣ - (كاموهي سيـلا) (Kamohi Silla) :

الذى كان اماما لمدينة (تي بيمي) (Tieme') والمولـود حوالي سنة ١٨٥٠م الا أنه ليس من ذرية (فاراكاباسيلا) وانما قدم من مدينة نيورو (Nioro) (مالي الحالية) .. وقد قام هو أيضا بالدعوة والارشاد خير القيام .. هناك كثير من مساهير العلماء كامثال صريكى سيـلا (Siriki Silla) ١٨٧٢م وموري سيلا ١٨٦٨م و يو ســف سيلا ١٨٦٢م فقد قاموا جميعا بما في وسعهم من الدعوة الى الله تعالـى جزاهم اللـه خير الجزاء [1] .. وأما في عصرنا هذا (القرن العشرين) .

فقد صارت الدعوة الى عالم جليل و رع يقال له (الحاج عثمان سيلا) ان هذا العالم الرباني كان يسكن في مدينة بواكى بساحل العاج حيث صار اماما للمسجد الكبير .. فقد انتشر صيته في جميع أنحاء غرب افريقيا بالصـلاح والاستقامة ومساعدة المحتاجين . وهو الذى أصلح الله به بين فئتين مسلمتين كانتا في نزاع شديد حتى اقتتلوا ولكن الله أزال هذه الفتنة عن المسلميـن بفضل هذا الشيخ الداعية المثالي . ولما مات سنة ١٩٧٥م قد ترك خلفه أولادا علماء سلكوا طريقه في الدعوة الى الله فلنذكر منهم من باب الاختصـار الأستاذ الفاضل (يوسف سيلا وأبو بكر سيلا المتخرجان من الجامعةالاسلامية واللذان يدرسان في مدرسة الثقافة الاسلامية التي أسساها بعدعودتهمـا من المدينة "[2].

هكذا أسهمت أسرة تكرور في نشر العقيـدة الاسلامية بالمنطقة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) مستفادة من البحث الميداني في ساحل العاج عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ثانيا ـ أسرة السونينكي (Sonnike) :

وقد سبق أن قلنا أن الأسرة المالكة في امبراطورية غانة هي أسرة السونينكي وهي من فروع (الماندى) (Mande) الأساسية أى من مجموعات الشعوب أو القبائل التي تتكلم بلغة الماندى أو الماندنغ ..

ولكن السونينكي منفرد عن بقية فروع الماندى الأخرى بألوانهم الحمراء، فلذا يطلق عليهم الولوف (Wolf) اسم (سير كول) أو سراكولى وتعنى هذه الكلمة عند الولوف : الرجال الحمر أو الناس الحمر - (Les hommes rouges) مما يدل على أنهم لم يكونوا صريحين في الصفات السودانية .(١)

وقد اشتهر أفراد هذه القبيلة بحماستهم للاسلام ، وبالدور الكبير الذي نهضوا به في الدعوة الاسلامية .. اذ كانت هذه العقيدة ذات أثر عميق في حياتهم الاجتماعية ، حتى أن بعض العشائر السونينكية اختصت بالعمل في الدعوة الى الدين الاسلامي فقط .. ويكفينا ما قاله د. طرخان في حقهم اذ يقول :

".. ان كلمة "سونينك" في أعالي نهر غمبيا ، استخدمها الماندنكا الوثنيون ، مرادفة لكلمة " الداعي " مما يدل على الدور الكبير الذى لعبه السونينك في نشر الاسلام ".(٢)

---

(١) امبراطورية غانة. المصدر السابق ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٨.

وهكذا لما صارت دولة غانة في حكم الوطنيين السود وكان الملوك من المسلمين . . وأصبحت الامبراطورية اسلامية ، محضة كانت القيادة الروحية بأيدى السونينكي ، وقد أشار الى هذه الحقيقة مؤرخ امبراطورية صنغاى (عبد الرحمن السعدى) منذ القرن السادس عشر اذ يقول :

" قد اعتلى على عرش غانة (٤٤) ملكا لغانة عاش نصفهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم وعاش النصف الآخر بعد ذلك ، وقد بقي بعض هؤلاء على الوثنية حتى اقتحم المرابطون امبراطورية غانة فأصبح الملوك الآخرون مسلمين وهم من قبائل السونينكي ".(١)

ووصف الغرناطي أهل غانة - ومعظمهم من قبائل السونينكي ومدى محافظتهم على أداء فروض الدين بقوله :

" وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صورا ، سبط الشعور لهم عقول وفهم - ويحجون الى مكة . . ."(٢)

ولم يكتف ملوك غانة المسلمون من السونينكي باسلامهم ، بل راحوا يوثقون صلاتهم بالخلافة العباسية ببغداد وأجبرت رعاياها على لبس العمامة . . كما قلنا سابقا .

كتب الادريسي في هذا الموضوع اذ يقول :

" وأهلها - أى أهل غانة وفي مقدمتهم الأسرة المالكة (السونينكي) - مسلمون ، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن أبي طالب وهو يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي ".(٣)

---

(١) السعدى . المصدر السابق ص ٩ ولكن بتصرف.

(٢) تحفة الألباب ص ٤٢ الغرناطي أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسي ت ١١٧٠ م

(٣) نزهة المشتاق ص ٦٠ وانظر كذلك الالمام للمقريزى ص ٢٢.

وبفضل دعوة قبيلة السونينكي ازداد عدد الداخلين في الاسلام واشتهر كثير من المدن الغانية غير العاصمة ،بكثرة من فيها من المسلمين من هذه المدن ما يلي :

مدينة غيارو (Ghiaro) القريبة من نهر النيجر الأعلى وقد جاء ذكرها في المغرب بما يلي :

" وفيها أى مدينة غيارو كثير من المسلمين ". (١)

٢ - مدينة (يرسنى) (Yarssiny) الواقعة غربي غيارو . يقول عنها البكرى بقوله :

يسكنها (يرسنى) المسلمون وما حولها مشركون ". (٢) وهكذا استماتت هذه الأسرة المالكة في سبيل نشر الاسلام..

هذا وقد انتشرت هذه القبيلة بمرور الأيام - في كثير من أنحاء غرب أفريقيا وبعضهم يقيمون - حاليا - في السنغال ويعرفون باسم (سيركولى) (Ser -Kouli).

ومنهم مقيمون في منطقة منحنى النيجر يسمون عند قبائل البمبارا باسم ماركا (Maraka).

---

(١) المغرب ص ١٧٧ وراجع ماكتبنا سابقا.
(٢) المغرب ص ١٧٧ وراجع ما كتبنا سابقا.

والبعض الآخر منهم يقيمون في مدينة (ديا) (Dya) فيعرفون (دياكانكي) (Diakanke) نسبة الى محل اقامتهم.

وبعضهم يقيمون في مدينة (طوبى) (Touba) فهم يعرفون باسم (الطوباكي) (Toubakanke).

وأما المقيمون منهم في مدينة جنى قد اشتهر باسم (نونو) (Nono).(١)

وهكذا أيضا كان دور أسرة السونينكي في الدعوة الاسلامية فعالا .. ومثمرا ..

---

(١) امبراطورية غانة ص ٤٩.

ثالثا ـ انتشار الاسلام ،في غربي أفريقيا بواسطة أسرة الماندنغ . (Manding).

ان كانت امبراطورية غانة التاريخية ،قد اختفت عن مسرح التاريخ الافريقي بسبب هجوم مملكة الصوصو الوثنية عليها سنة (١٢٠٣م) [(١)] فقد آلت هذه التركة المجيدة الى احدى الأسر المالكة المسلمة ،وهي الأسر التي عرفت في التاريخ باسم (الماندنغ) أو (الماندى) أو (جولا) (Djoulla) أو (مالي) .. وتنتشر هذه الأسرة المسلمة ـ في الوقت الراهن - في كل : من السنغال والنيجر وساحل العاج وغينيا وغامبيا و غانا الحديثة ومالي الحديثة وسيراليون. .وموطنهم الأصلي قبل هذا الانتشار هو : مالي عاصمة امبراطورية مالي الكبيرة ..

---

(١) راجع الاسلام في ممالك افريقيا تأليف جوان جوزيف ،مختار السويفي ص ٦١ - ٦٢.
وبيان ذلك أن امبراطورية غانة قد سقطت بأيدى المرابطين سنة ١٠٧٦م بعد قتال أربعة عشرة سنة متواصلة . وفي سنة ١٠٨٧م بعد ١١ عاما من سقوط كومبي استطاعت عشيرة السيسى (Sissé) أن تعود الى اعتلاء عرش الامبراطورية وتحاول تحرير أراضيها ولكن الامبراطورية كانت مفككة وأصبحت شعوبها وقبائلها شيعا .. من هذا استطاعت قبيلة الصوصو الوثنية التي كانت تكن العداء دائما للاسلام أن تغزو غانة واستولت عليها وعلى كل كنوزها وحولت الشعب الغاني المسلم الى عبيد ثم قامت مالي وقضت على صوصو وغانة سنة ١٢٤٠م.

وأما أسباب هجرتهم من الموطن الأصلي (مالي) الى هذه الأماكن لنشر الاسلام فسنتحدث عنها في صفحات قادمة :

والذى يهمنا هنا ، قبل بيان هذه الأسباب ، هو تقديم نماذج موجزة مما قامت به هذه الأسرة من العمل الاسلامي ، فيتحدد معنا مجال البحث هنا - اذن - في النقاط التالية :

١ - سجايا هذه الأسرة .

٢ - أشهر قادتها .

٣ - الدور البارز الذى قامت به لنشر الاسلام في غرب أفريقيا .

<u>أولا - سجايا هذه الأسرة :</u>

وقد وصف توماس أرنولد الماندنغ بقوله :

" ان أهل مالي من أعظم أجناس افريقيا رقيا ".(١)

ويتحدث عنهم حسن الوزان (ليون الافريقي) بقوله :

" وهؤلاء - الماندنغ - هم الأكثر تمدنا وذكاء واعتبارا من جميع السود ".(٢)

ويصفهم ونورد ريد (Win Woor Read) بأنهم شعب طويل القامة ، حسن المنظر مشرق اللون ، متدينون ، وقال أيضا :

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٢٧٠ .

(٢) وصف افريقيا ص ٥٣٩ .

" وقد سررت كثيرا بلطفهم وسجاياهم الكريمة و مظهر نسائهم الجاد المحتشم ونظافة قراهم وهدوئها .." (١)

ويتحدث عنهم المسيو أندريه (Andre) بقوله :

" ان قبائل الملينكى هم بناة الامبراطورية العجيبة في القرون الوسطى التي تعتبر من أقوى الامبراطوريات التي ظهرت في السودان الغربي ".

واليك نصغ باللغة الفرنسية :

" Malinké dit Mali, le prestigeux empire du Moyen age soudanais, un des puissauts etats de l'Afrique occidentale ..." (2)

هذه بعض سجايا قبائل الماندنغ الفذة ...

ثانيا - بعض أشهر القادة في مالي :

من المعلوم أن أغلب الدول تبدأ نشيطة قوية ثم تستمر حتى تصل الى قمة النصر ، ثم تبدأ في الانحدار حتى تسقط أو تضعف . ودولة مالي سلكت نفس الطريق ، وتشبه حياتها قوسا يجلس منسى موسى على قمته .. فكل الملوك الذين سبقوه ، ابتداء من سندياتاكيتا فصاعدا وضعو أسس المجد الذى أتمه منسا موسى ... ثم بدأت بعده في الانحدار حتى اختفت عن التاريخ الافريقي سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م . (٣)

---

(١) أرنولد ص ٢٧٠.

(٢) Histoire de la cote d'ivoire p.36.

(٣) د . ابراهيم ديات ، التاريخ الافريقي الحديث ص ٥٤.

وبهذا يتضح لنا -بكل وضوح أن أشهر قادة مملكة مالي اثنان :

سندياتاكيتا (Soundiata Kaita) ومنسا موسى

(١٢٣٢-١٣٠٧) (Mansa Moussa) فلنعط لكل

منهما وصفا مختصرا .

١ - سندياتاكيتا (Soundiata Kaita)

ان هذا القائد المسلم المظفر الملقب ب (سندياتاكيتا أو (ماري جاطة) [(١)] كان - باجماع المؤرخين - المؤسس الحقيقي لدولة مالي التاريخية العظيمة ١٢٣٠ - ١٢٥٥) الميلاديين .. [(٢)] ١٢٥ عاما .

فقد اكتسب هذا القائد المظفر شهرته في التاريخ الافريقي السوداني بسبب انتصاراته الحاسمة على الدولة الوثنية (مملكة صوصو) التي وقفت في المنطقة أمام الانطلاق الاسلامي .. والتي كانت تتبذخ هناك بسبب ما أحرزته من انتصارات على دولة غانة العريقة[(٣)] حتى أصبحت خبرا بعد عين .. بذلك أصبحت هذه الدولة الوثنية دولة حربية ذات نوايا توسعية . وبدأ نفوذها يمتد الى عدة مناطق في المنطقة حتى استطاعت أخيرا أن تقضى قضاء تاما على مملكة مالي الناشئة التي أسسها جد

---

(١) ومعنى (ماري) عند الماندنغ : الأمير من نسل السلطان . وجاطة : الأسد : أى الملك الأسد راجع ابن خلدون ٦/ وراجع كذلك القلقشندى ٥/ ٢٩٣ وراجع كذلك : التاريخ الافريقي الحديث ، د . ابراهيم دياب ص ٥٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٤٢ .

سندياتاكيتا (موسى الأكوى) في مدينة " جريبة "(١) التي يسميها الامام محمود كعت (جارب)(٢) ويكتبها (Passikar) ، (دياليبا) (Dialiba)(٣) فقتل خلق كثير من أفراد العائلة المالكة ، في هذه المعركة حتى استشهد فيها والد سندياتاكيتا المسمى نارفامغان (Nare-Famagan) الذى حكم في الفترة (١٢١٨-١٢٣٠م) وقتل معه أحد عشر شخصا من أولاده ولم ينج منهم الا سندياتاكيتا هذا ،لكونه - آنذاك - مريضا ضعيفا ،فظنه العدو الوثني أنه سيموت فلذلك تركه ...(٤)

ولكن الولد العليل (سندياتاكيتا) المسكين ،قد شفى من مرضه وكبر واستوى فصار من أقوى الرجال وتذكر الحادثة الأليمة(٥) التي ذهب ضحيتها أبوه واخوته الأحد عشر الأبرياء .. هنالك بدأ سندياتا استعداداته الحربية ليأخذ ثأر أبيه واخوته وليعيد دولة أجداده المحطمة، اسلامية كما كانت في السابق ، من هنا دخل مع ملك (صوصو الوثني) في معركة شرسة ،حفظها لنا التاريخ باسم (موقعة كيرينا) (Kirina) فخرج سندياتاكيتا من هذه المعركة (معركة الشرف) منتصرا على ملك صوصو الوثني ،والذى لقى مصرعه في هذه المعركة وذلك بتاريخ (١٢٣٥م)(٦)،

---

(١) دولة مالي الاسلامية ص ٣٦ .

(٢) تاريخ الفتاش ص ٣٨ .

(٣) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ص ٢٤١ .

(٤) Histoire de la cote d'ivoire p. 44

Histoire et la civilisation de l'Afrique p.35

(٥) المرجع السابق .

(٦) Histoire et la civilisation de l'Afrique.

وكان هذا التاريخ بداية لمملكة مالي الاسلامية وعهد جديد للاسلام وهكذا صار سندياتاكيتا ملكا على مملكة مالي بعدما تمزقت امبراطورية (الصوصو) وتحطمت على صخرة العقيدة الاسلامية .

ثم لم يكتف هذا القائد المظفر بهذا الانتصار العظيم .. انتصار العقيدة الاسلامية على الوثنية واسترداد الحقوق المغتصبة ،بل حاول أن يحرر جميع المدن الاسلامية ،التي كانت تحت حكم الوثنيين فبدأ بامبراطورية غانة. وفي عام ١٢٤٠ ،نجح مارى جاطة في تدمير ما بقي من مدينة (كومبى صالح) عاصمة امبراطورية غانة ،بعد أن انتقل العلماء والتجار المسلمون الى ولاته من جراء الهجوم الذى قام به ملك (الصوصو) ضدها عام ١٢٠٣م.

وبعدما انتهى تحرير غانة من براثن الوثنيين المغتصبين فتح أيضا مدينة جنى (Dienne) الواقعة على النيجر وهي عاصمة دولة جنى الاسلامية المشهورة بكثرة علمائها من المسلمين.

وفي عام ١٢٤٠ أيضا نقل مارى جاطة عاصمة ملكه من جارب في كانجابا الى مدينة جديدة أنشأها على النيجر هي مدينة نياني (Niani) و تقع قرب اتصال النيجر بفرعه سانكاراني (Sankanrany) وقد أسست هذه المدينة الجديدة على العقيدة الاسلامية من أول يوم فكان ذلك ايذانا لأفول دولة الوثنية [١] في المنطقة واستيلاء المسلمين الأفارقة على

---

(١) دولة مالي الاسلامية ، طرخان ص ٤٢.
J.Paule, Histoire et civilisation d'Afrique - Noire p.35.

السلطة السياسية في غرب أفريقيا . فمنذ ذلك اليوم صارت قيادة شعوب المنطقة بأيديهم الى أن توغل عليهم الاستعمار الفرنسي بتياراته الفكرية الهدامة ولم تقم بعد ذلك أية دولة وثنية ذات شأن تذكر الا دولة البمبارى في (سيغو) - سنصفها فيما بعد - وسرعان ما احتلت دولة مالي مكانة امبراطورية غانة ، كأعظم دولة حكمت في السودان الغربي وبدأ التجار من شمال افريقيا يتجهون اليها ويستقرون في عاصمتها ..

وخلال الخمس عشرة سنة الأخيرة من حكم مارى جاطة لم تقف الفتوح الخارجية الا أنه توقف عن حمل السلاح ، وترك ذلك لقواد جيشه الذين لم يقنعوا بهذا الانتصار ، فكانوا يحاربون وينتصرون في كل الجبهات القتالية حتى أدخلوا في هذه الأمبراطورية الاسلامية ، بلادا وراء السنغال لم يسبق أن هزمتها دولة غانة كما وصلوا الى نهر غمبيا واندفعوا الى مسافات بعيدة جنوب السنغال حتى (تكرور) وبدأت مالي تمارس نشاطها في السودان الغربي كله.(١) وحققت آمالها في ميادين السياسة وميادين الاقتصاد ، بحيث كانت تحت سيطرتها مناجم الذهب في مدينة (سيغيرى Siguiri) سندياتا مما جعل/أكبر امبراطور وأكبر بطل صنديد في المنطقة كما قال بذلك (J.Paule) وهذا نص كلمته الفرنسية :

(١) (Il est devenu ungrand empreur eT um Hero)

وامتدت الامبراطورية في أيامه من جبال الأطلس غربا الى بلاد الهوسا شرقا ، ومن المحيط الأطلسي جنوبا حتى الصحراء الكبرى شمالا .. وحج

---

(١) Histoire d'Afrique Noire p.35.

مارى جاطة ، شكرا لله على هذا الانتصار العظيم. والتوفيق الذى حالفه وحالف جيشه وأعان العلماء في ظل الدولة الاسلامية الجديدة على نشر العلم والاسلام. (١)

ب - (منسا موسى) (١٣١٢-١٣٣٧م)

وقد سبق أن قلنا أن حياة مملكة مالي تشبه قوسا يجلس منسى موسى على قمته . فكل من سبقه من الملوك يعتبرون واضعين لأسس المجد الذى جاء منسى موسى ليتمه .. ثم بدأت الدولة بعده في التدهور والانحطاط..

ان هذا الملك - بلاخلاف - هو أشهر ملوك مالي هو صاحب رحلة حج في التاريخ .. ولم تكن شهرة منسا موسى في المنطقة الافريقية فحسب بل ان شهرته قد وصلت في أوروبا أيضا بحيث ظهرت صورته في القرن الرابع عشر الميلادى -بالخريطة القطالونية التي قام بعملها الجغرافي ابراهيم كورسيك في عام ١٣٧٥،والتي تبين رجلا ملثما يركب جملا ويسير نحو ملك عظيم وهو جالس على عرشه وعلى رأسه تاجه وفي احدى يديه صولجانه (٣) وفي اليد الأخرى قطعة من الذهب . انظر صورته في الملحق رقم (٣).

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) راجع دولة مالي الاسلامية للدكتور ابراهيم طرخان ص٨٧.

(٣) الصولج : العود المعوج (فارسية) ،الصولجان والصولجانة جمع الصوالج : العصا المعقوفة الرأس . ومنها صولجان الملك . راجع المنجد ص٤٣.

ثناء العلماء على منسا موسى

يقول القلقشندى عن منسا موسى :

" كان رجلا صالحا وملكا عظيما ،له أخبار في العدل توءثر عنه ، وعظمت مملكته في أيامه الى الغاية وافتتح الكثير من بلاد السودان ذوات أعمال وقرى وضياع ".(١)

ووصفه الفقيه موءرخ صنغاى أحمد بابا التمبكتي (ت ١٦٢٧م) بأنه يتمتع بقوة هائلة وأن مطامعه لا تحد ،وأتاه التوفيق في جميع مشروعاته السياسية والحربية ".(٢) واشتهر بأنه صديق البيض .

يقول عنه ابن بطوطة : " يحب البيضان ويحسن اليهم ".(٣)

وعن السعدى انه :

" رجل صالح عادل ،لم يكن فيهم - أى سلاطين مالي - مثله في الصلاح والعدل ".(٤)

فقد ذكرالموءرخون أنه قد أقام علاقات ودية مع الدول الاسلامية المعاصرة ،في مصر وبلاد المغرب وفتح بلاده للاجئيين من مسلمى الأندلس

---

(١) صبح الأعشى ٥/ ٢٩٤. الضياع : قرية صغيرة.
(٢) دولة مالى الاسلامية ص ٧٢.
(٣) تحفة النظار ٤/٤٠٩.
(٤) تاريخ السودان ص ٧.

وعلمائهم أمام حركة الاضطهاد المسيحي [١] لهم حتى قيل في هذا الصدد :
" ان فقد اسبانيا الاسلامية كان كسبا لافريقيا الشمالية وافريقيا السوداء ". [٢]

يقول ابن حجر في ترجمته : " موسى بن أبي بكر سا لم التكروري ، ملك التكرور ". [٣]

---

(١) وقد علق الدكتور ابراهيم طرخان على هذه الحادثة بحديث طويل نقتطف منه مايلي :

كانت اسبانيا الاسلامية في ذلك الوقت ، خلال القرن الرابع عشر الميلادي تعاني من ضغط الممالك المسيحية فيها ، فقد اشتدت حركة الاسترداد المسيحي . وذلك بعد أن تمزقت الوحدة الاسلامية فيها بعد هم الموحدون . ونكل المسيحيون بالمسلمين أشد تنكيل . وكان المسلمون يتدفقون خلال ذلك الصراع المرير على شمال افريقيا وعلى مملكة مالي الاسلامية في أيام منسا موسى . ففتح أمام هؤلاء اللاجئيين بلاد السودان الغربي ... انتهى باختصار . وسيأتي مزيد في ص ٤٨٢ .
انظر أيضا ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٤١ - ٢٤٨ ، ٢٦٥ .
وانظر المقريزي : نفح الطيب ٢/ ٥ ، وراجع عنان ، نهاية الأندلس ص ١٢٧ .

(٢) نقلا عن دولة مالي الاسلامية ص ٧٢ .

(٣) الدرر الكامنه ٤/ ٣٨٣ .

ويذكر المؤرخون ان جميع فتوحات تنكاموسى كانت مقترنة بالدعوة الاسلامية يقول العمرى :

" وملك مالي (كنكاموسى) في جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان ".

ويؤكد المؤرخون أن الفضل في نشر الاسلام في بلاد هوسا يرجع الى دولة مالي وشعوب الماندنجو ،ومنذ حوالي القرن الثالث عشر الميلادى. والهوسا يطلقون على المانجدنجو اسم الونكارة ".(٢)

وقد صور لنا صاحب كتاب " دولة مالى الاسلامية صورا حية من الدور القيادى الذى قام به شعب الماندنجو في نشر الاسلام في بلاد الهوسا اذ يقول :

" ففي زمن حكم الساركس ياجي بن تساميا (٧٥٠ -٧٨٧هـ- ١٣٤٩ - ١٣٨٥م) في كانو،أهم دول الهوسا ، وفد على بلاد الهوسا عدد من العلماء المسلمين من مالي ،ويتزعم هذا الفريق من العلماء عالم اسمه : عبد الرحمن زرعت ،وعددهم حوالي ٤٠ عالما . منهم فاموري ،بلقاسم ،جوردومس، لول ،أوتا ،ماندوالي وغيرهم .."(٣)

---

(١) مسالك الأمصار ج٢ ق ٢ ورقة ٥٠٧.
(٢) راجع دولة مالي الاسلامية ،د. ابراهيم طرخان ص ٥٥.
(٣) وهو الدكتور ابراهيم طرخان ص ٥٥.

هؤلاء هم الرواد الأول لنشر العقيدة الاسلامية في بلاد الهوسا ، ولم يكتف بمجرد الدعوة في بلاد الهوسا و انما أقاموا هنا ليعلموا الناس الشعائر التعبدية والتصور الاعتقادى والحكم بما أنزل الله سبحانه . لنرجع مرة ثانية الى كتاب دولة مالي الاسلامية السالف الذكر لنأخذ منه صورا تطبيقية لهؤلاء العلماء من المانجدنجو في بلاد الهوسا فقد ورد فيه مايلي :

" أمر هؤلاء العلماء ، الساركس بأن يحافظ على أوقات الصلاة ، فرحب بهم وأكرمهم ، واتخذ (جوردومس) اماما له ، كما اتخذ لول مؤذنا ، وكان العالم أوتاهو الذى يتولى الاشراف على ذبح الحيوانات ، وعهد بالقضاء الى العالم عبد الرحمن زيت ، وبفضل علماء مالي ، استقامت أمور الاسلام في كانو (Kano) وانتصر ساركس كانو ، على الوثنيين .. "(١)

" وفي دولة كشنه (كاتسنا) من دول الهوسا ، كان اسلام الساركس محمد كورا الذى ولي عرش كشنه عام ١٣٠٠ م ، على أيدى علماء مالي وبعهد هذا الساركس ، يبدأ حكم الملوك المسلمين في كشنه ".(٢)

هذا غيض من فيض من المجهودات التي بذلها علماء مالي في نشر العقيدة الاسلامية في جميع أرض السفانا السودانية وفي بلاد الهوسا أيضا ..

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٦ .

هكذا كان انتشار الاسلام في مالي بواسطة الأسر المالكة التي حرصت على التمسك به فضلا على الدعوة له.. وهكذا ظفر الاسلام بأقوى القبائل وأعظمها شأنا هي - كما قلنا - التكرور والسونينكي والماندنغ .. وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن الاسلام جاء الى السودانيين وهم سادة في أوطانهم يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والاستقلال والقوة، ويمارسون حكوماتهم وينظمون شئونهم الخاصة و مجتمعاتهم فلم يكن لدعاة الاسلام من العرب والبربر أو ناشريه أدنى قسط من السيطرة، وان كان نفوذهم الروحي عظيما لكنه مقبول عن رضى واقتناع .

وبهذه الحقائق العلمية التاريخية يظهر لنا فضح القول بأن الاسلام قد انتشر هناك عن طريق القوة والقمع والارهاب كما يتشدق بهذا كثير من الكتاب الأوربيين المتعصبين .

وهكذا أيضا عرفنا من خلال هذا الاستعراض السريع ما قام به شعب الماندنغ من العمل الاسلامي حتى أصبح اكثر شعوب غربي أفريقيا تمسكا بالاسلام وتحمسا له قديما وحديثا لذا فقد أصبح دين الدولة الرسمي ، الاسلام في جميع عصور هذه الدولة يعني منذ سنة ١٢٤٠م التي انتصر فيها سندياتاكيتا على دولة الصوصو الوثنية الى أن اختفت في سنة (١٤٠٠م) .

وكان المذهب السني المالكي هو الذى ساد في دولة مالي وفي أغلب دول بلاد السودان الغربي الاسلامية ، وقد أشار منسا موسى (ت١٣٣٧م) خلال مروره بالقاهرة في رحلة حجه ، الى أنه مالكي المذهب واشترى وهو في مصر بعض الكتب في فقه المالكية .(١)

---

(١) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، المقريزى ص١١٣ . نشر الدكتور جمال الدين الشيال - مصر ١٩٥٥م .

ويرينا ما سجله ابن بطوطة في كتابه القيم " تحفة النظار" ما قام به شعب الماندنغ من الدور الرائد بالنسبة لشدة حرصه على تعليم القرآن للصبية ،وقد شهد ابن بطوطة خلال رحلته في دولة مالي (١٣٥٢-١٣٥٣م) كثيرا من هذه المظاهر ،منها أنه دخل على قاضي مالي يوم العيد ، فوجد أولاده في القيود ،فقال : " الا تسرحهم ؟ فأجابه القاضي :لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ".(١)

ومر ذات يوم وهو في مالي بشاب حسن الصورة وعليه ثياب فاخرة وفي رجليه قيد ثقيل ،فسأل مرافقه عما ارتكبه هذا الشاب من جرم ، وعلم أخيرا أنه قيد حتى ينتهي من حفظ القرآن.(٢)

لنرجع مرة أخرى الى ابن بطوطة يرينا أيضا نموذجا من حرص أهل مالي على الصلاة .

وقد روى لنا ابن بطوطة أنه شهد صلاة الجمعة في مالي ومدى ازدحام المصلين ،وضرورة التبكير في الذهاب الى المسجد حتى يظفر المصلي بمكان يجلس فيه(٣) مما دعا أشهرملوك مالي كنكاموسى أن يكثر في بناء المساجد في كل مكان.

---

(١) تحفة النظار ٤/٤٢٢.

(٢) المصدر السابق ٤/٤٣٣.

(٣) المصدر نفسه ٤/٤٢٢.

ويقول السعدى عن مجهودات هذا الملك في بناء المساجد :

" ودخل أهل سُغى (صنغاى) في طاعته بعد جوازه الى الحج وبطريقها رجع فابتنى مسجدا و محرابا خارج مدينة كاغ صلى فيها الجمعة وهي هناك الى الآن (القرن السادس عشر الميلادى) وذلك عادته - رحمه الله - في كل موضع اخذته الجمعة فيها ".(١)

وكما عرف أخوه منسا سليمان (ت ١٣٦٠ م) بنشاطه وحرصه على الاسلام ومؤسساته يقول القلقشندى :

" وبنى المساجد (منسا سليمان خليفة منسا موسى) والمنارات وأقام الجمع والجماعات والأذان ،وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الامام مالك ".(٢)

وأخيرا قد تمتع العلماء المسلمون بمكانة رفيعة في مملكة مالي كما حدث في دولة غانة السالفة الذكر حيث كان العلماء يتولون أعظم المناصب فيها حتى في عهدها الوثني .

وهذا جزء ضئيل مما قام به الأسر المالكة في مالي وشعب المانجوا من العمل الاسلامي ونشره في داخل مالي وخارجها ولم تزل كذلك حتى اختفت من مسرح التاريخ الافريقي في سنة ١٤٠٠ الميلادية .

---

(١) تاريخ السودان للسعودى ص٧٠

(٢) صبح الأعشى ٢٩٧/٥ .

وبعد ذلك هناك أسئلة تهجم علينا و تتطلب منا الجواب وهي :

١ - كيف اختفت مملكة مالي ؟

٢ - وهل بقيت في موطنها الأول أو صارت مشردة ومتفرقة في الأرض ؟

٣ - و اذا كانت متفرقة فالى أى مكان اتجهت بعد ما تدهورت الأمور في موطنها الأصلي ؟

في الصفحات الآتية محاولات للاجابة على هذه الأسئلة .

انتشار العقيدة الاسلامية في الجزء الجنوبي من بلاد السودان الغربي وساحل العاج وماجاورها بواسطة أسرة الماندنغ

قد تحدثنا - فيما مضى - عن الدور الرائد الذى قام به العرب من تسليم الاسلام للبربر دون اهمال و تقصير حيث نشروه - بادي ذى بدء - في مدينة سودانية قد حفظها لنا التاريخ باسم اودغست (Adaguest)[1] ولكن ملوكها - عندئذ - كانوا من البربر الملثمين (سكان الصحراء الكبرى) .. نشروه هناك - كما قلنا مرارا - سنة ٤٣ هـ تحت قيادة القائد المسلم المظفر، والتابعي الجليل ، عقبة بن نافع الفهرى (ت : ٦٣)هـ[1].

ثم قام البربر أيضا - رحمهم الله تعالى - بدورهم الفعال ، فنشروه في السودان وخاصة امبراطورية غانة وغيرها ، دون تقصير أو تفريط ..

ثم نهضت بأعباء مسئولية الدعوة ، الأسر المالكة السودانية التي صارت اليها زعامة الدعوة الاسلامية بعد البربر ، وعلى رأسها : أسرة تكرور (Tekourour) . هذا الشعب الذى قام بالأمر العجيب - كما قلنا سابقا - الذى يعجز المؤرخون تفسيره ، وهو دخوله في الاسلام دفعة واحدة ، حكومة وشعبا بقيادة رئيسهم الموفق (وارجابي بن ربيس) (War - Djaby) (ت : ٤٣٢ هـ/١٠٤٠م)[2] ،

---

(١) وهي كانت مدينة في طرف الصحراء الجنوبية فلا وجود لها الآن . الا انها قد اكتشفت أطلالها في موريتانيا . كما قلنا سابقاً

(٢) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، أبوعبيد البكرى ص ١٧٥ وراجع ماكتبناه سابقا . وراجع كذلك امبراطورية غانة الاسلامية ، د . ابراهيم طرخان ص ٤٢ .

وكان لهم الفضل أيضا في نشر الاسلام في مدينة (سيلا - Silla) التي قام أهلها - أيضا - بعد اعتناقهم هذه العقيدة الربانية ،بدعوة جيرانهم الكفار. [(١)] على النحو الذى ذكره سابقا . . .

ثم قامت أسرة (السوننكي) (Soninke) وتخصصت في الدعوة الاسلامية حتى أصبحت كلمة السوننكي مرادفة لكلمة الداعي . قامت دون اهمال أو تقصير .

وأما شعب (الماندنغ) (Madinge) [(٢)] لم يقتنع بما اقتنع به السابقون من نشر الاسلام في مواطنهم الأصيلة فحسب مثل ما فعله

---

(١) ومدينة سيلا كانت من أعمال تكرور أى كانت تابعة لرئيس تكرور ، ويقول البكرى : " ان المسافة بين سلى وبين غانة " عشرون يوما في عمارة بلاد السودان راجع المغرب ص ١٧٢ - ١٨٣ . والتكرور - في الوقت الحاضر داخل الجمهورية السنغالية الا أن قبائل سيلا منشرة في بلدان غرب أفريقيا فبعضهم في السنغال وفي غينيا وفي مالي الحالية وفي ساحل العاج خاصة مدينة (تشي مي) (Tcheme) ص ٤٣ .

(٢) الماندنغ : ويقال له أيضا - المالنكي أو جولا ،أو مندنكا أو مالي وكل ذلك يؤدى الى مسمى واحد . وهو هذا الشعب الذى أقام بغرب افريقية أفخم دولة اسلامية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين المعروفة بامبراطورية مالي الاسلامية ثم لما ضعفت هذه الدولة هاجروا بدينهم الاسلامي واتجهوا نحو الجزء الجنوبي من بلاد السودان الغربي يعني ساحل العاج وما جاورها ،كما سيأتي التفصيل . . .

بر بر الصحراء الملثمين والتكرور والسونينكي أو قبائل (سيلا) (Silla)
بل قام بدور فعال رائد ابداعي لم يسبق له مثيل في تاريخ الدعـــوة
بهذه المنطقة السودانية ، لا في الزمان الماضي ولا في الزمان اللاحـق
أيضا حتى الآن ...

فما هو هذا الدور الفذ اذن ؟؟

ان هذا الدور القيادى الرائع هو : هجرة هذا الشعب بالاسلام
من الشمال الى الجزء الجنوبي من بلاد السودان الغربي ، ها جروا بالاسلام
الى أناس تمثلهم الآن - ساحل العاج وما جاورها من البلدان مثـــل
سيراليون وغمبيا وغينيا وغانا وغير ذلك ، أناس كانوا - كغيرهم من الأمم -
في أمس الحاجة الى هذا النور الرباني العظيم ، بحيث كانت الوثنية - كما
قلنا سابقا هي الاعتقاد السائد بل كان العرى - قبل أن يلعبوا هذا الدور
الفعال المثالي هنا - هو الزى الغالب ، ولم يكن هناك دستور للعمل ولا
مدنية ولا ديانة ولا ثقافة تذكر ، ولا حضارة حقيقية ولكن لما انتقل أهـل
مالي الأصليون بالاسلام لينشروه في هذه المناطق ، بدأ ضوء المعرفـة
يزيح ظلمات الجهل وأخذ الاسلام يضع قواعد سليمة تليق بالبشر وتأخذ
بأيديهم الى النهج القويم .

ويشير الى هذا الدور الرائد الحضارى الذى لعبه شعب الماندنغ
في موطنهم الجديد (ساحل العاج) وما جاورها من أماكن الغابـات
والأماكن الساحلية ، كثير من مؤرخي ساحل العاج من أصحاب الثقافـات
الفرنسية . لنذكر منهم اثنين :

أ - (مسيو أندريه كيرلى) (M. Andre Kerelé

فقد أشار هذا الكاتب الى هذا الدور الرائع الذى أداه هذا الشعب لشعوب المناطق الساحلية وسكان الغابات وترجمة عبارته مايلي :

" ان المالنكي (الماندنغ) قد لعبوا - في الحقيقة - دورا هاما حضاريا بحيث كان فيهم - فخارون ماهرون ونساجون متخصصون وقد حملوا معهم (من موطنهم الأصلي (مالي) الى شعوب الغابات (موطنهم الجديد) عناصر مواد التقنية الحديثة ". (١)

وأضاف قائلا :

" ولم يكتف هذا الشعب النبيل بنقل البضائع والمنتوجات السودانية الى شعوب الغابات فحسب ولكنهم أيضا - كانوا ينقلون اليهم أفكارا - أيضا - (Des idees) وهي العقيدة الاسلامية ". (٢)

---

(١) هذا هو النص الفرنسي الأصلي :

" Les Malinnke's jouient un role - essentielement civilisteur, engin abiles potiers, et bon tisserant, ils apportent au popilation de la foret les elements de la technique nouvelle ".

Voir Histoire de la cote d'ivoire p.(40).

(٢) المرجع نفسه .

ب - (مسيو جان نوايل) (Jeah Noel).

وقد سار هذا الكاتب مسير (مسيو أندريه) ولكنه يكثر البحث والتحقيق حول تأثير هذا الشعب في جميع شعوب ساحل العاج من شمالها الى جنوبها لا في سكان الجنوب وحدهم فقد قال :

" ان شعب الماندنغ كانوا - بلا استثناء - أسباب التطورات التي حصلت في جميع المناطق الشمالية في ساحل العاج ، فأثر حضارتهم ونفوذهم على شعب (سينوفو) (Senoufo) لا ينكره أحد وبالأخص الشعوب المسماة ب (ماندى الجنوب) (سكان الغابات) وكذلك ظهر أثرهم ونفوذهم في شعب (كورو) (Krou)". (١)

---

(١) وهذا النص الفرنسي نثبته لمن لا يجيد قراءة الخط العربي :

" Les Manding ont ete des fermes d'evolutions dans tout le nord de l'actuelle cote d'ivoire. Ils ont fortement influence les senoufo, mais les peuples dits Krou ".

Voire, histoire de cote d'ivoire p (90)

Tome (1) (Jean Noel).

وهكذا دل هذان النصان على الدور القيادى الذى امتاز به شعب الماندنغ عن جميع الأسر المالكة التي قامت في المنطقة بأعباء مسئولية الدعوة الاسلامية على عاتقها .. واذا لاحظنا هذا الدور الرائد نجد أنه أشبه ما يكون بما قام به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفرار بدينهم من قوم/ قد أنكروه الى قوم يحبون من هاجر اليهم ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . (١)

وعندما ندرس أسباب هجرة (الماندنغ) من موطنهم الأصلي (مالي) الى الجزء الجنوبي للاستيطان والاقامة سيتجلى لنا هذا الشبه في أروع معانيه.

فما هي - اذن - أسباب هذه الهجرة (أولا) وما هي كيفيتها ؟ (ثانيا) ؟ وما هي الطرق التي سلكوها للوصول الى منطقة الجنوب (أخيرا ؟).

فاليك - فيما يلي - أجوبة على هذه الأسئلة :

---

(١) اشارة الى قوله تعالى ﴿ والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ سورة الحشر الآية /٩ .
ويعني هذا الاستدلال أن الأصحاب لما ضيقت عليهم مكة من قبل المشركين توجهوا الى المدينة المنورة حيث وجدوا راحة وترحابا ، وحالة قبائل الماندنغ تشبه هذه الحالة عند هجرتها من أرض السافانا الى أرض الغابات .

أولا - أسباب هذه الهجرة :

(Les caûses des Migratioms Mading au suid)

ان الجواب على هذه الأسئلة ،هو ما انشغل به بال المؤرخين قديما وحديثا - بل قد صرح بعضهم بأن محالة الوصول الى معرفة شيء من ذلك ،هو من المعضلات لدى المؤرخين .

فهذا الدكتور ابراهيم دياب يشير الى ذلك بقوله :

" أما دخول الحضارة الاسلامية لمنطقة الغابة ، فقد جاء متأخرا في الزمن .. و من خلال قراءة الدراسات التي كتبت عن انتشار الاسلام في أفريقيا (حسن أحمد محمود ،ابراهيم طرخان ، يوسف فضل ، مصطفى مسعد وغيرهم ،وقد أوضحوا التواريخ التي تدل على اعتناق الملوك للاسلام.. أما كيف و متى بالتحديد ،انتشر الاسلام وسط العامة فهو أمر صعب معرفته..

وما زالت هذه المسألة من المعضلات لدى المؤرخين الغربيين والمستشرقين. ولم يعرفوا معها كيفية تغاصيل انتشاره ووصوله للعامة.." (١)

وقد سبق أن أشرنا الى أن الذين تصدوا للحديث عن انتشار العقيدة الاسلامية في بلاد السودان الغربي قد سكتوا سكوتا تاما عن كيفية انتشار الاسلام في منطقة الغابات والمناطق الساحلية من غرب أفريقيا علما بأن غرب أفريقيا تنقسم - جغرافيا - الى ثلاثة أقسام رئيسية.

:(Trois grandes zonnes)

Etude sur l'Islam en cote d'ivoire p.l. (١)

أ - المنطقة الساحلية (La region cotiere)
هي سواحل خليج غينيا (Golf de guinee).

ب - منطقة السفانا السودانية (La Savane Soudanaise).

جـ - منطقة الغابات (La zonne sylvestre) ،
وهي توجد بين المنطقتين : (منطقة السفانا السودانية والمنطقة الساحلية)(١) ولكن منطقة السفانا السودانية هي مواطن شعوب الماندنغ حيث انتشر فيها الاسلام على النحو الذى تحدثنا عنه سابقا هناك أقيمت الامبراطوريات الكبرى (غانة ،مالى ، صنغاى).

فكل ما كتبه المؤرخون باللغة العربية - قديما وحديثا - لم يتعد منطقة السفانا السودانية .. وأما المنطقتان الاخريان (منطقة الغابات ، والمناطق الساحلية) فلم يتحدث عنها أحد -فيما أعلم- بحديث تفصيلي واضح فقد عللنا ذلك سابقا - أن هذا السكوت لعله يرجع الى عدم توفر المصادر لديهم ، التي تتحدث عن ذلك وخاصة اذا علمنا أن هذه المصادر قد كتبت باللغة الفرنسية ، كتبها المستعمرون الفرنسيون عقب احتلالهم للبلاد ،أولا ،ثم كتب في الموضوع نفسه عدد من أبناء المنطقة من أصحاب الثقافة الفرنسية ولم تترجم شيء من ذلك - حتى الآن - الى اللغة العربية.

ولاجل ذلك سأغير هنا المنهج الذى اعتمدت عليه -فيما مضى- القائم على الايجاز ، من غير ذكر لتفاصيل الاحداث . ولكنني هنا بالذات

---

(١) Etude sur l'Islam en cote d'ivoire p.l.

لم أعن بالايجاز وسأعمد الى ايراد بعض التفاصيل وذلك لما يأتي :

انني أريد أن أسهم مع الباحثين في ابراز حقائق تاريخيه قد تجاهلها كثير من المؤرخين أو جهلوها . وهي كيفية انتقال وانتشار الاسلام الى الجزء الجنوبي من بلاد السودان الغربي .. الأمر الذى اتخذه المستعمرون سندا لبث تياراتهم الفكرية في المنطقة حتى قال قائل منهم : وهو يشوه الامبراطوريات الاسلامية التي أقيمت في المنطقة ويقلل من دورها في نشر الاسلام في المنطقة اذ يقول (زورا وبهتانا) وبغير سند علمي الا التعصب واخفاء الحقائق العلمية :

" انهارت الامبراطوريات السودانية ببساطة بسبب انقلابات عسكرية محلية ولا سيما أنها كانت تعوزها الحدود الطبيعية وكانت مطمعا لغارات البدو التخريبية ،لهذا فان قدرتها على التوسع لم تكن يوما لتبلغ الشاطيء فيما بين ساحل العاج والأنهار الجنوبية ".(١)

" بل ان الجزء الجنوبي من السودان المتاخم لبلاد البانتو لم يدخله الاسلام قط ".(٢)

ولأجل تفنيد هذه المزاعم الأوربية وأمثالها لم أعن بالايجاز وانما أريد أن أذكر بعض تفاصيل مع بيان كيفية كتابة هذا التاريخ بالذات

----

(١) داخل افريقيا ،شارل أندريه جوليان ، (ت: طلعت عوض أباظة دار النهضة مصر القاهرة سنة ١٩٦٨م ص ٨٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٣.

يعني تاريخ هجرة المالنكي بالاسلام الى هذه المنطقة الجنوبية التي ينكرها المتعصبون من الأوربيين . فنقول :

أما ما يتعلق بكيفية كتابة التاريخ لهجرة الماندنغ بالاسلام الى الجنوب فان المستعمرين الفرنسيين ،عندما جاءوا للاحتلال (L'envahir) والاستعمار (Colonialisme) في المنطقة واجهوا شعوبا ،لها تقاليدها وثقافتها الذاتية ونظمها السياسية والاقتصادية ، (وهي الأمة المسلمة) فلما عجزوا في ناحية الغزو العسكرى المسلح ،أن يحققوا انتصارات نهائية لجوءوا - كما سيأتي بيان ذلك في الباب الرابع - أخيرا الى دراسة أحوال المسلمين في المنطقة ليعرفوا مكامن القوة فيهم وسر تفوقهم على الأجناس الأخرى من سكان الغابات وغيرهم .. من هنا تناولت بحوثهم جميع أحوال المسلمين وخاصة كيفية انتشار الاسلام في مناطق الغابات .

فتصدى لهذه الدراسات الاستعمارية عدد من الكتاب الفرنسيين . فكان من أوائلهم (بول مارتن) (Paul Marty) الذى كتب لهذه المهمة الاستعمارية مجلدات عديدة ابتداء من السنة ١٥٠٥ - الى سنة ١٩٢٢م يعني حوالي (ثماني سنوات) فأهم هذه المجلدات خمسة هي :- قد ذكرناها بصورة اجمالية ونود هنا أن نتحدث عنها بشكل من التوضيح .

المجلد الأول :

الاسلام في السنغال وموريتانيا .(١)

----

(١) قد كتب هذا المجلد بين عامي (١٩١٥ - ١٩١٦)م وعدد صفحاته (٤٨٣ صفحة) وكان أهم الموضوعات فيه :
السياسة المحلية للحاكم العام المقيم في دكار يقال له (بونتي) (Gouverneur Ponty) .
ثم درس فيه أحوال الدعاة المسلمين كأمثال الشيخ (سيديا) (Sidia) وطريقته (Savoie) .
ثم انتقل الى دراسة أحوال الجماعة التيجانية التابعين للشيخ (الحاج عمر تال) يعني (تيجانية تكرور) . والى دراسة أحوال الجماعة التيجانية التابعين للشيخ (مالك سى) يعني تيجانية ولوف (Wolof) .
واختتم دراسة هذا المجلد الأول بدراسة أحوال (الماندنغ) المسلمين في (كاساماسا) (Cassamassa) .
ودراسة أحوال الشيخ الشريف يونس في (كاسا ماس) . هكذا لم يترك شيئا يخص المسلمين الا بحث فيه لمحاولة القضاء عليهم في النهاية - والأمر - مع شديد الأسف - وقع كما خططت له فرنسا .
راجع في الصفحة الأخيرة من كتاب :

Etude sur l'Islam en cote d'ivoire ,
Paul Marty p.497.

المجلد الثاني :

دراسة أحوال الاسلام في السنغال سياسيا و ثقافيا واجتماعيا وعقديا وما الى ذلك. (١)

---

(١) كتب هذا المجلد في عام (١٩١٧) م وهو جزآن . و عدد صفحات الجزء الأول (٤٨٣) صفحة وأما عدد الجزء الثاني فهو (٤٤٤ صفحة) .

وقد تحدث في الجزء الأول عن :

الاشخاص : فقد بحث في هذا الجزء عن النفوذ الديني الاسلامي في السنغال عن أحوال شيوخ (مور) (Maures) وعن التجمع التيجاني التابع للشيخ الحاج عمر تال (تيجانية تكرور) والتجمع التيجاني التابع للشيخ مالك سي (تيجانية ولوف) كما قام (بول مارتي) أيضا بدراسة عن أحوال المريدين التابعين للشيخ (أحمد بامبا) وكما درس دراسة مكشفة عن أحوال شعب الماندنغ المقيمين في مدينة كاساماس (Kassamasse).

وقد تحدث في الجزء الثاني عن :

العقائد أو المذاهب والمؤسسات العلمية أولدار للتربية الاسلامية. قد قام (بول مارتي) أيضا في هذا المجلد بدراسة المذاهب الفقهية والأخلاقية في جميع البلدان السنغالية . ولم يكتف بذلك بل درس من أحوال المدارس الاسلامية بصفة عامة ،والمدارس الموجودة في مدينة (سنت لويس) (Saint- Louis) بصفة خاصة (سنصف ذلك في الباب الرابع الآتي) ان شاء الله تعالي .

كما درس عدد المساجد وجميع الحركات التي تدار في تلك المساجد كما درس كلا من أحوال القضاء والعادات والتقاليد الموروثة وأخيرا درس جميع الأحوال الاقتصادية عند المسلمين .

المجلد الثالث :

دراسة أحوال الاسلام في غينيا (فوتاجالون).(١)

المجلد الرابع :

دراسة أحوال الاسلام في السودان (مالي الحالية) .(٢)

المجلد الخامس :

دراسة الاسلام في ساحل العاج وما جاورها .(٣)

---

(١) ويتكون هذا المجلد الثالث من (٥٨٨ صفحة) درس فيه نفس الموضوعات المشار اليها في المجلد الثاني السابق وأضاف الى ذلك أصحاب طريقة القادرية في (طوبا) و تيجانية تكرور في مدينة (دنغيرايا) (Dinguiraye) وفوتاجالون . المرجع السابق ص ٤٩٧.

(٢) ويتكون هذا المجلد الرابع من أربعة أبواب وفيه (٣٥٨ صفحة) و كتبه بين عامي (١٩١٨ - ١٩١٦) م
درس في الباب الأول عن أحوال قبائل كونتا في الشرق والقبائل البربرية .
وتحدث في الباب الثاني عن منطقة تمبكتو (اسلام أهل صنغى) وأهل مدينة (جنى) (Djenne) .
وأما الباب الثالث فعن قبائل (مور) .
وأما الباب الرابع فعن قبائل (البمبارا) .

(٣) ويتكون هذا المجلد الخامس من (٩٧ صفحة) ، كتب في عام ١٩٢٢م وأهم الموضوعات فيه فهو كالتالي :

===

فقد جمع (بول مارتن) في هذه المجلدات ما بين الطيب والخبيث .. ولأجل هذا الخلط التاريخي قام عدد من أبناء المنطقة السودانية باعادة تاريخ المنطقة الذى قد تلوث بأيدى المستعمرين. فكتبوا عدة كتب باللغة الفرنسية لأن كتابها كلهم من أصحاب الثقافة الغربية .. وفي هذه المصادر سيلقى القارئ كيفية انتشار الاسلام في مناطق الغابات والمناطق الساحلية ، وقد أشرنا سابقا الى أسماء بعضها .. وكما قلنا سابقا ان هذه المصادر لم تترجم بعد الى اللغة العربية ..

=== ان الموضوعات التي تحدث عنها (بول مارتي) في هذا المجلد الأخير تختلف عن موضوعات المجلدات السابقة ،لأن المسلمين في ساحل العاج مهاجرون من امبراطورية مالي القديمة لذلك تحدث عن كيفية تدهور امبراطوريتهم وعن كيفية هجرتهم الى الجنوب وعن أصولهم وأجدادهم ومواطنهم الأصلية في (السودان) وقد تحدث أولا عن جغرافية ساحل العاج وعدد سكانها وأثبت أن عدد المسلمين المهاجرين الى ساحل العاج كان حوالي (٢٩٠،٠٠٠ نسمة) .

و هكذا تحدث عن أحوالهم السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعقدية وغير ذلك .

و بالجملة لم يترك شيئا يتعلق بأحوال الاسلام في ساحل العاج الا وسجله.

انظر :

Etude sur l'Islam en cote d'Ivoire,

paul Marty, p.2.

فينبغي لنا - اذن - أن نفسح المجال للاقتباس من هذه الكتب وبخاصة ما يتعلق بأسباب هجرة الماندنغ من السودان (الموطن الأصلي) الى الاستيطان في المنطقة الجنوبية التي يمثلها كل - الآن - من ساحل العاج وغانا الحديثة وسيراليون و غمبيا وما الى ذلك.

*

وأما ما يتعلق بأسباب هجرة الماندنغ من موطنهم الأصلي في الشمال الى الجنوب ، فقد ذكرت تلك المصادر الجادة ان هذه الأسباب كثيرة ولكن أهمها اثنان هما :

١ - الحركة التجارية الجديدة في الجنوب.

٢ - ضعف امبراطورية مالي في السودان.

فاليك - فيما يلي - تفصيلا موجزا لكل منهما.

١ - الحركة التجارية الجديدة في الجنوب :

قد عنيت المراجع الأوربية بالحديث عن كشف افريقيا وخاصة المنطقة التي خصصناها لهذا البحث ، وأبرزت دور الأوربيين في هذا العمل والذى يطالع ما دونه هؤلاء الأوربيون ، يحس أن هذه المنطقة كانت مثل أمريكا واستراليا في الغموض ثم اكتشفوها ، ولكن الحق أن هذه المنطقة (منطقة الغابات) التي نتحدث عنها ، لم تكن كذلك لأنه قد ثبت تاريخيا أن تجار (الماندنغ) كانوا يعرفون - قبل وصول الأوربيين ، التجارة في قلب هذه المناطق ، خاصة مدينة (بيغو) (Bego) ، (سنصفها فيما يأتي) التي كانت مركزا تجاريا هاما في قلب مناطق

الغابات وكانت القوافل تتردد بينها وبين مدينة جنى منذ القرن الخامس عشر الميلادى (انظر الخريطة) . في الملحق رقم (٣) .

وهذا (بازل دافيدسون) الأوربي المنصف يؤكد هـــذا بقوله :

" ان تمبكـــتو وجنى وولا لــة وجاو وأجاديس كانت في السودان تمثل ميلانو ونومبرج بالعصور الوسطى ،كانت غنية وقوية ذات نفوذ تفرضـه على المناطق المجاورة ،وكانت ترحب بالقوافل التي تأتي لها من الشمـــال عبر الصحراء تحمل الخيل والسيوف والأقمشة والسلع الصغيرة ،وتحمـــل الملح من مناجم الصحراء الكبرى . .

وقال أيضا وهو بيت القصيد :

" وكانت القوافل تعود بالذهب والعبيد والأخشاب ومنتجات المناطق الاستوائية التي كانت تتجمع في بلدة (بيغو) (Bego) (مدينة جولا) التي كانت مركزا لتجميع الصادرات الاستوائية وارسالها الى جنى ومنها الى الشمال الافريقي . . ". (١)

---

(١) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ،الدكتور أحمد شلبي ٦/ ١٩٥ ، وأصله الانكليوى هو :

، The Lost Citites of Africa

وهكذا اعترف هذا الكاتب الأوربي المنصف بأن تجـــار شعب المالنكي قد وصلوا منطقة الغابات قبل الأوربيين بزمن بعيد ، فقد وصلوا هناك واستقروا منذ القرن الخامس عشر الميلادى وأما الأوربيون الغرنسيون فلم يستقروا في هذه المنطقة الا في أواخر القرن التاسع عشـــر الميلادى فيكون الفرق بين الفترتين حوالي أربعمائة سنة أو تزيد .

بهذا الغرق الشاسع يظهر لنا فضح القول بأن الاسلام لم يصل الى المنطقة الجنوبية قط قبل وصول الأوربيين هناك. بل ترينا أوصاف المؤرخين لهذا الشعب أن معرفته لم تكن قاصرة على هذه المنطقـــة (منطقة الغابات)فحسب بل كان يتجول قبل الأوربيين في جميع أنحاء غرب افريقيا لقصد التجارة و نشر الدين الاسلامي . وقد جاء وصف هذا الشعب في الأرشيف الأهلى الفرنسي -

(Archeve Nationales de France)

في حديث طويل شيق فنحن نقتطف منه مايلي :

قد جاء فيه " أن شعب (جولا أو الماندنغ أو المالنكي) يعتبر كل بيت بيته ،ويعد كل أرض أرضه ، محب لجميع البلدان (Cosmopolite) أى مواطن عالمي بشكل فائق (Excellente) وهو شعـــب نشيط مجتهد فعال (Actif) وذكي لبيب(Inteligesnt) صبور (Patient) بصير ناظر للعواقب (Prevoyant)".

وأضاف قائلا :

" فقد وجد هذا الشعب للتجارة لأنه منذ صغره يشترى و يبيع وبالأخص انه تاجر لكل ما يقع تحت عينيه .. انه متجول شائع الوطـــن

تراه يذهب من مدينة جنى الى المحيط .. ومن ورو - دوكو -
(Woro Daugou) الى بلاد الهوسا طالبا للمال .. والى
مدينة (بيغو) ،ومع كل ذلك (وهو الأهم) يحافظ دائما على أخلاقه
وتقاليده الاسلامية كما لا يمل من الدعوة اليها حيثما حل وارتحل ..
وانما يسافر دائما ببضائع وأفكار .. ". (١)

وهكذا كانت وجهة نظر التصريحين متطابقين في أن شعب جولا
أوالماندنغ كان أول من نشر الحضارة في مناطق الغابات قبل الأوربيين.
ولم يكن يحمل الى سكان هذه المناطق بضائع فحسب بل كان يحمل اليهم
أفكارا أيضا وهي العقيدة الاسلامية ..

من هنا نستطيع القول بأن التجارة كانت السبب الأول لهجرة
الماندنغ الى المناطق الجنوبية من بلاد السودان الغربي ..

ولكن كيف كان ذلك ؟؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال يجمل بنا أن نتحدث (أولا) عن
السبب الثاني لهجرة الماندنغ الى الناحية الجنوبية (حيث الغابات
الكثيفة وسواحل خليج غينيا) (Golf de Guinee) ليسلس لنا
البحث القيادة في النهاية .

---

(١) Histoire de cote d'ivoire , Jean Noel p(62).

٢ - ضعف امبراطورية مالي في السودان :

هذا هو السبب الثاني في هجرة الماندنغ الى الناحية الجنوبية (ساحل العاج وما جاورها).

مقدمة :

قد سبق أن قلنا ان (مملكة مالي الاسلامية) أى التي أسست على العقيدة الاسلامية المحضة من أول يوم تحت قيادة (سونديا - كيتا) الذى اعتلى على عرش مالي بين عامي (١٢٣٥ - ١٢٥٥) الميلاديين ، أخذت الدور القيادى في المنطقة بعد مهاجمة دولة (صوصو) (Sosso) الوثنية (L'effensive contre Sosso) التي كان يقودها سوما نقورو (Soumankourou) ملك صوصو الوثني الذى قضى على مملكة غانة الاسلامية .. فبعد هذا الانتصار على أقوى دولة وثنية في المنطقة استطاع سونديانا أن يفتح جميع الأراضي السودانية والساحلية في الصحراء .

وهكذا استمرت المملكة في التقدم والازدهار حتى جاء كنكا موسى على الحكم فبلغت مالي في ذروة القمة بين عامي (١٣١٢ - ١٣٥٧) م فقام بتوطيد العلاقات التجارية والثقافية بينه وبين كل من الشمال الافريقي ومصر. بل استطاع هذا الملك المسلم الموفق أن يقيم في المنطقة أقوى امبراطورية عرفها التاريخ الافريقي السوداني ، لأنه استطاع لأول مرة أن يضم الى مملكة مالي كلا من مملكة الصنغاوى الصاعدة و مملكة تكرور أيضا و مناطق قبائل البمبارى الوثنية وغيرها من مملكة موسى الوثنية وجماعة الطوارق البيض .

من هنا ناصبوا لها العداء وكانوا يتحينون الفرص للقضاء عليها والانتقام منها . ولكنهم لم يستطيعوا أن يظهروا هذه العداوة التي تكنها صدورهم ضد هذه الامبراطورية المسلمة. في أيام قوتها .،

ولكن امبراطورية مالي ،بعد موت منسا موسى ،أصبحت تزداد ضعفا يوما بعد يوم ،وذلك راجع الى عدم استطاعة أولاده على توحيد الامبراطورية والقيام برأب الصدع ... فحينئذ قام الوثنيون يريدون اعادة الوثنية التي قضت عليها امبراطورية مالي الاسلامية ،وفي مقدمتهم قبائل (موسى) (Mossi) الوثنية (آنذاك) - فقامت هذه القبائل الوثنية بغارات عنيفة سنة ١٤٠٠م ضد مدينة (ماسينا)(Massina) ولم يكتفوا بذلك بل قاموا أيضا بالنهب والسلب لجميع ممتلكات أهل هذه المدينة. (١)

وكما قام أيضا طوارق من الصحراء بغارات مماثلة على المدينة نفسها .. وفي الشرق قد بدأت قوات صنغاى الجديدة تتقدم نحو الامبراطورية المريضة. فاستطاعت أخيرا أن تستولى على مدينة جنى ومدينة تمبكتو . وفي سنة ١٥٤٥ استطاعت مملكة صنغاوى أن تسحق عاصمة الامبراطورية .. (٢)

---

(١) l'Islam au 16eme siecle io, p.72.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢ .

ومن هنا تتابعت الهجمات على الامبراطورية من قبل الشعوب المحيطة بها من قبائل البمبارا (Bambar) الوثنية و قبائل تكرور السالفة الذكر و قبائل (موسى) . فبهذه الضربات العنيفة الموجعة، أصبحت امبراطورية مالي خبرا بعد عين . فتفرقوا في أرض الله تاركين وراءهم الأراضي الشاسعة للأعداء من الوثنيين والحاسدين . من هنا لم يبق شيء في أرض السودان من القرى الا قرية واحدة تعرف باسم (كابا) المكان الأصلي للمملكة (١) ،وأما بقية الشعوب لهذه المملكة فقد هاجروا جميعا واتجهوا الى الجنوب حيث الغابات والذى تمثله الآن ساحل العاج وما يجاورها من البلدان (٢) . وقد أشار الى هذه الحادثة الأليمة السعدى اذ يقول :

" فقد كان أهل (مالي) في قوة عظيمة وسطة كبيرة التي جاوزت الحد والغاية ،ولها قائدان أحدهما صاحب اليمين يسمى (سنفر زومع) (Sanfara Zoumaa) والآخر صاحب الشمال يسمى (فرن سرا) (Farana Sourah) وتحت يد كل واحد منهما (كذا وكذا) من القواد والجيش حتى أورث ذلك الطغيان والتجبر والتعدية في أواخر دولتهم .. (٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٢) Histoire de la cote d'ivoire, Andre p.36.

(٣) تاريخ السودان ص (١٠-١١) .

فمن يومئذ دخل فيهم الضعف والوهن الى دولة أمير المؤمنين (أسكيا الحاج محمد) فواصلهم هو وأولاده بعده بالغزو - حتى لم يبق فيهم من يرفع رأسه وتفرقوا الى ثلاثة فرق .. كل واحد في طرف الأرض بطائفته ". (١)

هكذا كانت نهاية امبراطورية (مالي) العظيمة التي صنع بتاريخ شعوب المنطقة السودانية في ظل الاسلام.. ولكنها لما ضعفت وبدأ الانحدار الذى لا يمكن جبره بعد وفاة منسى سليمان شفيق منسى موسى (١٣٣٦-١٣٥٠)م .

وبعد ذلك تجيء فترة انحلال وضعف ، تولى خلاله ملوك لا قيمة لهم كما أشار الى ذلك السعدى آنفا أو ملوك غلبتهم الأحداث ، وانتعشت خلال ذلك مملكة صنغى . ونتيجة لهذا الاضطراب تفكك جيش مالي وتمزق وأصبح أداة سوء وضلال ، ولم يعد أداة دفاع وقوة ، ومن هنا فتح الباب لاستقلال الدول والامارات التي كانت أجزاء من الامبراطورية وتمزقت أوصالها ، وجاءت ضربات - كما قلنا - من كل جانب ، ففي الشمال هب الطوارق في حركة استقلالية واسعة شملت ولاتة وتمبكتو ومعظم الأقاليم الشمالية ، وفي الجنوب الغربي وجه التوكولور أو (تكرور) والولوف ضربات قوية الى الامبراطورية واستقلوا بأجزاء منها ، وفي الجنوب ضمت قبائل (موشى) جزءا كبيرا من أملاك الامبراطورية المتداعية . وفي الشرق تعرضت الامبراطورية لهجمات دولتي صنغى وكانم.

---

(١) تاريخ السودان ص ١٠ - ١١.

على أن أكبر الضربات التي وجهت لامبراطورية مالي كانت من صنغى التي تحررت من مالي فتفرق شعب الماندنغ شذر مذر ، ولكنهم أين اتجهوا بعد هذا التفرق والتمزق ؟

هنا توقف كتاب التاريخ من المسلمين ،ولم يفيدونا بالمكان الذى هاجروا اليه. كما رأينا في نص السعدى السابق وهذا الدكتور أحمد شلبي صاحب موسوعة التاريخ الاسلامي يقف عندما وقف السعدى ولم يغد بكلمة واحدة عن المكان الذى هاجر اليه شعب الماندنغ ،وعبارته :

" وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان جلال مالي قد آذن بالزوال ولم يبن لحكامها الا الامارة الضئيلة التي نشأوا فيها " كنجابا " وقد دهمهم الاستعمار الأوربي وهم في هذه الامارة الصغيرة" (١).

وهكذا يرى الدكتور أحمد شلبي كغيره من الكتاب أن أهل مالي بقوا - بعد تمزق قوتهم في محلتهم في السودان . ولكن الحقيقة أن أهل مالي قد هاجروا من شدة هذه الضربات من الدول المجاورة ولم يبق في امارتهم الاعدد قليل جدا.. وأما الباقون فقد اتجهوا نحو الجنوب حيث توجد الآن ساحل العاج وغينيا وسيراليون وغامبيا وغانا فهذا الذى خفي على المؤرخين الاسلاميين قديما وحديثا..

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ج٦ المصدر السابق ص ٢٤٨.

وأما المؤرخ الاسلامي المعاصر الدكتور ابراهيم طرخان ، مع كل ما بذل من مجهودات لابراز الدور العظيم الذى قام به الماندنغ في ساحة نشر الدعوة الاسلامية في جميع غرب افريقيا و مع ذلك فقد خفي عليه مصير الماندنغ بعد تدهور دولة مالي فهو يرى أن (البمبارا) الوثنية هي التي حلت محل الماندنغ في المنطقة . ولم يشر أبدا الى هجرة الماندنغ من الشمال الى الجنوب بحديث وجد .. وعبارته :

" على اثر تدهور دولة مالي ،نهض فرع من فروع الماندنغو في القرن السابع عشر وهو فرع البمبارا ،ونجح هذا الفرع في تأسيس مملكتين متنافستين وذلك على أنقاض مالي وصنغى .."(١)

ويظهر لنا أن طرخان يعتقد اعتقادا جازما أن دولة البمبارا كانت امتدادا لدولة مالي الاسلامية ،ولكن الأمر - في الحقيقة - ليس كذلك ، بدليل أن دولة البمبارا كانت على الوثنية ولم تدخل في الاسلام أبدا في أيام الممالك الاسلامية الثلاث : (غانة ومالى وصنغى) وانما بقيت على وثنيتها طيلة هذه الأزمنة التاريخية كلها ولم تدخل في الاسلام الا في سنة (١٢٧١هـ)/(١٨٦١م) على يد الحاج عمر سلطان التكارره في فوتا .(٢)

---

(١) مملكة مالي الاسلامية ،المصدر السابق ص ١٧١ .

(٢) كتاب التيجانية (تأليف علي بن محمد الدخيل الله) ص ٧٠ ، دار طيبة الرياض المملكة العربية السعودية ،الطبعة الأولى .

سنصف ذلك في صفحات قادمة - ان شاء الله تعالى - بل قد ثبت تاريخيا أن أول من وجه ضرباته على مملكة مالي هي قبائل البمبارا الوثنية كما سبق أن تحدثنا عن هذا .. وكانت الدولة التي أعادت السلطة الوثنية بعد تدهور مالي .

وأما الحقيقة فهي أن شعب الماندنغ ، قد توجه بعدما تآمر عليه الأعداء من الوثنيين ، من (البمبارا وقبائل موش وقبائل بوبو) ، والذين كانوا يضمرون له السوء من المسلمين مثل (صنغى وتكرور وطوارق) وغيرهم ، فقد توجه نحو الجنوب واستقر هنا ولم يزل الأحفاد ،هم مسلمي تلك المناطق الى اليوم. بل أسسوا مدنا اسلامية هناك كما سيأتي ذلك ، وقد بلغ عددهم في ساحل العاج وحدها حسب الاحصاءات التي أجريت في سنة ١٩٢٢م (٢٩٠٠٠٠ نسمة) (١) ماعدا الذين استوطنوا في غينيا وغانة الحديثة وسيراليون وغمبيا وغير ذلك واذا أضفنا الى هذا العدد من كان معهم من الوثنيين المهاجرين .. فيبلغ عددهم أى المهاجرين من مالي من المسلمين وما يتبعهم من الوثنيين في تلك السنة الى :

١ - أسرة ماندى (٢٩٠٠٠٠نفسا) (Famille Mande

٢ - أسرة سينوفو(٢٥٠٠٠٠ نفسا) (Famille Senoufo

٣ - أسرة الفلتا (٤٠٠٠٠٠ نفسا) (Famille Voltaique

فيكون عدد المهاجريت الى ساحل العاج فقط = ٩٤٠٠٠٠ نفسا. (١) أ

---

(١) أخذنا هذه الأرقام من كتاب :

Etude sur l'Islam en cote d'Ivoire ,

Paul Marty, p.

وبعد الهجرة الجماعية اصبحت (مالي) في قرية اسمها مالي أو تانجابا أو نياني أوكابا . وقد زارها ليو الافريقي (حسن الوزان) في القرن السادس عشر الميلادى فوصفها بمايلي :

" ويوجد في هذا القطر قرية كبيرة جدا تضم ستة الاف أسرة يتدعى مالي ، ومنها جاء اسم كل بقية المملكة و يقطنها الملك وحاشيته ويكثر في البلاد اللحم والقطن والغلال .. كما يوجد في هذه القرية عدد كبير من الصناع ومن الباعة المحليين والاغراب . ويتمتع هوءلاء برعاية الملك أكثر من الآخرين ، والسكان أغنياء بسبب تجارتهم و لديهم عدة جوامع، و أئمة وأساتذة يعلمون في الجوامع ، نظرا لعدم وجود مدارس وهوءلاء هم الاكثر تمدنا وذكاء واعتبارا من جميع السود .." (١)

هوءلاء هم سكان قبائل الماندنغ الذين تبقوا هنا بعد الهجرة الجماعية الى سا حل العاج وغيرها .

وفي العصور الحديثة زارها رحالة غربيون منهم منجو بارك (١٧٩٥-١٧٩٧م) (١٨٠٥م) و (ريني كالي) (Rene Caille) في سنة ١٨٢٧م و بارت في سنة (١٨٥٠ - ١٨٥٥م) . (٢)

فدل ذلك على أن أهل الماندنغ لما ارتحلوا الى الجنوب بقيت هناك تلك القرية و بقي فيها مسلمون و ليست لهم سيطرة على أحد ، بل كانت

---

(١) وصف افريقيا ، حسن الوزان (ليو الافريقي) ص ٥٣٩ ، الترجمة العربية .

(٢) دولة مالي الاسلامية ، د . طرخان ص ١٧٧ .

الدولة الوثنية المتمثلة آنذاك بقبائل البمبارا تحكمهم ولم تزل كذلك حتى دهمهم الاستعمار الفرنسي .. كما يدل على أن ما اتجه اليه الدكتور طرخان من أن دولة البمبارا كانت امتدادا لدولة مالي التاريخية اتجاه تخالف بقية الروايات .. وانما الثابت هو ما ذكرناه مرارا من أن الماندنغ ارتحلوا ارتحالا كليا الى الاستيطان في الناحية الجنوبية من المنطقة ما عدا سكان هذه القرية (كانجابا أو كابا) .

فمن خلال هذه التحقيقات أدركنا أن السبب الثاني لهجرة الماندنغ هو الفرار بالعقيدة الاسلامية من ضربات الوثنيين والحاقدين من المسلمين الذين حاولوا الانتقام منها ..

وهكذا يتجلى لنا وجه الشبه بين الهجرتين هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وهجرة شعب الماندنغ المؤمنين من ضربات الأعداء الى الاستيطان في الناحية الجنوبية. .

فالكل فر بعقيدته من عدو ينكر ما لديه من ايمان ،الى قوم * يحبون من هاجر اليهم ويؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة * .

وهكذا أيضا وصل الاسلام في منطقة الغابات والساحلية بواسطة هجرة الماندنغ .

وأما الذى يبين لنا حقيقة هذه الهجرة ويزيدها وضوحا فهو تبيننا لكيفية هذه الهجرة الميمونة وكيفية استيطان هؤلاء الأبطال في ساحل العاج وما جاورها .. مع بيان الطرق التجارية التي أتوا بها الى منطقة الجنوب ، ففيما يلي بيان لذلك ...

كيفية استيطان الماندنغ في الجنوب (ساحل العاج) وماجاورهـــا

فقد ذكر المؤرخون أن أسرة الماندى (أو الماندنغ) التي هاجرت من السفانا السودانية الى الجنوب كانت مجموعتين أساسيتين :

أ - الماندى الجنوبي . انهم لا يدخلون في مسألتنا هذه ، وان كانوا يقعون تحت مصطلح كلمة الماندى (Mandé) باعتبارهم وثنيين ،ولم يكونوا واسطة في نشر الاسلام. (١)

فهؤلاء كلهم سكنوا في جنوب ساحل العاج الحالية لذا سموا بالجنوبيين .

ب - الماندى في الشمال يعنى الذين سكنوا في شمال ساحل العاج بعد هجرتهم فهؤلاء هم المعنيون بهذا البحث لأنهم ، هـــم الذين -كما قلنا سابقا - أسسوا مملكة مالي الاسلامية العظيمة ثم انتقلـــوا بعد تدهورها الى الاستيطان في منطقة الجنوب ،لينشروا هناك هذا الدين الرباني العظيم -

ولكن هؤلاء الشماليـــــــــــــن لما وصلوا الجنوب (ساحل العاج ،سكن بعضهم في الشمال الغربي وهم يغلب عليهم اسم المالنكى (Malinke)

---

(١) Etude sur l'Islam En Cote D'Ivoire
Pauk Marty p.3,4.

كما سكن البعض الآخر في الشمال الشرقي ويعرفون باسم (ماندى جولا) أى التجار من أهل ماندى ..

والسبب في ذلك الاختلاف في الاستيطان راجع الى أنهم - عند هجرتهم - لم يأتوا بطريق واحد بل كانوا منحدرين من منطقتين مختلفتين (انظر الخريطة) . في الملحق رقم (١٣) .

" ils issus de deux grands courants Migratoires"

١ - النيجر الأعلى (باماكو) Haut Niger

٢ - منطقة جنّى La Region de Djenne

واليك فيما يلي توضيحا لكل من الطريقين :

١ - النيجر الأعلى :

ان الذين هاجروا من منطقة النيجر الأعلى الى الجنوب ، قد هاجروا في موجتين عظيمتين : (١) (انظر الخريطة) في الملحق رقم (١٣) .

الموجة الأولى (١٤٠٠-١٥٠٠) :

من القرن الرابع عشر الى القرن الخامس عشر الميلاديين .

تزخر المصادر بأن أشهر القبائل في هذه الموجة الأولى ، هي

---

(١) Histoire de la Cote d'Ivoire, Andre p.49
Voir : Etude sur l'Islam En cote D'Ivoire
p.2 , paul Marty.

كالتالي : قبيلة (دومبيا) و (كوناتي) و (كوندى) .. ولكن طليعة هذه القبائل (Leurs Avant-grands) تتمثل في قبيلة سينوفو (Senofo) الوثنية التي سكنت أولا في المساحات الواقعة بين مدينة (كونغ Kong) بساحل العاج (الحالية) ومدينة (كانكا Kankan) ب (غينيا الحالية) فلما جاءت هذه القبائل (دومبيا وكوناني وكوندى) اندفعت سينوفو أخيرا الى الشرق تاركة لهم هذه المساحات فسكنها المسلمون. (١) فكان ذلك بداية انتشار الاسلام في منطقة الجنوب .

و من حكمة الله البالغة أن هذه القبائل السالفة الذكر لم تسكن في مكان واحد و انما انتشرت في عدة أماكن لينتشر الاسلام في جميع هذه الأماكن في أقرب وقت. لذا سكنت قبيلة كوندى في مدينة (ساكاران) أولا - ثم اتسع نفوذها حتى عاصمة المنطقة الأصلية وهي مدينة (كانكان) فسكنتها مع قبيلة (كابا Kaba) . لهذا بدأ الاسلام ينتشر في البلدان المجاورة بعد ما تمركز في عاصمة المنطقة (Metropole) و هي كانكان (Kankan) السالفة الذكر ...

ثم جاءت قبيلة كوروما (Kourouma) في هذه الفترةفأقامت في منطقة ماسالا التي أصبحت أيضا من المدن الاسلامية ،وأما قبيلة (كوناتي) فقداتخذت منطقة تورون مسكنا لهم.. كما نشروا هناك العقيدة الاسلامية في صفوف الوثنيين .

---

(١) المرجع السابق ص ٢.

ان هذه القبائل المذكورة لهم الفضل في تأسيس المدينة التجارية الكبرى التي أصبحت أخيرا مركزا هاما من المراكز الاسلامية هناك وهي مدينة (ساماتيغيلا) كما يرجع لهم الفضل في تأسيس مدينة تيانكو (Tienko) الاسلامية الكبيرة في منطقة بودوغو (Bo Dou gou).(١)

و هكذا انتشر الاسلام في هذه المدن الاسلامية بواسطة أصحاب الموجة الأولى .

والجدير بالذكر ان هذه المدن المذكورة لم تزل موجودة في المنطقة حتى الآن . و هي المدن الاسلامية ذاتها في هذه المنطقة كما لم يزل أحفاد هؤلاء المهاجرين مسلمي المنطقة الى اليوم ...

الموجة الثانية : (La deuxieme Vague) XVII-XVC

ان الموجة الثانية لهجرة الماندى الذين نزحوا من منطقة النيجر الأعلى (باماكو) قد ابتدأت من القرن الخامس عشر الى القرن السادس عشر الميلاديين وبالتحديد حوالي (١٤٩٠ - ١٥١٠م).

---

(١) المرجع السابق ص ٣.

و اليك فيما يلي - أشهر قبائل هذه الموجة الثانية مع بيان الطريق الذى سلكوها للاستيطان في الجنوب و نشر العقيدة الاسلامية.

فقد أكد المسيو (جان لوكو نوايل) على أن قبائل جوماندى أو كمارا (Djomande ou Comara) وقبيلة باما (Bamba) و قبيلة كايتا (Kaita) وسوارى أو سماسي (Souors ou Samassi) و قبيلة دوسو كانوا رواد الموجة الثانية. فسكن أغلبهم في المسافة الواقعة بين مدينة (كونيان Konyan) الى نهر (بامداما Bandama) كما أقام بعضهم في (ورو- دوكو Woro Dou go) و بالأخص قبيلة باما (Bamba). كما استوطن بعضهم في منطقة (برالا Barala) وخاصة قبيلة (دوسو - Dosso) وبعضهم اتخذوا مدينة غانوى (Ghanhoue) موطنا لهم حيث أسسوا مدنا جديدة في منطقة (بارالا) (١)

هذه هي أهم القبائل التي هاجرت من منطقة النيجر الأعلى الى الاستيطان في الجنوب . وأما الطريق الذى انتهجوه للوصول الى هذا الوطن الجديد فهو كالتالي :

---

(١) Voir Histoire de la Cote D'Ivoire Tom 1, p.49, Jean Loukou Noel.

فقد اتجهوا أولا - حسب تقارير المسيو - (لوكو I.N. Loucou)
نحو البحر الأطلنطي - بعدما انتقلوا من منطقة النيجر الأعلى - حتى
وصلوا الى الساحل الذى يسكن فيه الآن أهل سيراليون (الحالية) .. ثم
بعد ذلك قد عرجوا على مدينة (كوروسا Kourousa) ثم توغلوا
في أراضي (ما هو Mahou) ،وهكذا سكنوا في بلاد (ورودوكو)
(Worodougou) [1] معناه (المنطقة التي توجد فيها أشجار
كولا (Kola) . بذلك أصبحت أغلبية هذه المناطق ،مناطق اسلامية
كما أصبحت مدينة (غانوى) احدى المدائن الثقافية في ساحل العاج ولم
تزل مركزا ثقافيا الى اليوم (القرن العشرين) .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٩ .

ثانيا - المهاجرون من منطقة جنّي (Dienné) :

قد تم هجرات هؤلاء المهاجرين أيضا في موجات متتالية ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى الى القرن الثامن عشر الميلادى . وقبل أن نتتبع هذه الموجات يجمل بنا أن نقدم فكرة سريعة عن الفرق الجوهرى بين الماندى المهاجرين من منطقة النيجر الأعلى وبين الذين نزحو من منطقة (جني).

فقد ذكر المؤرخون عدة فروق بينهما ولكننا نقتصر على الآتى :

١ - ان المهاجرين من النيجر الأعلى يغلب عليهم اسم المالنكي بينما يسمى المهاجرون من منطقة جني ب (ماندى جولا) أى التجار من ماندى .

٢ - المهاجرون من النيجر الأعلى عندهم لهجات متعددة مثل لهجة (ما هو) Mahou ولهجة (وروديكو) Worodou gou ولهجة (كورو) Koro ولهجة (سياكا) Syaka .

وأما المجموعة الآتية من منطقة جني عن طريق مدينة كونغ يتكلمون بكلام واحد ولغتهم هي لغة (جولا). وهم يسكنون في الشمال الشرقي في المدائن الآتية :

مدينة (كونغ Kong) وما حولها ، ومدينة بندوكو وما حولها ومدينة (بونا Bouna) .. ومدينة (ساتاما أوجمالا) ومدينة (دابكلاجولاسو أوسناسيدوكو) ومدينة بورلا ومدينة (دغارا Dagara) وقرى باغاريو (Les cites de Begaribo) ومدينة (بايداندا‌عا N'Groumania). وكل هذه المدائن متقاربة الديار.

وأما المجموعة الآتية من النيجر الأعلى فقد سكنوا في غربي باندما يعني الشمال الغربي من ساحل العاج .

وما عدا ذلك فالمجموعتان في وحدة ظاهرة (L'Unite Enridente) :

ينتسبون الى أصل واحد (Une eueiue Origine EtUNique)

وخاصة ورودوكوكا وأهل بندوكو وكونغ ولديهم ثقافة مشتركة -

(Une Cominaute de Culture) واللغة المشتركة

ذات اللهجات المتعددة والتي أدت الى وجود التفاهم التام بين سكان كونغ وسكون وجيني وفوق ذلك هناك تفاهم تام بين سكان ساحل العاج من ماندى وبين سكان أهل باماكو وأهل غينيا وفلتا العليا وغامبيا وسيراليون وغانة .

هذه هي قبائل الماندى التي نشرت الاسلام في الغابات .

(الموجة الاُولى : la Premiere Vague XV .)

بدأت هذه الموجة من منطقة جني (انظر الخريطة) وبالاُخص مدينة (سان San) عن طريق بلاد (دافنغ Dafing) .(١)

ومواطن (موسى Mossi) حتى انتهوا الى تأسيس أول مدينة اسلامية في منطقة الغابات وهي مدينة (بيغو) في جمهورية غانة (الحالية) فصارت مدينة تجارية وثقافية يسكنها المسلمون من (ماندى جولا) ويقصدونها للتبادلى التجارى جميع قبائل الماندى من جني وورودوكو وبلاد كوياغا .. ولكن هذه المدينة الاسلامية الاُولى في الجنوب لما وصلت ذروتها في القرن السابع عشر الميلادى دمرت بسبب الحروب الداخلية (سمى بحرب النساء) فانتقل من تبقى فيها الى مملكة (أبورون ABron) حيث أقاموا من جديد في مدينة أخرى تعرف باسم مدينة (بندوكو) الاسلامية وذلك في أثناء القرن الثامن عشر الميلادى (XVIIIc). فكان هذا القرن بداية لاقامة المسلمين في (بندوكو Bondouk) .

(المجموعة الثانية) :

في القرن السادس عشر انتقلت أيضا من مدينة جني مجموعة كبيرة من ماندى جولا عن طريق (بوبوجولاسو) ثم (سوباغانيدوكو) - (Sou Bagamidoukou) و (ديادانا- Diadanna)

---

(١) Histoire de Cote D'Invoire
Jean Loakou Noel p.49.

ثم أقاموا في مدينة (كونغ) التاريخية الاسلامية ثم هاجرت مجموعة أخرى في القرن السابع عشر الميلادى (XVIIc) للاستيطان في مدينة (كونغ نفسها) كما هاجرت اليها قبيلة وترا و قبيلة تراورى من بلاد الهوسا وقبيلة كوليبالي من مدينة جشي . وهكذا تمركز الاسلام في جميع بلاد (جولا) أى الشمال الشرقي لساحل العاج .

و في القرن نفسه (XVIIc) هاجر من مدينة سيغو الى مدينة وجيني قبائل من المالنكي (الشمال الشرقي) واستوطنوا فيها مع جماعة من الفولاتة (Peul) الذين هم أسلاف قبيلة (سافاني) (Savane) أو (سى) الذين صارت امامة وجيني بأيديهم .. ولم تزل كذلك الى اليوم .

ويذكر التاريخ أن هؤلاء الفلاتة قد نزحوا من بلاد فوتا تورو (في الجمهورية السنغالية) اليوم ..(١)

(الموجة الثالثة) :

القرن (XVIc) السادس عشر الميلادى .

هناك عناصر من قبائل الماندى جاءوا من منطقة جني أيضا عن طريق بوبوجولاسو (فسوباغنيدوكو) (Sou Baganidaougou) واستوطنوا

----

(١) Histoire de Cote de Ivoire
Jean Lockou Noel p.49,

في مدينة (بورون القديمة Bouron) وذلك قبل أن تصل هناك قبائل (الباولي Baoule).

ولما وصل الباولي في القرن الثامن عشر الميلادى انسحب هؤلاء الماندى من السفانا ليستوطنوا في منطقة ساتاما (Satama) حيث أسسوا جمالا (Djammala). ولكنهم حوالي سنة ١٧٣٠م قد عبروا نهر باناما مرة أخرى ليؤسسوا بلاد (كورو) وبلاد (كويا غادوكو) (Koyaro Doukou) فلما استقروا كانت بينهم وبين ماندى جولا الذين استوطنوا في مدينة بيغوا علاقات متينة لأجل القرابة القائمة بينهم لأن كلا منهم كانوا قبل الهجرة في مدينة واحدة وهي مدينة (جنى).

وهكذا توالت الهجرات من مالي القديمة الى الجنوب وفتحت الطرق التجارية بين موطنهم القديم والجديد و بين سكان الشمال الشرقي والشمال الغربي من الماندى .. وأقاموا مع المواطنين الأصليين (Les auts et tones) مؤسسين دولا اسلامية قوية .. (١)

هكذا استقر المسلمون في الجنوب (يعني ساحل العاج وغيرها) حتى صاروا مواطنين أصليين في تلك المناطق .. ولم تزل ذرياتهم قاطنين هناك الى الوقت الراهن . والجدير بالذكر ان المبتلى بكتابة هذا البحث منذرية هؤلاء المهاجرين الى ساحل العاج .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠.

رابعا : آل أسكياتورى* ودوره في نشر الاسلام (١) :

ان الخدمات الجليلة التي قدمتها أسرة اسكياتورى في نشر الاسلام في ربوع بلاد السودان الغربي ،لا تقل أهمية مما قدمتها الأسر المالكة التي تقدم الكلام عليها .. ولكن أسرة الماندة تتفوق على آل أسكيا بطول المدة في الدعوة الاسلامية واستمرارها الى اليوم ...

وأما أسرة أسكيا لم يكتب لها في مجال الدعوة الا مدة يسيرة حتى قضي عليها قضاء تاما من قبل حكام المغرب وخاصة أحمد المنصور الذهبي -سيأتي الحديث عليه -.

و مع ذلك تكاد تكون أحوال أسرة أسكيا قريبة الشبه بأحوال أسرة الماندة رائدة مملكة مالي ،وقد سبق أن وصفنا أحوال مالي بأنها تشبه القوس يجلس في قمته منسا موسى .. فكل ما سبقه كانوا مؤسسين لهذه

---

(١) ومن أراد أن يقف على منشأ هذه المملكة ودخول الاسلام فيها في القرن السابع الميلادى فليراجع السعدى ،تاريخ السودان ،طبعة باريس (١٨٩٨) ص ٣٣ ومايليها . ويراجع أيضا سير توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ترجمة ص ٢٦٩.
ويراجع أيضا : نعيم قداح ،افريقيا الغربية في ظل الاسلام ص ٧٠ .
ويراجع أيضا الدكتور احمد شلبي ،موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٦٤.
ورد كذلك الشيخ الامين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ص ٦٥ - ٨٧.
ومع كل ذلك سنتحدث عن مملكة صنغى في صفحات قادمة ان شاء الله تعالى .

الدولة وأما الذين جاءوا من بعده فقد كانوا في عصر الانحطاط والتدهور ، وكذلك الحال في امبراطورية صنغى ،يجلس الحاج أسكيا محمد في الذروة من تاريخ صنغى واتساعها فكثير من الملوك الذين سبقوه وضعوا أسس الانتصارات التي أكملها هذا الامبراطور العظيم .. واليك فيما يلي - بعضا من ثناء العلماء عليه في مجالات الدعوة الاسلامية .

ويذكر (تريمغام Trimingham) أن أسكيا محمد ،انتفع بالاسلام أروع انتفاع لتوطيد سلطانه و تثبيت ملكه ". (١)

و قد عقد السعدى بابا طويلا عن الحاج أسكيا محمد ووصفه فيه بأنه الأسعد الأرشد أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الذى فرج الله به عن المسلمين الكرب (*) ،وأزال به عنهم البلاء والخطوب واجتهد باقامة ملة الاسلام واصلاح أمور الأنام ،وصاحب العلماء واستفتاهم فيها ما يلزمه من أمر الحل والعقد ". (٢)

---

(١) عن موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٦٤.
(٢) السعدى عبد الرحمن تاريخ السودان الباب الثالث عشر.

(*) الكرب جمع كروب والكربة جمع كرب .

مواقف أسكيا الاسلاميـــــة

ولأسكيا محمد توري ،مواقف اسلامية شهيرة ،فلنعد منها مايلي :

١ - فقد كان أول حاكم في غربي افريقيا يرغم النساء على اتباع قواعد الاسلام في ناحية الزى والاختلاط.

وقد شاهد ذلك في القرن السادس عشر حسن الوزان ليو الافريقي عند زيارته لمملكة صنغى فسجل انطباعاته بما يلي اذ يقول :

" ولا زال من عادة نساء المدينة (مدينة تمبوكتو) وضع الحجاب على وجوههن باستثناء الاماء اللواتي يبعد كل الاشياء المأكولة .."(١)

ووصف هذا الملك العظيم بقوله :

" وهذا الملك (أسكيا محمد توري) هو العدو اللدود لليهـود فهو لا يرغب أن يسكن أحد منهم في المدينة واذا بلغه أن تاجرا من بـلاد البربر يتردد عليهم أو يتاجر معهم يصادر ارزاقه ".(٢)

٢ - وكان أول من حكم بحرية ابن الرجل الحر من زوجة رقيقة ، وكان هذا الابن ،قبل أسكيا محمد يعتبر عبدا تبعا لأمة .

---

(١) وصف افريقيا ص ٥٤٠.

(٢) المرجع السابق ص ٥٤١.

٣ - أنعم على العلماء بعطايا كبيرة وعين شيخا للاسلام يقيم في تمبكتو وتكون له السلطة العليا في أمور الدين .. (١)

٤ - وقد انتهج السلطان محمد سياسة اسلامية تمثلت في تشجيعه للثقافة العربية وفي مساعدة العلماء والفقهاء فجعل من غاو وطومبكتو وولاتا وجنه مراكز تعج بالطلاب والمدارس وقد أدى هذا الملك المذكور فريضة الحج سنة ١٤٩٧ وبذل في ذلك كثير من الأموال فتذكّر الناس بالملك موسى الأول صاحب مالي .

وقد اشترى في المدينة المنورة ومكة أوقافا جعلها لنزول الحجاج السودانيين وقد بلغ ثمنها نحو ٣٠٠،٠٠٠ قطعة ذهبية كما أنه دفع نحو ١٠٠،٠٠٠ مثلها الى فقراء الأراضي المقدسة (٢) ، ولما عاد الملك من الحج قابل الخليفة العباسي في القاهرة وطلب اليه أن يسافر معه ليتولى حكم السودان ولكن الخليفة أمره على السودان بلقب خليفة وقدم له محمد الحاج كثيرا من الهدايا... (٣) فألبسه الخليفة قلنسوة وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحا في الاسلام . (٤)

---

(١) نعيم قداح . افريقيا الغربية في ظل الاسلام ص ٧١ .

(٢) المصدر السابق .بتصرف .

(٣) راجع المرجع السابق ص ٧١ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٠ .

٥ - قد اختط لنفسه بعدما عاد من الحج الى بلاده سياسة ترمي الى نشر الدين الاسلامي عن طريق الجهاد المقدس بين القبائل المجاورة للمملكة وقد أسر خلال معركه عددا كبيرا من الأطفال الوثنيين اعتنقوا الاسلام في كنفه وأصبحوا جنوده وبذلك كان لديه جيش نظامي دائم يعتمد عليه في الخطوب ..

٦ - تنظيماته واصلاحاته :

وقد نظم أسكيا محمد بلاده على نحو يثير الاعجاب ،وقد ذكر المؤرخون من ذلك الشيء شيئا كثيرا . قد ذكروا أنه انشأ جيشا دائما كما قلنا سابقا واسطولا صغيرا من سفن التموين .. وأقام نظاما للضرائب يكون الدفع بمقتضاه عينا ليملأ الخزانة العامة ،وأنشأ الدواوين العسكرية ،والسياسية والادارية وحدد اختصاصاتها تحديدا عجيبا وأقام حكومات اقليمية و نصب القضاة وعين الشرطة . وقسم الامبراطورية الى ولايات وهي ست : ولاية كورما (١) ،ولاية بالاما (٢) وولاية دندى (٣) وولاية بانجو (٤) وولاية هاربباندا (٥) ورئاسة نهر النيجر. (٦)

---

(١) وهي ولاية غرب النيجر وكان حاكمها يعتبر ممثل الحكومة في الغرب كله راجع العلاقات ص ٧٠.

(٢) وتقع على حدود بلاد الموصى في الجنوب الغربي من الامبراطورية . المرجع السابق ص ٧٠.

(٣) وتقع الى الجنوب من العاصمة . المرجع السابق نفسه.

(٤) و تقع حول بحيرة ديبو . المرجع نفسه.

(٥) يقع على ضفة نهير النيجر اليمنى المواجهة للعاصمة . المرجع نفسه.

(٦) وكان يشرف عليها قائد الاسطول وتسمى وظيفته الادارية كومى .

وبعد أن كمل هذا التنظيم على المستوى الاقليمي ،ركز الأسكيا محمد مجهوداته من أجل ايجاد مراقبين و مفتشين حتى يشرفوا على العمل . وقدعهد بهذه المناصب الى أشخاص أكفاء اختارهم من أقرب مساعديه كما حدد لكل منهم اختصاصات عمله بدقة وهذه المناصب هي :

١ - مفتشية الضرائب العامة . . كان لهذا المفتش أعوان ومساعدون في جميع أنحاء البلاد . . يستقبلون القوافل القادمة من الشمال الافريقي أو من مصر ليأخذوا على كل بضاعة رسوما . (١)

٢ - المشرف على الغابات في الجنوب . وكان يراقب السوق أيضا .

٣ - الاشراف على الشئون القبلية .

٤ - حاكم عام المدينة و هي الوظيفة التي نسميها اليوم بالبلدية لأنه يتعامل مع الأهالي والقضاة على حل المشاكل التى تعتريهم في المدينة ويراقب السوق أيضا . (٢)

---

(١) عبد القادر زيادية . مملكة سنغى في عهد الأسبقيين ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر الطبعة الثالثة ص ٣١-٥٤ وراجع العلاقات المصدر السابق ص ٧٠ .

(٢) عبد القادر زيادية .
المرجع السابق ص ٣١- ٥٤ .

أبعد هذه التنظيمات الدقيقة في بلاد السودان الغربي ،يستطيع أحد أن يقول ان هذه المنطقة كانت منطقة مظلمة وما استطاع سكانها أن يطوروا بلادهم ؟؟ الجواب : لا . ولكن الحسد والكبر هما السبب المباشر لدفع الانسان الى انكار هذه الحقائق التاريخية التي تدلنا بدلالة واضحة على قدرة الافريقيين على التنظيم.

و قد تحدث كثير من المؤرخين عن هذا التنظيم الدقيق ،لنقتطف من أقوالهم مايلي :

يقول عنه صاحب الفتاش :

" وله (الحاج أسكيا طورى) من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى ولا يوجد له مثل لا قبله ولابعده. وحب العلماء والصالحين والطلبة ،وكثرة الصدقات واداء الفرائض والنوافل وكان من عقلاء الناس ودهاتهم والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين و اعانتهم على طاعة الله وعبادته و أبطل جميع ماعليه (سنى علي) من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء وأقام الدين أتم قيام واطلق على من ادعى الحرية .. ورد كل مال غصبه الى مواليهم ،وجدد الدين وأقام القضاء والأئمة ". (١)

وأضاف قائلا :" ان أسكيا محمد يصلح لحكم دولة بني العباس وكل دولة أخرى غيرها ... " (٢)

---

(١) محمود كعت : تاريخ الفتاش ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .

ويقول عنه حسن ابراهيم حسن بقوله :

" وقد استطاع أسكيا محمد الأول أن ينشر الأمن والسلام في جميع ربوع المملكة الشاسعة الأرجاء .." (١)

وتتحدث عنه (لادى لوجارد) بقولها :

" انه (أسكيا محمد تورى) قائد اتصف بعدة خصال جعلته من مشاهير الحكام ،كان حر التفكير بعيد النظر ،وانسانا رحيما في بعض الظروف وعلى قدر كبير من العلم والنشاط والحكمة والثبات ،وكان متسامحا مع أفراد شعبه الوثنيين .

ويعرف عنه أنه أمر بالبحث عن موارد بلاده وخيراتها وحفر الآبار وانشاء جداول المياه والترع لرى البقاع الصحراوية .. وعمل كثيرا لمقاومة تحرش (٣) الرمال الصحراوية الى مناطق الجنوب ..." (٢)

وهكذا اتفق المؤرخون من المسلمين والأوربيين المنصفين على الدور القيادى الذى اتصفت به أسرة آسكيا وخاصة في ظل عاهلها الكبير الحاج محمد أسكيا تورى .

---

(١) انتشار الاسلام في القارة الافريقية ص ٣١٠ .

(٢) عبد الرحمن زكي المرجع السابق ص (١٣٩) .

(٣) تحرش : تعرض له .

الجهاد في سبيل الله في عهد أسكيا محمد

باجماع المؤرخين أن أسكيا محمد كان ضابطا معروفا في جيش سني علي التي سبقه في الحكم .. وقد لاحظ ضعف (أبي بكر داعو) نجل سني علي وكثرة شكاوى الناس ضده فقام بثورة عاتية ضده وهزمه بقرب العاصمة (جاو) ودخل العاصمة منتصرا وسط جيش كبير ،فعكف منذ توليه السلطة على القيام بعدة اصلاحات حتى يثبت جدارته بالحكم .

وكان أول جهاد في سبيل الله قام به غزو مملكة موشى (١) الوثنية التي وقفت أمام الدعوة الاسلامية بكل ما أعطيت من قوة ،فلما استشار الفقهاء وأهل العلم ،أشاروا عليه أن يطلب من ملوك هذه الدولة الوثنية الدخول في الاسلام أو دفع الجزية ،فلما رفضوا حاربهم وخرّب أرضهم وسبا نساءهم .. فكان هذا أول انتصار للاسلام على أقوى دولة وثنية في بلاد السودان الغربي .

وبعد هذا الانتصار الذى فرح به المؤمنون بالمنطقة ،قام بعدة حملات جهادية ناجحة فمثلا بسط نفوذه غربا الى بلاد الماندنجو ،وشمالا حتى مواطن الطوارق . وامتد نفوذه جنوبا بعد الانتصار الكبير الذى أحرزه على مملكة موشى الوثنية (Mossi) (٣) .

---

(١) السعدى ، تاريخ السودان ص ٧٣ .

(٢) حسن احمد محمود ،الاسلام والثقافة العربية في افريقية دارالنهضة العربية ١٩٦٣م ص ١٣٧-١٤٨ .

(٣) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٦٥ وراجع حسن أحمد محمود . المرجع السابق ص ٢٤٨ .

من هنا تفوقت امبراطورية صنغاى على امبراطورية مالي بحيث تجاوز مد سنغى الآفاق التي وصل اليها سلاطين مالي .

فمثلا لم يصل نفوذ سلاطين مالي قط شمال نيجيريا ولكن نفوذ آل أسكيا قد تسرب الى هناك. فهوجمت امارات الحوصة مثل كتسينا وغوبير وكانوا وزنذة وزاريا وخضعت كلها سنة (١٥١٣)م (١) ولم تدخل قبائل موشى تحت حكم حكام مالي ولكن هذه القبائل خضعت لامبراطورية صنغاى كما سيأتي ذلك .

ولما مات هذا الامبراطور العظيم عام ١٥٣٨م (٩٤٥هـ) لم يستطع خلفائه - مع الأسف الشديد- أن ينهضوا بهذه المسئولية فبدأ عصر الانحطاط في هذه الامبراطورية العصر الذى اعتلى فيه على عرش سنغى ملوك ضعاف وقد حفظ لنا التاريخ أن عددهم سبعة من عام ١٥٢٨ أو ١٥٢٩م حتى عام ١٥٩٣م (٢) وكان جلهم يتصفون بالقسوة والأنانية والفجور . فبدأوا

---

(١) راجع العلاقات المرجع السابق ص ٦٨ .
ويرى الشيخ ادم الألورى النيجيرى في كتابه موجز تاريخ نيجيريا ص ٤٩ أن أسكيا محمد لم ينجح في فرض سلطانه على بلاد الهوسا .

(٢) العلاقات ص ٧٣ . واليك فيما يلي أسماء هؤلاء الحكام الضعاف :
١- الاسكيا موسى (١٥٣١-١٥٣٨م (٩٣٥-٩٣٨هـ) .
٢- الاسكيا محمد الثاني (١٥٣١-١٥٣٧م (٩٣٨-٩٤٤هـ) .
٣- الاسكيا اسماعيل ١٥٣٧-١٥٣٩م (٩٤٤-٩٤٦هـ) .
٤- الاسكيا اسحاق الأول ١٥٣٩-١٥٤٩م (٩٤٦-٩٥٦هـ) .
٥- الاسكيا داوود ١٥٤٩-١٥٨٢م (٩٥٦-٩٩٠هـ) .
٦- الأسكيا محمد بان ١٥٨٦-١٥٨٨م (٩٩٥-٩٩٧هـ) .
٧- الأسكيا الثاني ١٥٨٨-١٥٩١م (٩٩٧-١٠٠٠هـ) .
وهو آخر ملك من ملوك صنغى قبل سقوطها في يد الجيش المراكشي .
راجع العلاقات ص ٧٥ - ٧٦ .

يتقاتلون على العرش تاركين الدعوة الاسلامية التي خلفها لهم المؤسس الحقيقي لامبراطورية صنغى (الاسكيا محمد تورى)- من هنا طمع فيهم الطامعون كأمثال أحمد المنصور الذهبي الذى قاتل السودانيين في أواخر القرن السادس عشر طمعا في ذهب البلاد و مناجم الملح . وبهذا الغزو المراكشي انهارت مملكة صنغى واختفت الاسرة المالكة فصاروا خبرا بعد عين . وقد تحدث (Ward) عن نهاية حضارة السودان ودوره القيادى في مجال الدعوة الاسلامية اذ يقول :

" ان الحضارة في السودان كانت أرقى من حضارة غرب أوربا ، ثم بدأت حضارة السودان تتضاءل بسبب الحروب والخلافات . ولكن أوربا أخذت تتقدم بغضل ما تعلمته من العرب .. وهذا أفسح الطريق لأوربا الغربية أن تستعمر غربي أفريقيا ضمن ما استعمرته من مناطق العالم ".(١)

وهكذا قضى الغزو المراكشي على الحضارة الاسلامية في السودان ومن مساوىء هذا الفتح أن المنصور ظلم العلم والعلماء فقد أصدر أمره بالقبض على العالم الكبير أحمد بابا التمبكتي الذى كسرت رجله في الطريق واقتيد الى مراكش سنة ٩٩٤ ١م . من هذا فقد بلاد السودان كتبها وعلمائها الذين زجوا في سجون مراكش ولم يرجع منهم أحد الا أحمد بابا الذى رجع سنة ١٠٦٥ الى بلاده .. فصارت غرب أفريقيا كما وصفها (F.Dubois)

---

(١) نقلا عن موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٧٥ .

أحد الرحالة الأوربيين سنة ١٨٩٤م فقال :

" لقد كان المغاربة السبب في التدهور الذى ازداد في مدة قرنين على السودان الغربي - ليصل هذا التدهور الى أقصاه في الوقت الحاضر وفي كل هذا تضررت الزراعة و تحطم الاقتصاد وأصبحت الملاحة في النهر مستحيلة ". (١)

ولقد أشار الى ذلك المؤرخ السوداني الشهير صاحب الفتاش مبينا أن المقصود هو سبب وقوف الدعوة الاسلامية في بلاد السودان الغربي والسبب لظهور الخرافات والبدع والجهل واماتة السنة والتمسك بالأباطيل اذ يقول :

" ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تنبكتو جسما بلا روح وانعكس أمرها و تغير حالها وتبدل عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد اراذلها على عظمائها وباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى ، وعطل أحكام الشريعة وأميتت السنة وأحيت البدع ولا بقي فيها من يتمسك بالسنة ولا من يسير على منهج التقوى ". (٢)

و نستطيع أن نستنتج من هذا النص جملة حقائق علمية تتعلق بمصير الدعوة الاسلامية ببلاد السودان الغربي ..

---

(١) Adu Boshen, A: The Sahare and the western Sudan

راجع العلاقات ص١١٧.

(٢) تاريخ الفتاش ، محمود كعت ص ١٧٥.

الحقيقة الأولى :

ان بلاد السودان الغربي وخاصة مدينة تمبكتو كانت منارة للعلم والأدب وكان أهلها يتمسكون بالسنة المطهرة ،ويتحلون بفضائل الأخلاق وكانت الأسرة المالكة وهي أسرة أسكيا تورى كانت على النهج الاسلامي القويم وتقوم بأعباء مسئولية الدعوة على عاتقها . ولكن البلاد قد آلت الى بؤرة فساد و مكانا للضلال ،لا لشيء الا أحمد المنصور قد طمع في ثرواتها من الذهب ومناجم الملح في تغازا . .

الحقيقة الثانية :

ان الجهل وظهور الخرافات والبدع التي نراها اليوم في غرب أفريقيا و تعطيل العمل بالشريعة الاسلامية والسنة المطهرة . فمرد كل ذلك الى هذا الغزو المراكشي . . و نضيف الى ذلك أيضا أن هذا الغزو كان سببا من ضمن الأسباب التي أدت لقابلية التيارات الفكرية الوافدة من أوربا في المنطقة . .

وبيان ذلك أنه لو جاءت أوربا لتستعمر وكانت البلاد على ما كانت عليه من التمسك بالدين والتمكن من القوة العسكرية والاقتصادية ،لما وقعت فريسةً أمام المستعمرين بهذه السهولة . ولكن أوربا عندما جاءت وجدت البلاد قد انقرضت امبراطورياتها المشهورة وابتعد الناس عن السنة المطهرة بل اميتت السنة وأحيت البدع حتى لم يبق فيها من يتمسك بالسنة ولا من يسير على منهج التقوى في تمبكتو . . وقد كانت الطريقة القادرية -كما سيأتي بيان ذلك - قد وصلت بزمن غير بعيد . .فلما جاءت حملة المنصور بالخراب والدمار بدلا من العلم والمعرفة والقضاء على الدعوة الاسلامية ،انتقل الاشراف

على شئون نشر الاسلام في المنطقة على أيدى شيوخ الطرق الصوفية ..
فبدأوا يدعون الناس بهذه الطريقة الصوفية منذ القرن السابع عشر الميلادى
الى اليوم.

ان هذه الحقيقة يجب أن نعرفها الدعاة في غرب افريقيا
جيدا .

الحقيقة الثالثة :

كان لاعتقال العلماء ورجال الدين بالسودان الغربي وزجهم
في السجون واتلاف أملاكهم وكتبهم والاعتداء على زوجاتهم و نفيهم الى
المغرب اسهام كبير في تأخر البلاد ثقافيا .. كما كان للمذابح الشهيرة
التي سببها قواد المنصور بالسودان الغربي خاصة مذبحة مسجد سنكرى
أثر سيء في نفوس السودانيين.(١)

---

(١) وتعتبر مذبحة مسجد سنكرى من الأحداث التي يندى لها الجبين
خجلا كما هي في الوقت نفسه وصمة عار في جبين أحمد المنصور
وجميع السعديين . ودليل قاطع على الخيانة التي دبرها أحمد المنصور
لتخريب غرب افريقيا وسرقة ذهبها الى المغرب.. فجمع الناس في مسجد
سنكرى بتمبكتو للوعظ والارشاد عقب انتصارهم على السودان فاذا
بالجنود قد اغلقوا أبواب المسجد وقاموا بالقتل داخل المسجد ثم
تركوا من كان بالمسجد بين قتلى وجرحى . هذا ما فعله أهل المغرب
بالسودان الغربي .

ونخلص من كل ذلك الى القول بأن انتشار الاسلام بواسطة الأسر المالكة في المنطقة قد توقف بسبب الغزو المغربي لامبراطورية صنغى الذى قام بها أحمد المنصور الذهبي بتاريخ ٢٢محرم عام ١٠٠٢ هـ حيث قتلوا أهل المدينة وأغلقوا على الناس أبواب مسجد سنكرى وقتلوهم أوجرحوهم.

يقول صاحب الفتاش :

" فلما اجتمع الناس غلقت أبواب المسجد ووقف الرماة على الأبواب والسطوح فكان من أمر الله ما كان مما لا ينبغي ذكره ولا يحتمل القلب جلب ما كان هناك .." (١)

وعلق على ذلك صاحب تاريخ السودان بقوله :

" وقد حدثت مذبحة جامع سنكرى في يوم الاثنين وعشرين محرم عام اثنين وألف ". (٢)

من هذا التاريخ انتهت الامبراطوريات الاسلامية في غرب افريقيا كما توقفت جميع الحركات الاقتصادية والثقافية والعسكرية والسياسية .. ولم توجد بعد ذلك أية قوة مركزية تحمى الدعوة والدعاة .. من هنا آلت مسئولية الدعوة الى جماعتين لهما تأثيرهما الكبير في عقائد الناس في المنطقة هما :

---

(١) محمود كعت التنبكتي . المصدر السابق ص ١٧٣.

(٢) السعدى المصدر السابق ص ١٦٩.

١ - الجماعة القادرية.

٢ - الجماعة التيجانية .

فلنواجه اذن هاتين الجماعتين لبيان دورهما في تاريخ الدعوة الاسلامية من جهة و خطرهما في عقائد الناس أيضا من جهة أخرى .

٦

ثالثا - انتشار الاسلام في بلاد السودان الغربي بواسطة الصوفية : (١)

وقد استغرقت ثلاثة قرون متتالية اعتبارا من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر الميلاديين وبالتحديد من سنة ١٥٩٣م - ١٩٠٠م .

قد تحدثنا - فيما سبق - عن دور المرابطين والأسر المالكة في نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة والآن نود أن نتحدث عن دور الصوفية في نشر هذه العقيدة .

ان من المحقق أن طرق الصوفية كثيرة جدا ، ولكننا اذا تتبعنا بدقة متناهية الطرق الصوفية التي نشرت العقيدة الاسلامية في افريقيا نجد أشهرها ثلاثة هي :

١ - القادرية .

٢ - التيجانية .

٣ - السنوسية .

---

(١) اذا دققنا النظر في تعريفات المتقدمين للصوفية نجد أغلبها تشير الى الزهد في الدنيا وترك الشهرة والميل الى التواضع والخمول وتجريد العمل لله عز وجل . ولكن الصوفية قد مرت بعدة مراحل ، فقد كانت في أولها زهدا في الدنيا وانقطاعا لعبادة الله عز وجل ، ثم صارت حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة ثم صارت الحادا وخروجا عن دين الله . . هذا ما أيده شيخ الاسلام (ابن تيمية) رحمه الله مبينا رأيه فيه اذ يقول :

" والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله . ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ،

===

....

=== وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب . ومن المنتسبين اليهم من هو ظالم لنفسه عاص ربه وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلا فان أكثر مشائخ الطريق أنكروه وأخرجوه من الطريق مثل الجنيد بن محمد ، راجع مجموع الفتاوى جـ١١ ص١٨ . وهكذا قسم الشيخ الصوفية الى متقدمين ومعتدلين والى منحرفين . وأما الباحث (محمود عبد الرؤوف القاسم) في كتابه القيم : " الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ص ٩ فهو يرى أنه (لا يوجد هناك الا صوفية واحدة غايتها واحدة منذ أن وجدت الصوفية حتى النهاية) ولم يشذ في ذلك حتى الجنيد الذى اعتبره الشيخ ابن تيميه من المعتدلين ، فنقل عن الجنيد قوله : (الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم " راجع الرسالة القشيرية ص١٢٧ أبو القاسم عبد هوازن القشيرى .

هذه هي أشهر الطرق الصوفية التي نشرت العقيدة الاسلامية في افريقيا ،ولكن القادرية والتيجانية كانتا أوسع نشاطا في النصف الغربي من القارة ، والسنونسية كانت أوسع نشاطا في النصف الشرقي . فلنكتف بالحديث عن القادرية والتيجانية اللتين انتشرتا في هذا القطاع الذى خصصناه لهذه الدراسة .

ولكننا - قبل الحديث عن هاتين الجماعتين اللتين تزعمتا الدعوة الاسلامية في المنطقة فترة طويلة ،يجمل بنا أن نشير الى نقطة لها أهميتها الكبرى هي قول بعض المرجفين من الأوربيين ومن والاهم من السودانيين فهم يدعون ان الاسلام لم يصل الى بلاد السودان الغربي الا وهو مشوه و ممزوج بالخرافات والبدع والشركيات . لذلك ألف بعض الأوربيين كتبا . ومن أشهرها كتاب (اسلام افريقيا السوداء) .(١)
Islam - Noirs
يريدون بذلك أن يقولوا ان الاسلام الذى وصل في افريقيا غير الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

نعم ان أصحاب النظرة المتسرعة قد يستطيعون أن يقولوا بذلك ولكن المدققين الباحثين المنصفين لا يقولون بذلك أبدا .. لأن تاريخ دخول الاسلام وانتشاره في المنطقة كما شرحناه سابقا ينفي هذه الأراجيف وقد ثبت تاريخيا أن أول طريقة صوفية و هي (القادرية) لم تصل في المنطقة الا في القرن الخامس عشر الميلادى .(٢)

---

(١) مؤلفه : لي ساتيليتي -أ - Le Chatelier - A -

(٢) راجع الدعوة الى الاسلام (توماس أرنولد) ص٢٧٧.

وقد دخل الاسلام أول ما دخل في المنطقة سنة (٤٣هـ - ٦٦١م)(١)
لتكون الفترة الزمنية بين دخول الاسلام في المنطقة وبين وصول الصوفية
هناك / اذن ثمانية قرون على الأقل .

بناء على هذا الاستنتاج نستطيع أن نقول ان بلاد السودان الغربي
قد مضت عليها عشرة قرون وكان الناس على العقيدة الاسلامية السلفية التي
جاءتهم من قبل العرب وفي مقدمتهم عقبة بن نافع الفهرى (ت ٦٣) هـ
ثم صارت شئون الدعوة الاسلامية الى أيدى الجماعة الصوفية ، بعد انقراض
الامبراطوريات الاسلامية الثلاثة : " غانة ومالي وصنغاى " في آخر
القرن السادس عشر فحينئذ صارت الصوفية تلقح العقيدة الاسلامية
بسموم الأفكار الصوفية الدخيلة على الاسلام حتى أصبح الناس هناك لا يفرقون
بين العقيدة الاسلامية وبين هذه العقيدة الصوفية والعادات الافريقية .
لأن الاسلام قد أصبح مزيجا بالخرافات والبدع والتقاليد الافريقية الموروثة . .

فضرورة البحث العلمي الأكاديمي تقتضينا اذن ان لا نكتفي بمجرد
هذا الاستنتاج بل يجب علينا أن نعود الى تاريخ المنطقة مرة ثانية للوصول
الى وقائع تاريخية تدل بشكل واضح على ان الاسلام وصل الى غرب افريقيا
بالعقيدة السلفية النقية غير ممزوجة بشيء من الخرافات والبدع الصوفية
والتقاليد الافريقية الوثنية ، ولما كانت هذه الوقائع التاريخية كثيرة فسنكتفي
بحالتين فقط وفيهما الكفاية . احداهما : الناحية العقدية والتعبدية .
وثانيهما : الناحية الاجتماعية .

---

(١) راجع ما كتبناه سابقا .

أولا - الناحية العقدية والشعائر التعبدية:

قد رأينا فيما سبق أن العرب حملوا زمام الدعوة الاسلامية منذ القرن الأول الهجرى نحو بلاد السودان الغربي فتسلمه منهم البربر - كما قلنا سابقا - ليندفعوا به جنوب الصحراء حيث مساكن السودان الغربي وهناك أسلموه الى السودان وكل هذه الجماعات قد تعاونت في الهتاف بأن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وسرعان ما دوى هذا الهتاف في أرجاء السودان لمعرفتهم اليقينية لمعنى لا اله الا الله الذى مؤداه : " لا معبود بحق الا الله " أى معناه النقلة الكاملة من جميع أحوال الوثنية الى الله تعالى . وخلع جميع المعبودات سوى الله تعالى .. ان هذه الفكرة كانت واضحة تمام الوضوح في أذهان المؤمنين في المنطقة قبل وصول الصوفية . بل كانوا يعتقدون اعتقادا جازما أن الخالق غير المخلوق ..لأن الخالق هو الذى يجب أن يعبده العبد وحده/وأما المخلوق - مهما تعالت درجته لايستحق العبادة ولا يستحق أن يسجد له.. ولو رجعنا الى القصة التي جرت بين امبراطورية مالى منسا موسى السالف الذكر ١٢٥٥ - وبين محمد القلاوون (٧٢٤ هـ) سلطان مصر ،لو رجعنا الى هذه القصة لعرفنا أن أهل السودان الغربي كانوا على العقيدة الصافية التي وصلت اليهم من العرب والبربر فطبقوها في جميع شئونهم الخاصة والعامة فارتفعت أنماط حياتهم وعلا شأنهم في العالم المعاصر لهم فاستطاعوا بهذه العقيدة الواضحة أن يؤسسوا امبراطوريتهم الاسلامية والتي استمرت زهاء ستة قرون

تقريبا ابتداء من السنة (١٠٦٧م) [١] الى سنة (١٥٩٣م) [٢] .
وقد مضت هذه القرون كلها تحت ظل العقيدة السلفية الصحيحة البعيدة من شوائب الشرك والخرافات والبدع التي خيمت على العقيدة بعدما آلت الدعوة الى الصوفية .

لقد تصدت عدة مصادر جادة لذكر هذه القصة التي تمثل -بحق- عقائد أهل السودان الصحيحة قبل انتشار الصوفية هناك ..

فيكفينا هنا من هذه المصادر ما ذكره القلقشندى عن هذه القصة لأن كتابته فيها بمثابة الخلاصة لما كتبه الآخرون فلندعه يتحدث عن هذه القصة التي تتجلى فيها عقيدة أهل السودان الصحيحة قبل عصر البدع والخرافات قد تحدث أولا عن جهود هذا الملك في العمل الاسلامي ثم عن عقيدته السلفية اذ يقول :

---

(١) هو تاريخ بداية امبراطورية غانة الاسلامية ثم جاءت بعدها مالي وصنغاى .
(٢) هو تاريخ سقوط امبراطورية صنغاى في أيدى السعديين من المغرب .. وبعد ذلك آلت الدعوة الى الصوفية . فمدة هذه الامبراطورية الاسلامية التي طبقت العقيدة الاسلامية تقدر بدقة (٥٢٦) سنة راجع العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ،الشيخ عوض الله ص ١٠٧ وراجع كذلك تاريخ الدول الاسلامية السودانية بافريقيا الغربية ،عبد الرحمن الزكي ص ١٦٠.

" كان منسا موسى بن أبي بكر رجلا فاضلا صالحا وملكا عظيما له أخبار في العدل تؤثر عنه وعظمت تلك المملكة في أيامه الى الغاية وافتتح الكثير من البلاد فدخلوا في دين الله أفواجا .. حكى ابن أمير حاجب والي مصر عنه انه فتح بسيفه وحده أربعا وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال و قرى وضياع ". (١)

وأما عن عقيدته فيقول :

" يقول المهمندار (٢) الذى عين لاستقبال منسا موسى عند وصوله على أرض مصر وهو في طريقه الى الحج وكان ذلك في رجب سنة (٧٢٤هـ/ يوليو ١٣٢٤م) .

" وعندما دخل منسا موسى على السلطان الناصر محمد بن قلاوون ،

----

(١) صبح الأعشى ٥/ ٢٩٤-٢٩٥ .

(٢) المهمندار : كلمة فارسية مكونة من كلمتين : (مهمن) بفتح الميم وسكون الهاء وفتح الميم الثانية وسكون النون يعني (ضيف) و (دار) بمعنى (ممسك) و مهمته تلقي الرسائل والوفود الواردين الى السلطان وانزالهم بدور الضيافة . المصدر السابق ٤/ ٢٢ و ٥/ ٤٥٩ الذهب المسبوك ص ١١٢ وراجع كذلك مسالك الأبصار جـ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٤ وراجع كذلك دولة مالي الاسلامية للدكتور ابراهيم طرخان ص ٨٢ .

طلب اليه أن يقبل الأرض ،فتوقف وأبى اباء ظاهرا وقال للترجمان لعله (يونس و يهال التكروري) الذى كان يعمل ترجمانا في مصر : كيف يجوز هذا؟ أنا مالكي المذهب ولا أسجد لغير الله ".

أعفاه السلطان الناصر ذلك التقليد و قربه وأكرمه وتحدث معه.(١)

ان هذه القصة الطريفة تدل دلالة واضحة على مدى عمق العقيدة الاسلامية لدى سكان هذه المنطقة قبل أن يصل هناك المتصوفون.

ولم يكتف هذا الملك بمجرد الاباء أن يسجد أمام السلطان المصرى بل استغرب ذلك فقال " وكيف يجوز ذلك " .. فتبين لنا أنهم قد فهموا الاسلام فهما صحيحا شاملا لكلٍ من التصور الاعتقادى في الله والشعائر التعبدية وتحكيم كتابه واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

فعلى القارئ الكريم أن يقارن بين هذه الحقائق التاريخية التي سجلها المؤرخون العرب ،قبل انتشار الصوفية التي تؤمن بوحدة الوجود فمنسا موسى يصرح بأنه مالكي المذهب ولا يسجد لغير الله. وأما الصوفية التي شوهت العقيدة الاسلامية في المنطقة /فهي تقول :

" فكل عابد أو ساجد لغير الله في الظاهر ،فما عبد ولا سجد الالله لأنه هو المتجلى في تلك الألباس" .(٢)

---

(١) صبح الاعشى ٥/ ٢٩٥.

(٢) جواهر المعاني ١/ ١٨٤ ، ١٨٥ تأليف على حرازم . يعتبر هذا الكتاب أهم كتب طريقة التيجانية حتى انهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه كتابي هذا وأنا ألفته " بغية المستفيد ص ١٨٣. وقد شرع على حرازم في جمعه في أوائل شعبان سنة ١٢١٣هـ ،

===

والتي تقول :

" وما الكلب والخنزير الا الهنا "(١) وغير ذلك من الشطحات الصوفية التي اصبحت العقيدة المعتمدة عليها في المنطقة سيأتي تفصيل ذلك في صفحات قادمة .. ان شاء الله تعالى .

هكذا تبين لنا أن سكان المنطقة كانوا على عقيدة صحيحة في الله وأن هذا التشويه الذى نشهده اليوم جاء في وقت متأخر .

جاء مع الطريقة الصوفية منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى .. الذى انتشرت فيه الصوفية بشكل ملموس . وذلك بعد غياب الامبراطوريات الاسلامية خاصة امبراطورية صنغاى .

وقبل أن نتحدث عن جهود سكان المنطقة في نشر الشعائر التعبدية يجمل بنا أن نتحدث عن مصادر أخرى تؤكد الحادثة التي جرت بين منسا موسى والسلطان المصري (الناصر محمد قلاوون) [illegible] السالف الذكر فأقول :

=== وانتهى منه في أواسط ذى القعدة سنة ١٢١٤ هـ راجع جواهر المعاني ١/٨ وراجعه أيضا ٦/ ٢٨٥ ،وراجع بغية المستفيد ص ١٨٣ يشرح فيه المزيد تأليف محمد العربي .

(١) راجع الكشف عن حقيقة الصوفية محمد عبد الرؤوف القاسم ص ١٣٤ .

بســـــم اللــه الرحمـــن الرحيـــــم

هـذا لـم يكـن القلقشـنـدى وحـده الـذى انفـرد بذكـر الحادثـة التـي جـرت بيـن (منسامو س) والسـلطان المصـرى (الناصـر محمـد قلاوون) بـل قـد تحـدث عن هذه القصة جمع غفير من المؤرخيـن وأيدوها أيما تأييد .

ومثـلا" لـو رجعنـا الى كتـاب " مسـالك الابصـار في ممالـك الامصـار " لمؤلفـه العمـرى لوجـدنـا مايثلج القلـوب ، لان هـذا الكتـاب قـد جمـع فيـه كل مايتعلـق بحجة منساموسى . فقـد أثبـت فيـه أن السـجود قـد وقـع مـن منساموس فعـلا" ولكنـه كان ينوى بـه السـجود للـه تعالـى لا للسـلطان محمـد قـلاوون وعبـادتـه :

" ويقـال : أن رجـلا" كان بجـوار منساموسى عنـدما أبـى أن يقبل الارض للسلطان المملوكـي قـد أسـر اليـه ببعـض الكلمـات ، فقـال موسـى : " أنـا أسـجد للـه الذى خلقني وفطـرنـي ثـم سـجـد وتقـدم نحـو النـاصـر ، فقـام لـه بعـض القيـام وأجلسـه الى جانبـه وحادثـه " (١)

وقـد تحـدث المقريزى ايضـا " عـن هـذه القصـة ومشى علـى منـوال القلقشـندى وعبـارتهمـا وحـدة تقريبـا " ، قـال في كتابـه المشـهـور :

" الـذهـب المسـبوك في ذكـر مـن حـجّ مـن الخلفـاء والملـوك " ،

" وعنـدمـا دخـل منسـا موسـى علـى السـلطان الناصـر محمد قـلاوون طلـب اليـه أن يقبـل الارض ، فتوقـف موسـى وأبـى أبـاء ا" ظاهـرا " (٢)

" وقـال للترجمان لعلـه (يونـس ويمال) التكـرورى الـذى كـان يعمـل ترجمانـا " في مصـر - " أنـا مالكـي المـذهـب ولا أسـجد لغيـر اللـه أعفـاه السـلطان " (٣)

والجديـر بالذكـر أن منسـا موسـى لـم يفـاجأ بهـذا السـجود أمـام السـلطان وقـد كان عنـده علـم بهـذا قبـل وصـولـه الى أرض مصـر وذلـك ماحكاه العمـرى بأن منسـا موسـى كان عنـد وصـولـه

١- مسالك الابصار في ممالك الابصار ج ٢ ق ١ ورقة ٥٠٤ .

٢- الذهب المسبوك في ذكر حج من الخلفاء والملوك نشر الدكتور جمال الدين الشيال مصر ١٩٥٥ م

٣- المرجع السابق ج ٢ ق ١ ورقة ٥٠٤ .

لايرغب في مقابلة السلطان مخافة أن يأمره بالسجود واليك فيما يلي عبارة العمرى اذ يقول :

" قال المهندار : ولم يترك أي منسا موسى - أميراً " ولارب وظيفة سلطانية ، الا بعث اليه بالذهب ، وكنت أحاول في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الاوامر السلطانية فيأبى خشية تقبيل الارض للسلطان ويقول :

" جئت للحج لا لغيره ولم أزل به حتى وافق على ذلك " (١)

هكذا تضافرت الادلة على أن هذه الحادثة حقيقة تاريخية واقعة . وهكذا ايضا " أدركنا أن أهل السودان كانوا يعرفون معنى (لااله الا الله) أي لا معبود بحق الا الله .. والذى يزيد هذه القصة وضوحا " ماذكره العمرى عن الاستقبال الرائع الذى قوبل به منسا موسى عند وصوله في مصر اذ يقول :

" وصل منسا موسى القاهرة في رجب سنة ٧٢٤ هـ / يوليو ١١٢٣ م حيث استقبل بمايليق به من احترام وتقدير .. فقد أوفد السلطان الناصر محمد بقلاوون بعض كبار أمرائه لاستقباله .. وعين أبا العباس أحمد بن على (الخامانيُ) ليكون مرافقا " له ، خلال اقامته بالقاهرة " .

وأضاف قائلا" :

" قال المهندار : خرجنا لملتقاه من جهة السلطان أي من قبل السلطان فأكرمني أكراما " عظيما " وعاملني بأجمل الاداب ولكنه - أي منسا موسى - كان لايحدثني الا بترجمان مع اجادته اللسان العربي ، ولما قدم قدم للخزانة السلطانية حملا" من التبر " (٢)

هكذا أوضح العمرى كيفية دخوله في مصر وما قدمه هذا الملك السوداني للخزانة السلطانية ولكنه لم يبين لنا نوعية هذا التبر وقيمته ولكن ابن حجر بينه لنا في كتابه القيم : (الدرر الكاهنة) اذ يقول :

١- المرجع السابق ج ٢ ق ٢ و رقة ٥٠٤ - ٥٠٥

٢- المرجع السابق ج ٢ ق ٢ ورقة ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

" قدم (منسا موسى) للخزانة السلطانية شيئا " كثيرا " من التبر المعدني الذى لم يصنع " (١)

وكما قدر ابن حجر ايضا " مقدار هذا التبر فقال :

" ان قيمة هذه الهدية بنحو خمسة آلاف مثقال " (٢)

وقد أشار الى هذه الهدية كل من أبن خلدون والمقريزى ٠٠ الا ان ابن خلدون قدرها بنحو خمسين ألف دينار " (٣) وأما المقريزى فقد قال :

" ان هدايا منسا موسى كانت جليلة وأن ذهبه كان كثيرا " " (٤)

ولم يكتف ابن حجر بالاشارة الى قيمة هذه الهدية وانما تحدث ايضا " عما حدث في أسواق الذهب في مصر من انخفاض شعرها بعد نزول هذا الملك على أرض مصر فقال :

" وحدث أن أنخفض سعر الذهب في أيدى التجار في القاهرة بسبب اغراقها بذهب السودان وبسبب كثرة الذهب في أيدى الناس ٠٠ ولم يرتفع سعر الذهب بعد ذلك عدة سنوات طويلة ٠٠ " (٥)

هذا ماكان من الجانب السوداني ٠ وأما ماكان من الجانب المصرى من حفاوة وتكريم وحسن ضيافة واستقبال فقد تحدث عنه المورخون ايضا " ٠ يرينا ذلك ماسجله المورخ المصرى المعاصر الدكتور ابراهيم طرخان في كتابه القيم دولة مالي الاسلامية " اذ يقول :

" بعث السلطان الناصر الى ضيفه هدية حافلة وهي عبارة عن منطقة ذهب مرصعة وسيف محلى ومنديل مذهب وفرسين ملجمين مسرحين وأعلام ٠٠ وأجرى عليه الانزال والاقامة الوفرة مدة اقامته ٠٠ " (٦)

ويتحدث المقريزى ايضا " عما قدمه السلطان المصرى للملك السوداني عند رحيله ومغادرته

١- الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٨٣ ٠
٢- الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٨٣ ٠
٣- العبر جـ ٥ ص ٤٢٤ ٠
٤- الذهب المسبوك ص ١١٢ ٠
٥ - الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٨٣ ٠
٦- دولة مالى الاسلامية ، الدكتور ابراهيم طرخان ص (٨٣ - ٨٤) ٠

أرض مصر متوجهـا " الى الحجـار اذ يقــول :

" فلما حان وقت الرحيل الى الاراضي الحجازيـة زود الناصر ضيفه بمبلغ كبير من المـــال وزوده بالهجـن والازواد لـه ولاصحابـه ، وأعدّ لـه مايلـزم من العليـق لدوابـه على طـول الطريـق الى الحجـاز وأوصـى أمير ركب الحـاج المصرى الذى صحبه وهو الامير سيف الدين (أيمـــن بالمبالغـة في احترامـه والقيـام بجميـع مايحتاجـه " (١)

ويتحدث العمرى ايضا " عما بذلـه من العطايا على أهل مكة والمدينـة اذ يقـول :

" وأفـاض على الجميع وأهل الحرميـن بالاحسـان يقـول الممندار " ونالني منه نحو مائتـــي مثقـال ذهب " (٢)

وعلـق السـعدى على مابذلـه موسـى من صدقات بالحجاز بقـولـه :

" ومع قوتـه واتسـاع ملكـه ، لـم يتصـدق في الحرميـن بأكثـر من عشرين ألف ذهـــب ، مع أن أسكيا الحـاج محمـد ملـك صنفـي ، تصـدق بمائة ألـف ذهب " (٣)

هكـــذا كان اللقـاء بين منسا موسـى والسـلطان محمد القلاوون رائعاً " ومشهورا " ٠

١- الذهب المسـبوك ص ١١٣ ٠

٢- مسالك الابصار جـ ٢ ق ٣ ورقـة ٥٠٤ ـ ٥٠٥ ٠

٣- تاريخ السودان ص ٧ ، وراجع أمبراطوريـة صنفـي الاسـلاميـة للدكتور ابراهيم طرخان وراجـــع كتـاب دولـة مـالـي الاسـلاميـة للدكتـور ابراهيم طرخان ص ٨٤ ٠

وراجع تاريخ الفتاس ، محمـود كعش ص ١٢ ٠

جهود سكان المنطقة في ناحية الشعائر التعبدية

وقد اشتهر المسلمون في هذه المنطقة بالتمسك بالدين الاسلامي وخاصة المحافظة على أداء صلاة الجماعة في مواعيدها . وكانت مساجدهم مليئة بالمصلين . وقد تحدث عن ذلك كثير من الرحالة العرب ،فلنكتف هنا بما كتبه ابن بطوطة الذى زار المنطقة و كتب عنها عن كثب بل عن كتب أيضا فيقول في وصف محافظة أهل مالي على صلاة الجماعة :

" و اذا كان يوم الجمعة ،ولم يبكر الانسان الى المسجد ،لم يجد أن يصلي لكثرة الزحام ،وعادتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجادة فيبسطها بموضع يستحقه به ،ثم يذهب الى المسجد ،وسجاداتهم من شعف شجر يشبه النخيل ولا ثمرة له ،وفيها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ،ولو لم يكن لأحدهم الا قميص ،غسله ونظفه وشهد به الجمعة ".(١)

وهكذا كان فهم الناس هناك للدين عميقا ،فلنرجع الى ابن بطوطة مرة أخرى ليرينا كيف كان تطبيقهم للأعياد الاسلامية . .

وقد شهد ابن بطوطة موكب السلطان لصلاة العيد ، في مدينة مالي وكان وصفه له كمايلي :

----

(١) تحفة النظار ٤٢٢/٤ وانظر ذلك في دولة مالي الاسلامية ،الدكتور ابراهيم طرخان ص ١٥٠.

" وحضرت بمالي عيدى الأضحى والفطر ،فخرج الناس الى المصلى وهو قريب من قصر السلطان ،وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان ،والسودان لا يلبسون الطيلسان (١) الا في العيد ،ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه في سائر الأيام ، وكانوا يوم العيد بين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ،ونصب عند المصلى خباء (٢) فدخله السلطان وأصلح من شأنه ،ثم خرج الى المصلى ،فقضيت الصلاة والخطبة ، ثم نزل الخطيب وقعد بين يدى السلطان ،وتكلم بكلام كثير ،وهناك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب . وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه " (٣) وهكذا ذكر ذلك ابن بطوطة بدون أى تعليق يشين ".

واذا أمعنا النظر في هذا النص (نصل) الى جملة من الحقائق المتعلقة بمدى الفهم العميق للمفاهيم الاسلامية لدى السودانيين آنذاك ومن ذلك مايلي :

١ - ان عدم تعليق ابن بطوطة على كيفية العيد لدى السودانيين لدليل قاطع على أن العيد كان على الكيفية التي كان عليها العالم الاسلامي الذى زاره آنذاك . وقد دخل عاصمة مالي في جمادى الأولى ٧٥٢ هـ / يوليو ١٣٥٢ م. (٤)

---

(١) الطيلسان : رداء أسود والجمع طيالسة وهو لفظ فارسي معرب . القاموس المحيط .

(٢) الخباء : والجمع أخبية ،خيمة من وبر أوصوف ولا تكون من شعر.

(٣) تحفة النظار ٤/٩٠٤-٠٤١٠.

(٤) دولة مالي الاسلامية . المصدر السابق ص ١٠٠.

٢ - ثبت في هذا النص وجود قضاة وخطباء وفقهاء في هذه البلاد يحكمون بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

٣ - أن الخطباء كانوا يتكلمون باللغة العربية الفصحى بدليل أن هناك رجلا كان يبين ذلك للناس بلسانهم.

وقد أثارت هذه الحادثة تعليق الدكتور ابراهيم طرخان اذ يقول :

" ووجود هذا الوسيط لترجمة الخطبة من اللغة العربية الى لغة الماندنجو، لأن الصلاة وجميع طقوس الاسلام كانت تؤدى باللغة العربية وعموما، كانت الحياة الدينية في (مالي) كما وصفها الكتاب الأجانب سليمة .. "(١)

هكذا يؤكد هذا الكاتب الاسلامي الدكتور(طرخان) أن جميع الحياة الدينية كانت في مالي سليمة .. سليمة من شوائب الشرك في التصور الاعتقادى سليمة من اضافات بشرية في الشعائر التعبدية وسليمة من التقاليد الموروثة والبدع والخرافات في تطبيق الأحكام الشرعية ..

ثم ان مما أثار تعليق طرخان أيضا حرمة المساجد في مالي وازدهار الحركة العلمية، وأما بالنسبة لحرمة المساجد فيقول :

" وللمساجد عند السودانيين حرمة كبيرة كما هو مقرر في مبادىء الاسلام عامة، وقد أشار ابن بطوطة الى أن أهل مالي كانوا يستجيرون بالمساجد واذا لم يوجد مسجد قريب، استجاروا بدار الخطيب (١) وحدث أن استجارت زوجة مانسا سليمان بدار الخطيب، عندما كشف اشتراكها في مؤامرة ".(٢)

---

(١) دولة مالي الاسلامية ص ١٥٠ ،

راجع الى : Le chatelier p.134

(٢) المرجع نفسه ص ١٥١.

وأما بالنسبة للحركة العلمية فقد علق عليها طرخان بقوله :

" وازدهرت الحركة العلمية في مالي ، وعرف عن السلطان كنكن موسى أنه استخدم عددا كبيرا من العلماء ولا سيما من مصر والمغرب والأندلس فامتلأت بلاده بالعلماء من السود والبيض على السواء . وكان ازدهار حركة التبادل التجارى بين مالي والخوارج ، من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية في مالي ".

وأضاف قائلا : " وبينما كانت تمبكت مملوءة بالعلماء والدراسات الاسلامية ، كانت حروب المائة عام تخرب و تدمر أوربا . . . " (١)

هكذا كانت الحياة في بلاد السودان الغربي قبل انتشار الصوفية بالمنطقة ، حياة اسلامية وقد تناول التطبيق عندهم جميع شئون الحياة ، من تصورهم الاعتقادى والشعائر التعبدية والحاكمية . وحتى اللباس أيضا بل تناول جميع المجالات الاجتماعية والاخلاقية ، واليك فيما يلي نماذج ذلك :

---

(١) دولة مالي الاسلامية ص ١٥١ .

وقد بدأت حرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا عام ١٣٣٧ حول املاك انجلترا في فرنسا . وتخلل هذه الحرب فترات هدوء ولم تنته الا بطرد الانجليز نهائيا من املاكهم عام ١٤٥٣م وظهرت خلالها جان دارك ببطولتها . راجع :

Luce France Pendant la Guerre de centans
Paris 1892. CENT ANS

ب ـ المجالات الاجتماعية :

وقد رأينا في الباب الأول أن العرى كان هو الزى الغالب لدى سكان المنطقة ،ولكن لما اعتنق الناس هذا الدين الرباني لم يكتفوا بمجرد اللباس بل بدأوا يقلدون المسلمين في شكل لباسهم .. يقول الادريسي :

" فقد عملت حكومة غانا الاسلامية على الاتصال المباشر بالخلافة العباسية في بغداد وأجبرت رعاياها على لبس العمامة ". (١)

وقد أكد حسن الوزان (ليو الافريقي) الذى زار المنطقة في القرن السادس عشر الميلادى أكد أن نسوان بلاد السودان الغربي كن لا يخرجن من بيوتهن الا والحجاب الشرعي على وجوههن وعبارته :

" ولا زال من عادة نساء المدينة وضع الحجاب على وجوههن ، باستثناء الاماء اللواتي يبعن كل الاشياء المأكولة ". (١)

وأضاف قائلا :

" ويوجد في تومبوكتو العديد من القضاة والعلماء والائمة ولجميعهم مرتبات طيبة وهو يكرم الادباء كثيرا . ويباع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر . ويجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع ...". (٢)

---

(١) وصف افريقيا . الترجمة العربية ص ٥٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤١ .

وهكذا دلت هذه التقارير على أن سكان بلاد السودان الغربي قد فهموا الاسلام فهما سليماكما جاء به الدعاة من العرب والبربر فطبقوه تطبيقا كاملا .

وأما هذه البدع والخرافات التي دخلت في الاسلام هناك فهي لم تكن موجودة يوم أن كانت الامبراطوريات الاسلامية هي المسيطرة على مسيرة الدعوة الاسلامية ، ويوم أن كانت الأسر الحاكمة قائمة بزمام الدعوة . ولكن هذه الخرافات ظهرت بعد انقراض هذه الامبراطوريات ، فاذا بالصوفية تظهر وتنتشر وتقوم بأعباء مسئولية الدعوة في المنطقة .. فحينئذ وجد هذا المسخ وذلك التشويه لمعالم الاسلام في المنطقة ..

المعلوم أن الصوفية تزدهر و تنمو حلقاتها أو ما يسمى بـ (الحضرة) في البيئات البسيطة ، حيث يوجد فراغ روحي ، وحيث لا تبتلع الأعمال أوقات الناس في مثل هذه البيئات يوجد المتصوفة ويوجد الدراويش الذين يصفهم الخوارزمي بقوله :

" ان الواحد منهم خفيف المظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه اليه عوائل النائبات ، ولا يستبطنه اخوانه ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر منه في الفطر صدقة . ولا في العيد أضحية فهو كالمسجد يحمل اليه ولا يحمل عليه ، ويؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه فهو اما غانم أو سالم .." (١)

---

(١) رسائل الخوارزمي ص ٩٠ .

وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار في كثير من البلاد الاسلامية حتى مطلع القرن العشرين وكان أكثر ازدهارا في الأماكن التي ينطبق عليها الوصف السابق ،أى يوجد فراغ روحي ولا تبتلع الأعمال فيها أوقات الناس . فمن الطبيعي أن تزدهر الطرق الصوفية في بلاد السودان الغربي حيث بساطة الحياة وفراغ الوقت بعدما قضى الغزو المراكشي على مملكة صنغاى وعلى جميع الحركات فيها بل نفى جيوش المنصور علماء مدينة تنبكتو الى المراكش فأصبحت تمبكتو من جراء هذا الغزو جسما بلا روح كما وصف لنا صاحب الفتاش تنبكت بعد نفي العلماء وتخريب مسجد سنكرى اذ يقول :

" ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تنبكت جسما بلا روح وانعكس أمورها وتغير حالها وتبدل عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد أراذلها على عظمائها وباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وعطل أحكام الشريعة وأميتت السنة وأحييت البدع ولا بقي فيها من يتمسك بالسنة ولا من يسير على منهج التقوى .." (١)

فهذه تنبكت التي كانت منارة للعلم والأدب ،وكان أهلها يتحلون بفضائل الأخلاق وبالتمسك بالسنة المطهرة وتطبيق شريعة الله كما جاءت آلت بعد هذا الغزو - الى بؤرة الفساد ومكانا للضلال لا لشيء الا أن أحمد المنصور طمع في ثروة اخوانه السودانيين فقضى على الحضارة الاسلامية هناك.

---

(١) تاريخ الفتاش ،محمود كعت ص ١٧٥ ،وقد سبق أن استدللنا بهذا النص ولكننا أعدناه للمناسبة .

ففي هذه الحالة التي اميتت فيها السنة وعطل العمل بالشريعة الغراء ،انتشرت الصوفية في غربي افريقيا فأخذ الناس يتطلعون الى ما يملأ فراغها الروحي فوجدوا في التجمع حول الشيخ والانضمام لحلقات الذكر ما يشبع هذا الظمأ ويسد هذه الحاجة.

ومن هنا جاء دور الصوفية في الدعوة الاسلامية يعني اعتبارا من السنة ١٠٠٢/١٠٢٢ هـ التي اندحرت فيها مملكة صنغاى أمام قوات أحمد المنصور الذهبي الذى قضى على الحضارة الاسلامية في المنطقة ثم جاء الاستعمار بعده فقضى على البقية الباقية .. فلما جاء هذا الدور الصوفي للدعوة الاسلامية أخذت هذه الدعوة مجالات غير المجالات السابقة التي رأيناها مع الدعاة من العرب والبربر والأسر المالكة (السونينكي والتكرور والماندنجو وصنغاى) فمثلا كان التجار ينزلون المدن ،ولكن رجال الطرق الصوفية يميلون الى القرى والنجوع (١) فقد كان الشيخ ومريدوه ينزلون على القبيلة ، ويقيمون حلقات الذكر وينشدون الأناشيد والتراتيل الصوفية .. والشيخ تكسوه حالة من وقار ، والمريدون يبرزون له أسمى الولاء والطاعة ،يلتمسون منه البركة والدعوات الصالحة ،وطالما شاع الاعتقاد بأن للشيخ كرامات واسعة يلعب الخيال بها فيصل الى فك العاني وشفاء المريض وازالة العقم والطيران في الجو والاخبار عن المغيبات وعن رجال الغيب (الابدال). وكان الناس يتناقلون هذه الشائعات ويضيفون اليها ،فتتوافد على الشيخ جموع الراغبين في دخول الدين والانضمام للمريدين وللحصول على التعاويذ والتمائم من الشيخ .. فكان هذا بداية التحريف للمفاهيم الاسلامية في المنطقة ...

وقد كان التجار من العرب والبربر وغيرهم يسعون للربح واقامة

---

(١) طلب الكلأ في موضعه.

دكاكين الصناع كما شهدناها في الحي الاسلامي في مدينة غانة ، ولكن رجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال ولا يسعون الا الكفاف فظن الناس أن هذا التقشف هو الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.(١)

ومن هنا كان المريد يلقب في بلاد السودان الغربي بالفقير أو غريبو دين (Gariboudin) أو مور دين (Mauridin)

ففهم من هذا الفهم السخيف أن المريد يجب أن يكون غريبا في وطنه وفوق أرضه وأن يتصف بالفقر والفاقة والانعزالية والبعد عن جميع الحركات التي من شأنها أن تؤدى الى جمع الأموال واكتساب المعيشة بل الذى يجب في حقه أن يتكفف في ليلتي الجمعة والاثنين أمام الناس .. ليأخذ منهم معيشته عن طريق الصدقات .. ولا يجوز له أيضا أن يتأنق في اللباس بل يجب عليه أن يبقى في ثوب واحد طيلة أيام وشهور .. من هنا عرفنا أيضا كيف انحرف الناس عن الفهم الصحيح للاسلام الذى طبقه الجيل الأول من هذه الأمة السوداء فقد وصف ابن بطوطة فيما نقلناه عنه سابقا سكان مالي بصفات حميدة منها : " لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم الا قميص ، غسله و نظفه وشهد به الجمعة ".(٢)

---

(١) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/٢٠٩-٢١٠ ولكن بتصرف.

(٢) - تحفة النظار ٤/٣٨٧ .

ولكن الصوفية لما آلت اليها القيادة الروحية ،نهت الناس عن التزين والتأنق في اللباس فاعتبره المريدون جريمة وحبا للدنيا يجب الابتعاد عنه .. ولما جاءت الأجيال المتأخرة اعتقدت اعتقادا جازما أن هذه الصورة الممسوخة الهزيلة هي حقيقة الاسلام التي لا يجوز الحيد عنها قيد شبر .. وكل محاولة لتغيير هذا الوضع الشين تعتبر عندهم محاولة لتطبيق المذهب الوهابي (١) في المنطقة فاذا هم معرضون عن صاحب هذه المحاولة * وكأنهم حمر مستنفرة/فرت من قسورة * (٢).

ومن انحرافات أو تحريفات الصوفية لحقيقة الدعوة الاسلامية ،أننا قد شهدنا في الباب الأول من هذا البحث أن الحركة التجارية كانت مزدهرة بين السودان والشمال الافريقي ،وكانت نشاطات التجار والمهاجرين من الدعاة - غالبا - في النهار . ولكن نشاط الطرق الصوفية يرتبط بالليل والاستراحة في البيوت نهارا .. ففي الليل ترى الجموع من الناس يهرعون الى حلقة الذكر من شيب وشبان ورجال و نساء مختلطين . بل ربما انتقلوا من نجع الى نجع ،و من قرية الى قرية وهم يرفعون أصواتهم بالتراتيل الصوفية فيها جاذبية تشد لها الحاضر وتقرب لها البعيد . وأما أتباع الطريقة التيجانية خاصة فيطفؤن جميع الأنوار لهذه الحلقة ويضعون أمامهم ثوبا أبيض معتقدين أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان علي) (٣) يحضرون دائما هذه الحلقة فيجلسون على هذا البساط الأبيض ". (٣)

---

(١) _ مستفاد من البحث الميداني .

(٢) سورة _المدثر آية ٥٠.

(٣) مستفاد من الرحلة الميدانية في سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

وفي هدأة الليل تغمر أصوات الذاكرين النجع كله ،ان هـذا بلا شك تحريف لطريقة الدعوة الاسلامية التي وردت في الكتاب والسنة والتي طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشى عليها السلف الصالح والتي طبقها أيضا الدعاة الذين نشروا الاسلام في المنطقة من العرب والبربر والأسر المالكة من أبناء البلاد .. ولما جاء الجيل الجديد بعدما خيمت الأفكار الصوفية على العقيدة الاسلامية ،أعتبر أن هذا ،هو الأسلوب الأمثل للدعوة الى الاسلام يعني رفع الأصوات الجماعية من الرجال والنساء . و تارة يصاحب هذه الأصوات التصفيق والرقص وخاصة الرقص المسمى عندهم في لغـة الماندنجو بـ (مادحو) (Madiho) ففي هذا الرقص تجد الشيخ نفسه في الصف الأول من الرقص " أو يقف أحيانا في وسط دائرة من المريدين يرفع صوته أولا بأناشيد صوفية فيرددها المريدون بأصواتهم المرتفعة المدوية . وفي يد كل واحد منهم حديدة بشكل ناقوس يسمونها (داوورو) (Daworo) يضربون عليها ثم يرقصون على نغمة هذه الحديـدة رجالا ونساء ، ... والعجيب أنهم يعتقدون اعتقادا جازما أن في هـذا الرقص الأجر العظيم عند الله ،لأنه ثناء لله وشكر لأنعمه ومدح لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لذلك يبتدئون غالبا بالشعر الآتي :

" وبدا للوجود منك كريم من كريم آباؤه كرمـاء "

فاذا وصل الشيخ الى الجزء الأخير " من كريم آباؤه كرماء " فاذا بالجمهور يرفعون أصواتهم بها فيرقصون وهم يرددونها مع التصفيق أو الضرب على الحديدة المذكورة يعني (داوورو) (Daworo).(١)

---

(١) مستفاد من الرحلة الميدانية في سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

هذه هي الحالة التي آلت اليها طريقة الدعوة الاسلامية في المنطقة فاعتبرها الجيل الجديد (ضربة لازب) لا يجوز الميل عنها ثم استغلها المستعمرون لتشويه سمعة الاسلام في المنطقة وفرقوا بها بين الاسلام في شرق العالم الاسلامي وبين الاسلام في افريقية السوداء ولم يعرفوا أن هذه الصبغة ، صبغة صوفية و تقاليد موروثة من الوثنية وعبادة أرواح السلف.. ولكن هذه الحقائق العلمية التي سقناها هنا جاءت بمثابة المعول على روؤس هذه الدعاوى الاوربية المشبوهة فتبين لنا أن الاسلام وصل الى المنطقة غضا طريا فطبقه المؤمنون كما جاءت ولكن ظلمات المتصوفين هي التي غطت هذه العقيدة الصحيحة حتى أصبحت على الصورة المشوهة التي نشهدها اليوم في المنطقة ..

*

وبعدما أخذ هذا البحث نصيبه من التحقيقات و تفنيد المزاعم الاوربية ، ننتقل الآن الى الحديث عن دور الصوفية في نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة مع بيان ما أفسدته هذه الصوفية في عقائد الناس .. والتي كانت من الاسباب التي مهدت الطريق لنشر العلمانية والتيارات الفكرية الاوربية الاخرى في المنطقة .. لان المستعمرين لما جاءوا كانت المنطقة تعاني أشد المعاناة من مشكلات سياسية واجتماعية وثقافية .. كل هذا من جراء الفكر الصوفي الذى كان يسيطر على المنطقة طيلة ثلاثة قرون . وقد يسر هذا الوضع للاوربيين أن يتسللوا للقارة ويكونوا بها مراكز نفوذ وسلطة .فمن الناحية السياسية فقد استرد الزعماء الوثنيون نفوذهم من المسلمين بسبب التساهل عند الصوفيين فصار المسلمون محكومين في كل مكان من المنطقة تحت

نفوذ الوثنيين . كان بعض الزعماء يقبضون في أيديهم بزمام سلطة لامنازع لهم فيها . وكان هوءلاء يرون أنهم حكام مطلقو اليد وقد استطاع الاستعمار أن يلوح لأولئك الوثنيين بالرفاهية والترف وضمان الحقوق فتعاونوا معه وعقدوا معه بعض المعاهدات .

ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية لم تكن هناك ملكية فردية ودولة مركزية تدفع الفرد ليدافع عن ممتلكاته . وهذا جعل الصراع ضد الاستعمار - في مراحله الأولى - قليلا . وبالاضافة الى ذلك لم يكن هناك للفرد وطن معين يرتبط به ويحس بالتزامه بالدفاع عنه - وذلك بسبب حياة التنقل والرعي واللجوء الى قرى دون المدن ، وهذا هو الفهم السخيف للاسلام الذى جعلته الصوفية الفهم الوحيد للاسلام .. فكان الاستعمار في هذه الظروف المتدهورة المنهارة اذا اقتحم أرضا اتجه الافريقيون الى أرض سواها في المنطقة لأن الطريقة القادرية توصي الى ذلك وهكذا لم يزالوا يهربون من الأمر الواقع حتى احتلت أراضيهم كلها من قبل الفرنسيين ..

ومن الناحية الثقافية كانت المنطقة متخلفة علميا وعسكريا فلم يستطع الناس أن ينتفعوا بما في المنطقة من ثروات طبيعية بسبب التعاليم الصوفية الرامية الى طلب الكفاف من المعيشة ، فاكتفى الناس بالجهد البسيط الذى يضمن لهم نعمة العيش الجاف عن طريق الرعي أو صيد الحيوانات وما أشبه ذلك ولم تستطع الوسائل الحربية الابتدائية التي استعملها كل من جيش الحاج عمر تال التيجاني (١)

---

(١) سنتحدث عنه في آخر هذا البحث .

والامام ساموری [١] أن تقف طويلا في وجه أسلحة الغرب الفتاكة ..

ان هذا بعض ما فعلته العقيدة الصوفية بسكان المنطقة . فلنتكلم اذن عن كل من الطريقة القادرية والتيجانية اللتين قد لعبتا دورا هاما في نشر الاسلام بالمنطقة .

*

الطريقة القادرية في غربي افريقيـــــا

للحديث عن دور الطريقة القادرية في نشر الاسلام في المنطقة يجمل بنا أن نتحدث عن النقاط التالية :

١ - التعريف بصاحب هذه الطريقة .

٢- كيفية دخول القادرية في المنطقة ودورها في نشر الاسلام.

٣- ذكر أشهر قادة القادرية في المنطقة .

٤- ذكر نماذج من عقيدة الطريقة القادرية.

واليك -فيما يلي - شرحا موجزا لكل منها .

---

(١) هو أحد أفراد الماندنجو قد رام أن يوءلف امبراطورية من قبائل الماندنجو التي أقامت دولة مالي التاريخية . فأراد سا مورى أن يبسط نفوذه على جميع فروع الماندنجو وأن يوحد صفوفهم وكانوا مبعثرين في سا حل العاج وغينيا الحالية وغيرهما .. وبينما هو في ذلك تصدى لكفاح الاستعمار الفرنسي ستة عشر سنة (١٨٨٢-١٨٩٨) ولم يتقيد بشروط المعاهدة غير المتكافئة التي عقدها معه الفرنسيون . فداهم الفرنسيون عاصمته ببساندوجو واحتلوها عام ١٨٩١، كما احتلوا وسالو عام ١٨٩٣ ومن بعدها سيجو ثم تمبكت في العام التالي . وأخيرا تمكن الفرنسيون من القبض عليه في ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨م في مدينة جويلومو (Guelemou) في أعالي سا حل العاج ونفوه الى جابون حيث مات عام ١٩٠٠م.

١ - التعريف بصاحب هذه الطريقة :

وقد تأسست هذه الطريقة ،وهي أوسع الجماعات الدينية الاسلامية انتشارا في غربي أفريقيا ،منذ القرن الثاني عشر الميلادى على يدعبد القادر الجيلاني . ويعرف بالقطب الجيلاني وهو أحد الأقطاب الأربعة عند الصوفية هم :

(الرفاعي والجيلاني والبدوى والدسوقي) .(١)

---

(١) أ - الرفاعي ،أحمد بن علي : (١١٠٦-١١٨٣) نشأ في البصرة ، وأسس الطريقة الرفاعية في العراق . ومنه تفرعت الى تركياوسورية ومصر . . اشتهر الرفاعية بالقبض على الثعابين كالحواة .(*) ومن عقائدهم عدم ايذاء الحيوان أو قتله . كانت طريقتهم في تنافس مع الطريقة الجيلانية . راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢ / ٨٧٣ .

ب - البدوى ،أحمد بن علي ، ابراهيم السيد البدوى : (١٢٠٠-١٢٧٦) لقب كذلك لأنه يلبس اللثام على عادة بدو شمال افريقيا . أحد الأقطاب الأربعة . ولد بفاس . وحج طفلا مع أبيه وذهب الى العراق وزار الجيلاني والرفاعي ثم دخل مصر واستقر بطنطاو بها توفي . له طريقة تعرف بالأحمدية ،واشارة أتباعه العمامة الحمراء والعلم الأحمر . . يحتفل بمولده في ثلاثة مواسم . الكبير منها في أغسطس حيث تقام الحضرات وتتلى الأذكار . ويطوف خليفته بطنطا مع أتباعه . المرجع السابق ٢ / ٣٣٣ .

جـ - الدسوقي ، ابراهيم بن عبد المجيد : (١٢٣٥-١٢٧٧)م من دسوق بمصر بها قبره ويقام له مولد كبير ،صوفي " ولي " تنسب له كرامات وخوارق . صاحب الطريقة الدسوقية أو البرهمية ويذكر شارح حزبه أن أباه كان هو نفسه من الأولياء . وكانت أمه ابنة ولي آخر هو أبو الفتح الوسطى وأنه درس الفقه الشافعي قبل أن يسلك طريق الصوفية . وأنه اعتكف عشر سنوات في خلوة بدسوق . وألف كثيرا من الكتب . ذاعت شهرته في جميع البلاد حتى عاد - على حد قولهم - أحد الأقطاب الأربعة . المرجع السابق ٢ / ٧٩٦ .

ولد بجيلان سنة (٤٧١ هـ / ١٠٧٧م) و ترعرع بها وانتقل الى بغداد سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م و هناك تتلمذ على كبار الشيوخ ، و تفقه على أبي سعيد المخرمي وأجاد الفقه والأدب ، واشتغل بالوعظ والتعليم ثم مال للتصوف ولجأ للخلوة والمجاهدة والسياحة والمقام في الصحراء. وكان له مريدون كثيرون نهجوا نهجه وساروا سيرته ..

وقد عرف الجيلاني بالتسامح الديني وحب الجار و اغضاء الطرف عن الغنى وملذات الحياة و من تسامحه الديني أنه كان اذا ذكر أهل الكتاب لم يزد عن أن يعبر عن حسرته لانحرافهم عن طريق الخير والنور ويدعوالله أن يهديهم سواء السبيل ... وتوفى الجيلاني سنة (٥٦١هـ / ١١٦٦م) ببغداد وله بها ضريح ومزار يعتبر من أهم مشاهد المدينة وقد كتب في التصوف كتبا كثيرة ومن أهمها :

أ - فتوح الغيب .

ب - الفيوضات .

جـ - الفتح الرباني .(١)

وقد انتشرت طريقته في كل من العراق واليمن والصومال والهند و تركيا ومصر والمغرب وغربي افريقيا ووسطها وسنتتبع القادرية وهي تنتشر بغربي افريقيا ..

---

(١) راجع الدعوة الى الاسلام ، أرنولد توماس ص ٢٧٧ وموسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢١٢ . المصدر السابق .

دخول وانتشار القادرية في بلاد السودان الغربي ودورها في نشر الاسلام بالمنطقة

باجماع المؤرخين أن القادرية ،دخلت في افريقية الغربية في القرن الخامس عشر الميلادى على يد مهاجرين كانوا يتخذون من توات(Touwat) مركزا لهم ،وهي واحة في النصف الغربي من الصحراء ثم انتقل هؤلاء الى (ولاته Walata) فجعلوا منها أول مركز لطريقتهم ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد -فلجئوا الى تمبكتو (Toumbouktou).

من هنا بدأوا نشاطاتهم في نشر الاسلام ،بحيث لم يكتفوا بماعرفت هذه الطريقة به من حلقات الذكر والتراتيل الصوفية بل اتجهوا وجهات مختلفة منها أنهم أقاموا مراكز عديدة للدعوة . وأما المراكز الرئيسية لتنظيم دعوتهم في بلاد السودان الغربي فقد كانت في مدينة كنكا (Kankan) و (تمبو) (Timbo) فوتاجالون و (مسردودرد) (Mousdordo) الواقعة بين (بلاد مندنجو) (Mandingo) وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الاسلامي آنذاك وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء و كتاب تمائم و معلمين. لأن كثيرا منهم جلسوا معلمين للصبية و تفقه بعضهم في الدين فأصبحوا علماء وخطباء و كتابا ..

و من محاسن هذه الطريقة أن أرسل بعض أتباعها الى مراكز الثقافة بالشمال يعني القيروان أو طرابلس أو الى جامعات فاس والأزهر بالقاهرة ليتزودوا بالعلم وليعودوا قادة بين أهليهم ..(١)

---

(١) الاسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ١/ ١١١-١١٢.
وراجع كذلك الدعوة الى الاسلام ،أرنولد توماس ص ٢٧٧.

وهكذا كانت القيادة الروحية بأيدى الطائفة القادرية فقط منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى الى أواسط القرن التاسع عشر الميلادى . لذا انتشرت العقيدة القادرية تدريجيا انتشارا قويا ولكنه قد تم بخطوات غير محسة في الغالب .. لأن نشاط هذه الجماعة منذ نشأتها الى اليوم كان ذا طابع سلمي للغاية ويعتمد كل الاعتماد على الارشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره .. وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في غربي أفريقيا على أنهم أوفياء لمبادئ موءسس الجماعة ولتقاليده العامة ، ذلك لأن أهم المبادئ التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حب الجار والتسامح ... ولكن أتباع عبد القادر في بلاد السودان الغربي قد توسعوا في معنى التسامح حتى خرج عن الحدود المعقولة بحيث تركوا الوثنيين على ما هم عليه من الكفر .. فبهـــــذا التسامح استطاعت الوثنية كما قلنا أن تسترد نفوذها المفقود في المنطقة . فأقام الوثنيون ممالك في جميع الأماكن والصوفية (القادرية) لا تقاوم ولا تحاول جمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة ، من هنا أصبح المسلمون محكومين تحت نفوذ الوثنيين منذ القرن السابع عشر الميلادى الى القرن التاسع عشر الميلادى .

وبيان ذلك ، بعدما تدهور امبراطورية صنغاى لم تبق هناك قوة يلتف الناس حوله الا جماعة القادرية ولكنها ليس من شأنها أن تقوم بمثل هذا العمل وانما تكتفي بالتسامح الديني ولا تحرك ساكنا ، وفي هذه الفترة نهض فرع من فروع الماندنجو في القرن السابع عشر الميلادى وهو فرع البامباره . ونجح هذا الفرع في تأسيس مملكتين متنافستين وثنيتين .. احدى هذه المملكتين في مدينة سيجو على النيجر الأعلى بزعامة رجل وثني

اسمه : برامانجولو (Baramangolo) كولوبالي [١] والاخرى كانت تحت زعامة أخيه (نيانجولوكولو باني) [١] وقد استطاعت هاتان الدولتان الوثنيتان أن تسيطرا على جميع شعوب المنطقة بما فيهم الطائفة القادرية .. فصاروا تحت حكمهم . من هنا تسربت التقاليد الوثنية الى التعليم الديني ،لان المغلوب يأخذ دائما من أفكار الغالب .

وهكذا ظلت البلاد حوالي ثلاثة قرون تحت سيطرة الوثنيين فاختلط الحابل بالنابل على الاجيال الذين ولدوا في هذه الفترة . وما كان في استطاعتهم أن يميزوا بين الدين الاسلامي من الوثنية .. فظنوا أن الاسلام جاء بهذه الصورة المشوهة الممسوخة .. هذا بعض النتائج التي أسفرت عن تساهل الطائفة القادرية في المنطقة .. ولكن التيجانية -ان كان فيها ما فيها - استطاعت -كما سنوضح ذلك فيما يلي - أن تعلن حربا شعواء ضد الوثنيين وأن تطردهم من الحكم .. وذلك بقيادة الحاج عمر تال الذى مات ضحية في تلك الحروب . من هنا تختلف التيجانية عن القادرية في المنطقة .

كان هذا وصفا موجزا عن كيفية دخول وانتشار القادرية في المنطقة مع بيان الدور البناء الذى قام به دعاة هذه الطريقة.. وأما الآن فسنتحدث عن أشهر قادة الطائفية القادرية ،الذين لهم دور فعال في نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة .

---

(١) راجع دولة مالي الاسلامية . د . ابراهيم طرخان ص ٧٢ .

ج - أشهر قادة القادرية في المنطقة :

وقد حفظ لنا التاريخ المكتوب أسماء عدد كبير من قادة القادرية في غربي أفريقيا من الذين تركوا وراءهم آثارا حميدة وأتباعا كثيرين مازالوا - حتى الآن - يسيرون على سير أسلافهم من الدعوة بطريقة سلمية متساهلة فلنذكر منهم (ستة) أشخاص فيمايلي :

أولا : سيدى أحمد البكاء وقد عاش هذا السيدفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادى و تعرف طريقته بالطريقة البكائية ،الا أن هذه الطريقة لم تزدهر الا في القرن السابع عشر الميلادى وذلك بعد موت السيد البكاء واستمرت هذه الطريقة تزدهر في افريقية السوداء حتى سنة ١٨٥٠م . ولم يزل آثار هذا السيد منتشرة في جميع أقطار غربي افريقية حتى اليوم .وأصرح دليل على ذلك ان الناس من أتباعه لم يزالوا يسمون أولادهم باسمه (سيد البكاء) . .

ثانيا : محمد بن عبد الكريم التلمساني الذى اتجه بجهوده الى الجزء الأوسط من الصحراء و الى بلاد هوسا فانتشر صيته في جميع أنحاء غربي أفريقيا وله أتباع وتلاميذ [١] حتى الآن .

ثالثا : التأرازى الذى عمل على نشر القادرية في غمبيا وغينيا البرتغالية وليبيريا وساحل الذهب (غانا الحالية) .

---

(١) الاسلام والمسلمون في غربي افريقيا ،دكتور عبدالرحمن زكي ، ص (١١١-١١٢) بتصرف.

رابعا - الشيخ سيدى بابا في مطلع القرن العشرين وكان عالما وأديبا واسع الفكر عمل على قضاء كثير من الخرافات والبدع التي تفشت بين المسلمين آنذاك من جراء تساهل الطريقة القادرية . وبهذا اختلف عن بقية دعاة القادرية في المنطقة الذين تساهلوا حتى صاروا محكومين تحت نفوذ الوثنيين .

خامسا -(كراموكو صالح بابا) السالف الذكر الذى استطاع أن يؤسس في مدينة دبكلا مدرسة (١) تدرس فيها العلوم الاسلامية مع التعمق في الطريقة القادرية ولم تزل آثاره باقية الى اليوم وخاصة المسجد الذى بنوه في هذه المدينة ولما مات سنة ١٩٥٨م آلت أمور الدعوة الى أكبر أولاده المسمى بالحاج اسحاق بابا الذى لم يزل يواصل مسيرة والده حتى اليوم. وهواليوم المفتي الأكبر في عاصمة ساحل العاج والامام الأعظم في مسجد (جولا) (*) .

سادسا - الشيخ عبد القادر بن الشيخ سيدى وقد اتخذ موريتانيا مقرا له وله في الحياة السياسية في التاريخ الحديث دور كبير بهذه البلاد وقد انتهى اليه الاشراف على القادرية. (٢)

وبعد هذا نواجه الآن جولة أخرى للحديث عن الطريقة التجيانية ودورها في نشر الاسلام في المنطقة. وقبل هذا يحسن بنا أن نتحدث عن عقيدة هذه الطريقة التي تعتبر من العوامل التي أدت الى تشويه العقيدة الاسلامية.

(١) Etude sur l'Islam en cote d'Ivoire , Paul Marty, p. 204

(٢) راجع الاسلام والمسلمون في غربي افريقية . المصدر السابق ص ١١٢ .

(*) وقد مات أخيرا في هذا السنة ١٤١٢هـ الموافق ١٩٩١م وكاتب هذه الرسالة هو أكبر أولاده البالغ عددهم (١١) ولدا ستة ذكور وأربع اناث رحمه الله رحمة واسعة.

ثانيا ـ الطريقة التيجانية :

ان الطرق الصوفية ـ بصفة عامة والطريقة التيجانية ـ بصفة خاصة ـ التي وصلت الى غربي افريقيا ، لها صفحتان أساسيتان :

١ ـ صفحة بيضاء مشرقة.

٢ ـ صفحة سوداء مظلمة.

فلنتحدث أولا عن الصفحة البيضاء لمناسبتها لعنوان هذا الفصل . وأما الصفحة السوداء المظلمة ،فسنتحدث عنها في صفحات قادمة من الباب الخامس فنقول وبالله التوفيق :

من الفرق الصوفية التي كان لها أثر كبير في نشر الاسلام في غربي أفريقيا " التيجانية " وكان (الحاج عمر الفوتي) من أشهر رجالها في غربي أفريقيا . ولكن الذى أنشأها هو (أبو العباس أحمد بن محمد المختارة . واليك فيما يلي نموذجا من جهود كل من هذين الشيخين في نشر الطريقة التيجانية .

أولا ـ منشيء الطريقة التيجانية :

تنسب الطريقة التيجانية الى أبي العباس (أحمد بن محمدبن المختار) ابن سالم التيجاني وهو فقيه مغربي ولد بقرية (عين ماضي) بالجزائر عام (١١٥٠هـ/١٨٣٧م) ودرس العلوم الدينية بمدينة فاس ثم انتقل الى تلمسان .وفي عام (١١٨١هـ/١٨٦٨م) خرج الى الحجاز لأداء فريضة الحج وعند عودته أمضى فترة من الزمن بالقاهرة .(١)

---

(١) الدعوة الى الاسلام ،توماس و أرنولد ص ٢٧٨ . وبغية المستفيد ص١٣٧ .

===

و قد غلب الاتجاه الصوفي على فكره فانضم للطريقة الخلوتية التي تنسب الى (كريم الدين) الخلوتي الصوفي المصرى المتوفى سنة ١٥٧٨م ولكن التيجاني سرعان ما اتخذ لنفسه اتجاها جديدا - سنصفه فيما يأتي - ضمن الطريقة الخلوتية .. وقد اتخذ التيجاني مدينة فاس مقرا ينشر منه طريقته الجديدة (١) فتبعه عدد كبير من المريدين أطلق عليهم (الأحباب) وعندما توفى (سنة ١٢٣٠هـ/ ١٥٩١م) كانت الطريقة التيجانية قد استقرت وعلا شأنها ببلاد المغرب ..

وبعد وفاة التيجاني قام ابناه (محمد الكبير و محمد الصغير) بنشر دعوته بمعونة اثنين من أكابر مريديه وهما : الشيخ محمود بن علي التونسي والحاج علي بن عيسى .. وانتقل مركز الدعوة الى قرية عين ماض ، مسقط رأس صاحب الطريقة وقد وجدت هذه الطريقة لها أنصارا عديدين في الصحراء الكبرى و غربي افريقيا (٢) وخاصة السنغال ونيجيريا و غانا وغينيا ومالي وفلتا العليا وساحل العاج وداهومي ..

=== وراجع كذلك : جواهر المعاني ١/ ٣٦، ٣٧ الاستقصاء في تاريخ المغرب الأقصى ٨/ ٨٣، ٨٤ ،حلية البشر ١/ ٣٠٣، ٣٠٤ الأعلام ١/ ٢٣٢ ط: الثالثة السيف المسلول ص ٢٠٥ ،تأليف محمد المرزوق بن عبد المؤمن الفلاني ط: الأولى سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

(٢) راجع عبيدة بن محمد الصغير الشنقيطي ، ميزاب الرحمة الربانية بالطريقة التيجانية ص ٤٥.

(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٣٢٨ . المصدر السابق . راجع كذلك كلا : بغية المستفيد ص ١٩٩ ،كشف الحجاب ص ١٩ اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة ١/ ٥٩، ٦١ ،شجرة النور الزكية ١/ ٢٨٩، ٣٧٩ ،الأعلام ١/ ٢٣٢ ،ط: الثالثة ،الاستقصاء ٨/ ١٢٩، ١٣٠.

اللجوء الى السيـــف

وفي سنة ١٨٣٦م أراد الأمير عبد القادر الجزائرى الاستعانـة بالتيجانية في حربه ضد الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على الجزائـر سنة ١٨٣٠م ولكن الاتفاق بين الطرفين لم يتم لسبب أو لآخر .. فقـام الأمير عبد القادر بعدة حملات على مركز التيجانية في (عين ماض) بيـد أن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم دفاعا طويلا : وابدأوا من الحماسة والشجاعة والتضحية ويبدو أن هذه الحروب بدأت تصبغ الطريقة التيجانية بصبغة القوة ،فارتبطت بالطريقة التيجانية مسألة اللجوء للسيف عند الضرورة .(١)

وقد علق على ذلك توماس أرنولد بقوله :

" ولهذا اختلفت التيجانية عن القادرية التي عرفت بالتسامح ،وكانت تكتفي بالدعاء لأهل الكتاب بالهداية ..".(٢)

مصير الدعوة التيجانيـــة

يذكر المؤرخون أن شئون الطريقة التيجانية قد انتقلت بعد موت محمد الصغير سنة ١٨٤٤م الى ابنه الذى توفي سنة ١٨٩٣م فخلفه محمد العائد مفيد الحاج بن عيسى الذى مات عن ولدين صغيرين اتهمـا بعدم موالاتهما للفرنسيين ،وقبض عليهما في سنة ١٨٨٩م ولكنهما نجحـا في مهادنة السلطات الفرنسية .(٣)

---

(١) انتشار الاسلام في القارة الافريقية . المصدر السابق ص ٨.

(٢) الدعوة الى الاسلام . المصدر السابق ص ٣٢٨.

(٣) راجع محمد الحافظ التيجاني ،الحاج عمر الفوتي ص ٩ .
وراجع الدعوة الى الاسلام . المصدر السابق ص ٣٢٨.

ثم بعد ذلك انتشرت هذه الطريقة في كثير من البلدان الاسلامية، ولكن التوسع الحقيقي في عقائد هذه الطائفة كان في السودان الشرقي وبلاد السودان الغربي (غربي افريقيا) حاليا. والآن نتتبع التيجانية وهي تنتشر في غربي افريقيا.

الحاج عمر وأهم الحركات التيجانية في غرب أفريقيا

وقد أشار المؤرخون الأوربيون والمسلمون الى أن أهم الحركات التيجانية التي قام بها أفراد من التيجانية هي تلك الحركة التي قادها الحاج عمر المغوتي وهو ابن شيخ من المرابطين من قبيلة التكرور كما قلنا سابقا. وقد ولد الشيخ عمر الفوتي سنة ١٧٩٧م في قرية ببلاد السنغال فرباه والده تربية اسلامية، وعلمه علوم الشريعة، ثم تاقت نفسه - كما يقول مؤرخوه - للانتظام في سلك أرباب الكمال، وصرف همته الى تهذيب النفس، فخالف المألوف وعزف عن فلذات العادات ومنّ الله عليه بالاجتماع بصاحب الفتوة والأنفاس الزكية الشيخ عبد الكريم بن أحمد بن أحمد من علماء فوتا جالون وهو تلميذ محمد الحافظ العلوى، [1] ومحمد الغالي، وكلاهما أخذ الطريقة التيجانية عن الشيخ الأكبر مؤسس التيجانية وأهم ما أخذه الشيخ عمر الفوتي من شيخه عبد الكريم، الأوراد اللازمة للطريقة، ثم ذهب الشيخ عمر للحج سنة ١٨٢٧م

---

(١) راجع محمد الحافظ التيجاني، الحاج عمر الفوتي ص ٩.
وراجع الدعوة الى الاسلام. المصدر السابق ص ٣٢٨.
الفلذة = القطعة.

وأمضى مدة بين مكة والمدينة حوالي ستة سنوات يعني من (١٨٢٧ - ١٨٣٣م) فتعرف وهو بمكة على أحد زعماء التيجانية،فالتحق بهذه الطريقة وتحمس لها وأقامه أتباع الطريقة خليفة على السودان الغربي ،وعند عودته أمضى فترة يتعلم بحلقات الأزهر ،ثم عاد الى وطنه ،فلندع الكلام الآن لأرنولد ليبين مهمة الشيخ عمر الفوتي بعد عودته الى افريقيا الغربية اذ يقول :

" ولم يعد من مكة الى وطنه الا سنة ١٨٣٣م حيث نشط في نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة . وخاصة شيوخ القادرية الذين أثار تساهلهم و تراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه.

ثم قال :

" وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط ، فظفر بكثير من الأتباع ، وكرم كنبي[(١)] جديد وما ان وافت سنة ١٨٤١م حتى قد بلغ فوتاجالون حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من الحملات في نشر تعاليم الدعوة بين القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية ،وكانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال . وفي احدى هذه الغزوات لقي حتفه في سنة (١٨٦٥م) ولم ينجح ابنه أحمد شيخو ،في ضم مختلف الولايات في مملكة أبيه الا سنوات قلائل ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين وانتقلت أراضيها الى حكم فرنسا[(٢)]"

---

(١) ان كثير من الأوربيين لا يفرقون بين النبي والداعية ،لذا أطلق أرنولد كلمة (النبي) على الشيخ عمر الفوتي ،وهذا خطأ فاحش.

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٣٢٨.

تلك هي بعض المجهودات التي بذلها الشيخ عمر الفوتي لنشر الاسلام في غربي افريقيا عن طريق الطريقة التيجانية. فمات في سبيلها وقد أثنى عليه كثير من العلماء وبالأخص محمد الحافظ التيجاني اذ يقول :

" وكان الحاج عمر متمسكا بالشرع في حربه وسلمه عالما عاملا ذا بصيرة في دينه ، لم يشغله الجهاد عن تدريس العلم لجيوشه الغازية في سبيل الله مع الوقوف عند الحدود والتقرب الى الله بالنوافل ".(١)

هذا وقد اعترف كثير من الكتاب الأوربيين بأن جهاد الحاج عمر الفوتي كان أكبر خطر على الاستعمار الفرنسي في المنطقة ، قال (لوثروب ستودار) في كتابه " حاضر العالم الاسلامي " بعد أن تحدث عن جهاد الحاج عمر في السنغال :

" فصار وجود هذه السلطة التيجانية في وسط السودان خطرا عظيما على سيادتنا".(٢)

ويقول " المسيو موري " الفرنسي مثنيا على جهاد الحاج عمر الفوتي : " والحق يقال أن الاسلام يملك حيوية عظيمة وقابلية للانتشار فليتذكر الناس حركات أمة البله ونشاط الدراويش وأتباع الطرق الصوفية وتكاثر الزوايا وثورة الحاج عمر الفوتي و خلفائه ".(٣)

---

(١) غلاف كتاب الحاج عمر الفوتي ص ٩.

(٢) حاضر العالم الاسلامي ٢/ ٣٩٦/ ٣٩٨.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢.

وهكذا رأينا من خلال هذا التقرير أن الهدف الأساسي عند الشيخ عمر هو نشر الاسلام بين الوثنيين عن طريق التيجانية و محاولة تحويل أهل الطريقة القادرية الى التيجانية أيضا ..

هذا هو هدفه الذى جاهد في سبيله.. لذا تعاون الوثنيون مع أهل القادرية في اغتياله فقد ورد في دائرة المعارف الاسلامية ما يؤكد ذلك ..

فقد ورد فيه أن سيدى البكائي ،شيخ الطريقة القادرية ،بعدما رجع من بلاد شنقيط انضم اليه اتباع الأمير أحمد ابن أحمد ،وبقايا الوثنيين وحاصروا الشيخ عمر في مدينة (تمبكتو) ولكن الثائرين شددوا عليه الحصار فاضطر الى الاعتصام بمغارة فدلهم بعض أعدائه عليه فأطلقوا عليه الدخان حتى اختنق عام (١٢٨١هـ - ١٨٦٤م)(١) وعمره سبعون سنة.(٢)

وكما رأينا أن ابنه الذى خلفه لم ينجح في مواصلة جهاده أو المحافظة على امبراطورية أبيه التي كانت تمتد من تمبكتو الى المحيط الأطلسي وظلت تدين له بالولاء طيلة أربعين سنة.

لم ينجح في ذلك لاصطدامه مع الغرنسيين الذين احتلوا تمبكتو في رجب سنة ١٣١هـ - ١٠ يناير سنة ١٨٦٤م(٣) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٥/٣٢٢، ٤٢٣ بتصرف وراجع كذلك صفوة الاعتبار ١/٧٣.

(٢) مجلة الأزهر ٢٩ الجزء ١/ ١١، ١٢.

(٣) مجلة الأزهر ٢٩ ١/ ١١، ١٢.

مؤلفاته :

١ - كتاب " رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم " الذى كتبه في عام ١٢٦١ هـ - ١٨٤٥م.

٢ - كتاب " سيوف السعيد ".

٣ - كتاب "سفينة السعادة ".

٤ - الفزارى " القصائد العشرينات " تخمس لها. (١)

ونختتم هذا الثناء على الشيخ الحاج عمر الفوتي بقول الاستاذ علي بن محمد الدخيل الله في كتابه القيم " التيجانية " اذ يقول :

" كان للحاج عمر الفوتي السنغالي جهود طيبة في مقاومة الوثنيين والفرنسيين في السودان الغربي .. فقد بدأ حطه واسعة لنشر الاسلام بين الوثنيين فصار له كثير من الأتباع ثم حمل راية الجهاد ضد الوثنيين والفرنسيين في تلك البلاد .. " (٢)

وقد اعترف بعض الأوربيين المنصفين بأن الجهاد الذى قام به الحاج عمر الفوتي قد ترك وشأنه لصارت غرب أفريقيا منطقة اسلامية محضة ولكن فرنسا استطاعت أن توقف نشاطات التيجانية مما يسر فتح السودان أمام المدنية الأوربية .

---

(١) كتاب عمر الفوتي ص٧ نقلا عن كتاب التيجانية ص ٧١ .

(٢) التيجانية ص ٦٤.

فانتصار فرنسا على التيجانية كان أكبر نصر خلد جنود فرنسا وأعاد ذكرى نصر شارل مارتل الذى انتصر على جيوش المسلمين في موقعة بواتيه في فرنسا .. وفيما يلي نص كلمة المسيو بو نه مورى في كتابه :

(L'Islame et le christianisme en Afrique , G.Bonet Maury.)

" هل يتم تمدين السودان الغربي على يد فرنسا وضباطها والمبشرين المسيحيين ، أم على يد التيجانية ورسل الاسلام " ؟ (١)

بعد هذا السؤال أكد أنه لولا انتصار فرنسا على الحاج عمر وطريقته لصارت بلاد السودان الغربي بلاداً اسلامية اذ يقول :

" فالكولونال أرشينارد أخذ جنه (Djenne) وبند جاقار أوقف غارة التيجانية في هذا القسم من افريقية و يسر فتح السودان بين يدى المدنية الاوربية .. ثم عقب ذلك فتح الكولونيل (دورغنيس ديسبورن) (Dorgnis desspord) لبلد باماكو (Bamako) واستلحاق القومندان غاليني (Galeini) لبلاد فوتاجالون ، وافتتاح الكولونيل أرشينارد لبلاد ماسينه وتتوجت جميع هذه الفتوحات باحتلال تمبكتو (١٠ يناير ١٨٩٤) مما خلد أعظم الشرف للعساكر الفرنسية وأعاد ظفر شارل مارتل في بواتيه (Poitiers) بسبب ما كان يترتب من النتائج العظام لمستقبل افريقية فيما لو لم يتم هذا الظفر ." (٢)

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ١/ ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٧٦-٢٧٧ .

هذا ما صرح به الغرنسيون مما أثار تعليق الأمير شكيب أرسلان فقال :

" يشير هذا الكاتب الى أن افريقية كادت تكون اسلامية لولا قضاء فرنسا على سلطة التيجانية هذه ، كما أن أوربا كادت تكون اسلامية لولا انتصار شارل مارتل على العرب في بواتيه . "

وزاد قائلا :

" و هي الكلمة التي يتفق عليها موءرخو الافرنج ". (١)

وهكذا كانت دعوة الشيخ عمر الفوتي ذات أثر فعال أمام جيوش الغرنسيين .. في القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكننا مع هذه المجهودات المبذولة من قبل عمر الفوتي وأتباعه الذين قاوموا الوثنية والتوغل الاستعمارى الغرنسي في المنطقة - نتأسف تأسفا كبيرا على هذه المجهودات التي بذلت في نشر العقيدة الصوفية ، خاصة التيجانية المشتملة على أفكار غريبة على الاسلام ..

ولو كانت هذه المجهودات الجبارة قد بذلت على ضوء الكتاب والسنة المطهرة بدون أى اضافات صوفية لكانت أحوال المسلمين في المنطقة شيئا آخر غير التي نراها اليوم من الجهل بالعقيدة الصحيحة للاسلام والتمسك بالتقاليد الموروثة البالية . والقابلية للتيارات الفكرية الهدامة الوافدة من " أوربا .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ١/٢٧٧ .

وبعد هذه الجولة الطويلة ،لنواجه الآن الدور الأخير من أدوار انتشار الاسلام في غربي افريقيا ،وهو انتشار الاسلام في المنطقة بواسطة معلمي المدارس (كراموكو) بلغة المانده . و قبل هذه الجولة لنتحدث عن عقيدة الطريقة التيجانية التي تعتبر من العوامل التي شوهت العقيدة الاسلامية الصحيحة في المنطقة .

الدور الرابع : انتشار الاسلام بواسطة معلمي المدارس :

مقدمة :

قد تحدثنا فيما مضى أن القيادة الروحية والقيام بنشر الاسلام قد آلت بعد انقراض الممالك الاسلامية الى أيدى فئتين هما : (القادرية والتيجانية) . وقد استمرت مدتها ثلاثة قرون متتالية اعتبارا من أوائل القرن السابع عشر الميلادى الى آخر القرن التاسع عشر الميلادى . ففي هذه المدة الطويلة التي تزعمت فيها الصوفية القيادة الروحية في المنطقة ، امتزجت الأفكار الصوفية بالعقيدة الاسلامية كما تسربت الى التعاليم الاسلامية الخرافات الوثنية . حتى أصبح من الصعب تمييز العقيدة الاسلامية من هذه الاضافات .. هذه هي الناحية السلبية للصوفية في المنطقة .

وأما الصوفية من الناحية الايجابية فقد أدت دورا هاما أمام القوات الفرنسية الغازية خاصة الطائفة التيجانية ، لأن فرنسا لما جاءت في المنطقة لتستعمرها ، لم تقف أمامها أية قوة الا الممالك الاسلامية التي كانت تتزعمها هاتان الطائفتان (القادرية والتيجانية) . فبعد معارك شديدة استطاعت القوات الفرنسية أن تتغلب على القوات الاسلامية . فوقعت البلاد بعد ذلك فريسة أمام السلطات الفرنسية فتوقفت حينئذ حركة انتشار الاسلام التي كانت قيادتها بأيدى تلك الممالك الاسلامية من القادرية والتيجانية . ولم تبق في المنطقة قوة مركزية تنظم شئون الدعوة الاسلامية وتقف في وجه المستعمرين أبدا . من هنا ظنت فرنسا أنها قد انتصرت على العقيدة الاسلامية في المنطقة بسبب انتصارها الوحشى على القوات الاسلامية المسلمة . ولكن الحكمة الربانية اقتضت أن تنتقل حركة انتشار الاسلام في المنطقة من الحالات

الجماعية والقوات المركزية الى الحالات الفردية الى معالمين منتشرين في جميع أنحاء المنطقة ،فلم تستطع فرنسا أن تقضي على دعوتهم بسبب انتشارهم في كل مكان وبعدم تجمعهم تحت راية واحدة . فمن هم هؤلاء المعلمون ؟ أولا وما هو دورهم في نشر العقيدة الاسلامية تحت الضغوط الاستعمارية ثانيا ؟ .

أولا - طوائف المعلمين :

ان هؤلاء المعلمين الذين قاموا بنشر الدعوة الاسلامية ابان الحكم الاستعمارى لهم عدة أسماء ،ومثلا تطلق عليهم كلمة (ألفا) (Alifa) تارة وتطلق كلمة (مورو) حينا -وتطلق عليهم أيضا كلمة (ماربو) (Marabout) ومن هذه التسمية جاءت اللفظة الفرنسية (Marabout) وهي مشتقة من كلمة (المرابط) العربية .. وتطلق عليهم كلمة (الشيخ) أو أسيكو ،وتطلق عليهم أخيرا كلمة (كراموكو) (Karamoko) ومعناه : المعلم والترجمة الحرفية هي :" انسان القراءة " أو (انسان التعليم) .

تتركب طائفة الشيوخ من فئات عديدة لأن هذه الكلمة تطلق على كل من " هب ودب " ولكننا نستطيع أن نجمل ذلك في طائفتين أساسيتين هما :

١ - شيوخ معتدلون .

٢ - شيوخ متطرفون نؤجل الحديث عنهم الى الباب الأخير من هذا البحث .

واليك فيما يلي وصفا ضئيلا للشيوخ المعتدلين ..

ان هؤلاء الشيوخ أو (الكراموكو) رغم أنهم تربوا في أحضان الصوفية ، الا أنهم كانوا ذوى القيمة العالية ، علما وعملا وورعا ، وتتميز هذه الجماعة على حد تعبير الأستاذ (عبد القادر سيلا) "بكونها تجمع بين الزهد ومواظبة الذكر والتمسك بتعاليم الاسلام قولا وعملا . وتمتهن التدريس وقد يتخلل ذلك كله تعاطي علم الخواتم. (١)

وزاد قائلا :

" وهي فئة مثلى من بين طوائف الشيوخ في (غربي أفريقيا) لما أدت من دور تاريخي ... وفي الحقيقة ما كانت تركن الى الاستكانة والكسل والتواكل والاعتماد على جاه الأجداد ، بل كانت نشطة منتجة ناشدة نعماء الله تعالى بالأسباب المشروعة ، وبالوسائل المعروفة العادية الطبيعية علاوة على كون أغلب أفرادها من العلماء ، وكانت لذلك محط تقدير لدى العامة ..." (٢)

ان مجرد هيئات هؤلاء الشيوخ الدعاة وصورهم سر دخول السودانيين في هذا الدين الرباني العظيم . لقد كان للداعي المسلم (أوكراموكو) احترام فريد يدعو للاعجاب وهو يظهر - بوضوح - في السمات التالية :

---

(١) المسلمون في السنغال ص (١٢٢-١٢٣) .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣ .

أ - ملابسه الفضفاضة النظيفة :

واذا كان الشيخ أو (كراموكو) عائدا من رحاب الأزهر أو من معاهد الشمال أو من الحجاز ، فانه يغلب أن يلبس زى البلاد التي عاد منها- فالعمامة الناصعة البياض (انظر صور الدعاة) (١) تعلو رأسه أو العمامة السوداء ويرتدى الجبة أو الثوب الفضفاض ،ويمسك بمسبحة طويلة ثم يحدث الناس حوله عما رأى بمصر أو الحجاز أو بالشمال الافريقي .وما شاهد في جولته ،وعن مظاهر الحضارة الاسلامية ،وعن المساجد الشاهقة ودور العلم الفسيحة. وكل ذلك يضفي على الدعاة هالات من المجد ، ويجذب اليهم مختلف الطبقات من الناس . وفي يد الداعي المسلم عصا يلوح بها للافريقيين فيستجيبون اليه ... ويوضح لهم هذا الداعي أن دخولهم الاسلام يضمن لهم الكرامة في الدنيا والآخرة .. وأما في الآخرة فدخولهم في الجنة . وأما في الدنيا فانه يجعلهم أعضاء في المجتمع الاسلامي الكبير الذى يمتد من المحيط الأطلسي الى المحيط الهادى و الى أسوار الصين وجزر أندونيسيا ،وأن أخوة شاملة تربط الجميع . وأن أرض الاسلام أرض لكل مسلم ،وأن كل مسلم يجد الترحاب في كل أرض اسلامية نزل بها فكان كل ذلك من أسباب نجاح هؤلاء الدعاة ابان الحكم الاستعمارى ولم تستطع فرنسا أن تقضي على دعواتهم رغم كونهم عزلا لا حول لهم ولا قوة الا ايمانهم القوى بالله تعالى .

---

(١) في الملحق رقم (١) .

ب ـ مكانة الداعي المسلم في المجتمع الافريقي :

ولقد تحدث كثير من الباحثين الأوربيين وغيرهم عن مكانة الداعي المسلم في المجتمع الافريقي مما كان سببا لجلب كثير من الوثنيين الى رحاب هذا الدين ، واليك فيما يلي ـ بعضا من أقوالهم :

وقد أشار المسيو موليـن (Mollin) الى مكانة الداعية في المجتمع الافريقي بغرب أفريقيا ودوره في نشر الاسلام اذ يقول :

" يحصل الاسلام كل عام على تقدم ، وسيصبح قريبا الدين الوحيد لاقليم كاجور (السنغال) اذ بقي/وحده القصر متشبثا بالوثنية ". ويعلل موليـن نجاح الاسلام ب " الحصانة التي تجعل شخص الداعية المسلم مقدسا عند الأمراء الوثنيين ، مثل ما هو محترم لدى المسلمين ، مما يساعد على انتشار الاسلام عند هذه الشعوب ". (١)

وقد وصف لنا (D.J.East) مكانة الداعية المسلم في أفريقيا بحديث طويل، ولنقتبس منه مايلي :

" هؤلاء المعلمون الدينيون يحظون بأوفى نصيب من الاجلال ، وفي بعض قبائل افريقية الغربية تضم كل قرية دارا لاستقبالهم ، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير ، ففي دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون أكبر مناصب الحكومة ، كما يحتلون بين الماندنغ مكانة أعظم شأنا وينالون احتراما بل يلي احترام الملك ، ولذلك يعتبر الرؤساء أقل منهم هيبة . . . وفي الدول التي اتخذ القرآن أساسا للحكم في كل المسائل

---

(١) المسلمون في السنغال ص ٦٤ ، ٦٥ . أعدنا هذا النص للمناسبة لا للتكرار .

المدنية ،تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجا شديدا لكي يفسروا معانـــي القرآن ،وقد بلغ من اجلال الناس لأشخاص هوءلاء المعلمين أنه لايتعرض لهم أحد منهم حين يجوسون خلال امارات يعادى بعضها بعضا أو يباشر أصحابها مع بعضهم البعض حربا فعلية ، ويجلهم الناس مثل هذا التبجيل لا فـي البلاد الاسلامية وحدها ،بل في القرى الوثنية التي يوءسسون فيها مدارسهم حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم ،ويعتبرونهم واسطة[1] بينهم وبين الله ،سواء في الحصول على حاجاتهم ،أو في دراء المصائب وصرفها عنهم .."[2]

كان هذا وصفا ضئيلا من احترام الدعاة لدى الافريقيين فكـان ذلك من أقوى الأسباب التي جذبت جموع الوثنيين الى اعتناق الاسلام ابـان الحكم الاستعمار.

ثانيا - دور كراموكو في المجتمع الافريقي :

ان هوءلاء المعلمين كان لهم دور بارز في المنطقة وخاصة وقوفهم الصامد أمام التوغل الاستعماري في المنطقة ، فقد كان الدرع الواقي للاسلام هناك ،والسور المحيط بالعقيدة الاسلامية أمام التيارات الفكرية الأوربية وأمام جميع نفوذ هوءلاء المحتلين المستعمرين .

---

(١) ان كان الاسلام يقـر باحترام العلماء ولكنه لا يقر أن يكون العلماء وسائط بين الله وبين خلقه . ان هذه الحالة لم تزل مستمرة في عقول كثير من سكان المنطقة .

(٢) راجع الدعوة في الاسلام ،توماس أرنولد ص ٣٩١-٣٩٢ .

وقد اعترف بهذه الحقيقة ، حقيقة أن المعلمين كانوا سدا مانعا أمام جميع الأفكار الأوربية عدد من الأوربيين أنفسهم فلنكتف هنا بما سجله المسيو بول مارتي في كتابه "الاسلام في ساحل العاج" اذ يقول :(١)

" ان هوءلاء المعلمين أو (ناميتيغي)(٢) (Namitigui)(٢)

بصفتهم أنهم يمثلون العقلية الاسلامية في المنطقة - كانوا السد المنيع الذى وقف أمام توغل أفكارنا ونفوذنا في المنطقة ".(٣)

وقديما قيل : " ان الفضل ما اعترف به العدو " وهكذا اعترف المستعمرون بأن المعلمين هم الذين وقفوا أمام توغل الأفكار الاستعمارية في المنطقة بعدما قضوا على جميع الممالك الاسلامية بالقوة الوحشية الا أن وقوفهم هذا لم يكن في ميدان القتال وانما كان في ميدان الأفكار يعني محاربة الفكر بالفكر. فقد استطاع هوءلاء المعلمون أو كراموكو أن يبنوا مدارس اسلامية في كل مكان من المنطقة يربون فيها أولادهم البنين والبنات على هذه العقيدة الاسلامية بل كانوا شديدى الرغبة بتعليم عقائدهم.

---

(١) وهذا هو النص الفرنسي :

Les Mamoutigui, parce qu'incaranant l'etat d'espris des musul mans de vielle race constituent le rempart le plus solide contre la penetration de nosidees et de notre influance voir : Paul Marty p. 263.

(٢) ناميتيغي في لغة ماندى هو ذلك العالم الذى يلبس العمامة البيضاء أو السوداء على رأسه .

(٣) المرجع السابق ص٢٦٣.

وكان فيهم علماء ماهرون في جميع أقطار المنطقة. ولا يتبين لنا ذلك الا عندما نقتطف بعضا من نتائج البحوث التي أجراها المستعمرون في المنطقة لتقصي أحوال هؤلاء المعلمين بصفة خاصة وأحوال المسلمين بصفة عامة .. واليك فيما يلي بعضا مما توصلوا اليه من نتائج.

وقد أورد المسيو (أندريه راسين) (Andre Rassine) صاحب كتاب " غينية الفرنسية " بحوثا طويلة عن المدارس الاسلامية ابان الحكم الاستعمارى ،فلا بأس أن نقتطف منها ما يناسب هذا المقام اذ يقول :

" ولكن لا ينبغي أن نفسر ببعض ظواهر الفتور التي تلوح على اسلام غينية وغربي افريقية بأن نعتقد عدم رسوخ الاسلام فيهم وعدم امكان تحفزهم للقيام علينا. فانك لتجدهم شديدى الرغبة بتعليم عقائدهم وفيهم علماء كثيرون ولا يكتفون بالقرآن. بل يقرأون السنة وكتاب خليل في الفقه المالكي وعندهم مكاتب شرعية مهمة وزاد قائلا :

" أخبر الدكتور بليدن (Beluden) أنه عرف منهم أناسا يشترون النسخة الواحدة من المصحف بخمس ليرات انكليزية (وهو مبلغ كبير بالنسبة لتلك الظروف) ولا يجدون ذلك كثيرا ،وتجد منهم كثيرين مؤلفين وأكثر تآليفهم مخطوطة . ولكن القرآن صار يطبع بسيراليون وغيرها ."(١)

وبعد أن أشار هذا الكاتب الأوربي الى رسوخ العقيدة الاسلامية عند مسلمي المنطقة ،تلك العقيدة التي لم تتزحزح بالتهديدات الاستعمارية انتقل هذا الباحث الى الحديث عن التربية الدينية عند مسلمي المنطقة

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ،الأمير شكيب أرسلان ٣١٧/١ .

ابتداء من السنغال الى جميع دول غرب أفريقيا من موريتانيا وساحل العاج وغينيا وفولتا العليا (بوروكينا فاصوأخيرا) والنيجر وغينيا ومالي . فقال :

" ان التربية الدينية في تلك البلاد هي أوسع مما يظن لا سيمافي جهات فوته و كنكان. فالبنات يدرسن سنتين والذكور أربع سنوات وأحيانا ثماني سنوات .. ومدة الدرس كل يوم تبلغ أربع ساعات ،و من التلاميذ من يرغب في زيادة التفقه فيذهب الى الشمال مثل بلد دينيه وكورو أو يقصد المغرب. ولدينا احصاء اداري عن مدارس الاسلام في بعض النواحي :

" ففي (الدينيتين) (Dinitin) ٣٤٦ مدرسة فيها (٢٩٦٢) تلميذا .. وفي (سيغورى) (Sguiri) ٢٨ مدرسة ، فيها ١٦٠ طالبا وكان في (فوكومبه) (Foukoumba) مركز بلاد فوتا الديني سنة ١٨٩١م ثلاثون مدرسة فيها ٨٠٠ طالب من الذكور والاناث وكان في (دينغراى) (Dinguiray) سنة ١٩٠٠ نحو ٢٠٠ مسجد و ١٨٠ مدرسة فيها ٨٠٠٠ طالب وهذا العدد في دينغيراى على ٣٢ألف نسمة لا زيادة ". (١)

وبعد هذه التقارير التي فوجيء بها المستعمرون الفرنسيون من ثبات المسلمين على عقيدتهم رغم احتلال أراضيهم ورغم القضاء على الممالك الاسلامية بقوة السلاح ، انتقل (المسيو أندريه راسين) الى الحديث عن الأسلوب الذى به استطاع هوءلاء العلماء أن يستجلبوا قلوب الجماهير في المنطقة فقال :

---

(١) المرجع السابق ١/٩/٣١٩.

" ووظيفة المعلم أو (نوميتيغي) (Nomitigui) محترمة موقرة . وكثيرون من الزعماء هم يعلمون أولادهم بأنفسهم . ويعطى كل واحد منهم ثورا اذا حفظ نصف القرآن .. ومتى حفظ القرآن كله يعطونه فرسا والمعلم يعلم الأولاد الكتابة بواسطة ألواح في أيديهم وهذا هو التعليم الابتدائي .. ولكن الذين يريدون اكمال التحصيل يتعلمون التفسير وغير ذلك ".

ثم قال :

" وأما الصلاة وأحكام العبادة فمحفوظة جيدا عند الجميع ،واسم الصلاة في لغة ماندى : (سالى) .. وساعات الصلاة كالتالي :

صلاة الظهر (سالى فانا) ،وصلاة العصر (لانسارا) ،وصلاة المغرب (فتيرى) ،وصلاة العشاء (ساغافو) ،وصلاة الفجر (فجرسالي) . وهكذا .. وعيد الفطر (سونغالوسالي) أو (منغارى) (Mingari) وعيد الأضحى (دونكي سالي) عند الماندى +.. أو (تباسكى) عند الولوف ".(١)

هكذا استطاع المعلمون -بعون الله وقوته - أن يواصلوا المصير لنشر الدعوة الاسلامية في المنطقة ،حتى تمكنت العقيدة الاسلامية في نفوس النشيء وهم تحت ظلمات الاستعمار . ولم تستطع السلطات الاستعمارية أن تقضي على هذه الدعوة رغم كل ما بذلته من جهود لايقافها .* والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون *.(٢)

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٢) آية ٢١ سورة يوسف

وأما كيفية مقاومة السلطات الاستعمارية للمؤسسات التعليمية الاسلامية ،فستأتي في الباب الرابع ان شاء الله .

وبعد هذا ،لننتقل الى جولة أخرى لترى فيها العوامل التي يسرت انتشار الاسلام وسط العامة في المنطقة بهذه الصورة التي أذهلت الكثيرين من الباحثين الأوربيين وغيرهم .

وهكذا رأينا كيف دخل الاسلام في سنة (٤٣) على يد عقبة بن نافع الفهري وكما رأينا كيف انتشر بدءاً من المرابطين فالأسر المالكة من (تكرور وسونيكي والماندنغ وأسكيا تورى ثم الصوفية) حتى وصل هذا الانتشار على أيدى المعلمين في القرن العشرين والحمد لله على ذلك .

الفصل الثالث

عوامل انتشار الاسلام في المنطقة قديما وحديثا

أولا : طبيعة هذه السلالة السوداء .

ثانيا : ذاتية الاسلام وقوته الطبيعية .

ثالثا : تجنيد أقوى اللغات في نشر العقيدة الاسلامية .

رابعا : الاستعمار يخدم الاسلام بغير قصد ويساعد على نشره بسرعة .

الفصل الثالث

عوامل انتشار الاسلام ببلاد السودان الغربي

ان كيفية انتشار الاسلام وسط العامة في غربي أفريقيا بهذه الصورة المذهلة لم تزل حتى الآن محل الدراسة عند كثير من الغربيين ولم يعرفوا - حتى الآن - الأمور التي ساعدت على ذلك (١)..

ولكن الذى يتأمل في طبيعة هذه السلالة السوداء ثم يتدبر طبيعة هذا الدين يصل الى ما يسر انتشار الاسلام ببلاد السودان الغربي و مهد له الطريق ..

فاليك فيما يلي أهم هذه العوامل :

---

(١) د . أحمد ابراهيم دياب ،لمحات من التاريخ الافريقي الحديث، الرياض : المملكة العربية السعودية ،دار المريخ الطبعة الأولى ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ ص ٥٦.

العامـــل الأول

طبيعة هذه السلالة الســــوداء

لقد سبق أن قلنا في مبحث (الحالة العقدية) أن الوثنييـــن في هذه المنطقة كانوا يؤمنون ايمانا جازما بوجود اله علوى أو كائن علـوى الا أنهم - مع هذا النداء الفطرى - كانوا يخلطونه بخرافات وأوهــــام ، شأن الوثنيين في كل زمان ومكان .. (١)

وكما كانوا أيضا يؤمنون ببقاء روح الأسلاف وانتقالها الى عالـــم آخر .. فلما جاءهم الاسلام لم يكن ذلك شيئا جديدا يتعارض مع ضمائرهم لذا لم يحك لنا التاريخ أنه قد وجد صراع بين العقيدة الاسلامية وبيـــن تصورات الوثنيين في غربي أفريقيا مثل ما يوجد - الآن - بين الشيوعيـــة الخرقاء وبين الاعتقاد بالله سبحانه ..

وأما ايمانهم أيضا بكائنات غير انسانية وغير مرئية : أرواح يتصـف بعضها بالخير وبعضها بالشر ،وخافوا هذه الأرواح فاشتـغلوا بالسحـر والكهانة ليتقوا شرها ،فهو أيضا لا يتعارض - في مجمله - مع ما جــــاء في الأديان السماوية من ايمان بالملائكة والشياطين والجن ، لذا لما جاءت

---

(١) الدكتور محمد عبدالله النقيرة انتشار الاسلام في شرقي أفريقيا ومناهضة الغرب له . الرياض دارالمريخ ص ٤٤.
كما كان العرب في جاهليتهم يؤمنون بالله تعالى ثم يشركون بـه ويقولون : * ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى * سورة الزمر الآية الثالثة .
وراجع أيضا المسعودى ،(مرج الذهب) ١٦/٢.

العقيدة الاسلامية بهذه المعتقدات ،سا رعوا الى اعتناقها بدون أى تردد أوجدل .. ولا زالت قبائل افريقية تدين بالوثنية بمعتقداتها السابقة ولكن بعضهم في الوقت الحاضر بدأوا يوءمنون بالاسلام ويعتنقونه بشكل لا يتصور.(١)

هذا هو الفرق الجوهرى بين الوثنيين في أفريقيا وبين ملحدى هذا العصر ،الذينلا يوءمنون الا بما يدخل تحت حسهم . لذلك لم يكن ، مخطئا ، من يقول : ان الوثنيين في أفريقيا أعقل من ملحدى هذا العصر وان ادعوا أنهم قد بلغوا ذروة الكمال في مجالات التكنولوجيا وفرحوا بما أوتوا من علم مادى.(٢)

ونختتم هذا العامل بقول كاتب فرنسي يوءيد ما قررناه أيما تأييد اذ يقول :

" وقد زاد من تيسير جهود الداعي في نشر الدعوة أن الاعتقاد بوجود الله مع انكار الوحي والأديان (Deism) وهو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان ، يمكن أن يتحول في سهولة و يسر ،الى عقيدة التوحيد عند المسلمين ..

---

(١) مستفاد من البحث الميداني الذى قمت به سنة ١٩٨٥م/ ١٤٠٥هـ في تلك الناحية فوجدت كثيرا من الوثنيين يدخلون في الاسلام أفواجا ، وخاصة في ساحل العاج .

(٢) ولسنا ممن ينكر العلوم المادية البحتة ولكننا نرفض بشدة أى علم يدعي أصحابه أنه ينفي أن يكون لهذا الكون خالق أو مدبر .

وكذلك الحال في بعض مظاهر أخرى في فلسفتهم الدينية ،وهكذا نجد أن نظرتهم العامة في الحياة وكثيرا من شرائعهم الدينية قابلة لأن تصطبغ بصبغة اسلامية ،وأن تتحول الى نظام ديني جديد دون اجراء تغيير كبير .. ".(١)

هكذا رأينا أن طبيعة هذه السلالة السوداء ساعدت على قبول العقيدة الاسلامية دون صعوبة أومشقة ..

---

(١) انظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام في القارة الافريقية ص ٦٢ نقلا عن :

العامل الثاني

ذاتية الاسلام وقوته الطبيعية

ان انتشار الاسلام ببلاد السودان الغربي لم يقف عند حدود الطبيعة الفطرية التي ذكرناها وحدها ،بل هناك شيء أقوى من ذلك ،وهو : (ذاتية الاسلام وقوته) فقد انتشر الاسلام بمبادئه وتشريعاته اذ كثيرا ما تكون شعائر الاسلام معونا على انتشاره ،وجذبا لقلوب الوثنيين اليه ..و الى هذا يشير الشيخ آدم الالورى اذ يقول :

" وقد كان لصيام رمضان وما يقاربه من صلاة التراويح و مجالس الوعظ وقراءة القرآن وحفلات ليلة القدر وليالي العيد ومظاهر التعييد ومايصاحبه من الاذكار والصلوات جاذبية قوية تجذب الافريقيين وتأخذ بمجامع ألبابهم." (١)

وأضاف قائلا :

" وكان لما يرافق الحج عن حفلات التشييع والاستقبال وما يشمل عليها من قصائد وأناشيد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فضائل الحج والحجاج باللغة العربية واللغات المحلية وما يناله الحجاج من التعظيم والتبجيل أثر بعيد في ازدياد عدد الحجاج الى بيت الله تعالى .."

وقد ذكر المؤرخون أن للحج تأثيراً كبيراً في قلوب الناس في هذه المنطقة وكان سببا لدخول كثير من الناس في الاسلام خاصة عندما رجع عن مكة جماعة من الحجاج الذين ذهبوا الى مكة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي.

---

(١) الاسلام اليوم و غدا في نيجيريا ص ٥٥.

وقد ذكر المسيو بول مارتي أن حجهم كان حدثا تاريخيا في المنطقة ولم تزل آثارهم واضحة المعالم في المنطقة ،كما ذكر أن عددهم كان (١٢)حاجا وكلهم علماء مشهورون ،ولما رجعوا من مكة سكنوا في أماكن مختلفة فكان ذلك سببا لنشر الاسلام في تلك الأماكن ،واليك فيما يلي -ذكر أسمائهم وأماكنهم :

١ - الحاج ساليمو سوارى.

٢ - والحاج محمد بغايوغو.

قد سكنا بعد رجوعهما في مدينة تمبكتو.

٣ - الحاج محمد فوفانا.

٤ - والحاج مالكي سومونو.

قد سكنا في مدينة كنكان.

٥ - الحاج بابا فاديغا سكن في مدينة جنى (Djenne).

٦ - الحاج باكارى تراورى سكن في مدينة سيكو (Segou).

٧ - الحاج محمادو ديالي قد سكن في مدينة فالاما (Valama).

٨ - الحاج يوسفو كاماغاتي قد سكن في مدينة بواندوكو(Bouandoukou) منطقة أورودوكو (Ouorodoukou).(١)

٩ - الحاج مورى فين (Morifin) قد سكن في مدينة تولى (Toule) في منطقة أورودوكو(Ouorodoukou)

---

(١) L 'Islam en cote d'ivoire p. 130.

١٠- الحاج دايا (Diay) سكن في مدينة ساماتيفيلا (Sanatiguila) في منطقة أوجيني (Odienne).

١١- الحاج فيرى مورو (Feremorou) كانتي قد سكن في مدينة فيرفيكولا (Ferefekoula) القريبة من أوجيني.

١٢- وأخيرا الحاج موسى (باغايوغو) (Moussa Bagayogo) وقد سكن في منطقة توبا (Touba) بل هو الذى أسس مدينة كورو الاسلامية المشهورة أسسها في منتصف القرن الثامن عشر الميلادى . وكان ولم يزل سكانها كلهم مسلمون بفضل جهود هذا الحاج الكبير. وقد بنى فيها مسجدا جامعا حيث يقصدها المصلون من القرى المجاورة لأداء صلاة الجمعة. قديما وحديثا وقد كان الحاج موسى باغايوغو - كما وصفه المسيو بول مارتي من بين هوءلاء الحجاج الاثنى عشر . أقدسهم (Le plus saint) وأشهرهم (Le plus illustre) .. بحيث لم يلتف بمجرد الاستيطان في (تُوبَة) وانما أسس هذه المدينة الاسلامية التي لم تزل باقية الى اليوم.(١)

وهكذا كان الحج عاملا فعالا من عوامل نشر الاسلام في المنطقة. ولكن الاستعمار لما تمكن من الاحتلال استطاع أن يوقف السفر الى الحج لمدة طويلة ثم استأنفها أيضا أربعة أشخاص من أهل مدينة (بندوكو) في ساحل العاج وهم كالتالي :

---

(١) راجع / L'Islam en cote d'ivoire p. 130 ولكن بتصرف طفيف.

١ - الحاج اسحاق بامبا .

٢ - الحاج الأمين ؤنى (El-Haji Lamine Ghani).

٣ - الحاج يعقوب وتر.

٤ - الحاج دالا كماغاتي .

وأما الآخران فقد ماتا في الستينات . فأما الأولان فهما ما زالا على قيد الحياة . . فقد عين الحاج اسحاق بامبا اماما أعظم في أبيدجان عاصمة ساحل العاج ومفتيا في هذه المدينة ،كما قلنا سابقا .

وبعدما تم حج هؤلاء ،تتابع السفر الى الحج حتى وصل حجاج ساحل العاج وحدها في هذه السنوات الأخيرةحوالى ٣٠٠٠ حاجا بينما كانوا في سنة ١٩٣٨م أربعة أشخاص فقط. (١)

وهكذا أيضا كانت هذه الشعيرة عاملا من عوامل نشر العقيدة الاسلامية في المنطقة . فدل ذلك على أن أقوى عامل من عوامل انتشار الاسلام ذاتيته وقوته الطبيعية .

فلم يزل الناس الى اليوم يدخلون في الاسلام بهذه الطريقة التي ذكرناها آنفا ،وقد شاهدنا في أثناء رحلتي الميدانية ألوانا كثيرة من ذلك فلنذكر على سبيل المثال لا الاستقصاء حادثة واحدة من هذا النوع .

---

(١) مستفاد من البحث الميداني الذى قمت به سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م وقد أنشد لمناسبة حج هؤلاء الأربعة ،عالم جليل في مدينة بندوكو المعروف باسم كراموكو ماما وترا اذ يقول :

《لقد تم/فخر فى بلادنا=باسحاق ويعقوب ثم لامين ودالا》 (لنا)

وقد جاء في أثناء كتابة هذا البحث خبر بأن الحاج الأمين (ونى) قد مات في السنة الماضية (١٤١٠هـ) كما مات أيضا في هذه الأيام أى ٢/ ١٤١٢هـ / ١٩٩١م الحاج اسحاق . فبموته يتم موت هؤلاء الحجاج الشرفاء .

وذلك ان الفيلسوف الفرنسي الشهير المعاصر الأستاذ (الجارودى) الذى أسلم أخيرا بعد دراسة عميقة عن الاسلام والأديان الأخرى ، قد قام في الصيف الماضي وبالتحديد في شهر ذى القعدة عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م بزيارة ودية الى (ساحل العاج) فألقى محاضرة قيمة عن الاسلام ومثلـه العليا ، وقد حضر هذه المحاضرة جمع غفير بل حضرها رئيس الدولة نفسه " فلكس هوقيت بواني (Felixe Houphouet Boyagnie) فأعلن عقب المحاضرة القيمة عدد كبير ، اسلامهم أمام هذه الجماهير المثقفة .

والجدير بالذكر ان هذه المحاضرة كانت موفقة ، بحيث انها ألقيت في مدينة رئيس الدولة نفسها ، (مدينة ياموسوكورو) العاصمة الادارية لجمهورية (ساحل العاج) فأعطت المحاضرة هالة من التقدير والاحترام . هذا غيض من فيض .(١)

هكذا كانت ذاتية الاسلام ممثلة في تعاليمه وفي أتباعه ودعاته عاملا هاما في انتشار الدعوة الاسلامية في غربي أفريقيا .

ولعل قائلا يقول : هناك في غرب أفريقيا بعض الملوك الفاتحين والغزاة والمنتصرين قد قاموا بفتوحات في بعض النواحي من هذه المنطقة وأن الناس قد دخلوا في الاسلام من جراء الانتصارات التي أحرزها الفاتحون في ميادين الفتح . فقد ناقشنا هذه الفرية سابقا فلا بأس أن نقتطف بعض

---

(١) من مشاهدات الكاتب خلال قيامه بالبحث الميداني في آسيا وأوربا وافريقيا .

فقرات تلك المناقشة ثم نزيد عليها بحقائق علمية أخرى فنقول : ان وجـــد هذا ليس هو الحال الغالب و ليس في جميع أماكن المنطقة التي لم يكـــن اسلام أهلها الا طواعية واختيارا . .

وأما ما قام به كل من (أسكيا محمد) في دولة صنغاى والشيـــخ (عثمان بن فودى) لم يكن الا على سبيل الدفاع عن النفس أو عن الدين.(١)

---

(١) راجع مناقشتنا فيما مضى من هذا الباب .

النوع الثالث

تجنيد أقوى لغات المنطقة في نشر الدعوة الاسلامية

ومن أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام في منطقة غربي أفريقية الفرنسية أنه قد جندت لخدمته أقوى وأهم لغات المنطقة وهي أربع لغات رئيسية :

أولا - لغة الماندنغ (Manding) :

مع فروعها الثلاثة :

١ - لغة جولا . Djoula

٢ - لغة البمبارا . Bambara

٣ - لغة السونينكي . Soninke

ان هذه اللغة مع فروعها - كما قلنا سابقا - تستعمل في كل من جمهورية مالي وجمهورية غينيا وجمهورية ساحل العاج وخاصة في المناطق الشمالية منها التي تشمل (مدينة بندوكو وكونغ ووجيني وسيغلا وبونا ودبكلا وبورلا ودغرا ومانكونو وساتاما وجمالا وتاغونو - تينديكان (Tabonotindikan) .(١)

كما تستعمل هذه اللغة أيضا في فلتا العليا (بوركينا - فاصو) الحالية وبعض الأماكن السنغالية . . كما هي سائدة في كل من ليبيريا والنيجر وسيراليون وشمال غانة الجديدة . .

---

(١) مستفاد من البحث الميداني سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

وبالجملة ان لغة ماندنغ هي اللغة السائدة في أغلب بلدان غرب أفريقيا الفرنسية، ولهذا أصبحت معروفة بلغة المسلمين أو لغة (جولا) معناه: التجار.. لأن ناطقيها الأصليين كانوا مسلمين.. بل هم الذين أداروا حكومة غانة بعد المرابطين اعتبارا من القرن الحادى عشر الى سنة ١٢٤٠ الميلادية كما أسسوا أيضا امبرطاورية مالي التاريخية العظيمة من سنة ١٢٤٠ الى سنة ١٤٦٤م. وفي هذه القرون الخمسة كانت هي اللغة الوحيدة يفسر بها القرآن فاكتسبت قدسيتها من هذه الحيثية، فتأثرت تأثرا واضحا باللغة العربية في كثير من مفرداتها اللغوية بل كانت هي في تلك القرون كلها اللغة الرسمية للدولة. ولم تزل حتى اليوم هي اللغة السائدة هناك.. وقد جمع الدكتور ابراهيم طرخان كثيرا من المفردات العربية التي دخلت في لغة الماندنغ تبلغ ما فوق مائة كلمة.(١)

ولما ترك المسلمون (الدعاة من العرب والبربر) سكان المنطقة ليفسروا القرآن ويترجمونه الى اللغة المحلية، كان ذلك من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام، لأن الاسلام أصبح لديهم فكرا محليا وثقافة ذاتية فبدأوا يستميتون في سبيل نشره والدفاع عن بيضته.. على النحو الذى ذكرناه سابقا.

وقد اعترف مجلس العموم البريطاني بفضل قبيلة الماندنغ - كما قلنا سابقا - على أفريقية وكيف نشروا الاسلام بهذه اللغة، مما جعل هذه المنطقة منطقة نور وفضل ينظر لها الجميع بالاجلال والتقدير.

---

(١) دولة مالي الاسلامية ص ١٩٠-١٩٨ ومن أراد مزيدا من هذا فليراجع الكتاب المذكور.

ثانيا - لغة الولوف (Wolof) :

وهي أيضا من أشهر اللغات السودانية التي خدمت العقيدة الاسلامية في غرب أفريقيا وقد تكتب هذه اللغة أحيانا - بالأحرف العربية الكوفية (١)، كما تكتب لغة الماندنغ كذلك .. وبسبب صلابة الرجال المشهورين بالدعوة في السنغال كأمثال (أحمد بامبا) (والحاج مالكي - س) وغيرهما ما استطاعت اللغة الفرنسية أن نقضي على هذه اللغة الحية . بل لم تزل هذه اللغة من اللغات السودانية التي يفسر بها كتاب الله ، الا أنها حتى الآن لم تنتشر في غرب أفريقيا مثل لغة (الماندنغ) بل هي باقية في السنغال فحسب وما حولها ..

ثالثا - لغة هاوسا (Haoussa) :

ان هذه اللغة أكثر لغات غربي أفريقيا شيوعا ، لأنها تستعمل في نيجيريا بوجه خاص وفي النيجر والكمرون وتوجو وغانة وبنين وجمهورية أفريقيا الوسطى .. فتعد من اللغات الهامة ، لأن بها تفسر القرآن في هذه البلاد التي ذكرناها آنفا ..

وقد أفادنا كامل مروة اللبناني بأن هذه اللغة مثل الماندنغ والولوف، لكونها تكتب بالأحرف العربية الكوفية . (٢)

---

(١) كامل مروه ، نحن في أفريقيا .. بيروت ١٩٣٨م ص ٣٩ ، وراجع أيضا موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٧٠ .

(٢) نحن في أفريقيا ص ٣٩ .

وبفضل هذه اللغة الحية قد لعبت قبائل (هاوسا) دورا هاما في دعوة الناس الى دين الله ، فألبستهم نفوذا كبيرا بين القبائل ، ولغتهم هذه أيضا لغة التجارة في جميع هذه البلدان المذكورة وهم متحمسون للاسلام وينقلونه معهم حيثما ذهبوا ، وهم منتشرون في ساحل غينيا حتى حوض النيل.
وعندما قام الحكم البريطاني في نيجيريا حمل الهوسا لواء الاسلام ونشروه تحت الحكم البريطاني (١).

رابعا - لغة الفولاته :

وهي كذلك من اللغات التي وقفت أمام الثقافة الفرنسية والانكليزية وصمدت أمام هاتين الثقافتين طيلة أيام الاستعمار والى الآن وهي منتشرة في كثير من بلدان غربي أفريقيا ، كأمثال نيجيريا والسنغال وغينيا والنيجر والكمرون وتشاد وموريتانيا وفولتا العليا ومالي وساحل العاج وغيرها.

وقد اشتهر رجال عظماء من أهل/ هذه اللغة ، بالجهاد في سبيل الله كأمثال الشيخ عثمان دان فوديو الذى انتصر على ولايات الحوصا السبعة في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٤) وثبت ملكه سنة ١٨١٠ (٢).

---

(١) المعلوم ان المستعمرين من الانجليز والفرنسيين لم يعملوا أبدا على نشر الاسلام. ولكنهم في بعض الأحيان تركوه ينتشر رغبة في الاستقرار والأمانة والنظام التي كانت طابع المسلمين. راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٧٠.

(٢) عبدالله بن محمد : تزيين الورقات ص ٥١ وص ٥٥.

واستطاع بذلك أن ينشر الاسلام بين الوثنيين وبين قبائل الهوسا وظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر في أيدى أصحاب هذه اللغة حتى قام الحكم البريطاني في نيجيريا سنة ١٩٠٠م ولا تزال هذه اللغة حية الى الوقت الراهن (١) .

وهكذا لعبت هذه اللغات دورا هاما في نشر الاسلام في غربي أفريقيا ،لذا جعلت هذه العقيدة تنمو نموا طبيعيا غير مرتبط بقوى من الخارج وذلك يحيطها بهالة من القومية والتقدير (٢) ... لذا قام الناطقون بهذه اللغات وغيرها لنشر الاسلام سواء بين أفرادها أو بين القبائل الأخرى وكانت قبائل السونينكي في مملكة غانة من أوائل القبائل ،ثم جاءت قبائل منطقة فوتاجالون أو فوتاتورو في السنغال وهي (التكرور) وبعدها قبائل الماندنغ .. وقد لعبت قبائل الهوسا بلغتها المرموقة ثم جاءت قبائل (الفلاتة) بهذه اللغة الثقافية الواسعة فنشرت بواسطتها الاسلام في أغلب بلدان غرب أفريقيا ..

وهكذا كانت هذه اللغات عاملا أساسيا من عوامل انتشار الاسلام في غرب أفريقيا لأنها جعلت الاسلام فكرا محليا وقوميا بخلاف المسيحية في المنطقة ،فانها تستمد قوتها دائما من الخارج وأهل البلاد لا شأن لهم في ادارة شئون دينهم أبدا وانما المسئول عن حركة الدعوة المسيحية في المنطقة هو المؤسسات التي ترسل الدعاة الى الناس ،ولذا بقيت -حتى اليوم - غريبة في المنطقة ،لأن البيض هم الذين كانوا يشتغلون فيها

---

(١) راجع د. أحمد ابراهيم دياب ،لمحات من التاريخ الافريقي الحديث ص ٥٧ .

(٢) لسنا نريد القومية هنا بالمعنى الضيق المتعارف عليه الآن ولكننا نريد أن الاسلام أصبح عندهم شيئا طبيعيا والقومية الأوربية فقد حاربناها في هذا البحث خاصة في الباب الرابع الآتي .

حينما جاءت الى المنطقة مناصب القسس ويظلون على ذلك قرونا وقرونا ولم يسمحوا للأفارقة أن يبلغوا المسيحية باللغات المحلية كما فعل المسلمون. بل قامت المسيحية على التجاهل لثقافات أهل البلاد . (١)

فكان كل ذلك من أسباب نجاح الدعاة الاسلاميين بالمنطقة .

---

(١) انظر شوقي الجمال : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ص ١٣٢.

العامل الرابـــــع

الاستعمار يخدم الاسلام بغير قصـــد

من عوامل انتشار الاسلام في غربي افريقية ،حركة الاستعمار الفرنسي ،ان هذا بلا شك لمن الموافقات العجيبة وغرائب الأمور . فبينما كـــــان الاستعمار الفرنسي يوقد نار العداوة لحرب العقيدة الاسلامية في المنطقة ويحاول بشتى الوسائل للحيلولة دون انتشارها ، فاذا هو مسخر لنشـــــر الاسلام من حيث لا يدرى ..

لقد سخر الله الاستعمار الفرنسي لخدمة الاسلام في نواح عـــديدة على رغم أنفه كما سخر - من قبل - فرعون لتربية عدوه موسى عليه الســـــلام ليكون له عدوا وحزنا .(١)

فلنكتف بناحيتين فقط من هذه النواحي العديدة التي خدم فيهـا الاستعمار الاسلام وهو يحاربه ، هما :

١ - دور المواصلات في نشر الاسلام بسرعة .

٢ - تأسيس مدن عصرية في المنطقة .

أولا - دور المواصلات في نشر الاسلام :

قد كان الدعاة قبل وصول الاستعمار ،يجدون المعاناة والمشقات لنشر الاسلام ،لأنهم لا ينتقلون من قرية الى قريـة أخرى أو من نجع الى

---

(١) راجع المسلمون في السنغال ،عبدالقادر محمد سيلا ص ٦٥ بتصرف .

نجع آخر الا بواسطة طرق برية ضيقة موحشة ،وقد يستغرق بعضهم عدة شهور قبل الوصول الى بعض الأماكن . فاذا بالمولى سبحانه و تعالى سخر هؤلاء المستعمرين الذين سعوا في المنطقة لمحاربة الاسلام و نشر التيارات الفكرية الهدامة ، سخرهم في خدمة الاسلام من حيث لا يعلمون فقاموا بتنظيم المواصلات بين المناطق التي لم يمكن أن يصل اليها الدعاة الا بشق الأنفس .. فمع ظهور السكك الحديدية والسيارات والدراجات والبواخر ،أخذت الدعوة الاسلامية أبعادا جديدة وأهمية قصوى .وأصبح من الميسور على الداعي ، التنقل بسرعة ويسر وأمن ، لمقابلة غير المسلمين في مناطقهم .. وانطبق على هذه السلطات الفرنسية التي أنفقت الأموال الباهظة لترويج بضاعتها المادية والمعنوية ، لمحاربة الاسلام ، قوله تعالى :

* ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون .. *.(١)

وقد كان في حس المستعمرين انما قاموا به من مد السكك الحديدية وتعبيد الطرق لمصالحهم الشخصية والدعاية ضد الاسلام، فاذا بالتجار المسلمين المتنقلين (جولا) (Djoula) ينتهزون هذه الفرصة السانحة للحركة التجارية ونشر ديانتهم الاسلامية فقامت مدن اسلامية على هذه الطرق بين السفانا والغابات ،لعبت دور مهما في خدمة الاسلام وهذا يدل على أن الاستعمار كان يخدم الاسلام وهو لا يدرى .

---

(١) الأنفال / ٣٦.

والدليل على ذلك ،أنه كلما ظهرت مدينة تجارية على هذه الطرق المعبدة الواسعة يتصدرها التجار المسلمون والدعاة إليها، سرعان ما تصبح مركزا ثقافيا اسلاميا يؤمها (كراموكو وكراموكوديـن) (Karamoko et Karamokod'n) ومعناه المعلم والمريد . مثل السكة الحديدية التي تربط بين فلتا العليا (بوروكينافاصو) وساحل العاج . وقد أقيمت مدن وثنية على هذه السكة الحديدية فسرعان ما أصبحت هذه المدن مدنا اسلامية . . مثل (بوبوجولاصو) ومدينة (بواكي) التي أسسها الوثنيون من قبائل (باولي) (Baouli) فاذا هي -بفضل هذه السكة الحديدية أصبحت من كبريات المدن الاسلامية في غربي أفريقيا . وكذلك مدينة (ديموكورو) (Demokoro) التي أسسها أيضا الكفار من عباد أرواح السلف فقد انقلبت الى مركز اسلامي مشهور . . وحتى عاصمة ساحل العاج التي أسسها قبائل وثنية يقال لها (ايبرى) (Ebrie) فهي الآن تضم أكبر تجمعات اسلامية فقس على ذلك ما لم يقل .

وأخيرا ان مدينة (ياموسوكورو) (Yamoussokoro) التي كانت مقرا للوثنيين فقد أصبحت أيضا من أكابر المدن الاسلامية بالمنطقة . ومن العجيب أن تجد رئيس الدولة لساحل العاج رغم كونه لا يدين بالاسلام بني على نفقته مسجدا جميلا للمسلمين في هذه المدينة وذلك لكثرة تعدادهم ونفوذهم البارز فيها .

وهكذا أنفقت فرنسا هذه الأموال الباهظة لنشر بضاعته المادية والفكرية ضد الاسلام فاذا هي تصبح حسرة عليها وسببا لنشر الاسلام ،فيجمل بنا اذن أن نردد قول الله تعالى :

﴿... فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون .. الآية﴾

هكذا استفاد الاسلام من حركة الاستعمار في الوقت الذى أراد بها المستعمرون محاربة الاسلام .. ومبادئه السامية.

ثانيا - تأسيس مدن عصرية :

لما كانت الأسس التي انبنى عليها نظام الاستعمار الفرنسي في المنطقة ،هي استغلال ثروات المستعمرات ،وتسخير أهلها وايجاد سوق محلية تستوعب السلع المصنوعة في فرنسا لمستهلكين في المستعمرات كان (الاستعمار) بحاجة ملحة الى انشاء مرافق عامة مهيئة لاستقطاب مختلف النشاطات التي ظهر بعد وسائل النقل المختلفة . من هنا برزت في المنطقة مدن عصرية أغلبها سواحلية .. مثل مدينة دكار (١) عاصمة السنغال .

---

(١) (دكار) (Dakar) : مدينة سكانها ٢٣٠٨٨٧١ نسمة بجمهورية السنغال ،كانت عاصمة افريقيا الغربية الفرنسية قبل أن تستقل دولها من الاستعمار الفرنسي . عاصمة جمهورية السنغال الآن ميناء كبير على المحيط الأطلنطي . تقع على طرف شبه جزيرة كيب فردى . قاعدة حربية و محطة لخطوط الطيران عابرة المحيط. كانت في يد قوات ڤيشي في الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠-ديسمبر ١٩٤٢م) ثم انضمت سلميا الى الحلفاء .. وكان ليوبول سيده سنغور أول من عين رئيسا للسنغال سنة ١٩٦٠م الا أنه استقال من منصبه فخلفه عبد ديوف وهو الرئيس الحالي وقد أعيد انتخابه مرة ثانية بعد معارضة شديدة.

ومدينة (كوناكرى) (Konakry)[١] ومدينة (بماكو)[٢]
ومدينة(نو اخشوت)[٣] ومدينة (نيامي) [٤] (Niamé) ومدينة
وغادوغو[٥] (Wagadougou) ومدينة (أبيدجان)[٦] وبورتو نوفو[٧]
وغيرها . وقد أصبحت هذه المدن التي أسسها المستعمرون بعضها أو طور

----

(١) مدينة (كوناكرى) : مدينة وميناء (ح ٨٠٠٠٠ نسمة) ،عاصمة غينيا ، تطل على المحيط الأطلنطي ،تقع في جزيرة صغيرة بالقرب من الشاطئ ويصلها جسر بالبر ،وهي المركز التجارى لغينيا ، فيصدر منها الموز وجوز النخيل ،والحديد والبركسيت اللذان يوجدان بالقرب منها . احتلها الفرنسيون ١٨٨٧ ،فشيدوا كوناكرى على النمط الحديث ،بها حدائق نباتية ودور الحكومة وبعض المعاهد .
راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢/

(٢) مدينة (باماكو) (ح ٢٣٠٠٠ نسمة) عاصمة جمهورية مالي ،على نهر النيجر الأعلى . تربطها بدكار سكة حديد ،تصدر :القطن والفول السوداني وجلود الماشية والأغنام . راجع الموسوعة ١٣١٨/١ .

(٣) مدينة (نواخشوت) (Nouokhchot) عاصمة موريتانيا بالقرب من شاطئ الأطلسي نحو ١٣٫٩٩٩ نسمة أنشئت ١٩٥٨م.

(٤) مدينة (نيا مي) (Niamey) عاصمة جمهورية النيجر ٤٠٢٠٠ نسمة مركز تجارى وثقافي . راجع المنجد ص ٧١٩ .

(٥) مدينة (أوكادوكو (Ouagadougou) عاصمة جمهورية فولتا العليا مركز تجارى هام ٧٢٫٣٠٠ نسمة. راجع المنجد ص ٩٨ .

(٦) مدينة (أبيدجان)(Abidjan) : عاصمة ساحل العاج سكانها ١٨٧٫٥٠٠ نسمة ،مرفأ هام . المنجد ص ٢٠ .

(٧) بورتونوفور عاصمة جمهورية داهومي (بنين) في افريقيا الغربية على خليج غينيا . استقلت سنة ١٩٦٠م تصدر زيت النخيل والقطن وفستق العبيد . المنجد ص ٢٨١ .

البعض الآخر محور الحركة التجارية والادارية في المنطقة سواء في الفترة الاستعمارية أو في فترة ما بعد الاستقلال ،كما صارت ملتقى عناصر وأجناس عديدة . فتأثر الناس بالعقيدة الاسلامية عند اختلاطهم بالمسلمين حتى أصبحت جل هذه المدن مدنا اسلامية صرفة مثل دكار وباماكو ونواخشوت ونيامي وكوناكرى . كما أصبح جل سكان البعض الآخر مسلمين مثل أبيدجان وواكادوكو وبورتو نو فو .

والجدير بالذكر لقد أصبح العنصر الاسلامي قطب الرحى في هذه المدن جميعا بلا استثناء . مما جعل تأثيره على الوثنيين أوالمسيحيين السوء بالغ الأهمية . خصوصا الشاب الذى غادر القرية وهو يوء من بالوثنية وغيرها من العقائد البالية والطقوس الأرواحية والعادات والتقاليد التي يرفضها العقل المستنير والذوق السليم ،ليستقر في محيط متحضر مغاير لمحيطه ، حيث يصعب عليه أن يمارس تلك التقاليد الوثنية البالية بل صار يستحي أن يمارسها أمام جماعات متحضرة بينما يرى الناس حوله يجتمعون -على الأقل- خمس مرات كل أربع وعشرين ساعةللصلاة كما يشاهد تجمعهم في مناسبات دينية أخرى : مثل صلاة العيدين [1] الفطر والأضحى ،والاحتفالات التي تقام بمناسبات عديدة كأمثال توديع الحجاج عند سفره الى مكة واستقبالهم عند رجوعهم منها فما بالك اذا كان هذا الشاب يشعر بالعزلة عن الأهل وجميع ما ألفه في قريته . لذا نجد هذا الشاب الوثني المهاجر الى هذه المدن الحضارية الحديثة ينجذب نحو الاسلام . لأنه يرى أن الاسلام

---

(١) راجع المسلمون في السنغال ص ٩٦ بتصرف .

هو خير وسيلة لجعله عضوا مهما من سكان المدينة .

كان هذا وصفا موجزا .. للعوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام في المنطقة .

والآن نتحدث عن أمر له أهميته الكبرى ، وهو : أثر المد الاسلامي في المنطقة ، فالى هناك .

الباب الثالث

أثر المد الاسلامي في بلاد السودان الغربي

ويشتمل هذا الباب على الفصلين التاليين :

الفصل الأول : أثر الاسلام في المنطقة في المعتقدات والعبادات.

الفصل الثاني : أثر الاسلام في المنطقة في النهضة العلمية.

الباب الثالـــــث

أثر الاسلام في المنطقة في المعتقدات والعبادات

مقدمـــة :

قبل أن نتحدث عن التيارات الفكرية المضادة للعقيدة الاسلامية في غرب أفريقيا يجمل بنا أن نتحدث أولا عن العقيدة الاسلامية وأثرها فـي المعتقدات فنقول :

كانت فكرة الوثنيين من الشعوب بالسودان الغربي قبل أن يسلموا عن نشأة الحياة والكون و بدء الخليقة ، خرافية وغامضة ، فقد كانوا - كما قلنا سابقا - يؤمنون اجمالا - بوجود اله واحد ويعتبرونه خالق العالم حتى سموه في لغة الماندنغ " مارى أو انتيكي (Mare) ولكنهم لاينظرون اليه نظرتهم الى السيد الذى يحكم ويسود ويأخذ كما يشاء .. ولا يلجأون اليه في أدعيتهم و تمنياتهم الا في بعض الحالات ، و انما توجههم بوجه عام يكون - دائما - نحو أرواح السلف وما سوى ذلك .. (١)

و يكفينا في تقرير هذه الحقيقة ماكتبه الباحث (كامل مروة) الذى قام سنة ١٩٣٨م برحلة علمية مع وفد حكومي لبناني الى غربـي أفريقيا وقد جاء فيما كتب عن أحوال الوثنية مايلي :

---

(١) محمد سلام زناتي ، الاسلام والتقاليد القبلية في أفريقيا ، بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٩م ص ٢٠٥ .

" ان الوثنيين في افريقيا الغربية كانوا يعتقدون أن العالم مسكون بالأرواح .. أرواح الأموات ،أرواح القوى الطبيعية كالعواصف والأمطار والصواعق والشمس والقمر والكواكب والنار وأن هذه الأرواح تسكن أوثانهم (الفتيش) فهم في الحقيقة لا يعبدون الوثن نفسه بل الروح التي يتوهمون أنها اختارته لسكناها ". (١)

فلما جاء الاسلام رفع مستواهم العقلي فعلموا من الاسلام أنه لا يتصرف في هذا الكون الا الله تعالى - وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا عدوى ولا طيرة وانما الأمور تجرى بتقدير الله تعالى . وأن الروح لا يعلم كنهها الا الذى خلقها وهوالله تعالى ،فتأثروا بهذه العقيدة الاسلامية الطاهرة وتركوا هذه الأفكار الخرافية الغامضة التي ليس في استطاعة أحد منهم أن يفسرها تفسيرا واضحا مرضيا .

وعلاوة على ذلك كان دخول شعوب السودان الغربي ،في دين الاسلام يعنى الصلة الوثيقة بأمصار العالم الاسلامي يقول (Thomas Hodghia) : " ان انتشار الاسلام جنوب الصحراء كان يعني -من بين ما يعنيه- وجود ارتباط أكثر قوة بين العالمين العربي والسوداني عبر الصحراء الكبرى ". (٢)

---

(١) نحن في افريقيا ،كامل مروة ص ٤٨.

(٢) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ص ٢٤٠.

وكان يعني بذلك أيضا نمو التعاليم .. فان نمو التعاليم الاسلامية في هذا القطاع من العالم الاسلامي ،لم يكن مجرد أفكار ذهنية فحسب بل قاد شعوبه الى تكوين الدول والامبراطوريات والقضاء على العقائد الوثنية ونظمها الاجتماعية والتعبدية ، لأن العقيدة الاسلامية في السياسة يحث على التجمع ويضع نظما دقيقة للسياسة والحكم..

لذا لما اعتنقت شعوب السودان الغربي الاسلام ، غير حياتهم تغييرا جذريا سواء في مجال المعتقدات والسلوك أو في مجالات حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بعامة..

فلنواجه الان جولة ممتعة في دراسة التأثير الاسلامي في معتقداتهم وعباداتهم ليتجلى لنا الفرق الشاسع بين حياتهم الوثنية- بالأمس -وبين حياتهم الجديدة في ظل العقيدة الاسلامية ..

الفصل الأول

أثر الاسلام في المعتقدات والشعائر التعبدية

ويشتمل هذا الفصل على مبحثين هما :

١ - أثر الاسلام في المعتقدات.

٢ - أثر الاسلام في الشعائر التعبدية .

المبحث الأول

أثر الاسلام في المعتقـــدات

المعتقدات :

قد تأثر شعوب السودان الغربي بالعقيدة الاسلامية تأثرا بالغا في الفكر والسلوك حتى أدى هذا التأثر الى أن يهملوا كثيرا من مفردات لغاتهم و سيأتي توضيح ذلك فيما بعد ،وأما هنا فنود أن نذكـــر فقط على سبيل المثال مايلي :

كانت فكرة وجود كائن علوى في طليعة معتقدات الناس في السودان الغربي لذا سماه شعب الماندنغ ب (مارى أو انتيكي) معناه (يا ولي أمرى) ولكنهم - بعدما اعتنقوا العقيدة الاسلامية - وتذوقوا بعض المفردات العربية اللغوية أهملوا تسمية الله بهذه الكلمـــة " مارى " واصبحوا يسمونه باسم الجلالة (الله) .. الذى صار - أخيـرا - أكثر شيوعا ورسوخا لديهم لارتباطه بالصلوات وغيرها ". (١)

واعتقاد الافريقيين الجديد في لفظ الجلالة (الله) لم يستثرهم للتفكير في كنه البارى وطبيعته بل وحدانيته وقدرته ،ولذا لم يحفلوا كثيرا بعلم التوحيد .. وانما ترسخت العقيدة في قلوبهم وأذهانهم بالقصائد والقصص التي كانت تقال في المناسبات الدينية .

---

(١) راجع دولة مالي الاسلامية د/ ابراهيم طرخان ص ٩٠ ، بتصرف طفيف .

(٢) انتشار الاسلام في شرقي افريقيا د/ محمد عبدالله النقيرة ص ٢٥١ . وراجع الديانات في افريقيا السوداء ، هوبيرديشان ص ٥٠-٥٢ ، ٨٦ .

اذ ان هذه المناسبات أعطتهم فكرة واضحة عن أسماء الله الحسنى والملائكة والرسل وصورت لهم الاخرة أيضا ..

و من العادات الغربية التي كان شعوب غربي افريقيا يعتقدونها ظنهم ان الأمراض تأتي من (العين) أو دخول الأرواح الشريرة في الانسان ،وأن الكهان والسحرة قادرون على طرد هذه الأرواح بسحرهم فلذا تجدهم يحملون سلاسل من التعاويذ والتمائم التي يبيعها الكهان لصد هذه الأرواح الشريرة وهذه العين الضارة و قس على ذلك ما لم يقل ..

بل أحيانا يحمل الواحد منهم عشرات التعاويذ في آن واحد ليصد عن نفسه كل أذى .. ولكن هذه التعاويذ اذا فتشتها على حد قول (كامل مروه) لا تجد فيها سوى حفنة من التراب أو قطعة العظام أو ورقة عليها خطوط لا معنى لها .(٢)

ولم يكتف الافريقيون بهذا التعظيم والتبجيل للكهان والسحرة بل كانوا يعتقدون أيضا أن الكهان قادرون على تغيير العناصر الطبيعية فيطلبون منهم المطر اذا طال الجفاف وغير ذلك.(٣) أحيانا .

---

(١) راجع كتاب نحن في افريقيا المصدر السابق ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٨.

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ ولكن بالتصرف والتقديم والتأخير.

ولكن لما جاءت هذه العقيدة الفذة (عقيدة الاسلام) تحولت اغلبيتهم من فورهم من هذه المعتقدات الخرافية التي لا تزيد الانسان الاوهنا تحولوا الى ما أرشد اليه الكتاب والسنة من الاتكال على الله لأنه هو الذى يشفي و ينزل المطر اذا قنط الناس و ينشر رحمته ويرزق عباده وحده.. وهو القاهر فوق عباده الذى يعصم الخلق من كل كرب في البروالبحر ويعافيهم .. وهو أقرب اليهم من حبل الوريد وهو القائل :

* واذا سألك عبادى عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون * . (١)

بهذه الاية وأمثالها تحول الأفارقة من الاتكال على الكهـــان الى الاتكال على الله .

---

(١) الاية في سورة البقرة ١٨٦.
ان مجرد طلب دعاء من مؤمن لأخيه المؤمن وارد في السنـــة المطهرة ولكن الافريقيين قد وسعوا هذه الدائرة حتى يطلبوا من هؤلاء العلماء أشياء ليست في مقدور الانسان .

القرابين البشريــــة

من عادة سكان هذه المنطقة - قبل دخول الاسلام - تقديم القرابين والأضاحي البشرية وذلك بالقبض على عدد من الآدميين عند وفاة أحد الملوك وكان هؤلاء عادة من الاماء والرقيق والهدف من القبض عليهم في هذه المناسبة هو أن يقوموا على خدمة الملك في العالم الآخر.

يقول البكرى في ذلك :

" واذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره.. وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه واغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب.. "(١)

هكذا كانت عادة الناس في غربي أفريقيا قبل دخول الاسلام هناك ولكن لما دخلوا في الاسلام اختفت هذه الظاهرة الوثنية في جميع أماكن المسلمين بدليل أن البحوث الأثرية التي أجريت في أطلال كومبي صالح عاصمة غانة التي تحولت الى امبراطورية اسلامية في القرن الحادى عشر الميلادى ، قد كشفت عن لوحة في قبر لسيده كريمة وقد كتبت عليها العبارة كالتالية :

اللهم أرحم

فاطمة الطا (هرة)

... بنت سيد

نا محمد ابن سيد موسى (٢)

.... (انظر اللوحة في الملحق رقم ٦) .

---

(١) المغرب ص١٧٧ .   (٢) امبراطورية غانة الاسلامية ص٤٠ .

فدل هذا على أن هذه الظاهرة الوثنية قد اختفت منذ أن تحولت امبراطورية غانة الى الاسلام .. ولكننا نعود فنقول : ان هذه الظاهـــرة الوثنية لم تزل موجودة عند قبيلة (البمبارا)[1] في (مالي) الحديثة والبمبارا الموجودين في ساحل العاج .

وكما توجد أيضا هذه النزعة الوثنية عند قبيلة (الاشانى)[2] في غانة الحالية ، ولم يزالوا يمارسونها الى هذا القرن العشرين الا أن الكثيرين من هوءلاء الوثنيين بدأوا يدركون أن هذه الظاهرة لا تليـــق بالانسان فصاروا يدفنون/موتاهم مثل المسلمين تأثرا بهم..

هكذا استطاعت العقيدة الاسلامية أن تقلل هذه الظاهرة وان لم تقض عليها تماما الى الآن عند بعض الوثنيين .

---

(١) راجع الاسلام والتقاليد القبلية في افريقيا . المصدر السابق ص ٩٧ ،.

(٢) المصدر السابق ص ٩٨ ،.

ايمانهم بالسحر

وكان من عقائد السودان الغربي أن آمنوا بالسحر واستغلوا به لدفع الكوارث والأخطار ومداواة المرضى .

وهؤلاء السحرة كانت لهم المناصب العليا في هذا المجتمع الافريقي فهم الذين كانوا يقومون توجيه الحياة الروحية للناس و تقديم الضحايا والقرابين وعمل الأحجية والتمائم . . (١)

وكان السحرة (أوتونتيكي في لغة الماندنغ) يحكمون البلاد فقد برعوا في معرفة السحر الى أبعد مدى لأنهم كانوا يصيدون به و يقتل به بعضهم بعضا وقد أشار الى هذا القلقشندى اذ يقول :

" وأهل هذه المملكة (مملكة مالي) كثير فيهم السحر وله به عناية حتى انهم في بلاد الكفار يصيدون الفيل بالسحر حقيقة لا مجازا ".

ثم أضاف قائلا :

" وفي كل وقت يتحاكمون عند ملكهم بسببه ويقول أحدهم : ان فلانا قتل أخي أو ولدى بالسحر والسلطان يحكم على القاتل بالقصاص وقتل الساحر ". (٢)

ولم تقتصر عنايتهم على السحر فحسب ، فقد كانوا يشتغلون أيضا بالسم القتال يقتل به بعضهم بعضا ، كتب القلقشندى في هذا أيضا فقال :

---

(١) نحن في افريقيا ، كامل مروه ص ٤٨ .
(٢) صبح الأعشى ، القلقشندى ٥/٢١٤ .

" ان السموم بهذه المملكة (مملكة مالي) كثيرة فان عندهم حشائش وحيوانات يركبون منها السموم القتالة ولا سيما من سمك يوجد عندهم ".

والى هذه الدرجة وصلت بلاد السودان الغربي قبل المد الاسلامي فقد أصبح السحّارون كما قلت - يضعون الشرائع الدينية للناس وبأيديهم زمام الأمور من أمر ونهي وهم الذين يمنعون الناس من أكل هذه الحيوانات أوهذا النبات . فالخير ما يراه الكهان خيرا والشر ما نصوا عليه بأنه شر ".

ويليه في هذه المكانة شيوخ العشائر المختلفة ،وفوق الجميع أرواح السلف . . اذ الموتى هم الرؤساء الفعليون للأسرة والقبيلة كلها وهم القوامون وهم المراقبون على سلوك الأحياء ،ولهم عليهم حق الثواب أو العقاب ان تمسكوا بعادات القبيلة ونظمها أو تركوها . (١)

من هنا ندرك جانبا من جوانب نعمة العقيدة الاسلامية على سكان هذه المنطقة . فقد اتتهم هذه العقيدة بشيء لا يذكر لنا التاريخ الافريقي أن أى عامل ديني واقتصادى وسياسي استطاع أن يأتي الى سكان

---

(١) انتشار الاسلام المصدر السابق ص ٢٥٣ .
وعوامل انتشار الاسلام في شرقي افريقية ،مقال لعبد السلام شحاته مجلة نهضة افريقية ٥٩/٥ اكتوبر سنة ١٩٦٢م .

هذه المنطقة بمثله وذلك أن أول ما فعل الاسلام بالرجل السوداني أن رفع مستواه العقلي .. وجعله يفكر بوجوده وبالله تعالى وبآلاء الله تعالى . فنقله - بادئ ذي بدء - من عبادة أرواح السلف والاشجار والأشخاص والحيوانات من السباع والحيتان والأوثان التي لا تضر ولا تنفع ،نقله الى عبادة رب السموات والأرض وما بينهما .

ولم يكتف الاسلام بذلك بل وضع لهذا الانسان مثلا أعلى يختلف عن مثله الأعلى في العهد الوثني الجاهلي الذى كان قصارى أهدافه التمتع بملذات الحياة ولذائذها والانغماس في اللهو وشرب الخمور .. وعدم التفكير في غير الحياة الدنيا .

فاستبدل الاسلام هذه الأخلاق الدنيئة بمثله العليا والخلق الفاضل وعبادة الله بدل عبادة الكهان والسحارين .. كما يأمره بالتقوى والصلاح والعمل للسعادة في الحياتين : الدنيوية والأخروية ..

جاء الاسلام الى بلاد السودان الغربي كانت أحوالهم أشبه مايكون بأهل الجاهلية الأولى .. ان لم يكونوا أسوأ منهم، تلك الجاهلية التي لخصها جعفر بن أبي طالب امام النجاشي ملك الحبشة عندما هاجروا اليه فرارا من اضطهادات قريش وبطشها فقال :

" يأيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الأوثان ،وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم

وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات .. وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ..

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا .. »(١)

هذه هي الجاهلية ذاتها التي كان الناس في بلاد السودان الغربي يعيشون فيها ردحا من الزمان الا أنهم كانوا يعبدون أشياء لم يعبدها أهل الجاهلية الأولى هي : عبادة أرواح السلف والحيوانات ..

فتلك هي الحالة التي نقلهم الاسلام منها فتحولوا من الحضيض الى المستوى السامي الرفيع .. وظهرت آثاره ملموسة واضحة في كل منحى من مناحي حياتهم .. فكان هذا التحول أغرب ما شهده تاريخ بلاد السودان الغربي من انقلاب لكونه فريدا من نوعه - كما قلنا - بحيث أن الافريقيين وجدوا في نظام الاسلام الديني خير بديل عن أنظمتهم الدينية الوثنية .

فأصبح ولي أمر المسلمين بديلا عن الكاهن (تونتيكي) في توجيه الحياة الدينية والدنيوية .

وأخذ الوزراء والأمراء وأئمة المساجد مكان الكهنة والسحرة وأرواح الأسلاف .

----

(١) راجع ابن هشام ١/ ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

وليس غريبا أن نرى ولاة المسلمين بديلا عن الكهنة والسحرة وأرواح السلف لأن الشريعة الاسلامية تشمل كل صور الحياة الدينية والدنيوية للفرد والمجتمع، فالأئمة والقضاة يؤمون الناس في الصلاة ويخطبون في الجمع ويجمعون الزكاة ويقبلون الصدقات ويوزعونها على أصحابها المعيّنة في القرآن الكريم.

فأصبحوا هم الذين يديرون حفلة الزواج بدل السحرة والكهنة ويسمون المولود وينحرون الضحية الأولى في الأعياد والمناسبات الدينية ويغسلون الميت ويؤمون في صلاة الجنازة ويفقهون الناس في الاسلام ويحفظون الصغار القرآن، ويعلمونهم مبادئ الاسلام.

وكانت النتيجة أن لا يتم عمل في حياة القرية الا بوجودهم ويعينهم ولي أمر المسلمين في المناطق الاسلامية ..

ولم يتركوا مجالا للكهنة والسحرة الا وقد اشغلوها فمثلا كانوا يأمرونهم بالأضاحي والصدقات بدل القربان الذى كانوا يقدمونه الى أرواح السلف.

فاستبدلوا بصلاة الكسوف والخسوف طقوسهم الذى كانوا يقدمونه عند اختلال الظواهر الطبيعية. (١)

كما استبدل المسلمون توجههم عند النوازل الى الكهنة والمنجمين، بالاستخارة الشرعية.

---

(١) يراجع كتاب انتشار الاسلام . المصدر السابق في أماكن متفرقة.

وقد كانوا قبل اسلامهم - يربطون الأحداث التاريخية بالأحداث المشهورة وليس عندهم تاريخ معين ،فلما جاء الاسلام استبدل ذلك كله بالتقويم الهجرى وهو سنة اثنا عشر شهرا هلاليا لارتباطه بالعبادات.(١)

فعلى القارئ أن يتصور في قبول الافريقيين التقويم الهجرى ليرى ما ينتج من هذا من الأثر الكبير في قطع صلتهم بعباداتهم الوثنية القديمة ،وتقوية الاسلام في نفوسهم .

وهكذا غير الاسلام كثيرا من عاداتهم الوثنية وأنظمتهم الدينية وان لم يستأصلها - كليا- ولكنه غير مظاهرها وغاياتها .. وصبغها بصبغته الراقية ...

وهكذا أيضا كانت لهؤلاء الزعماء الدينيين مكانة رفيعة بين الافريقيين المسلمين والوثنيين معا ،فكانوا يجلونهم و يقابلونهم بالترحاب في كل مكان .

بل كان الوثنينون يلتمسوا الخير على أيديهم ويوكلون اليهم تعليم أبنائهم..

وفي خلال دراستنا الميدانية في المنطقة لاحظنا أن السحر قد كاد يختفي عند المجتمعات الاسلامية الجيل الجديد الذى تثقف بثقافة اسلامية في المدارس الحديثة فهم لا يعرفون شيئا من ذلك. وكذلك الحال عند الطبقة المثقفة باللغة الفرنسية لا يؤمنون به أيضا وقد بدأ الكثير من الوثنيين بالدخول في الاسلام تاركين أوثانهم وأصنامهم. كما وقع ذلك في منطقة (جيميني) بساحل العاج .(٢)

---

(١) انتشار الاسلام المصدر السابق ص ٢٥٦.
(٢) مستفاد من الرحلة الميدانية .

المبحث الثانـــي

أثر الاسلام في الشعائر الدينيـــــــة

فيما مضى لقد رأينا - أن شعوب السودان الغربي ،كانوا يعرفون الكائن العلوى (الله جل جلاله) ولكنهم -في الوقت نفسه - كانوا يخلطون معرفة هذا الكائن العلوى بخرافات وأوهام و تقاليد بالية ، ،فلذا كانوا - دائما - في شغل شاغل من الطقوس والمراسيم التي توجه تارة الى الكائـــن العلوى وفي المرات العديدة توجه الى أرواح السلف والاشخاص والاشجار والحيوانات (١) كما يوجهون جل عبادتهم الى صنم كبير يسمونه ب (دو -) عند قبائل الماندى (من الجولا والبمباراه) انهذا الصنم يخرج غالبا في الليل للاحتفال .. واذا خرج يجب ادخال النسوان والولدان والغرباء في داخل البيوت حيث يبقون حتى تنتهي هذه الاحتفالات لعدة/ساعات وقد تستمر تارة الى الصباح .

وعلاوة على هذا كان لهم احتفالات دينية أخرى مهيبة ففـــي هذه المناسبات يشربون فيها الخمور ويرقصون ويتلون الأدعية الوثنيـــة ويقدمون الضحايا والقربان .

و تطول مدة الاحتفالات أو تقصر على حسب أهميتها .. فعنـــد (جني المحصول -) يقيمون احتفالا لاله الحصاد ، وهم

---

(١) المد الاسلامي في أفريقيا ،جلال الدين عباس ص ٣٥ .

في بداية هذا الاحتفال /يصبون قليلا من الخمر سقيا لأرواح الأسلاف .

وعند نزول المطر يقيمون لهذه المناسبة احتفالا خاصا لاله المطر . .
و قس على ذلك . .

وهناك حفلات الزواج والولادة وختان الأولاد من البنين والبنات ويسمون هذا الاحتفال (كيني كيني) كما كانت لهم احتفالات في الدفن والجنائز وغيرهما . (١)

ويدعون فيها أرواح أسلافهم تبركا بهم واتقاء لشرهم . . (٢)

وأما نظام الجنائز عندهم فقد كانوا يطبخون للميت طعاما لمدة ثلاثة أيام متتالية وغالبا يكون هذا الطعام من الأرز وكانوا يسمونه (سيكيني - كيني - SiKini Kiny) كما يطبخون أيضا في اليوم السابع، ثم في الأربعين فاذا مضت على هذا الميت سنة كاملة يجتمع أهل القرية وأهالى القرى المجاورة ليشهدوا هذا الاحتفال العظيم ولا تسأل عن عدد الضحايا من البقر والمعز والدجاج التي تقدم قرى للضيوف الذين يحضرون هذا الاحتفال من البلاد البعيدة

---

(١) الشعوب والسلالات الافريقية ، محمد عوض محمد ص ٩٧ -٩٩-١١٦ بتصرف ، وراجع أيضا الديانات في افريقيا السوداء هو بيرديشان ص ٨٤ ، ٨٦ . وراجع أيضا انتشار الاسلام في شرقي افريقيا ، المصدر السابق ص ٢٥٢ .

(٢) راجع وثائق وجغرافية وتجارية . المصدر السابق ص ٣٢٢ .

وهكذا تذهب أموال الميت وأموال أقاربه في هذا الاحتفال الوثني وتارة يستدين بعض الفقراء لاقامة هذا الاحتفال، مخافة أن يكونوا أذلاء في القبيلة ويسقطون من أعين الناس الذين يذيعون في كل مكان ان فلانا لم يستطع أن يقيم لميته الاحتفال على رأس السنة. وقس على ذلك.(١)

وعند هذه الأطعمة يلقون الفستات قوتا لأرواح الأسلاف كما يهدون بعض الذبائح لأرواح هؤلاء الأسلاف أيضا.(٢)

ولما انتشرت العقيدة الاسلامية في هذه الديار امتنعوا عن هذه العبادات الوثنية واتجهوا بعبادتهم لله وحده فأموا الصلاة التي طهرت نفوسهم من أنجاس الوثنية .. وأبدانهم من الأوساخ الحسية فصاروا يجتمعون في المساجد بدل الغابات (دو - تو-) ويقفون أمام الله واحد على قدم المساواة .

وأصبح المسجد في القرية منار العلم والحضارة الاسلامية ، فهو مكان العبادة ومدرسة تحفيظ القرآن - والتعريف بالاسلام وثقافته عن طرق تفسير القرآن والوعظ .

بل هو مكان جميع الاحتفالات الدينية والاجتماعية .

---

(١) مستفاد من خلال البحث الميداني الذى قمت به لاعداد هذا البحث حول غرب افريقيا ابتداء من تاريخ ٧ رجب ١٤٠٥ الى ٩ ذى الحجة ١٤٠٥م .

(٢) الشعوب والسلالات الافريقية محمد عوض محمد ص ٩٧ - ٩٩ ، ١١٦ وراجع أيضا الديانات في أفريقيا السوداء ، هوبير ديشان ص٦٤ ، ٨٦ .

وتلك هي النقلة العظمى التي لم يشهد مثلها التاريخ الافريقي حتى الآن ..

بالأمس كانت هذه الشعوب في غانة وغيرها يسجدون لدكاكيرهم ويستميتون في سبيل الدفاع عنها ،ولا يتطهرون من الأوساخ وكانت غالبيتهم يكتسون بجلود الأغنام وينامون عليها ..

ولما سطعت هناك أنوار العقيدة الاسلامية تغيرت أحوالهم ظهرا لبطن فتحولت أفكارهم الى تفكير صحيح في شأن الله والكون والانسان بدل تفكيرهم في الأوثان والأرواح والأبطال .

ولم يقف الأمر عند حدود التفكير الذهني فقط وانما طبقوا ذلك في واقع عملي وجعلوا هذا التطبيق العملي ترجمة لما في أذهانهم من التفكير في الله عز وجل لأنهم عرفوا أن الاسلام ليس مجرد تفكير ذهني ولا طقوس فحسب وانما هو حضارة دينية شاملة فلذا تراهم بعد أن كانوا لا يتحاشون من الأوساخ صاروا يتزاحمون الى أبواب المساجد لابسين أفخم ملابسهم وخاصة في الجمع والأعياد وكتب عنهم ابن بطوطة بمايلي :

" وحضرت بمالي عيدى الأضحى والفطر ،فخرج الناس الى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان ، وعلى رأسه الطيلسان - والسودان لا يلبسون الطيلسان الا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه في سائر الأيام ..(١)

---

(١) تحفة النظار ص ٦٨٦ .

وزاد قائلا :

" وكانوا يوم العيد بين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون ، وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليه وأصلح من شأنه ثم خرج الى المصلى فأقيمت الصلاة والخطبة .. وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه ." (١)

وكما غيرت الصلاة طقوسهم الوثنية الى عبادة الله الحق ، كذلك غيرت الزكاة حياتهم القبلية التعصبية الى حياة التآخي والتراحم والمواساة .

وقد أشاد على كرمهم وأدائهم الزكوات الرحالة والمؤرخون الذين أرخو لمسلمي تلك الأنحاء ، مثل ابن بطوطة والعمرى والمقريزى وأرنولد توماس وليون الافريقي و (بازل دافيدسن Basil Davidesn) وغيرهم ..

وهذب صوم رمضان طباعهم البربرية .. وطبع الحج في قلوبهم وعقولهم معنى حياتهم المشتركة مع إخوتهم الذين ارتبطوا بهم / بروابط الدين وفتح أعينهم على ينابيع الثقافة الاسلامية ، فاغترفوا منها طلابا و حجاجا .

فقد كان الحاج من السودان الغربي يمر في طريقه بدول اسلامية ، ويتعرف بعلمائها ومدارسها وبالتيارات الفكرية السائدة فيها ، ثم يتوج هذا بما يحقق له في الاجتماع الشامل في الحج من علم ومعارف و يشعر بأنه ينتمي الى مجتمع عالمي يضم جميع الأجناس والأشكال .

وكذلك الحال في الوقت الحاضر ، ان مظاهر توديع الحجاج واستقبالهم في المطارات لها أكبر الأثر في دخول كثير من الوثنيين في الاسلام هناك (٢) وقد ذكرنا فيما سبق أمثلة لذلك .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) عوامل انتشار الاسلام في شرقي افريقية ، مقال لعبد السلام شحاته مجلة نهضة افريقية ٥٩/٥ ، اكتوبر سنة ١٩٦٢ م .

و هكذا تأثرت شعوب المنطقة بالعقيدة و تهذبت نفوسهم بفضل تطبيق الشريعة الاسلامية في حياتهم ، كما ذكر ذلك الرحالة والمؤرخون . ولذا اتجهت العقلية الافريقية لتكون شرعية دائما ..

وهكذا أثرت الشعائر التعبدية في شعوب السودان الغربي وهذبت نفوسهم من جميع الأدران الوثنية وأنجاسها ولم يبالغ (لوثروب ستوارد ز) حيث قرر أنه لولم يأت الاسلام الى غرب افريقيا لعمت الفوضى في جميع البلاد .. فينبغي أن لا يتمنى أحد فشل الاسلام في غرب أفريقيا لأنه لا مشاحة فيه أن العقيدة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم قد أعلى مستوى القبائل الفتيشية التي اعتنقت بها .. ثم أكد أن الاسلام لم يخدم المسلمين هناك فحسب بل خدم الانسانية جمعاء .

ثم اختتم هذا التقرير قائلا :

" فان غاب هذا الدين عن بعض تلك المراكز سادت فيها البربرية وعم شرب الخمور و فساد الأخلاق ".(١)

ان هذا لون من ألوان التأثير الاسلامي في شعوب هذه المنطقة ،وهناك ألوان أخرى آتية ...

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ، المصدر السابق ، ١/ ٤٥٠.

الفصل الثاني

أثر الاسلام في النهضة العلمية ببلاد السودان الغربي

يشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

١ - دور الوافدين في نشر الثقافة الاسلامية.

٢ - دور الملوك والحكام والعلماء في نشر الثقافة الاسلامية .

٣ - صور من الحياة العلمية ببلاد السودان الغربية :

١ - المراكز الثقافية .

٢ - نماذج من مشاهير العلماء.

٣ - العلوم التي كانت تدرس هناك.

٤ - الانتاج العلمي لعلمائها وفقهائها.

٥ - أثر اللغة العربية في اللغات المحلية .

الفصل الثانـــي

أثر الاسلام في المنطقة في النهضة العلمية ببلاد السودان العربـــي

تمهيد :

الاسلام دين ثقافة وحضارة قد جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وجعل من واجبات الحكومات الاسلامية (القيام بعلوم الديـــن والدنيا) وهي العلوم التي يترتب عليها حفظ الشريعة وصحة العمل باحكامها وكل ما يتصل بذلك ,وأيضا تلك التي تؤدي الى حفظ الحياة وازدهارهـــا كالعمران والتحضر الانساني كالطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والزراعـة والفنون والاداب وغير ذلك لذلك انتشرت الثقافة الاسلامية في غربـــي أفريقيا بانتشار هذه العقيدة الفذة فأخرجت هذه السلالة السوداء من الأمية التي كانت تعيش فيها عبر القرون حتى صارت من الأمم القارئـــة الكاتبة - فرفع مستواها العقلي وازدهرت هناك الحياة العلمية والثقافيـــة فترك لنا علمائها انتاجا علميا ضخما .

هذا ، وان أثر المد الاسلامي في النهضة العلمية في هذه المنطقة قد ظهر في جوانب كثيرة ولكننا نجمله في النقاط التالية :

١ - دور الوافدين في نشر الثقافة الاسلامية .

٢ - دور الملوك والحكام في نشر الثقافة الاسلامية .

٣ - صور من الحياة العلمية ببلاد السودان الغربي .

أ - المراكز الثقافيــــة .

ب - نماذج من مشاهير العلماء .

ج - العلوم التي كانت تدرس هناك.

د - الانتاج العلمي لعلمائها وفقهائها .

فلنواجه - الآن - هذه الجولة المهمة فيما يلي :

المبحـــث الأول

دور الوافدين في نشر الثقافة الاسلاميـــة ببلاد السودان الغربـــي

أولا - دور المصريين :

يذكر لنا التاريخ أنه قد نزح -من مصر- كثير من العلماء والفقهاء الى بلاد السودان الغربي واستوطنوا فيها لنشر الثقافة الاسلامية ،ويكفينا ما كتبه عبد الرحمن السعدى مؤرخ (تمبكتو) بهذا الصدد اذ يقول :

" انه قد رحل كثير من علماء الأزهر الى (تمبكتو) وقعدوا للتدريس ".(١)

ان علاقة مصر ببلاد السودان الغربي قد سبق ذلك بكثير ،فتمتد الى ما قبل التاريخ يقول جونستون ( ) بهذا الصدد :

" ان أول تيارات الحضارة وصل من مصر الى جميع بلاد افريقيـــة السوداء جنوبي الصحراء الكبرى ،من ذلك : بناء القوارب واستعمال اللبن في البناء وهو مرحلة متقدمة ،والأسحلة الحديدية من دروع ورماح وبلـــط وقسى ".(٢)

---

(١) تاريخ السودان ،عبد الرحمن السعدى ص ٣٢ ومابعدها .

(٢) وراجع أيضا توماس أرنولد ،الدعوة الى الاسلام ص ٣٥٧ .
وراجع موسوعة التاريخ الاسلامي ١٧٨/٦ أحمد شلبي .

فاذا كانت هذه الصلة مع مصر بهذه المثابة منذ أقدم العصور فليس من شك في أنها ازدادت منذ العصر الاسلامي - ولا سيما ان مصر كانت من بين المنابع التي جاء منها الاسلام الى غرب افريقيا .. فضلا على أنها في طريق الحج ،وكانت الأراضي المقدسة تحت نفوذ سلاطين مصر - على حد تعبير الدكتور ابراهيم طرخان فضلا أن مصر كانت مركز الخلافة الاسلامية .(١)

بل قد ثبت تاريخيا أنه قد أقام في مالي عدد كبير من التجار والفقهاء والعلماء من المصريين حتى عدهم بعض المؤرخين الى اربعمائة نفس حتى الطبيب الذى عالج ابن بطوطة وهو في مالي كان مصريا .(٢)

وهكذا كان أثر المصريين في الثقافة الاسلامية ببلاد السودان الغربي .. يقول هوبيرديشان :

" ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر من أهم المراكز التي زحفت منها الدعوة الاسلامية الى ربوع أفريقيا ".(٢)

هذا لم يقف دور مصر في نشر الثقافة الاسلامية في غربي أفريقيا عند حدود ما ذكر فحسب ولكنها كان لها دور آخر لا يقل أهمية من الدور

---

(١) نقلا عن كتاب دولة مالي الاسلامية ،الدكتور ابراهيم طرخان ص ١٦٨ ،المرجع السابق مع تغيير طفيف .

(٢) الديانات في افريقيا السوداء ص ١٣٢.

الأول وهو : عندما أصبح الأزهر موئل التفكير الاسلامي و كعبة الفكر الاسلامي قصده عدد كبير من الطلاب من جميع ربوع غرب أفريقيا . وكان لأهل تكرور أوفر الحظ والنصيب في هذا المجال ،فتدفقت منهم طوائف كثيرة لمصر وجلست بحلقات العلم في الأزهر بمصر/في مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق وأصبحت مثابة لطلاب العلم في هذه البلاد .(١)

ولم تزل القاهرة ـ حتى الان ـ تعد من أهم المراكز الثقافية الاسلامية كما لم يزل الأزهر مفتوحا للمسلمين يجدون فيه العلم و مشعل النور بل يجدون فيه المأوى والزاد ، وقد زرته عام ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ فوجدت هناك الافريقيين يتدفقون عليه ليتعلموا علوم القرآن والحديث وغيرهما وعلى وجه ضرب المثل فقد وجدت أن عدد طلاب ساحل العاج وحدها بلغ ما فوق أربعمائة طالب كما أدافنا بذلك رئيس طلاب ساحل العاج الدارسين آنذاك في الأزهر الشيخ (يحى كوناتي)(٢) وأما عدد طلاب نيجريا هناك فيعدون بالآلاف .

وهكذا كان دور المصريين ودور الأزهر واسعا في غرب أفريقيا .

---

(١) د / حامد عمار ،علاقات الدولة المملوكية بالدول الافريقية ص ٢٧ .

(٢) هو من أبناء ساحل العاج الدارسين في القاهرة وقد انتهت فترة رياسته سنة ١٩٨٥م وهو الذى أعطاني هذا التقرير بتاريخ ١١ رجب ١٤٠٥هـ الموافق بيوم الاثنين ١/ ٤/ ١٩٨٥م .

ثانيا - دور أهل المغرب الأقصى :

ومن ناحية أخرى كان المغرب الاقصى المنبع الأصلى الذى أمد بلاد السودان الغربي بالعلماء والدعاة ويؤيد لنا الألورى هذه الحقيقة بقوله :

" يتصل مسلمو (غربي افريقيا) بمسلمي المغرب الأقصى اتصالا قويا أدى الى أن يكون في هذه المنطقة من العقيدة والمذهب والطريقة والمنهج مثل ما في المغرب الأقصى حذو النعل بالنعل . ويفد علماء المغرب كثيرا الى هذه المنطقة لنشر العلم ، منهم من يمر بها الى الحج ومنهم من يرجع الى بلاده . . . ومنهم من يستوطنها الى آخر عمره " ومن ذلك ما سجله التاريخ من كتب الشيخ عبد الكريم الفلكي التلمساني بكثير من بلاد نيجيريا الشمالية وخصوصا مكثه بمدينة (لغو) مدة طويلة في القرن التاسع الهجرى . . " (١)

ان هذا التقرير الواضح الذى أشار اليه شيخنا الألورى قد أيده الواقع الملموس ان الاسلام - كما سبق - قد وصل الى غربي افريقيا بواسطة هجرات عربية وبربرية وأما سكان غربي افريقيا فقد تأثروا بالثقافة المغربية تأثرا لا يدانيه غيره . حتى كادت مدارس الثقافة الاسلامية في بلاد السودان الغربي أن تكون مدارس مغربية بحتة ، فكأننا في فاس أو أودغست أو مراكش أو القيروان ، نفس الأسلوب ونفس نمط الحياة .

---

(١) الاسلام في نيجيريا ، الألورى آدم ص ١٩ مع تغيير طفيف .

نفس المثل ونفس الوسائل حتى طريقة الكتابة نفسها تأثرت بالطابع المغربي ... هذا ما أشار اليه الشيخ الأمين عوض الله اذ يقول :

" المعروف أن الاسلام امتد الى السودان الغربي من طريق المغرب الأقصى ومن ثم فان الأثر الثقافي للمغرب الاقصى على السودان الغربي لا يدانيه أثر آخر ..

وقال أيضا :

" فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي والكتب المتداولة في السودان الغربي هي نفس الكتب المستعملة في المغرب الأقصى مثل كتب عياض وكتب سحنون وشروح ابن القاسم وخليل وكتب المغيلي والونشريسي وموطأ مالك والمدونة والخزرجية وتحفة الحكام والعباد .. "(١)

ويخبرنا المؤرخون أيضا أن علماء من الأندلس جاؤوا الى غرب أفريقيا بعد سقوطها (الأندلس) وأقاموا في تمبكت كما أقاموا بفاس ومراكش وتونس والقيروان .

ولو رجعنا الى أسلوب التأليف عند علماء السودان الغربي لوجدناه كالأسلوب الذى كان عند علماء المغرب .. فأقرب مثال على ذلك مؤلفات الفقيه السوداني أحمد بابا التمبكتي الآتي ذكره .. والذى تعتبر اكثر السودانيين تأليفا بحيث تم حصر مخطوطاته فبلغت نيفا وثلاثين ولو

---

(١) العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ، تأليف الشيخ عوض الأمين عوض الله ص١٧٧ .

راجعنا كتابه : " نيل الابتهاج بتطريز الديباج " و "كفاية المحتاج لمعرفة من لبس في الديباج " لوجدناه أنه اتبع الطريقة المغربية في تأليفاته .. وكذلك كتابات العلامة محمود كعت وخاصة تاريخ الفتاش فيه تأثر واضح بالنمط المغربي في التأليف ،بل سائر المؤلفات السودانية آنذاك كأمثال السعدى صاحب كتاب " تاريخ السودان " وغيره .(٢)

وقد قام بعض العلماء بدور فعال في نشر الثقافة الاسلامية ببلاد السودان الغربي كأمثال محمد عبد الكريم المغيلي (٢) الذى استمات في سبيل الدعوة الى الله تعالى .

فقد أكد المؤرخون على أنه يعتبر من كبار الدعاة الى الله في بلاد السودان الغربي . وقد زار عددا من بلدان المنطقة خاصة غاو وكانو وكانسينا ، ولم يقف عند حدود الدعوة باللسان فحسب بل كتب عدة رسائل وجهها الى الملوك والسلاطين ينصحهم فيها ويوضح لهم واجبات الأمير والمؤهلات التي تؤهله لحكم رعيته. (٣)

---

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقية ،حسن أحمد محمود ص ٢٦٨. بتصرف.
وراجع العلاقات . المصدر السابق ص ١٧٨.

(٢) المغيلي من علماء تلمسان النابغين وقد ذاعت شهرته كداعية للاسلام بين البربر ويأتي ترجمته في آخر هذا المبحث .

(٣) انظر رسالة المغيلي لأمير أسكيا محمد ،مخطوطة مصورة بدار الأرشيف بجامعة أحمد بيلو بزاريا ،نيجيريا رقم ٥/٤٠٣ ورقات ٢-٩.

وقد أثرت دعوته في سلاطين الأمراء ببلاد السودان الغربي فساروا على استشاراته من وقت لآخر .(١)

فقد وجه اليه السلطان أسكيا محمد سلطان سنغاى أسئلة عديدة وأجابه برسالة قيمة أوضح له فيها الفتاوى الاسلامية في الموضوعات التي أثارها وهي في مجموعها تلقي ضوءاً على المشاكل التي كانت تواجه الحكام المسلمين في السودان الغربي وقتذاك ،كما تعطينا صورة واضحة لأثر المغرب الأقصى في السودان الغربي في الفكر السياسي والثقافي .(٢)

ولقد قدر السودانيون للمغيلي هذا المجهود العظيم ،وأنصفه العالم السوداني أحمد بابا حين قال عنه :

" العالم العلامة المحقق الفهامة ،القدوة الصالح .. الحبر ، أحد أذكياء العالم وفرد العلماء النجباء الذين أوتوا بسطة في العلم والصلابة في الدين .. "(٣)

نستنتج من كلام الشيخ أحمد بابا العلامة السوداني مدى الدور الذى قام به علماء المغرب الأقصى في خدمة السودان الغربي عامة

----

(١) انظر رسالة المغيلي لأمير أسكيا ،مخطوطة مصورة بدار الارشيف بجامعة أحمد وبيلو بزاريا -نيجيريا رقم ٤٠٣/٥ ورقات ٢ - ٩ .

(٢) العلاقات . المصدر السابق ص ١٨٥ .

(٣) نيل الابتهاج بالذيل على الديباج مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط بدار الأرشيف رقم (٦٠٢) ورقتان ٢١٧، ٢١٨ لأحمد بابا التمبكتي .

وما قام به المغيلي (١) في مملكة سنغي أيام الأمير اسكيامحمد (٢) بصفة خاصة .

وهكذا كان دور الوافدين في نشر الدعوة الاسلامية ببلاد السودان الغربي واضحا . .

---

(١) المغيلي ، محمد بن عبد الكريم (١٥٠٣ م نسبة الى مغيلة وهي قبيلة من البربر مفسر وفقيه من أهل تلمسان ، اشتهر بمناواته لليهود ، وهدمهم صوامعهم في توات بقرب تلمسان ، رحل الى سنغاى وبلاد التكرور لنشر أحكام الشرع وقواعده توفي(بتوات) له مؤلفات منها " البدر المنير في علوم التفسير راجع الموسوعة العربية الميسرة ص ١٧٢٧م .
وله أيضا مخطوطة اسمها " أجوبة أسئلة الأمير آسكيا محمد ، توجد بدار الأرشيف بجامعة أحمدو بيلو بزاريا - نيجيريا .
وله مخطوطة أيضا اسمها " مصباح الأرواح " مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط بدار الأرشيف رقم ١٦٥٢.

(٢) وراجع مصباح الارواح ، المغيلي محمد بن عبد الكريم مخطوطة ، بالخزانة العامة بالرباط بدار الأرشيف رقم ١٦٥٢.

كما قلنا أن دور مصر في نشر الثقافة الاسلامية في غرب افريقيـــا
لم يقف على العصور التاريخية الماضية فحسب ولكنها لم تزل تؤد رسالتها
في تثقيف أبناء المسلمين المعاصرين ؛ وكذلك نقول ان دور علماء المغرب
لم يقف أيضا على ما مضى من الفترة التاريخية فحسب ولكن المغرب لـــم
يزل يؤدى رسالته في نشر هذه الثقافة الى الان .. ولم يزل كثيـــر
من تجار المغرب مقيمين في غرب افريقيا وخاصة في ساحل العاج والسنغال
ولهم دور كبير في مساعدة المسلمين وتسهيل السبيل لتشييد المساجد والمدارس
كما يوجد في الدول الشمالية اعداد كبيرة من طلبة غرب افريقيا وخاصة فـــي
جامعة القيروان وجامعة القرويين بفاس وجامعة الزيتونة بتونس التي لعبت
دورا كبيرا في خدمة الفكر الاسلامي لا في تونس وحدها بل في شمال الصحراء
وجنوبها وما زال هناك عدد ضخم من طلاب غرب افريقيا تلقون فيها دروسهم
ثم يعودون معلمين .

المبحث الثانـــي

دور الملوك في نشر الثقافة الاسلاميـة

أولا - الملوك الوثنيون :

قد اهتم ملوك السودان الغربي بالعلم والعلماء اهتماما كبيرا بسبب تأثرهم بهذا الدين . والغريب ان هذا الاهتمام لم يكن عنـد الملوك المسلمين فحسب بل كان الملوك الوثنيون أيضا يؤيدون الدعاة أيما تأييد ويقدمون لهم كل التسهيلات في سبيل نشر الثقافة الاسلاميـة رغم كونهم وثنيين .

فعلى سبيل المثال ،نجد حكام غانة قبل أن يتحولوا الى اعتناق الديانة الاسلامية قد سامحوا للمسلمين أن يمارسوا دينهم .. لذا ضمنت غانة منذ فجر تاريخها نحو اثني عشر مسجدا ،ألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية كما أن القسم الاسلامـــي من العاصمة كان مليئا بالعلماء والفقهاء والائمة (١) وكذلك كانت ولاتـه ونيمة وأودغست ..

فقد كانت هذه المدن مراكز ثقافية عربية اسلامية ،كما كانـت مراكز لنشر الدعوة الاسلامية (٢) وقد بسطنا القول في هذا الموضوع فـي الباب الأول فلاداعي الى تكراره.

---

(١) المغرب ص ١٧٤ - ١٧٥ راجع ما سبق عن العاصمة.

(٢) امبراطورية غانة ،الدكتور ابراهيم طرخان ص ٦١ وص ٨٢.
راجع افريقيا الغربية في ظل الاسلام ،نعيم قداح ص ٤١، ١١.

ثانيا - الملوك المسلمون :

١ - منسا موسى امبراطور مالي :

ان هذا السلطان كان اعظم سلاطين مالي على الاطلاق وهو أبرز شخصية تاريخية في السودان الغربي، وقد طبقت شهرته الافاق لما بلغته مالي في عهده من عظمة وقوة واتساع وثروة و نفوذ و تنظيم .(١)

وقد وصفه المؤرخون بمواصفات حميدة عديدة ولكننا نريد أن نتحدث هنا عن ناحية واحدة فقط من صفاته العاطرة و هي ناحية حبه للعلم والعلماء ..

ولو رجعنا الى الكتب التاريخية الجادة سنجد فيها ما يثلج القلوب ،ويهدى السارى ، واليك فيما يلي بعضا من ثناء العلماء عليه ،في هذا الصدد .

قد تحدث عنه الكاتب الأوربي (جوان جوزيف) عن أهم عمله منسا موسى ذاكرا أن مدينة تمبكتو - بفضل جهود هذا الملك - أصبحت منارة للعلم و مأوى للمغتربين ومركزا لنشر الثقافة الاسلامية ، اذ يقول :

---

(١) دولة مالي الاسلامية . المصدر السابق ص ٧١ - ٧٢) بتصرف .

" وقد ذكر المؤرخ العربي (العمرى) بعض المآثر التي اشتهر بها (موسى الأسود) فقد عمل هذا الملك العظيم على جعل بلاده منارة للعلم و نشر الدين الاسلامي .. فجعل من مدينة (تمبكتو) مركزا للعلم والتدريس يفد اليها طلاب العلم من المسلمين من شتى أنحاء أفريقيا .. و من البلاد العربية حيث يتدارسون شئون الدين والعلوم الأخرى في جامعة (سنقرة Sankore) الشهيرة العلمية في فترة العصور الوسطى .. ".(١)

– SANKOI

ويورد ابن بطوطة عنه صفة موجزة جامعة شاملة اذ يقول :

" انه يحب البيضان ويحسن اليهم ". (٢)

ووصف بأنه الرجل المثقف الورع العادل الذى يجيد اللغة العربية (٣) وأقام علاقات ودية مع الدول الاسلامية المعاصرة ،في مصر وبلاد المغرب ،وفتح بلاده اللاجئين من مسلمى الأندلس وعلمائهم أمام حركة الاضطهاد المسيحي لهم حتى قيل في هذا الصدد :

---

(١) الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء ، جوان جوزيف ت / مختار السويطي ص ٧٥ .

(٢) تحفة النظار ٤٠٩/٤.

(٣) مسالك الأبصار جـ١ ق ٢ ورقة ٥٠٤ - صبح الأعشى ١٩٥/٥.

" ان فقد اسبانيا الاسلامية كان كسبا لافريقية الشمالية وافريقية السوداء ".(١)

قد اشتهر السلطان موسى عند الجميع بالكرم والعطاء ولا سيما للمسلمين والعلماء وحسبنا دليلا على ذلك ما أورده ابن بطوطة نقلا عن الفقيه مدرك بن قنوص :

" ان منسا موسى كافأ رجلا من أهل تلمسان بسبعين مثقالا من ذهب ، نظير سبعة مثاقيل وثلث ،كان أعطاها المنسا موسى في

---

(١) كانت اسبانيا الاسلامية في ذلك الوقت ، خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، تعاني من ضغط المماليك المسيحية فيها فقداشتدت حركة (الاسترداد المسيحي) وذلك بعد أن تمزقت الوحدة الاسلامية فيها بقيام ملوك الطوائف منذ القرن الحادى عشر وبدخول المرابطين اسبانيا . و من بعدهم الموحدون ، بعثوا في مسلمي الأندلس بعض الحياة والقوة. ولكن الى حين فقد تزعمت مملكة قشتالة المسيحية حركة الصراع التي أخذت صبغة صليبية ولا سيما بعد فشل الحروب الصليبية في المشرق ،اشتدت هذه الحركة على أيدى الملوك الكاثوليك والكنيسة الكاثوليكية ولم يبق للمسلمين في اسبانيا سوى امارة غرناطة ،وهي التي سقطت نهائيا اواخر القرن الخامس عشر الميلادى. ولقد نكل المسيحيون بالمسلمين أشد تنكيل ،وكان المسلمون يتدفقون خلال ذلك الصراع المرير على شمال افريقيا وغربها/ كماسبق ذلك في ص ٣٠٨، انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص (٢٤١ - ٢٤٨) ، ٢٦٥ ومابعدها.
تاريخ أوربا في العصور الوسطى الترجمة العربية ص ٣٨٦.

صباه فقالوا له :

* الحسنة بعشر أمثالها * (١)

كما أعطى الفقيه المذكور " ثلاثة مثقال في يوم واحد " (٢)

وأعطى العالم أبا اسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة الاف مثقال ، وهكذا ... (٣)

وهكذا ظهر جليا دور منسا موسى في حب العلم والعلماء ..
كما ظهر أثر الاسلام في النهضة العلمية والثقافية في عصره وأظهر أدلة على ذلك المسجد الجامع الذى بناه في تمبكتو والذى كان تدرس فيه شتى العلوم .

----

(١) تحفة النظار ٢/ ٤١٩ ، ٤٢٠ وراجع ابن خلدون ٦/ ٢٠١ .
(٢) المصدر السابق ٤١٩- ٤٢٠ .
(٣) المصدر السابق ٤١٩ - ٤٢٠) .

دور ملوك الصنغاى في النهضة العلمية الاسلامية

ان الناحية الثقافية والاسلامية ،بوجه خاص قد نالت عناية فائقة عند ملوك صنغى وبخاصة(أسكيا محمد تورى)الذى وضع الأساس لهذه الغاية ،ويروى أنه كان صديقا للعلماء كلهم ،وقد وفد كثير منهم على تمكبتو للدراسة والقيام بالتعليم (١) ونشر الثقافة الاسلامية وقدأشار الى هذا ليو الافريقي الحسن الوزان بقوله :

" انه كان بتمبكتو كثير من القضاة والأطباء والدعاة الذين كانوا يعينون بأمر ملكي (أسكيا محمد تورى) وكان الملك يجل العلماء والأدباء كما كان يشترى كثيرا من المخطوطات لمكتبات تمبكتو ولايبخل بدفع أثمانها مهما غلت ،مما يدل على تقديره للعلم والأدب .." (٢)

وكان من شدة تعظيم هذا الملك للعلماء أنهم اذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم .. بل قد أمر ألا يقف أحد الا للعلماء وألا يأكل معه سواهم..

وشيّد كثيرا من معاهد العلم وجذب لها العلماء من المغرب والبلدان المجاورة ،وعمل على نشر الاسلام بين الوثنيين من قبائل البمبارا والفولة والموشى ،وظهرت في ظله مدن اسلامية شمال نيجيريا مثل كانو وكاتينا ،وجذبت هذه المدن طبقات العلماء مثل أحمد بابا التمبكتي الذى عرج على كانو عند عودته من الحج وجلس بها يعلم الناس.. (٣)

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ١٧٨.
(٢) وصف افريقيا ص ٤٧.
(٣) موسوعة التاريخ الاسلامي المصدر السابق ص ١٧٨.

فقد وصل انتشار الاسلام في ظله الى منطقة بحيرة تشاد ،وقد أطنب في ذكر مواقفه في العمل الاسلامي كل من السعدى و محمود كعت ويرفعان به الى درجة الأولياء أصحاب الكرامات والخوارق .(١)

يذكر جوان جوزيف أن مدينة (غاو -) سرعان ما أصبحت مثل مدينة تمكبتو من ناحية الدعوة الاسلامية والتمسك بالعقيدة اسلامية .

لقد امتلأت هذه العاصمة - في ظل هذا الملك المسلم - بمجالس العلم ،ووفد اليها العلماء المسلمون من الدول الاسلامية ،في شمال وشمال شرق القارة ، كما وفد اليها طلاب العلم من مناطق المملكة و من المناطق الأخرى المجاورة .

وهكذا أثر الاسلام في النهضة العلمية في مملكة الصنغاى ...
كما وجد العلماء من ترحاب الحكام المسلمين و كرمهم ما شجعهم على البقاء بغربي أفريقيا كما تحدثنا عن محمد المغيلي وغيره.

ولقد كانت مكانة العلماء - ولم تزل الى الآن - لدى السلطان والرعية لا يدانيها أحد ، كما رأينا أن العلماء في أيام امبراطورية مالي وصنغاى كانوا بصحبة الملوك والسلاطين.

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٥٦ واما السعدى فقد أشرنا اليه في أمكنة متعددة .

(٢) الاسلام في ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء تأليف جوان جوزيف ت: مختار السويفي .

بل بلغ من عناية سلطان (مالي أو صنغاى) أن خصص دارا مرتبة و مجهزة لضيافة العلماء والفقهاء الذين كانوا يفدون على المنطقة وجهز أخرى لاقامة الطلاب وللقيام بأمرهم [1] وبهذا انتقلت بلاد السودان الغربي من الحضيض الى القمة فكانت لها شهرة عظيمة بين الدول العالمية القديمة ...

---

(١) (مالي) نافد ايوب بيلتو و محمد شاكر ص ٤٧.

صور عن الحياة العلمية ببلاد السودان الغربي

يتناول هذا البحث النقاط التالية :

أ - المراكز الثقافية .

ب - العلوم التي كانت تدرس ومشاهير العلماء والأئمة .

ج - الانتاج العلمي لعلمائها وفقهائها .

د - أثر اللغة العربية في بلاد السودان الغربي .

فاليك توضيح ما أجمل .

١ - المراكز الثقافية :

قد رأينا في السطور الماضية ازدهار العلم في بلاد السودان الغربي خاصة في عهد منسا موسى الذى قدم عناية فائقة بشأن العلم والعلماء ،وقد رأينا كيف استقدم عددا كبيرا من العلماء الى بلاده خاصة مصر والمغرب والأندلس حتى صار يقوم بالتدريس في جامعة تمبكتو أشهر فقهاء عصره من شتى البلدان والأقطار ،كما وقفنا على عنايته أيضا بشراء الكتب المفيدة من مصر وغيرها فامتلأت البلاد بالكتب و بالعلماء من السودانيين الغربيين و من غيرهم من البيض ،فقد تحدثنا عن كل هذا فيما سبق .

والآن نود أن نتحدث عن المراكز الثقافية في هذه المملكة وعن دورها في نشر الثقافة الاسلامية اثباتا للحقائق العلمية التاريخية ودحضا للدعاوى المشبوهة الأوربية القائلة : ان السود ليس لهم تاريخ ".(١)

---

(١) افريقيا حتى أضواء جديدة .بازل دافيدسن ص١١٧.

وأنهم " كانوا يعيشون في عصرهم الحجرى حتى العهد الاستعماري القريب " .(١)

ولكن الحقائق العريضة التي سنثبتها هنا تزيل هذه الدعاوى الفارغة حتى يعلم أن سكان غرب افريقيا قد كانوا قبل التوغل الاستعماري يعرفون الكتابة بل كانت عندهم مكتبات عامة وخاصة . وكان هناك قضاة وأدباء ودعاة .(٢)

وقد اتخذ ملوك بلاد السودان الغربي المسلمون مراكز عديدة لنشر الثقافة الاسلامية ،فلنذكر أهم هذه المراكز الثقافية فهي كالتالي :

أ - تمبكتو .

ب - جنى .

جـ - بندوكو .

أولا - تمبكتو :

قد تحدثنا من قبل عن مدينة (تمبكتو) وذكرنا أنها من المراكز التجارية والثقافية في آن واحد . فتحدثنا عن الجانب التجارى هناك ، والآن سنتحدث عن جانبها الثقافي .

----

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة ،بازل دافيدسن ص١١٧.

(٢) وصف افريقيا ،ليو الافريقي الحسن الوزان ص ٤٧.
ومسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٣٢ ،فجر التاريخ الافريقي (مقالة الاستاذ توماس هودكير) ص ٣٠.

والحقيقة ان تمكبتو كانت عالية الشأن في المجالين : التجارى والثقافي الا أن الجانب الثقافي كان أرجح من الجانب التجارى .. وقد كسب هذا الجانب الثقافي لها كثيرا من الجدل والخلود حتى بلغت عند كتاب السودان الغربي الى حد القداسة . وقد أورد السعدى حديثا طويلا عنها نقتطف منه مايلي اذ يقول :

" هذه البلدة الطيبة الطاهرة الذكية الفاخرة التي هي مسقط رأسي، وبغية نفسي ،ما دنسها عبادة الاوثان ،ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن ،مأوى العلماء والعابدين ومألف الاولياء ".(١)(٢)

والامام محمود كعت يفخر بأن ينتسب لها فيقول في صدر كتابه :

---

(١) تاريخ السودان ،السعدى ص ٢٠-٢١.

(٢) معلومات عامة عن مدينة تمبكتو :
مدينة تمكبتو تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى بالمنطقة المعروفة بمنحنى النيجر عند دوران قوسه الشمالي ،وقد أسسها الطوارق (من البربر) في القرن الخامس الهجرى ولكنها ظهرت سنة ١٠٨٧م وكان ذلك في عهد المرابطين .. ثم استولى الصنغي عليها ،فعلا شأنها وذاع صيتها . ثم تغلب منسى موسى (سلطان مالي) (١٣٠٧- ١٣٣٢) على الصنغي فصارت تمبكتو في مملكة مالي .. وقد حظيت بعنايته جدا حيث بنى فيها مسجدا ضخما ،وقد زارها ابن بطوطة سنة ١٣٥٣م ثم عادت تمبكتو الى أيدى الصنغاى أيام سنى على ووصلت ذروتها الثقافي في أيام أسكيا الحاج محمد وفي سنة ١٥٩٤م استولى المراكشيون على مدينة تمبكتو وأخرجوا علمائها الى المغرب فاضمحلت ثم وقعت أخيرا سنة ١٨٩٤ في أيدى الفرنسيين وهي الآن في ضمن جمهورية (مالي) الحديثة "- راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/ ٢٣١ ، د/ أحمد شلبي .

" يقول محمود كعت الكرسني دارا ، التمبكتي مسكنا ، الوعكرى أصلا ".(١)

ان الاتجاه الثقافي الذى اتجهت اليه تمبكتو فقد بدىء منذ عهدها المبكر. لأن تشييد المساكن بها صحبه تشييد المساجد والمدارس والمعابد ، واقبال العلماء عليها وكثرة حلقات التدريس بمعاهدها ومساجدها..(١)

ومن سعد تمبكتو أن استولى عليها منسى موسى سنة ١٣٥٤م ، وقد حظيت تمبكتو في عهد هذا الملك بمزيد من الازدهار (٢) فقد استقدم عددا كبيرا من العلماء الى هذه المدينة خاصة من مصر والمغرب والأندلس كما قلنا سابقا حتى صار يقوم بالتدريس في جامعة تمبكتو أشهر علماء عصره من شتى البلدان والأقطار كما اشترى خلال رحلة حجه المشهورة عن طريق القاهرة عددا ضخما من الكتب من مصر ليستفيد منها أهل بلاده.(٣)

وأغدق على الطلاب - كما قلنا سابقا - الذين يفدون لها لتلقي العلم.

وأما في عهد أسكيا محمد (امبراطور الصنغاى) فقد وصلت تمبكتو ذروة مجدها الثقافي كما خطت نحو مزيد من المجد في عهد أسكيا داود (امبراطور صنغاى) أيضا.(٤)

---

(١) تاريخ الفتاش محمد كعت من المقدمة .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/٢٣٢.

(٣) دولة مالي الاسلامية في عهدها الذهبي على عهد السلطان منسا موسى (٧١٢ هـ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م)
رسالة ماجستير اعداد الطالب فاى منصور على بجامعة الأزهر كلية اللغة العربية ولم تنشر بعد ص ١٧٠ .

(٤) موسوعة التاريخ الاسلامي . المصدر السابق ٢٣٢.

هذا ما أكده ليو الافريقي بقوله :

" انه كان في تمبكتو كثير من القضاة والأطباء والدعاة الذين كانوا يعينون بأمر ملكي ،وكان الملك يجل العلماء والأدباء كما كان يشترى كثيرا من المخطوطات لمكتبات تمبكتو ، ولا يبخل يدفع أثمانها مهما غلت ،مما يدل على تقديره الشديد للعلم والأدب ". (١)

وأهم مركز ثقافي في تمبكتو مسجد سنكرى أو جامعة سنكرى ففيها كان العلماء يعلمون من كل فنون العلوم الاسلامية ،واكثر العلماء من البيض من قبيلة جدالة بصفة خاصة (٢) وهناك أيضا مسجد السيد يحيى في وسط المدينة يعد من الجامعات العالية الشأن ..

وهكذا تحولت تمبكتو شيئا فشيئا لتصبح مركزا ثقافيا عظيما جنوب الصحراء ،وجلس علماؤها في المساجد والمدارس على حد قول الدكتور أحمد شلبي -" يعلمون الطلاب الذين وفدوا لها من مختلف النواحي بافريقية ،وسرعان ما جذبت لها علماء من مختلف الجنسيات من المغرب والأندلس ومصر والحجاز .

" وبالتالي : جذبت لها مزيدا من الطلاب ،والراغبين في تحصيل العلم من السنغال والنيجر وامارات الهوسا والسودان فتنافست بذلك

---

(١) وصف افريقيا ص ٥٤٧.

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي المصدر السابق ٦/٢٣٢.

وراجع أيضا دولة مالي الاسلامية د/ ابراهيم طرخان ص ١٥٢.

مراكز الشمال في خدمة الاسلام .. وأصبحت مكانتها تشبه مكانة القيروان وفاس وقرطبة والقاهرة ". (١)

ويذكر الكاتب الأوربي (بازل دافيدسن) وصفا دقيقا عن الثقافة الاسلامية في تمبكتو اذ يقول :

" ونمت الثقافة المكتوبة التي عرفها السودان الغربي منذ قرون طويلة فاقت ثمراتها يانعة في تمبكتو في الوقت الذى اجتاح فيه أوربا حرب (٢) المائة عام .." (٣)

وأضاف قائلا :

" وكانت حضارة السودان الغربي في تمبكتو حضارة مميزة بذلك الاقليم لها خصائصها ومقوماتها التي جعلت منها ذاتية منفردة.." (٤)

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي المصدر السابق ٦/٢٣٢.
وراجع أيضا دولة مالي الاسلامية د/ ابراهيم طرخان ص١٥٢.

(٢) بداية حرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا عام ١٣٣٧م حول أملاك انجلترا في فرنسا وتخلل هذه الحروب فترات هدوء ، ومعاهدات ولم ينته الا بطرد الانجليز نهائيا من أملاكهم عام ١٤٥٣م وظهرت جان دارك ببطولتها . راجع :
Luce France Pendant la guerre de centans. Paris 1892, 3
Perroy, La Guerre de cent ants Paris 1946.

(٣) افريقيا تحت أضواء جديدة ،تأليف بازل دافيدسن ص١٤٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٤٩.

وهكذا كانت مدينة تمبكتو زاخرة بالعلوم ، يقصدها الطلاب والعلماء من كل حدب وصوب ، من المغرب و من المشرق ، ومن السودان ويقول شيخنا آدم الالورى :

" كان طلاب العلم في صدر عهدهم يرتحلون الى بلاد المغرب الأقصى لطلب العلم بها ويسافر بعضهم الى مصر ، ويأخذ بعضهم في مهاجرى العرب و من السياحيين الى بلاد المغرب ، ولما ارتكز العلم بمدينة تمبكتو رجع الناس اليها في طلب العلم ، اذ أنها أقرب اليهم من غيرها فارتدوا ديار العلم بها حتى نبغ فيهم عدد كبير من أهل العلم وعند ذلك اكتفوا بما في بلادهم وصاروا لا يطلبون العلم الى سواها ولا يحتاجون إلى غير مؤلفات علمائها الراسخين في العلم .." (١)

ويضيف الى هذا التقرير بقوله : محمد بن عمر التونسى :

" وبما أن علمائها كانوا لا يقلون عن غيرهم من العلماء في العالم الاسلامي آنذاك فقد اكتفى طلابها بمؤلفاتهم ، واعتمدوها مصادر للبحث والمعرفة ، وغدت تنبكت مركزا للتعليم الاسلامي ، وأثنى ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادى على الزنوج المقيمين بها لحملهم للدين الاسلامي وإقبالهم على حفظ القرآن ". (٢)

---

(١) الاسلام في نيجيريا ، آدم الالورى ص ٢٧ .

(٢) تشحيذ الأذهان ، سيرة بلاد العرب والسودان ، تحقيق خليل عساكر و مصطفى مسعد ص ١٣٤ الحاشية .

ويوضح لنا صاحب الفتاش ازدهار التعليم بتنبكت فيقول :

" وفيها مدارس تعلم الصبيان الذين يقرأون القرآن ..مائة وخمسين على ما ذكر الشيخ محمد بن أحمد فكان القاضي هو الحاكم في تنبكت وبيده مقاليد الأمور فيها.(١)

وأضاف قائلا :

" وهي ،أي تنبكت يومئذ ليس فيها حكم الا حكم متولى الشرع ولا سلطان فيها والقاضي هو السلطان وبيده الحل والربط وحده ".(٢)

وبذلك كانت تنبكت مركز الحياة الثقافية وقلب الحركة الفكرية النابض في بلاد السودان الغربي وظلت تنبكت منارة للعلم زهاء قرنين من الزمان ، من القرن الرابع عشر الى بداية القرن السابع عشر الميلادى اجتمع فيه العلماء من كل جنس ولون ، المغاربة والأندلسيين والمصريين والحجازيون ووفد اليها الطلاب من كافة بقاع غرب أفريقية من السنغال والنيجر والحوصا وبرنو وكانم والسودان فصار جامعها الشهير جامع -سنكرى - يشبه من وجوه كثيرة الجامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية.

---

(١) تاريخ الفتاش ، محمود كعت ص ١٨٠ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩.

(٣) الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ،حسن أحمد محمود ، ١/ ٢٧٠-٢٧١.

ب - (جنى) :

وهي من المراكز الاسلامية التي لها أهميتها الكبرى من بين بلاد السودان الغربي وكان الوضع فيها على غرار ما هو عليه في مدينة تمبكتو .(١)

وقد تمتعت جنى بموقع استراتيجي ممتاز وسط المياه مما جنبها تسلط الفاتحين ،كما أتاح لها هذا الموقع الممتاز ازدهارا ونموا مطردا الا أن ملوكها استمروا وثنيين ولم يسلموا الا في وقت مبكر برغم أن الاسلام قد دخل فيها في وقت مبكر . فاذا هم يصبحون الأغلبية الساحقة في هذه المدينة . والدليل على ذلك ما رواه السعدى في قصة اسلام ملك جنى اذ يقول :

" وهي مدينة عظيمة مباركة ذات سعة وبركة ابتدأت في الفكر في أوائل القرن الثاني من الهجرة . ثم أسلموا عند تمام القرن السادس والسلطان (كنبر - Kanbar) هو الذى أسلم وأسلم أهلها باسلامه ولما عزم على الدخول في الاسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة ،فحصل منهم (٤٢٠٠) عالما فأسلم على أيديهم .." (٢)

---

(١) دولة مالي الاسلامية في عهدها الذهبي اعداد فاى منصور على ص ١٧٣.

(٢) تاريخ السودان ،السعدى ، الصفحات ١١-١٢.

ان هذا التقرير يدل دلالة واضحة على كثرة المسلمين في المدينة آنذاك : لأنه اذا كان عدد العلماء فقط بلغ الى هذا العدد الضخم فلا شك أن عدد المسلمين يكون أكثر فأكثر ..

ويمضي السعدى في حديثه مبينا أسباب ازدهار العلم والخيرات في هذه المدينة حيث يقول :

" وأمرهم - (الملك كنبر) أن يدعو الله بثلاث دعوات (لتلك المدينة) وهي أن كل من هرب اليها من وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة وسرا (منه) حتى ينسى وطنه ذلك ، وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها .. وأن تسلب الصيد من الواردين اليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها ..

فقرأوا الفاتحة على هذه الدعوات الثلاث فكانت مقبولة وهي كائنة الى الآن بالمشاهدة والمعاينة ". (١)

تلك هي من أسباب ازدهار هذه المدينة في العلم والبركات فانتقل العلماء منها الى بلاد المغرب والى تمبكتو كما ورد الكثيرون اليها . ويؤكد السعدى آثار هذه الدعوات الثلاثة كانت واضحة في هذه المدينة حتى عهده وهو القرن السادس عشر بينما تم اسلام أهل جنى في القرن الثاني عشر الميلادى . (٢)

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ .

(٢) تاريخ السودان ، السعدى ص ١٢ .

ولم يكتف هذا الملك المسلم بهذه الدعوات الثلاثة بل خرب دار السلطنة وحولها الى مسجد لله تعالى وهو الجامع وأنشأ الآخر لسكناه في مجاورة الجامع ..

وأضاف السعدى مبينا آثار هذه الدعوات أنها كانت ظاهرة أمام العيون .. اذ يقول :

" وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة سكانا من العلماء والصالحين ومن غير أهله من قبائل شتى ، وبلاد شتى منهم مورفع كنكي - ورحل الى (أكابر) لأخذ العلم ثم رحل الى جنى في أواسط القرن التاسع ، كان فقيها عالما صالحا عابدا جليل القدر فأسرع اليه الطلبة لاقتباس فوائده وفي نصف ليل يخرج من داره الى الجامع لنشر العلم فيجلس الطلبة حوله يأخذون العلم الى الاقامة لصلاة الصبح ". (١)

نستنتج من هذا التقرير أن الناس كانوا يقبلون على العلم في بلاد السودان بكل حماس ونشاط ولم يمنعهم عن ذلك ظلام الليل ولا الميل الى النوم والدعة فهذا يكذب مزاعم الأوربيين الذين يقولون :

" ان شعوب افريقيا لا تملك ماضيا تقوم عليه حياتها ولا مسائل تنحو بها وتمشى الى أمام ، لا رجاء في خلاص ، ولم يتبدلوا منذ عصر القردة وعصر الحجر .. " (٢)

---

(١) تاريخ السودان ، السعدى ص ١٣ .

(٢) افريقيا تحت أضواء جديدة ، بازل دافيدسن ص ١١٦ .

فجاء هذا التقرير ردا على هذه الدعاوى وأثبت أن الافريقيين كانوا على عكس ما كانوا يحسبون ، فقد نشأت فيها امبراطوريات وسقطت .. ونشأت مرة أخرى وهوت مرات .. بل كانت هناك ثقافات تتصل بعدة أمور وكانت على رأسها ما جاء اليهم ونما فيها من العقائد والآراء ،أفكار تتصل بالله والكون والانسان وتتصل بنشأة الحياة والحكومة(١) ولم تكتف هذه الشعوب في جنوب الصحراء بالأمور العقائدية فحسب وان كانت هي أهم شيء في حياة البشرية ولكنهم قد عرفوا شيئا له أهميته الكبرى في الحياة الاجتماعية للشعوب والأمم ،هو استعمالهم للمعادن الذى كان عاملا حاسما في التقدم الاجتماعي ،لأن الذى عرفوه من الحديد واستعماله كانت نقطة التبدل وهي نقطة يجب أن نقف عندها ندقق .. ولكننا - نظرا - الى ضيق هذا المكان نحيل القارئ الى كتاب (افريقيا تحت أضواء جديدة) للأوربي (بازل دافيدسن) ليرى تفاصيل ذلك هناك.(٢)

وهكذا كانت مدينة جنى مزدهرة بالعلم وكان أثر الاسلام في النهضة العلمية فيها واضحا كما كانت لدى أهلها مهارة طيبة في استعمال المعادن التي فيها تقدم الشعوب والأمم ..

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة ،بازل دافيدسن ص ١١٦.

(٢) المصدر السابق ص ١١٦-١١٧.

وبعد هاتين المدينتين الثقافيتين العظيمتين ، هناك وثائق أخرى مما كتبها الاوربيون وغيرهم تتيح لنا فرصة الحصول على معلومات كافية عن المراكز الثقافية الأخرى التي شعت منها الثقافة الاسلامية ابان العصور الحديثة . وهذه المراكز كثيرة جدا ، فلنذكر منها النماذج التالية :

١ - مدينة كونغ (Kong) :

لقد زار الرحالة الأوربيون هذه المدينة وخاصة بنزى ( ) ومونى (Mauny) فوصفوها بأنها كانت العاصمة الاسلامية القديمة في (L'antique Metrpole) بعد تمبكتو وجنى كما أفادا بأنها كانت المدينة التي كان يحتفل بها جميع الأطباء السودانيين منذ قرون عديدة ، حيث يقصدها طلاب العلم ليتلقون شتى العلوم وخاصة العلوم الشرعية .. وهناك مراكز أخرى يضيق المكان لذكرها مثل بندوكو وجيني وغانوى وغيرها .

وبعد هذه الجولة في محيط المراكز الثقافية نتحدث الان عن الكتب التي كانت تدرس هناك ..

الكتب التي كانت تدرس في جامعات بلاد السودان الغربي

هناك كتب كثيرة قد عثرنا عليها في خلال هذه الرحلة العلمية ، قد سجلت فيها أسماء بعض الكتب التي كانت تدرس في جامعات غرب أفريقيا ، وبالأخص جامعة سنكرى بمدينة تمبكتو .

وعلى سبيل المثال فقد وجدت أسماء هذه الكتب المقررة على طلاب جامعة سنكرى في مخطوط للشيخ أحمد بابا التمبكتي وهو (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج) (١) وقد نص في هذا الكتاب الشيخ أحمد بابا على أن الكتب المقررة في هذه الجامعة كالتالي :

" مختصر خليل " وتسهيل ابن مالك وألفية العراقي و تحفة الحكام لابن عاصم وجمع الجوامع للسيوطي وحكم ابن عطاء الله والجامع الصغير للسيوطي والشفاء والموطأ والمعجزات للسيوطي وشمائل الترمذى .."

---

(١) موجودة في الخزانة العامة بالرباط رقم ٢٣٩٠ ورقات ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، وموجودة أيضا بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٦٨ تاريخ تيمور وقد صورتها مع كتاب تاريخ الفتاش للكتب في جامعة بايرو في كانو نيجيريا .
وراجع أيضا : العلاقات للشيخ الأمين عوض الله ص ١٩٦ وراجع : اليفرنى : صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادى عشر. مطبعة حجرية بفاس ص ٥٤ - ٥٥ .

فاستفدنا من هذه المخطوطة معرفة بعض المواد التي كانت تدرس في بلاد السودان الغربي في تلك الفترة . ولكنني لم أكتف بهذه الكتب المذكورة بل بحثت عن غيرها لعلي أعثر على مزيد من ذلك .. فوجدت في السنغال وفي نيجريا تاريخ السودان للسعدى فاذا فيه بعض الكتب المقررة هنا لم يذكره الشيخ أحمد بابا »

. وقد تحدث الدكتور طرخان في هذا الموضوع ولم يقدم لنا صورة ولو نموذجية، من هنا شمرت ساعد الجد لعلني أعثر على شيء من كتاب أو مخطوطة تعطينا صورة - ولو نموذجية -عن ازدهار الحياة العلمية في تمبكت وغيرها .. فقد استدعى ذلك صبرا طويلا وعملا دوءوبا بل كان ذلك من الأسباب التي قمت لأجلها برحلة علمية الى كل من : مصر (١) وباريس (٢) والدار البيضاء (٣) والرباط وفاس ودكار (٤) وبماكو (٥) وعدد من بلدان ساحل العاج (بندوكو - دبكلا - بواكى) (٦) .

---

(١) وصلت هناك بتاريخ ٧ رجب ١٤٠٥هـ الموافق بيوم الخميس ٢٨ مارس سنة ١٩٨٥م .

(٢) باريس هي عاصمة فرنسا وكان وصولي فيها بتاريخ يوم الجمعة ١٧ رجب ١٤٠٥هـ الموافق ٣ ابريل ١٩٨٥م

(٣) العاصمة التجارية للمغرب وأما الرباط فهي العاصمة الادارية لها . وفاس العاصمة الدينية وكان وصولي اليها بتاريخ ٢١ رجب سنة ١٤٠٥هـ الموافق يوم الخميس ١١ ابريل ١٩٨٥م.

(٤) دكار عاصمة السنغال وصلت هناك في يوم الاربعاء ٢٧ رجب ١٤٠٥هـ الموافق ١٧ ابريل سنة ١٩٨٥م .

(٥) بماكو عاصمة مالي الحديثة وصلت فيها يوم الثلاثاء ٣شعبان ١٤٠٥هـ الموافق ٢٣ ابريل ١٩٨٥م .

(٦) من المدن الرئيسية في ساحل العاج وقد وصلت في العاصمة ابيدجان يوم الثلاثاء ١٠ شعبان ١٤٠٥هـ الموافق ٣٠ ابريل ١٩٨٥م.

كما زرت للسبب نفسه كلا من (أكرا) عاصمة غانا الحديثة وكانو بنجيريا فاستغرقت هذه الرحلة حوالى ستة أشهر .

وفي خلال هذه الجولة الواسعة بين دول اسيوية وأوروبية وافريقية توصلت الى نتائج هامة تتعلق بالكتب التي كانت تدرس في جامعة تمبكتو من ناحية ، ومن ناحية أخرى عثرت على بعض الانتاج العلمي الذى تركه لنا علماؤها .. فلنتحدث عن ذلك بدقة . . .

يذكر السعودى من هذه الكتب المقررة مايلي :

" صحيح البخارى وصحيح مسلم والجزرية في العروض ،والشفاء

ثم ذكر بعض ما ذكره الشيخ أحمد بابا وهي : الشفاء للقاضي عياض والموطأ للامام مالك ،والألفية لابن مالك والجزرية في العروض ".(١)

وأما صاحب كتاب الاسلام والثقافة العربية في افريقيا فقد ذكر ما ذكرناه وزاد على ذلك بكتب أخرى . واليك ما ذكره :

" من الكتب التي كانت تدرس ببلاد السودان الغربي ، الشفاء للقاضي عياض والصحيحين والمدونة والرسالة و مختصر خليل والألفية وموطأ مالك ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض والشاطبي في التجويد وشرح السبني وتحفة الأحكام لابن عاصم وكتاب المعيار للونشريسى .. ".(٢)

ويتحدث زكي عبد الرحمن في كتابه " تاريخ الدول الاسلامية بافريقيا الغربية أن (هوجريفز) يذكر أن المكتشفين الأوربيين ذهلوا حين قابلوا افريقيين وعرباً لهم اهتمامات بالدراسات العقلية والفلسفية .. وأن بارت (Berth) قابل عالما من قبائل الفولة كانت لديه ترجمة لبعض تعاليم أفلاطون وأرسطو ..(٣)

---

(١) تاريخ السودان الباب التاسع ص ٢٧ -٣٢.

(٢) حسن أحمد محمود ص ٢٧٢ القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٣م.

(٣) تاريخ الدول الاسلامية بافريقيا الغربية ،زكي عبد الرحمن ص ٢٩ -٣٩.

ويورد ابن بطوطة ما رأى من الكتب التي كانت تدرس في بلاد السودان الغربي فذكر منها كتاب (المدهش لابن الجزرى) ..

وبهذه الحقائق العلمية نستطيع أن نقدم صورة - نموذجية - عن الكتب التي كانت تدرس في جامعات بلاد السودان الغربي في تلك الفترة التاريخية يعني اعتبارا من القرن الحادى عشر الى القرن السادس عشر الميلادى حيث تدهورت الأوضاع في البلاد من جراء الغزو المغربي لبلاد السودان الغربي ..

والان نستطيع أن نقسم هذه الكتب التي كانت تدرس هناك حسب موضوعاتها :

١ - <u>التفسير وعلوم القرآن</u> .

يقول الدكتور ابراهيم طرخان :

" وانصب الاهتمام في مناهج التعليم في مالي ،وكذلك في غيرها من بلاد السودان ،على حفظ القرآن أولا ، حتى كان أهل مالي يجعلون قيودا لأولادهم ولا يطلقونهم الا بعد أن يحفظوا القرآن . (١)

ويقول حسن أحمد محمود :

ان بوادر الدراسة في جامعة (سنكرى) ب(تمبكتو) تتركزحول علوم القرآن والحديث والسير والتواريخ والمنطق ،فاذا أتم الطالب هـــذه

----

(١) دولة مالي الاسلامية ص ١٥٣ .

الدراسة المتنوعة حصل على الاجازة المطلوبة ورحل من المدينة الى حيث يشتغل بالاقراء أو الخطابة أو الامامة أو القضاء .." (١)

٢ - الحديث وعلومه :

صحيح البخارى الترمذى وصحيح مسلم و جمع الجوامع للسيوطي والجامع الصغير للسيوطي الموطأ.

٣ - الفقــه :

مثل كتاب مختصر خليل ،تحفة الحكام لابن عاصم و حكم عطاء الله.

٤ - اللغة :

الفية ابن مالك وألفية العراقي ،مقامات الحريرى .

٥ - العروض :

الجزرية في العروض وشرح الشريف السبتي .

٦ - المنطق :

مثل رجز المغيلي في المنطق و كتاب المعيار للوشـريسي والمدهش لابن الجزرى واضافة الى الدراسات العقلية والفلسفية من تعاليـم أفلاطون وأرسطو .

٧ - التارخ :

المعجزات للسيوطي ،الشفاء للقاضي عياض .

---

(١) الاسلام والثقافة العربية بافريقيا ص ٢٧٢.

هكذا أعطينا صورة نموذجية عن الكتب التي كانت تدرس في بلاد السودان الغربي ولعلنا في مستقبل الايام نعثر على مزيد من ذلك ..

هذا وقد كثرت المكتبات في تمبكتو بعدد كبير من المكتبات المملوكة لعلمائها ولكن عرف من هؤلاء أنهم كانوا لا يبخلون بكتبهم على الراغبين في الاستعارة مهما كانت الكتب قيمة ، وكانت تدور بها حركة نسخ نشيطة ليحصل عن طريقها بعض الناس على نسخ من الكتب التي يريدونها. (١)

و يخبرنا ليون الافريقي (٢) أن الكتب كانت أنفس شيء في أسواق تمبكتو مما يزيد فهمنا لما وصل اليه المستوى الثقافي في بلاد السودان الغربي .. والكتب تستورد من المغرب و من مصر بينما كان الكثير منها يؤلف وينسخ في المدينة نفسها. (٣)

يقول الشيخ عوض الله :

" وكانت مدينة تنبكت مركزا لاشعاع فكرى بعيد المدى في بلاد السودان فكانت تحمل اليها الكتب من مختلف جهات العالم الاسلامي ، ثم تنسخ و تباع في أسواق المدينة وكانت تلقى اقبالا منقطع النظير من الطلبة والمشتغلين بالعلم والسلاطين والأمراء . وكان العلماء ينشئون المكتبات الخاصة كما فعل ذلك بعض السلاطين ". (٤)

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ٦/

(٢) وصف افريقيا ص ٤٧.

(٣) العلاقات للشيخ عوض الله ٢١٥.

(٤) المصدر السابق ص ٢١٥.

وهكذا رأينا صورة مشرقة من صور الحياة العلمية في غرب افريقيا كما رأينا نموذجا من الكتب التي كانت تدرس في جامعاتهم وكما رأينا أن المدن الثقافية هناك كانت تحتوى على عدد ضخم من الكتب بل كانت الكتب أنفس شيء في تلك البلاد .. والذى يدلنا دلالة واضحة على كثرة الكتب في بلاد السودان الغربي آنذاك ما ذكره الشيخ أحمد بابا أنه كان أقل عائلته كتبا ومع هذا قد نهب منه أهل المغرب ستمائة وألف كتابا (١٦٠٠) (١)

ولم تقف النشاطات الثقافية في تمبكتو وجنى ولكنها ازدهرت أيضا في الجنوب منطقة الغابات (ساحل العاج) مثل مدينة كونغ وبندوكو وغيرهما قد قام بالبحث عن المكتبات الاسلامية في جميع أنحاء المنطقة ، المسيو بول مارتن .

ويجد القارئ أسماء هذه الكتب في الملاحق ان شاء الله تعالى .

---

(١) العلاقات ص ١٩٤ .

نماذج من الانتاج العلمي لعلماء السودان

قد رأينا -فيما مضى - نماذج من الكتب التي كانت تدرس في جامعات تمبكتو خاصة في جامع سنكرى الذى ازدهر فيه الديـــن والعلم ،والذى نمت فيه الثقافة المكتوبة التي عرفها السودان الغربي لأول مرة منذ تاريخها الطويل من الماضي السحيق . فأتت ثمراتهايانعة في تمبكتو ثم في جميع أقطار المنطقة أخيرا ..

والآن -نحن - بصدد الحديث عن الانتاج العلمي الذى تركه لنا هؤلاء العلماء النجباء مما يدل دلالة واضحة على تأثرهم بالعقيـــدة الاسلامية و ثقافتها ولم يكونوا مجرد وعاء يمسك الماء فقط ،بل كانوا أيضا أرضا خصبة تنبت الزرع والكلاء .

والحقيـــقة ان هؤلاء العلماء قد تركوا انتاجا علميا ضخما لمـــن خلفهم . ان الغزو المراكشي لبلاد السودان الغربي كان سببا مباشرا لتضييع كثير من الانتاج العلمي السوداني . فعلى وجه المثال ان الباشا محمود قائد جيش أحمد المنصور لغزو بلاد السودان الغربي قد اعتقـــل بعد انتصاره على السودان أكثر من سبعين عالما وأرسلهم الى سلطان مراكش وادعى انهم كانوا يتزعمون تنبكت .. يقول صاحب الفتاش :

" ... ثم بعثهم الباشا محمود الى مراكش وطائفة من أولادهم ومواليهم من النساء والرجال وهم على نيف وسبعين ولم يرجع منهم سوى سيد أحمد بابا .. بعدما مكث هناك عشرين سنة .. " كما قلناسابقا .

هذا من جهة ،و من جهة أخرى ،لكي نتصور في كمية الانتـــاج

العلمي الذى تركه لنا هؤلاء العلماء الأفاضل ،علينا أن نعلم أن العالم السوداني التمبكتي وحده قد ألف عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا .. ولكننا -حتى الآن- لم نعثر على جميع هذه الكتب لعلها فقدت من جراء هذا الغزو المراكشي المشئوم ،ودليلنا على ذلك ما قاله الشيخ أحمد بابا نفسه بقوله :

" كنت أنا أقل عائلتي كتبا وقد نهبت مني ستمائة وألف كتاب " .

انطلاقا من هذا التقرير ندرك أنه كانت هناك كمية كبيرة من الانتاج العلمي لعلماء السودان قد فقدت بسبب هذه الحرب الذميمة التي كانت سببا لتضييع جل تأليفات علماء السودان الغربي . لأن هذه الحرب لم تكتف بنقل العلماء الكبير في تمبكتو الى المغرب ولم تكتف أيضا بنقل المخطوطات النادرة التي ألفها علماء السودان بل غادر أصحاب هذه الحرب المسلمين بحيث أن جمعوهم في مسجد سنكرى فقتلوهم شر تقتيل ..

يقول صاحب الفتاش :

" فلما اجتمع الناس غلقت أبواب المسجد ووقف الرماة على الأبواب والسطوح فكان من أمر الله ما كان مما لا ينبغي ذكره ولا يحتمل القلب جلب ما كان هناك .. "

وهكذا ضيع أحمد المنصور الحركة العلمية في المنطقة و قضى على جميع نشاطات العلماء بنقل جل كتبهم الى المغرب وبنقل كثير منهم الى مراكش و قتل وجرح عدد من العباد و أرباب القلم في مسجد سنكرى في يوم الاثنين وعشرين محرم عام اثنين وألف كما قرر بذلك السعدى .(١)

---

(١) العلاقات ص ٢١٥ .

فصارت هذه المذبحة عارا في جبين السعديين كما أوقعت عليهم مسئولية ضياع الانتاج العلمي الذى تركه لنا العلماء الأفاضل السودانيون هناك.

ومع هذه المأساة التي أصابت غرب أفريقيا من ضياع جل كتبها ومؤلفاتها ، هناك مجهودات جبارة قد بذلت - ولم تزل تبذل - للوصول الى صورة كاملة من الانتاج العلمي لعلماء السودان الغربي من قبل بعض الجامعات الافريقية ، فقد بدأت هذه الجامعات تجمع المخطوطات التي تركها لنا علماؤنا الأفاضل السودانيون . فعلى سبيل المثال نذكر أسماء بعض هذه الجامعات ثم نقدم نموذجا من هذا الانتاج العلمي ..

(أ) أسماء بعض الجامعــات

أولا : جامعة دكار :

عاصمة السنغال ، وقد خصص في هذه الجامعة قسم يعنــى بالشئون الاسلامية سموها (المعهد التأسيسي الافريقي) ،

ويرمز بـ (l' i.F.A.N.) (١) وقد شهدت هذا المعهد أثناء رحلتي الميدانية فوجدت فيه عددا كبيرا من الانتاج العلمي الذى خلفه علمــاء السودان الغربي فصار الباحثون يقصدون هذه الجامعة من شتى أنحاء العالم للبحث عن هذا الانتاج العلمي الذى عثر عليه أخيرا .

ثانيا : جامعة (بايرو) : (٢)

في مدينة (كانو Kano) بنيجيريا وقد شهدت كل ما قامت به هذه الجامعة من جمع هذا التراث العلمي لعلماء بلاد السودان الغربي جعلوه في قسم سموه " القسم الاسلامي بجامعة بايرو ".

---

(١) وقد كانت زيارتي لجامعة (دكار) بتاريخ ٣٠ رجب ١٤٠٥هـ / ٢٠ ابريل ١٩٨٥م وصادفت الدكتور الشيخ خديم امباكي الذى كان زميلا لي في الجامعة الاسلامية والذى استقبلني بحفاوة وتكريم . واطلعني على جميع المخطوطات الافريقية فصورت بعض الفصول منها بحيث لا يسمحون بنقل الكتاب كله كما كتبت بعضها أيضا بخطي .

(٢) زرت جامعة بايرو مع الأخ موسى الفاضل خريج الجامعة الاسلامية وامام وخطيب مسجد الشيخ أمين الدين وكما كان معنا الشيخ محمـــد الهاوساوى وهو أيضا خطيب في المسجد المذكور وذلك بتاريخ ٥ يوم الجمعة ذى الحجة / سنة ١٤٠٥هـ/ ٢١ اغسطس ١٩٨٥م.

ثالثا - جامعة أحمد بللو :

بمدينة زاريا[١] بنيجيريا توجد أيضا في هذه الجامعة مجموعة كبيرة من الانتاج العلمي لعلماء بلاد السودان الغربي .

رابعا - الخزانة العامة بالرباط[٢] دار الأرشيف :

ان هذه الخزانة تحتوى على كمية ضخمة من التراث الافريقي وليس غريبا أن توجد فيها هذه الكمية لأن المغرب هو السبب الرئيسي لتضييع الانتاج العلمي لعلماء غربي أفريقيا - كما قلنا سابقا - ويوجد بعض المخطوطات في مدينة (فاس) .[٣]

خامسا - المكتبة الوطنية بباريس :[٤]

قد وجدت في هذه المكتبة عدة مخطوطات لعلمائنا الأفارقة سنذكرها فيما يأتي .

هذه هي أهم الجامعات التي نهضت لجمع الانتاج العلمي لعلماء غربي أفريقيا الأوائل .

---

(١) قد نويت زيارة هذه الجامعة وأنا في (كانو) ولكن الظروف لم تسمح لمضيفي الشيخ موسى ولكني وجدت في مدينة كانو جميع الكتب التي كنت انوى طلبها في جامعة أحمد بللو .

(٢) وقعت زيارتي في الرباط بتاريخ ٢٤/رجب الاحد ١٤٠٥هـ/ ١٤ابريل سنة ١٩٨٥م.

(٣) وصلت في مدينة فاس في التاريخ نفسه في وقت الظهر.

(٤) زيارتي لهذه المكتبة وقعت بتاريخ ١٨ رجب الاثنين ١٤٠٥هـ / ٨ ابريل ١٩٨٥م . وجدت هناك عدة كتب كما زرت (مركز بومبيدو) (Centre Pompidou) التي تعتبر من كبريات المكتبات في أوربا كلها .

(ب) اسماء بعض الانتاج العلمي

أولاً تآليفات لأحمد بابا التنبكتي توفى سنة ١٠٣٢هـ .

وقد ذكرنا سابقا بأن بابا التنبكتي وحده قد ألف ما فوق أربعين كتاباً ،ولكننا نذكر هنا أشهر هذه التآليفات :

أ - نيل الابتهاج بالذيل على الديباج ،مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط بدار الارشيف رقم ٦٠٢

وهو كتاب طبقات ترجع فيه لعلماء المغرب والسودان الغربي ويقول في مقدمته :

" انه تأثر في كتابه بالقاضي عياض وبابن فرحون [١] .

وفي رأيه أن ابن فرحون لم يستوف الغرض في تأليفه ولذلك ألف كتابه نيل الابتهاج وجعله ذيلا لكتاب ابن فرحون ليكمل بعضها الاخر .. ويضيف أحمد بابا في مقدمته أن وجوده في مراكش وتوفر المراجع هي التي أتاحت له فرصة التأليف .

ب - كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج مخطوط بالخزانة العامة بالرباط بدار الأرشيف رقم ك ٢٣٩.

وتوجد هذه المخطوطة أيضا بدار الكتب المصرية تحت الرقم ١٥٦٨ / تاريخ ،تيمور .

---

(١) وقد وجدت في جمهورية مالي هذا الكتاب وقد طبع أخيرا وهو اليوم في حوزتي .

جـ - مسائل الى علماء مصر .

مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٥٣٨٢ وقد كتب أحمد بابا كتابا الى علماء مصر يطلب فيه الفتاوى عن المسائل التي أشكلت عليه ،والمسائل الواردة في المخطوطة مسائل فقهية يقول المؤلف أنها أسئلة قدمت اليه من أجل الفتوى وهو يريد أن يشرك علماء مصر في الرد عليها .. وهو يقول في ذلك :

" فبينوا لنا أيدكم الله تعالى ما عندكم في ذلك من منقول ومعقول أدام الله تعالى معاليكم وأسعد مساعيكم " (١)

ويستفاد من هذه المخطوطة صلة علماء السودان الغربي بعلماء العالم الاسلامي خاصة علماء مصر . فقد كانوا يتبادلون الرسائل و يتفاكرون في كثير من الأمور .

د - معراج الصعود الى نيل مجلب السود :

مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة ابادان بنيجيريا رقم ٨٢/٢٩٣ .

وقد تحدث الشيخ أحمد بابا التمبكتي في هذه المخطوطة عن غانة ودورة ملوكهم الأوائل في توسيع رقعة هذه المملكة و غير ذلك ...

---

(١) التنبكتي ،أحمد بابا مسائل الى علماء مصر ،مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس ٥٣٨٢ .

ثانيا - ألفع محمود كعت - وهو من مواطني تنبكت عاصر أسكيا الحاج (ت ١٥٢٩) سلطان صنغى الاسلامية ،وصحبه في الحج الى مكة و كتابه :

تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور و عظام الأمور كفريق أنساب العبيد من الأحرار.

بدأ في تأليفه عام ٩٢٥ هـ/ ١٥٤٩ م و يتضمن وصفا دقيقا لامبراطورية زمن صنغى الأساكي ،وقد أكمله حفيده الى حوادث عام ١٦٥٠م وقام غيره بالتذييل عليه وتكملته حتى عام ١٦٦٠م . وقد نشره المستشرقان الفرنسيان هوراس ودولا فوس في باريس عام ١٩١٣ م و ترجماه الى اللغة الفرنسية ..". (١)

---

(١) موجود في جامعة دكار قد نقلت عنه بعض الموضوعات كما هو موجود بجامعة بايرو بنيجيريا كانوا وقد صورته هناك كاملا.

ثالثا - عبد الرحمن بن عبدالله بن عمران السعدى توفي بعد عام ١٦٥٥م فهو من أسرة سودانية أرستقراطية ،ومن مواطني تنبكت وكتابه : " تاريخ السودان " انتهى فيه الى حوادث سنة ١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م ونقل فيه كثيرا عن الذيل لأحمد بابا . وكذلك كان كتاب السعدى من بين ما عثر عليه بارث في مدينة جواندو عام ١٨٥٣م وقد حققه ونشره المستشرقان الفرنسيان هوراس وبنوا في باريس ١٨٦٨م.

هناك مؤلفات أخرى كثيرة في الجامعات السالفة الذكر ،كتبها العلماء الافريقيين المتأخرين أمثال عثمان دان فودى - أى ابن فودى بلغة الهوسا ت ١٨١٧م مؤسس امبراطورية الفولانيين الاسلامية وابنه محمد بلو ، صاحب كتاب " انفاق الميسور في فتح بلاد التكرور " عرض فيه لتاريخ وأحوال السودان الأوسط والحروب التي خاضها الفولانيون ضد البرنو والهوسا . وكذلك الرسائل المتبادلة بين عثمان دان فودى والشيخ محمد أمين الكانمي راعي دولة البرنو الروحي .. وقد حققه ونشره الاستاذ هويتنج (Whitting) (C.E.J) في لندن عام ١٩٥١م والاستاذ هويتنج كان يعمل مدرسا بمدرسة العلوم العربية في كانو .. وهناك مخطوطات كثيرة ألفها هؤلاء الأفارقة . وقد نهضت الجامعات الافريقية الحديثة في كل من نيجيريا وغانا والسنغال ووزارة الشباب في باماكو.. ولكننا اكتفينا بما ذكر خوف الاطالة .

وهناك أيضا مؤلفون في هذا القرن ،القرن العشرين وقدصورنا

بعض مؤلفاتهم المخطوطة .

وفي الملاحق سيجد القارئ ما ألفه العالم الجليل أبو بكر ابن الحسين النمطي الملقب بكراموكو - صوورينـي (Karamoko Sobereni) وقد صورته في أثناء البحث الميداني .

أثر اللغة العربية في اللغات المحلية

قد رأينا فيما مضى أن الاهتمام في المفاهيم التعليمية في بلاد السودان الغربي كان بالقرآن - بادىء ذى بدء - ولكن كان هناك بجانب الاهتمام بالقرآن ، الاهتمام بلغة القرآن الكريم، عند مسلمى هذه المنطقة ومسلمى أفريقيا عامة ، بحيث كان جميع الوثائق الهامة تكتب باللغة العربية ، كما كانت العربية لغة الحكومات والمراسلات الدولية ولغة التجارة أى أنها كانت اللغة السائدة.

واحتلت هذه اللغة في هذه المنطقة المكانة التي احتلتها اللغة اللاتينية في أوربا في العصور الوسطى بل زادت عليها . . اذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة الدين والثقافة حتى يدخل العهد الاستعمارى بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجيا أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوربا في العصور الوسطى . (١)

ويقول : أرنولد توماس :

" غدت اللغة العربية ، لغة تخاطب بين قبائل نصف القارة الافريقية ". (٢)

---

(١) امبراطورية غانة المصدر السابق ص ٨٣ .

(٢) الدعوة الى الاسلام الترجمة العربية ص ٣٤٩ ومابعدها .

ويقول : ديشان هوبير :

" لم يكتف قبائل الممالك الافريقية بدخول الاسلام بل طبعت بطابع عربي بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد ". (١)

وقد تركت آثارها في اللغات المحلية ولا سيما لغة الهوسا والماندنغو وصنغى والفولانيين .

ولا يزال - الى اليوم - الاف الكلمات العربية المستخدمة في بلاد السودان الغربي في شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية وفي الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية وحتى في أسماء الأعلام والمدن والحيوانات والنباتات.

واليك نماذج توضح ذلك نقلا عن كتاب " دولة مالي الاسلامية" للدكتور ابراهيم طرخان :

(الله) : ألا أو (نتكى الله) عند المالنيك وجولا والماندنغ يالا عند الصنغى والفولانيين والصوصو والولوف .

(استغفرالله) : استغفرو الله عند الجولا والمالينك والماندنغ .

(الحمدلله) : اليمدو لله - عند الجولا والمالنيك والماندنغ .

(الامام) : لمام أو المامى عند معظم قبائل السودان الغربي .

(الانجيل) : لنجيلى عند الجولا والمالينك والماندنغ .

---

(١) الديانات في أفريقيا ص ١٣٢.

(التورة) : تورتا عند الجزلا والمالينك والماندنغ .

(القرآن) : كورنا - القرانو هند الجولا والمالينك والماندنغ .

(بيت الله) : بيتي الله = = =

(الجن) : جينا أو جنو = = =

(الجنة) جز أرجانا = = =

(جهنم) : جهناما = = =

(جنة الفردوس): جنة الفردوس = = =

(السماء) : ســـان = = =

(الدور) : (دو) أو (لو) بتحريف الدال الى لام عندهم جميعا .

(هلال) : هلالا

(حرام) : حرامو عند الجولا والبمبارنه والمالينك والماندنغ .(١)

بعد هذه الجولة الطويلة التي رأينـــا فيها حالة البلاد قبل دخول الاسلام . وبعده ننتقل الان الى الحديث عن أهم التيارات الفكريـــة الوافدة من أوربا التي وقفت أمام العقيدة الاسلامية ردحا من الزمان والتي لم يزل سكان المنطقة يذوقون مرارتها حتى الآن .

---

(١) راجع مملكة مالى الاسلامية . المصدر السابق ص ١٩٠ بتصرف وتقديم وتأخير .

الباب الرابع

التيارات الفكرية المعادية للعقيدة الاسلامية في المنطقة
(الوافدة من أوربا أو النابعة من البيئة)
والآثار السيئة المترتبة على ذلك في شتى مجالات
حياة المسلمين هناك

—

مقدمـــــة :

من خلال ما تقدم من البحث ، قد تحدثنا عن حالة بلاد السودان الغربي قبل دخول الاسلام فيها ،ورأينا أن هذه السلالة السوداء ، كانت منذ تاريخها القديم تعيش في حياة الوثنية ،وتؤمن بالخرافات والأوهام وتعبد أرواح السلف وتقدسها وترى أن لها تصرفا في الكون ،وأنها هي المشرعة للأحياء . .

كما عبدت مرات عديدة ،الأشجار والحشرات وتؤمن ايمانا جازما بالسحر وتصيد به الصيد . حقيقة لا مجازا ،مع اعترافها بوجود كائن عُلوى يخلق ولكنه لا يحكم وليس له تدخل في شؤونها الا في حالات محدودة بيناها في الباب الأول .

كما رأينا فيما سبق / الحالة الاقتصادية في تلك الفترة التاريخية ،كانت أرقى ما وصلت اليها الدول المعاصرة لها . ولكن المال بحكم العقيدة الوثنية التي تنبثق منها الحالة الاقتصادية وغيرها - لم يوجه الوجهة الصحيحة . ولم تكن هناك أية عدالة في توزيع الثروة العامة . قد رأينا الجماهير الكادحة تعيش في فقر مدقع ومع ذلك نجد الامبراطور يجعل في أعناق الكلاب سواجير (١) الذهب والفضة يزين بهما الأفراس التي يركب عليها (٢) ،وهكذا شأن الجاهليين في كل زمان ومكان ، انهم لا يعرفون الا الطغيان اذا امتلكوا السلطة وأمور السياسة .

---

(١) الساجور : خشبة تجعل في عنق الكلب . ويقال : كلب مسوجر . راجع (المختار القاموس المحيط) .

(٢) راجع المغرب للبكرى ،المصدر السابق ص ٧٥ .

وكما رأينا هذه السلالة السوداء وهي في جاهليتها ووثنيتها كانت أمة أمية لا تعرف الكتابة ولا القراءة .. وكان نظام الحكم عندها ملكيا استبداديا تورث ابن الأخت العرش دون ولد الصلب .

وأما تعدد الزوجات في تلك الفترة فكانت تعتبر من المفاخر والرفعة في المجتمع حتى كان أقل ما يتزوج به بعض الملوك من النساء يساوى (٣٣٣٣) امرأة (١) . وأما العامة فلا يوجد عندهم حد ولا قانون .

كما رأينا أن المجتمع الوثني كان مبنيا على الطبقية بحيث يتمايز الملوك عن سائر الناس بلباس خاص . فلا يسمح لعامة الناس أن يلبسوا المخيط الذى هو خاص للملك وولي عهده .. وانما أبيح لسائر الناس أن يكون زيهم ملاحف القطن وغيرها ..

وقد كان الملك في هذا المجتمع الطبقي يتحلى بحلى النساء في العنق والذراعين وهكذا الدواليب .. حتى في القرن الحادى عشر الميلادى (٢) .

---

(١) الاسلام والتقاليد الافريقية تأليف محمد سلام زناتي ص ٢٧ ، ذكرنا ذلك في ص ١٤٣

(٢) وراجع لذلك : وصف أفريقيا ، حسن الوزان ليو الافريقي ص ٥٣٣ .
راجع : امبراطورية مالي الاسلامية للدكتور ابراهيم طرخان ص ٣٧ .

كان هذا خلاصة أحوال المجتمع الوثني في افريقية السوداء قبل دخول الاسلام فيها على النحو الذى فصلناه في الباب الأول .. ثم تحدثنا - بعد ذلك - عن التحول الضخم والنقلة العظمى والتغيير الشامل الذى أحدثته العقيدة الاسلامية في حياة هذا المجتمع الوثني السوداني منذ أن بزغ فجرها على هذه البلاد واعتنقها الرعيل الأول من هذا المجتمع السوداني وامتلأت قلوبهم بها ، فتغيرت أحوالهم من أساسها وتطهرت أخلاقهم من العادات السيئة التي كانت سائدة في المنطقة وتحولت أنماط حياتهم ظهرا لبطن ،وارتفعوا من الحضيض الى المستوى الشامخ العالي من العقيدة الصحيحة (في الله والكون والانسان) ، والرؤية الصحيحة للأمور ،فتأثروا بهذه العقيدة الربانية الفريدة تأثرا لا مثيل له في تاريخ المنطقة .. ثم أثروا في جيرانهم بها في أرض السودان الفسيحة من السفانا (Savana) الى الغابات الكثيفة .. والى المناطق الساحلية أيضا . فاذا هم بفضل هذه العقيدة يؤسسون الجامعات مثل جامعة سنكرى في تمبكتو بدل المجالس القبلية ويشيدون المساجد بدل الغابات التي كانوا يعبدون فيها أصنامهم " دكاكيرهم "(١) بل ألف علماؤهم الكتب في شتى أنواع الفنون وتركوا خلفهم صورا حية من الحياة العلمية التي كانوا يعيشون فيها في مدنهم الثقافية الكبرى

---

(١) الداكور هو صنم راجع المغرب ص ١٧٥.

من تمبكتو (١) (Toumboukto) وجنى (٢) (Djenne)
وبيغو (Begho) وغاو (Ghao) ووجيني (Odienne)
وطوبا (Touba) ومانكونو (Mankono) وجبالا وغانوى
(Ghanwe) وسيغلا (Seguela) وكونغ (kong)
وبندوكو (Bonpoukou) وباربو (Barbo) وساتاما
(Satama) ودوكالا (Dabakala) وكنكا (٣) (Kanka)
وغير ذلك من المدن الثقافية في المنطقة ، مما حير عقول الكثيرين من
الأوربيين فأصبحوا ينكرون هذه الحضارة الاسلامية لما عجزوا عن
تعليله .

ولكن الباحث المنصف من المسلمين والأوربيين الذى درس
أحوال هذه السلالة السوداء منذ فجر تاريخها الموغل في القدم الى اليوم ،
يعلم علما يقينيا أن هذه النقلة العظمى ترجع بادىء ذى بدىء) الى
تمسك أهل المنطقة بهذه العقيدة الربانية السمحة التي لا تتمسك بها أية
أمة من الأمم الا رفع الله شأنها وأحياها بعدما أن كانت جسما ميتا
لا روح فيه وسكان غربي أفريقيا أقرب مثال على ذلك. وفي مثل هذا

---

(١)(٢) مدينتان في جمهورية مالي الحديثة.
(٣) هذه المدن كلها توجد الآن في جمهورية ساحل العاج الامدينة (بيغو) وانها توجد في جمهورية غانا الحديثة الا أنها لا وجود لها الآن وقد انقرضت من زمن بعيد .

يقول تعالى :

* أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في النـاس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ماكانــوا يعملون *.(١)

ويقول جويلي (Goilly) :

" ان العصر التاريخي لأفريقيا السوداء لم يبدأ الا منذ ظهور الاسلام وأن الاسلام ولغته وحضارته ، تقدم السود و تطوروا وبلغوا شأوا كبيرا في المدنية . . "(٢)

ولم يخطئ " سيبتز (Spitz) حين قرر أن حضارة السود ابان العصور " الوسطى " لم تكن دون حضارة البيض ".(٣)

وهكذا دبت الحياة -بفضل هذه العقيدة الربانية الفذة -في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية والاجتماعية وغير ذلك.

----

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢.

(٢) امبراطورية غانة ،المصدر السابق ص ١٠.

(٣) راجع أمبراطورية غانة ،تأليف الدكتور طرخان ص ١٠.
وراجع ما كتبناه سابقا . وراجع كذلك :

Histoire generale de l'Afrique Tom 1, J.K. Zerbo 1980, p.46.

L'Afrique dans les relations internationales au XVI[e] Siecle, Zakari Dramani issoufou p. 59.

ولكن الغريب - عندما قمنا بالبحث الميداني عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م في عدد من بلدان هذه المنطقة التي أقيمت فيها هذه الامبراطوريات الضخمة ،ودرسنا أحوال المجتمع الاسلامي المعاصر عن كثبٍ أيضا ،فوجئنا بشيء لم يكن في الحسبان .

فوجئنا هناك بجهل مُطْبَقٍ يسود جميع أنحاء المنطقة . .ورأينا أن أوربا لم تزل -حتى اليوم - تسيطر بكل قوتها على المنطقة رغم هذا الاستقلال الصورى الذى يتشدقون به هنا و هناك . .

ومع هذه السيطرة الأوربية تسربت مجموعة من الأفكار والمذاهب والمعتقدات بل الخرافات كذلك - كخرافة المادة الأزلية الأبدية المتطورة وخرافة الطبيعة الخالقة . وخرافة " لا اله والكون مادة " وما أشبه ذلك من الخرافات التي انتشرت في هذا العصر باسم العلم والتقدم والازدهار . تسربت في أذهان الشعوب بصفة عامة وشعوب هذه المنطقة بصفة خاصة اما عن طريق التسرب الثقافي الذى ينشأ من تقليد المغلوب للغالب أوعن طريق التيارات الفكرية التي غزت المنطقة ولم تزل تغزوها الى اليوم .

ولكننا - بعد تأمل طويل في أحوال هذا المجتمع السوداني ودراستها الموضوعية ،عرفنا أن هذه السيطرة الأوربية على المنطقة لم تكن هي وحدها السبب الوحيد في الحقيقة لهذا التسرب التلقائي أو تلك التيارات الفكرية الغازية انما كان هناك سبب لا يقل أهمية عن هذه السيطرة الأوربية ان لم يكن -من وجهة نظرنا- أهم ، هو غياب البديل الذى يمكن أن يأخذ مكان هذه الأفكار والمذاهب والخرافات .

ونقصد بهذا البديل .. (الاسلام) ذلك أن غيابه يعطي هذه المذاهب والأفكار في نفوس الناس حجية الأمر الواقع .. أى أنها تصبح في عرف الناس جديرة بالاتباع لا لجدارتها الذاتية . ولا لأنها في ذاتها صحيحة ولكن فقط لأنها موجودة بالفعل ،والبديل غير موجود ، فأدى غياب هذا البديل الى وقوع المسلمين في هذه المنطقة في جهل مطبق عن أمور دينهم وعن أمور دنياهم أيضا ..

فقد وجدنا الأغلبية الساحقة لا يعرفون من الاسلام شيئا الا المزيج بالبدع الصوفية والخرافات الوثنية التي تسربت الى عقول المسلمين بعد غياب الاسلام. بسبب السيطرة الأوربية على المنطقة طيلة ستين سنة يعنى من السنة (١٩٠٠ الى سنة ١٩٦٠ الميلاديين) .

فالباحث - كما قلنا سابقا - في أحوال المجتمع الاسلامي المعاصر في غرب أفريقيا لا يرى الا عقيدة مشوهة وجهلا مطبقا بالاسلام (١) ولا يكاد الانسان يصدق بوجود امبراطوريات اسلامية أقيمت في المنطقة في يوم من الأيام ،وذلك من فرط جهل الناس بتاريخهم وثقافاتهم الذاتية . بينما هم ماهرون في معرفة تاريخ الدول الأوربية وساستها وأبطالها كأمثال نابليون بونابرت وديغول وأمثالهما ..

---

(١) قد سبق أن أشرنا الى أنه قد طبق هنا تطبيقا كاملا منذ دخوله سنة ٤٣ هـ أو القرن السابع الميلادى الى حين انهيار مملكة صنغاى في القرن السادس عشر الميلادى ثم آلت القيادة الروحية الى أيدى أتباع الطرق الصوفية مع بداية القرن السابع عشر الميلادى . من هنا بدأ التشويه في العقيدة الاسلامية هناك ثم قضى الاستعمار على البقية الباقية .

تلك هي الأحوال المأساوية التي شهدناها في غرب افريقيا وتعيش فيها المسلمون في الوقت الراهن .. فكانت الحالة المؤسفة ، مدعاة لافتراءات كثيرة من قبل قصار النظر من الكتاب الأوربيين الذين ينكرون الحضارة الاسلامية التي قامت في المنطقة يقول بعضهم :

" ان سكان غرب افريقيا لم يطوروا بلادهم أبدا وانما عاشوا في أماكنهم مثل الحيوانات التي تعيش حولهم .." (١)

ولكننا نبادر فنقول لهؤلاء المتسرعين : " ان أية نظرة الى هذه المنطقة عقب الاحتلال الفرنسي ،وقد غير هذا الاحتلال حياة المنطقة تغييرا تاما فلن تعطى (النظرة) الا الصورة المشوهة التي خلقها هذا الاستعمار الا الخراب والدمار و تغيير الأفكار الذى جره المحتل الأوربي الى المنطقة التي كانت - طيلة القرون الماضية - تعيش في ظل الحياة الاسلامية الهادئة المثمرة الآمنة. وفي امبراطوريات كبيرة (غانة ومالي وصنغاى).." (٢)

---

(١) راجع افريقيا تحت أضواء جديدة ، بازل دافيدسن ص ١٢٥ .

(٢) راجع : Gravifr , reches sur les navigations Europennes faites au moyen-age p.(17).

وراجع كذلك :

Les peuples et les civilisations de l'Afrique (p. 392).

ولكن لما فتح الأوربيون - وعلى رأسهم البرتغال - سوق الأرقاء في المنطقة واصطادوا السكان بالبندقية صيد الوحوش وشحنوهم بالسفن الى العالم الجديد (أميركا) .. بدأ التدهور والانحدار من القمة الى الحضيض ثم أعقب هذا العمل الاجرامي الذى أصبح عيبا في جبين كل أوروبي ، والذى جعل الحقد والبغض في قلب كل أسود ضد الأوربيين (الاستعمار) البغيض سواء العسكرى منه أو الاقتصادى ولكن سرعان ما قاومه المواطنون مقاومة عنيفة دموية . حتى كثرت الاضطرابات في كل مكان والانتفاضات المتكررة .. ولما حصل ذلك رأى المستعمر أن هذا يسيء سمعته أو يجلب له خسارة مادية ، وفكر في أسلوب جديد من الاستعمار . وهو الاستعمار الخفي الذى نسميه في لغتنا المعاصر بالغزو الفكرى أو (التيارات الفكرية المعاصرة) .

ان هذا الغزو الفكرى الشرس الخفي هو أخطر ما تواجهه - اليوم - العقيدة الاسلامية في شتى بلاد المسلمين وفي غربي افريقيا بخاصة .. وليست المشكلة الاقتصادية التي تئن تحتها المنطقة هي وحدها ، سبب تأخر المنطقة - كما يقول بذلك الكثيرون الذين يبحثون في شئون المنطقة .

ولكننا نقول : ان هذا التأخر وذلك الانحطاط راجع لأول وهلة الى التغيير الفكرى بسموم التيارات الفكرية الأوربية .. بدليل أن التغيير الفكرى أشد افسادا وتأثيرا في الأمة من المشكلة الاقتصادية ..

بل ان المعلوم لدى المفكرين أن التغيير السياسي والاقتصادى تابعان للتغيير الفكرى والحضارى وليس العكس .

فكم من دول كانت مستعمرة وقد سيطرت السلطات الاستعمارية على جميع اقتصادياتها ، ولكنها استطاعت (بارادتها) أن تقاوم الغزو المسلح الاستعماري ، وجدناها حيرانةً أمام الغزو الفكري وتياراته ..
فغرب افريقيا تكفي شاهدا على ذلك ..

فقد قامت بالكفاح السياسي ضد المستعمرين وطردتهم من البلاد في سنة ١٩٦٠م حتى سميت هذه السنة ، بسنة افريقيا .. ولكنها ـ اليوم ـ تئن تحت ضغط هذا الاستعمار الخفي ولا تعرف كيفية تقاومه وتحاربها كما حاربت الاستعمار العسكري الواضح المسلح فوقعت فريسة ، أمام هذا الغزو الخفي أوالتيارات الفكرية الغازية ..

*

الا أننا اذا نظرنا بدقة في طبيعة هذا الغزو الخفي ، سنرى ـ بكل تأكيد ـ أنه ليس قاصرا على المسلمين في غربي أفريقيا فحسب ، وانما هو غزو في الصميم دبره المستعمرون لمحاربة جميع الدول الاسلامية ابتداء من تركيا ومصر وباكستان والهند وشمال أفريقيا و جميع الشرق الأوسط فان العالم النصراني ـ مع اختلاف أممهم ـ عرقا و جنسا هو العدو المقاوم للاسلام في كل مكان ..

فجميع البلاد الاستعمارية متفقة معا على سحق الممالك الاسلامية مااستطاعت الى ذلك سبيلا ..

وسنرى ـ في الصفحات القادمة ـ الأساليب التي اتخذتها السلطات الاستعمارية لمحاربة العقيدة الاسلامية في العالم الاسلامي بعامة وفي غرب افريقيا بخاصة وذلك لنبرهن للعالم أن المخطط الذى وراء هذا الغزو الخفي واحد .

فنحن من خلال هذه المقدمة الموجزة ، نستطيع أن نفهم أن التيارات الفكرية التي تقف - اليوم - أمام العقيدة الاسلامية في غرب أفريقيا التي خصصناها لهذه الدراسة تنقسم الى مجموعتين من التيارات الفكرية :

١ - تيارات وافدة من أوروبا جاءت مع الاستعمار .

٢ - تيارات نابعة من البيئة الافريقية ، تتمثل في الخرافات والبدع الصوفية التي شوهت وجه العقيدة الاسلامية في المنطقة والتي تحاول جاهدة أن ترد سكان المنطقة الى الجاهلية مرة أخرى . وقد استغل الاستعمار هذه الخرافات استغلالا بشعا لتشويه العقيدة الاسلامية في المنطقة .

هذا ولم يكن قصدنا الاستقصاء لجميع التيارات الفكرية الوافدة من أوربا أو النابعة من البيئة وهي كثيرة جدا قد كان البابان الاولان ردا على كثير من التيارات وانما حاولنا هنا ، أن نبرز أكثر هذه التيارات انتشارا في المنطقة ووقوفا أمام العقيدة الاسلامية . .

فما هي هذه التيارات ؟ وكيف ينظر الباحث الى سبل مواجهتها لحماية عقائد الشباب المسلم منها في العالم الاسلامي على وجه العموم وفي غربي افريقية على وجه الخصوص ؟

فما أشد الحاجة في هذه الآونة الأخيرة الى الوعي خاصة الشباب في العالم الاسلامي بعامة وفي غربي افريقيا بخاصة . . ولن يكون هناك وعي تام الا اذا كان القائمون على شؤون الدعوة الاسلامية على وعي كامل بالتيارات الفكرية التي تموج في عالمنا الاسلامي بأسره .

ومن أخطر هذه التيارات الوافدة من أوروبا نختار مايلي :

أولا : " العلمانية " التي تفصل الدين عن الحياة وتقصره على العلاقة بين الله والانسان ، ذلك شأن العلمانية المعتدلة ، أوتحارب الأديان وأهلها ، هذا شأن العلمانية المتطرفة .. ولكن الاسلام يختلف فهو دين عبادة وشريعة ومعاملات وأخلاق في نفس الوقت.

ثانيا : " الأحزاب السياسية " التي اتخذها الزعماء الافريقيون الذين صاروا خلفا للمستعمرين بعد رحيلهم عن المنطقة .. تلك الأحزاب السياسية التي اتخذوها بديلا عن العقيدة الدينية.

ثالثا : " الزنوجة " أى الدعوة الى احياء القومية الزنجية لتكون بديلا عن العقيدة الدينية في المنطقة.

رابعا : " حركة التنصير " التي وفدت الى المنطقة مع الاستعمار الأوربي والتي كانت - ولم تزل تقف أمام العقيدة في هذا القطاع من العالم الاسلامي .

ثم بعد بيان هذه التيارات الخطيرة (العلمانية ، والأحزاب السياسية ، والقومية الزنجية ، وحركة التنصير) نبين كيف استخدم المستعمرون الخرافات والبدع التي دخلت في اسلام المنطقة ، سلاحا لتشويه العقيدة الاسلامية وتصويرها في صورة غول بشع يطارد الناس ..

ثم نتحدث قبل الختام عن حركات البعث الاسلامي ضد هذه التيارات مع بيان طرق الخلاص من هذه التيارات التي تواجه العقيدة الاسلامية في المنطقة

فان كنا قد قصرنا - فيما بذلنا من الجهد فهو العجز البشرى ، وان كنا قد وفقنا فمن الله التوفيق ، فنسأله التوفيق والسداد ، انه جواد كريم وبالاجابة جدير .

فعلى ضوء ما ذكرنا رسمنا فصول هذا الباب الى ما يلي :

الفصل الأول : العلمانية وأثرها على المنطقة.

الفصل الثاني : أهداف الأحزاب السياسية بعد الاستقلال .

الفصل الثالث : الدعوة الى احياء القومية الزنجية .

الفصل الرابع : حركة التنصير في المنطقة التي اتخذت سلاحا قويا في أيدى العلمانيين الذين تربوا في كنفهم من النخبة الممتازة ذات الثقافة الغربية .

الفصل الخامس : تيارات فكرية نابعة من البيئة .

الفصل الأول

العلمانية وأثرها في المنطقة

يشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

أولا : مفهوم العلمانية و نشأته .

ثانيا : مظاهر العلمانية في غربي افريقيا في الحكم والثقافة قبل الاستقلال وبعده .

ثالثا : دور النخبة الممتازة ذات الثقافة الغربية بعد الاستقلال واعلان العلمانية في دولها مع بيان ايديولوجياتها .

المبحث الأول

مفهوم العلمانية و نشأته

١ - مفهوم العلمانية :

اذا قسمنا التيارات المعادية للاسلام في غربي أفريقيا بصفة خاصة، وفي العالم الاسلامي على وجه العموم، الى تيارات نابعة من البيئة الاسلامية أى مستوطنة أو متوطنة ، و تيارات وافدة مع الاستعمار الفرنسي أو غيره ، فالعلمانية من التيارات الوافدة ، وليست مرضا متوطنا ، بمعنى انه ليس من افراز البيئة ولا جذور له في هذه البيئة ، ولكنه وافد من أوربا مع الغزو الفكرى الذى غزا العالم الاسلامي في القرنين الماضيين واشتدت ضراوته في القرن الأخير بصفة خاصة..

فما هو - اذن - مفهوم هذه اللفظة في المصطلح الأوربي ؟ وما هو قصد المترجمين حين فسروا كلمة (Secularism) في الانجليزية أو (Laïcisme) في الفرنسية بلفظ العلمانية ؟

والذى يلجئنا الى هذا التوضيح لمفهوم " العلمانية " لكوننا وجدنا كثيرا من الدول التي تنتمي الى الاسلام في غرب أفريقيا قد أعلن رؤساؤها أن دستور دولهم " علمانية " . مثل (أحمد سيكوتورى) رئيس جمهورية غينيا (La Guinee) وموبد بو كيتا (Modibo Kaita) رئيس جمهورية (مالي الحديثة) وحمادى ديورى (Hamani Diori) رئيس جمهورية النيجر . و (مامادوديا) رئيس الوزراء في السنغال وأما محمد ولداده ، رغم أنه أعلن أن موريتانيا دولة اسلامية فانه لم يطبق

شيئا من الشريعة الاسلامية الا الأحوال الشخصية فهو مثل الذين اتخذوا العلمانية دستورا لدولهم تماما .

وأما البقية الباقية من الدول التي كان رؤساؤها غيرمسلمين فهم من باب أولى مثل فلكس هوفيت بواني - (Felixte houphouet Bouany)[1] رئيس جمهورية ساحل العاج ، وموريس ياميغو (Mauris yango) رئيس جمهورية فلتا العليا وهيوبار منغا (Huber Manga) رئيس جمهورية داهومي .

ولما أعلن كل ممن ذكر أن دولهم علمانيه تقوم بمعزل عن الدين . مع انتماء أكثرهم الى الاسلام ، دل ذلك على عدم فهمهم لمعنى العلمانية الحقيقية ولو عرفوا العلمانية - حقيقة - لكان لهم رأى آخر غير هذا .

فكان لزاما علينا - اذن أن نقوم ببيان مفهوم العلمانية قبل بدء الحديث عن نشأتها ومظاهرها في المنطقة .

فلا بد أن أبدأ بأن أقول : ان هذه اللفظة " العلمانية " ترجمة خاطئة لكلمة (Secularisme) في الانجليزية أو (Laicisme) في الفرنسية وهي ترجمة مضللة لأنها

---

(١) وسيجد القارئ ترجمة موجزة لكل من هؤلاء الرؤساء في الملاحق ان شاء الله تعالى .

توهي بأن لها صلة بالعلم [١] بينما هي في لغاتها الأصلية لا صلة لها بالعلم.. لكنها حين ترجم لأول مرة من قبل المترجمين الى العربية ،فلم يريدوا أن يترجموها بمعناها الحقيقي لكي لا ينفروا منها المسلمين ابتداء من المصطلح و معناه و مدلوله ،وانما أرادوا أن يدسوا السم في العسل ،فبدلا من أن يقولوا ان معناها : " لا دينية " و هو المعنى الحقيقي أواقامة الحياة بعيدا عن الدين أو الفصل الكامل بين الدين والحياة ترجموها " بالعلمانية " فظلت هذه اللفظة متداولة بيننا بهذه اللفظة الملتبسة أوالملبسة التي توهم -بادئ ذي بدء- أن هذا الاتجاه - سواء اعتبرناه اتجاها فكريا أو اتجاها اجتماعيا أو سياسيا توهم - بادئ ذي بدء - انه مشتق من العلم أو هو رفع شعار العلم والحقيقة أن معناها : " ابعاد الحياة الدنيا كلها عن الدين ومقتضياته ،ودليلنا على ذلك أمران هما :

أولا - ان الذى يدل دلالة واضحة أن (Secularism) أو (Laicime) ليس معناها العلمانية ،لأن العلم في اللغتين : الانجليزية والفرنسية معناه : (Science).

والمذهب العلمي عندهم تطلق عليه كلمة (Scientissme) والنسبة الى العلم هي (Scientifique) في الانجليزية

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة لأستاذنا الشيخ محمد قطب حفظه الله ، الطبقة الثالثة سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ،القاهرة دارالشروق ص ٤٤٥ .

أو (Scientifique) بالفرنسية(١) .. فدل ذلك أن لفظة العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة (Secularism) (اللادينية) التي لا علاقة لها بالعلم كما قلنا - كما أن لفظة " العلمانية " التي معناها " رفع شعار العلم " لا وجود لها أيضا في المصطلح الأصلي الأوربي .

ثانيا - تتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذى ورد لهذه الكلمة (Secularism) في دائرة المعارف الأجنبية والمعاجم فيما يلي :

وقد تحدث صاحب المنهل (قاموس عربي - فرنسي) عن تفسير كلمة (Secularism) أو (Laicisme) بشكل لا غموض فيه يدل على أن ترجمة اللفظ "بالعلمانية " ترجمة خاطئة ومضللة كما يدل على خبث نية المترجمين لهذه الكلمة الى العربية بحيث أختاروا المعنى الغامض دون المعنى الكاشف لمعني (Secularism) .

فقد ورد فيه لفظ (Secularism) أو (Laicisme) معناه في مصطلحه الأوربي : نظام ابعاد الدين الكنسي عن ممارسة السلطة السياسية أو الادارية خاصة في التعليم ".(١)

---

(١) راجع المنهل تأليف جبور عبد النور ود. سهيل ادريس ص ٩٤٥ دار الأدب بيروت .

فالترجمة الصحيحة - اذن - للكلمة هي : (اللادينية أو الدنيوية) ومذهب أنصار اللادينية في المؤسسات تطلق عليه كلمة :

أ - (Laicite) في الفرنسية .

ب - (Secularity) في الانجليزية .

أقسام العلمانيــة

قد تحدثنا في السطور السابقة عن مفهوم العلمانية والآن يجمــل بنا أن نتحدث أيضا عن أقسام العلمانية .

فاذا أمعنا النظر فيما كتبه المفكرون عن العلمانية سنجد أنهــا تنقسم الى قسمين رئيسيين هما :

أ - العلمانية المعتدلة .

ب - العلمانية المتطرفــة .

واليك فيما يلي توضيحا موجزا عن كل منهما :

(أ) العلمانية المعتدلة :

فقد عرف المفكرون هذه العلمانية بأنها تعنى : اقامة الحيــاة بمعزل عن الدين وما يتعلق به من القيم الدينية .(١)

وبعبارة أخرى : أنها تبعد الدين عن جميع مجالات الحيــاة الواقعية من السياسية والا قتصادية والاجتماعية والفكرية .

ويدعي أرباب هذه العلمانية أن علمانيتهم لا تعدى الديـــن لأنها تترك حرية التدين بالمعنى الفردى الاعتقادى على أن يظل هذا التدين مزاجا شخصيا لا دخل له بأمور الحياة العملية . فان ذلك يجب أن يقوم على أصول بشرية بدلا من الأصول الدينية أو الالهيــة .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ، سيد قطب ص ٤٤٥ .

هكذا رأينا أن لب هذه العلمانية هو نبذ الدين واقصاءه عن الحياة العملية .

فنقول لهؤلاء الذين يدعون أن هذه العلمانية لا تعادى الدين . ان الرد على هذا الزعم لا يحتاج - في حقيقة الأمر - الى جهد كبير لبيان تناقضها مع دين الله (الاسلام) .

لأن مجرد التصور في هذه العلمانية كاف في الرد عليها وذلك أن مفهوم الدين في الاسلام هو اعتقاد في القلب وسلوك عملي في واقع الحياة تحقيقا لقول الله تعالى :

* قل ان صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين لا شريك له .. * (١)

فاذا كان هذا هو مفهوم الدين في الاسلام . وذلك مفهوم العلمانية المعتدلة - فلا شك أنها تضاد الاسلام وتعاديه . فلا يجوز لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتبنى المذهب العلماني لدوله .

لأن الاسلام يطلب من الانسان بادىء ذى بدء التوجه الى الله بكل حركة في الضمير وبكل حركة في الجوارح وكل حركة في الحياة .. التوجه بها الى الله خالصة والتجرد من كل شعور ومن كل معنى غير معنى التعبد لله سبحانه وتعالى . (٢)

وهكذا لا يمكن الجمع - بحال من الأحوال - بين الدين والاسلامي وبين العلمانية المبنية على نفي الدين وجميع القيم الدينية عن الحياة ..

---

(١) سورة الأنعام /٦ .

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب المجلد السابع ٢٧/٢٨ بتصرف طفيف .

وكيف لا وقد اعتمد العلمانيون المعتدلون على نظريات كلها تعارض الدين وتحاربه محاربة علنية . ومن أشهر هذه النظريات ، نذكر نظريتين لهما أخطارهما الكبيرة وهما :

١ - نظرية الحق الالهي .

٢ - نظرية العقد الاجتماعي .

فما هما هاتان النظريتان :

١ - نظرية الحق الالهي :

ان هذه النظرية قد انتشرت في أوربا كرد فعل ضد طغيان الكنيسة وجورها . فقد استطاعت الكنيسة بنفوذها الطغياني أن تجعل الملوك والأباطرة طوع ارادتها حتى أعلن نقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧م) بيانا قال فيه :

" ان ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها وان أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل (ولذلك) فان البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو محكومين .. "

وأعلن البابا جريجوري السابع (تولى البابوية ١٠٧٣ - ١٠٨٥م)
" ان الكنيسة بوصفها نظاما الهيا خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية . ومن حق البابا وواجباته - بصفته خليفة الله في أرضه - أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكم أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال .. "(١)

---

(١) راجع مذاهب فكرية معاصرة ص ٦٤ .

فاستعمل البابوات هذا الحق الالهي المزعوم في أبشع صورها وقد كان هناك الخضوع المذل للملوك قد عاشته أوروبا عدة قرون (١) ولكن الملوك والأباطرة أخذوا في نهاية المطاف يتمردون على هذه السلطة المزعومة التي تستند لهم بها الكنيسة ويطالبون بالسلطة الزمنية، للملوك على أن تختص الكنيسة بالسلطة الروحية فقط . وكان مستندهم في ذلك ، هذه النظرية التي نحن بصددها (نظرية الحق الالهي) .

وقد تحدث راندال عن هذه النظرية بحديث موجز ولكنه شامل يظهر لنا من خلال قراءته أن هذه النظرية جاءت كرد فعل للطغيان الكنسي ، ولفصل الدين عن الحياة اذ يقول :

" نشأت نظرية الحق الالهي للملوك في أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة الدينية أو العلمانية من رقابة البابا والكهنة كما أنها كانت ردا على دعواه أن له حقا الهيا في السيطرة على الأمور الزمنية ". (٢)

هذا هو مستند العلمانيين لنبذ الدين واقصائه عن الحياة فدل هذا على أن العلمانية مضادة للدين ومحاربة له منذ البداية ، بيد أن هذه النظرية (نظرية الحق الالهي) تستند أيضا بدورها الى نظرية رومانية قديمة كانت تعرف باسم نظرية العقد الاجتماعي . فما هي هذه النظرية أيضا ؟

---

(١) راجع قصة الحضارة ، ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٥/ ٩٤، ١٩٧ .

(٢) تكوين العقد الحديث تأليف رندال ١/ ٢٧٧ من الترجمة العربية .

٢ - نظرية العقد الاجتماعي :

لنرجع مرة ثانية الى راندال ليوضح لنا حقيقة هذه النظرية والغرض منها اذ يقول :

" تعود أصول فكرة العقد الاجتماعي الى الفكر الروماني وفكر القرون الوسطى معا . وقد كانت الامبراطورية الرومانية قد ضمنت في مجلة الحقوق المدنية -على القول بأن كل السلطة وكل حق في وضع القوانين يعود ان للشعب الروماني ، غير أن الشعب تنازل بموجب قانون شهير عن هذه الحقوق للأمبراطور . وهو تفسير طبيعي لمجرى التاريخ الروماني . فجميع حقوق الشعب الروماني وجميع سلطاته انتقلت الى الامبراطور. وله وحده حق "اصدارالقوانين " و حق تفسيرها . وعندما تم احياء القانون الروماني في القرون الوسطى انتبه الامبراطور الى هذه النظرية واتخذها سلاحا ضد سيطرة الكنيسة ثم تبعه في ذلك جميع الأمراء .

و هكذا نشأت نظرية العقد الاجتماعي القائلة بأن السلطة المدنية ترتكز في أساسها على الشعب ..

وان الشعب قد حولها الى الحاكم ليمكنه من القيام ببعض الوظائف الضرورية ..ومن الواضح أنها نظرية ذات حدين : فقد تفسر لتأكيد سلطة الحاكم الشاملة باعتباره مصدر جميع السلطات . أو لتأكيد سيادة الشعب الأساسية باعتباره المصدر الأول لتلك السلطة ". (١)

---

(١) تكوين العقد الحديث . المصدر السابق ١/ ٢٨١.

فاذا كانت هذه النظرية والتي قبلها أساسا للعلمانية المعتدلة فلا شك أنها معادية للدين .

وبعد أن أوضحنا هذا النوع من العلمانية فيحسن بنا قبل أن ننتقل الى الحديث عن العلمانية المتطرفة ،أن نشير اشارة عابرة الى أشهر الرجال الذين دافعوا عن هذه النظرية والى بعض البلدان التي اتخذت هذه العلمانية دستورا لها .

وأما مشاهير الرجال الذين دافعوا عن هذه النظرية والتي قبلها في أوربا ، يعد في طليعتهم كل من ميكيافللى وهوبز ،وغيرهما ..

ان ميكيافللي لم يأت بجديد بالنسبة لهذه النظرية . ولقد كان الحكام في أوربا يسيرون في سياستهم على أساس (ان الغاية تبرر الوسيلة) . يعني أنه يجوز للحاكم أن يستخدم الكذب والغش والخديعة ويقتل ويسفك الدماء باسم السياسة ،وقد كانت شعوب أوربا تقابل في البداية هذه السياسة الثعلبية بالاستنكار . ولكن الجديد الذى أتى به (ميكيافللى) أنه أعطى الشرعية للوسائل الخسيسة التي يستخدمها الحكام من كذب وغش وخديعة وقتل وسفك دماء .. فمن هذا أصبح اتخاذ الوسائل الخسيسة مبدأ من مبادئ السياسة الحديثة .. وكل من يعلم هذا الكيد والمكر والخديعة يعتبر رجلا محمودا لأنه يعرف كيف يخادع ويكذب ثم يستتر وراء عبارات براقة تحوى كل نبيل من القيم والمبادى والأخلاقيات.(١)

---

(١) راجع مذاهب فكرية . المصدر السابق بتصرف ص(٤٦٦-٤٦٧) . ونحيل القارئ أيضا اذا أراد تفاصيل هذه النظريات الى كتاب زميلنا الدكتور سفر الحوالي (العلمانية وأثرها في الحياة الاسلامية صفحات (٢٠٩ - ٢٣٨) .

وأما الدول التي تبنت هذه العلمانية المعتدلة فهي أغلب الدول الأوربية وأميريكا ومن لف لفهما ودار في فلكهما من دول العالم.

وبعد ذلك لنتحدث الآن عن العلمانية المتطرفة :..

(ب) العلمانية المتطرفة :

يقول أصحاب هذه العلمانية أنه لا يوجد شيء على الاطلاق غير العالم المادى ، ولا يمكن أن يوجد عالم روحي ، أو يوم آخر ، كما جاءت به الأديان . وجميع هذه الظواهر المختلفة في الكون يوجدها شيء واحد هو ماديتها أى كلها مادية لا غير ، والانسان في نظرهم نتاج المادة أيضا . وشعارهم :

" لا اله والكون مادة " (١)

فبهذه الفكرة الشنيعة أنكروا وجود خالقهم ورازقهم الذى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي بهذا جعلوا أنفسهم في مصاف الأنعام بل هم أضل .

وعلى أساس انكارهم لوجود الله (سبحانه وتعالي) لأنه لا تدركه حواسهم أنكروا أيضا كل عمل وهدف قصد به ابتغاء مرضاة الله تعالى . وأنكروا أثر هذا الهدف . وبالتالي أنكروا دور الاسلام

---

(١) راجع أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٩ وراجع مؤسس الفلسفة كارل ماركس ص ١٢٣ - ١٣٤ وأصول الماركسية ١/ ٢٠٦ .
وراجع لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ص ١٦ . وراجع مدخل الى المادية الجدلية ص ٣٠ - ٣٤ .
راجع الدفاتر الفلسفية ١/ ٣٢ .

ودولته في الواقع البشرى الذى ما قام الا لاعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى في الأرض . بل أنكروا جميع الأنبياء ففسروا التاريخ البشرى تفسيرا ماديا هو ما نسميه في لغتنا المعاصرة " التفسير المادى للتاريخ " (١) أى جعلوه تاريخ البحث عن الطعام منذ ظهور آدم (أو الانسان الأول كما يقولون) الى يومنا هذا .

أتباع هذا المذهب :

١ - (ماركس) (٢) الذى يقول وهو ينكر وجود الله :

---

(١) الاسلام يتحدى ،وحيد الدين خان ص٣٩ .
انظر مذهب النشوء والارتقاء منيرة على الغيلا بارتي ،تقديم د . محمد البهي مصر ١٣٩٥هـ .

(٢) ماركس ،كارل (١٨١٨ - ١٨٨٣) فيلسوف الشيوعية المعاصرة . من أصل يهودى ألماني ،درس القانون في جامعة يينا بألمانيا ، ثم انصرف الى الاقتصاد والفلسفة الاجتماعية . فر من ألمانيا بسبب اتجاهاته الفلسفيه الزائغة الى باريس حيث التقى بفردريك أنجلز ،وتعاونا معا على اصدار الوثيقة الشيوعية الأولى ،المعروفة باسم " المنشور الشيوعي " ١٨٤٨ . كان على صلة بالثورات التي اجتاحت ممالك أوربا الغربية والوسطى ١٨٤٨هـ ومابعدها . وعلى أثر فشل هذه الثورات هاجر الى انجلترا ،حيث أقام بها حتى وفاته ، وحيث أصدر الجزء من كتابه (رأس المال) ١٨٦٧م وأخرج صديقه انجلز بعد وفاته الجزئين الثاني والثالث ويعتبر " رأس المال " انجيل الشيوعية المعاصرة . كذلك أسس ماركس ١٨٦٤م المؤتمر الاشتراكي العالمي . وكان على علم بنظرية هيجل الألماني . راجع الموسوعة العربية الميسرة ص ١٦١٥-١٦١٦ .

" ان العزة الالهية والهدف الالهي هي الكلمة الكبيرة المستعملة اليوم لتشرح حركة التاريخ . والواقع ان هذه الكلمة لا تشرح شيئا ".(١)

ويقول أيضا :

" ولا شك في أن فكرة الله والعواطف الدينية موجودة ، وهي تتطلب تفسيرا ، وبدلا من القول بأن الانسان كائن (الهي) تجمع في ذاته العنصر الطبيعي والعنصر الالهي ، كما يجمع عنصر الموت والخلود في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى ، يجب القول بأن " الله " " والديانة " هما ظاهرتان انسانيتان ، لأن العنصر الالهي هو ابداع الانسان وليس الانسان هو من ابداع الله ".(٢)

٢ - انجلز :(٣) القائل وهو ينكر وجود الله ووجود الأديان :

----

(١) راجع بؤس الفلسفة ، كارل ماركس ، فريدريك أنجلز ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) أصول الفلسفة الماركسية ٢٠٦/١ جورج بولتيزر ورفيقاه ، تعريب شعبان بركات ، المكتبة العصرية بيروت .

(٣) أنجلز ، فردريك ١٨٢٠ - ١٨٦٥ ، اشتراكي ألماني أسهم مع كارل ماركس في وضع أسس النظرية الماركسية الحديثة وفي صياغة البيان الشيوعي الشهير ١٨٤٨ م اشترك في تدبير الحركات الثورية في أوربا واضطر الى الاقامة الدائمة في انجلترا على أثر فشل ثورة ١٨٤٨م ومن أهم كتبه " معالم الاشتراكية العلمية ١٨٧٨م وكتاب الدولة والملكية الخاصة و " أصل الأسرة " وقد أخرج الجزء الثاني والثالث (رأس المال) لكارل ماركس بعد وفاته راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢٣٧/١ .

" و مهما يكن من شيء فليس الدين الا انعكاس الوهمي في أذهان البشر بتلك القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق طبيعية .." (١)

٣ - لينين (٢) القائل :

" العالم وحده الكل ،لم يخلقه أى اله ولا أى انسان ولكنه كان وهو سيبقى نارا حية أزليا تشتعل و تنطفيء بموجب قوانين".

وزاد قائلا :

" هذا عرض جيد جدا لمبادىء المادية الجدلية ". (٣)

أى يعتبر الدين تخيلاوهميا للقوى الخارجية في الطبيعة يجعل الانسان يعبدها و يقدسها

----

(١) راجع انتى دوهرتج ،فريدريك انجلز ت :د/فؤاد أيوب ، دار دمشق ١٩٦٠ ص ٣٨١ .

(٢) لينين : فلاديمير ليغن : ١٨٠٧ - ١٩٢٤م القائد الفعلي والفكرى لثورة روسيا التي انتهت باقامة النظام الشيوعي ١٩١٧م حاول أن يطور النظرية الماركسية لمواجهة مشكلات القرن العشرين .. و من أهم كتبه " الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية" والدولة والثورة . الموسوعة ١٥٦٧/٢.

(٣) راجع الدفاتر الفلسفية ،لينين ت: الياس مرقص ،دار الحقيقة بيروت ١٩٧٤م ١٢٨/٢-١٢٩.
راجع أيضا لودفيغ فورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية فردريك أنجلز دار التقدم ،موسكو ص ٢٣.

٤ - ستالين (١) القائل :

" ان الديالكتيك خلافا للميتافيزيقا لا يعتبر الطبيعة حالة سكون وجمود حالة ركود واستقرار ،بل يعتبرها حالة حركة و تغير دائمين ،حالة تجدد و تطور لا ينقطعان ،ففيها دائما شيء يولد و يتطور وآخر ينحل و يضمحل . (٢)

----

(١) ستالين ،جوزيف فساريونفتش : ١٨٧٩ - ١٩٥٣م سياسي ودكتاتور روسي ،وزعيم شيوعي ، ولد في بلدة جورى بجمهورية جيورجيا السوفيتية اسمه الحقيقي ،دزوجا شفلي ،واتخذ اسم ستالين (أى مصنوع من الصلب) بعد انخراطه في الحركة الثورية . وهو ابن اسكافي و تعلم في مدرسة لاهوتية ١٨٩٤- ١٨٩٩) في تغليس لكي يرسم قسا ولكنه طرد منها لنشاطه السياسي اعتنق المذهب الماركسي وقد حكم روسيا بيد من حديد حتى مات ١٩٥٣م وكان أبسط كلامه انجيلا مقدسا على الجميع أن يمتثلوا لها جعل نفسه المفسر الذى لا يأتيه الباطل لمذهب لينين وبذلك تمكن أن يبتدع عن طريق أقواله وأفعاله مذهبا للشيوعية يعرف بالمذهب الستاليني .
راجع الموسوعة ١/ ٩٦٢.

(٢) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ،ستالين ،دار دمشق للطباعة والنشر ص ١٦.

يعني أنه لا يوجد في العالم ظاهرة واحدة لم تكن نتيجة لحركة المادة وتطورها . فهي تشمل كل شيء وفي كل شيء يمتد فعلها .

هؤلاء هم أشهر فلاسفة هذه العلمانية المتطرفة وأما الدول التي تمثل هذه العلمانية المتطرفة المضادة للدين فتأتي الاتحاد السوفييتي في الطليعة ثم بعض الدول الأوربية والافريقية وبعض الدول في الشرق الأوسط ..

وهكذا رأينا أن العلمانية مضادة للدين ، سواء العلمانية المعتدلة أو المتطرفة .. ولكننا قبل أن ننتقل الى الحديث عن موقف الاسلام من العلمانية يجمل بنا أن نشير الى أن ماركس أو الشيوعيين بصفة عامة ليسوا هم الذين ابتدعوا الاتجاه المادى . وانما الحق أنهم قمته ومنتهاه .

الاتجاه المادى العلماني قديم في الحياة الأوربية قدم النهضة الأوربية ان لم نقل ان له جذورا أعمق من ذلك في بعض اتجاهات الفلسفية الافريقية القديمة واتجاهات الحياة الرومانية قبل المسيحية وقد قامت النهضة الأوربية على أساس مضاد للأفكار الدينية . كما أنها رجعت الى الأصول الاغريقية الرومانية تستمد منها بدلا من الأصول الدينية التي كانت منسلخة منها منقلبة عليها .. وبعد هذه النهضة كان الفكر في أوربا متجه الى الحياة الدنيا بدل الحياة الآخرة . فكان الفكر الانساني لا الوحي الرباني - هو المرجع الذى يرجع اليه الانسان في النظر الى أمور حياته ومتطلباتها . ويقول جرين برينتون وهو يصف تلك الظروف في أوربا :

" انه طالما كانت العصور الوسطى في الواقع عصورا دينية - وطالما أن عصر النهضة يعني على الأقل محاولة العودة الى الوثنية اللادينية ان لم نقل الزندقة فان فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة أما في عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية ".(١)

وقد ذكر كرسون لبعض المتطرفين قولا متطرفا اذ يقول :

" ان عقيدة الله المأثورة نسج من المتناقضات ان فكرة الله هي الضلالة المشتركة للنوع الانساني ".(٢)

هكذا رأينا أن هذا الاتجاه المنسلخ من الدين وانكار وجود خالقهم المتجه الى المادية لم يقفز دفعة واحدة من الاعتقاد بالله الى العلمانية المتطرفة والمادية اللادينية . ولكن وقع ذلك تدريجيا حتى جاء كارل ماركس وصاحبه أنجلز ومن لف لفهما فاندفعت بهم المادية والعلمانية المتطرفة الى ما وصلت اليه من انكار للأديان والقيم الروحية وانكار أن يكون لهذا الكون خالق . فسبحان الله تعالى عما يصفون .

---

(١) كتاب منشأ الفكر الحديث ، تأليف جرين برينتون ، ت: عبد الرحمن مراد ص ٢٧ . انظر كذلك الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي محمد البهي ص ٢٩٧ .
راجع كذلك كتاب مبادئ الفلسفة تأليف رابوبرت ، ت: محمد أمين . دار الكتاب العربي بيروت ص ١١٩-١٢٠.
وراجع مذاهب فكرية معاصرة ، الشيخ محمد قطب ، دار الشروق ص ٢٦٠.

(٢) راجع المشكلة الأخلاقية ، كرسيون ، ص ١٣٨.

وبعد هذا هناك أسئلة تتطلب جوابها وهي :

ما هي الأسباب التي أدت بأوروبا الى هذه النتائج المرعبة ؟

وكيف نشأت بهذه الصور التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية .

في الصفحات التالية سنجد الجواب على هذه الأسئلة .

نشأة العلمانية وأسبابها :

ان المتأمل في التاريخ الأوربي ، خاصة ما يتعلق بأمر عقيدة أوربا ليدرك أن الذى نزل بالأوربيين فأدى الى انسلاخهم من دينهم ونبذه وراء ظهورهم شيء غير عادى .

ذلك أن الدين النصراني الذى وصل الى الأوربيين ، لم يكن هو الدين المنزل من عند الله سبحانه و تعالى ولو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها .. (١)

هذا على حد تعبير الشيخ أبي الحسن الندوى . وأما على حد تعبير الأستاذ محمد قطب فنقول :

" ان أوربا لم تعرف دين الله المنزل على حقيقته الربانية وانما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوربية لا صلة لها بالأصل المنزل ، الذى أرسل المسيح ليبلغه لبني اسرائيل . (٢)

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوى ، ص ٤٠ .

(٢) مذاهب فكرية معاصرة لشيخنا محمد قطب حفظه الله تعالى ، ص ٩ سنة ١٤٠٨/ ١٩٨٨م دارالشروق .
وراجع كذلك مقارنة الأديان المسيحية للأستاذ الدكتور أحمد شلبي ص ١٨ .
وراجع موقف الاسلام من نظرية ماركي للتفسير المادى للتاريخ ، تأليف أحمد العوايشة دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع ص ٣٦

* ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم بآية من ربكم ... *(١)

وسبب هذا المسخ والتحريف لدين الله سبحانه و تعالى ، هو أن رجال الكنيسة قد أدخلوا فيه معلومات بشرية ، لذا فقد هذا الدين روحه وشكله ، وتحولت عقيدتهم البسيطة التي جاء بها سيدنا عيسى عليه السلام (٢). الى عقيدة شركية معقدة بدلا من كونها دين التوحيد بل قاوموا دعوة التوحيد ومزجوا العقيدة الصحيحة بتعاليم الوثنيين و فلسفتهم ، ارضاء للجماهير حتى يكتسبوا ودهم ويدخلوا في دينهم ويكونوا عونا لهم في نشر دينهم في الأرض .

وقد ثبت تاريخيا أن أباطرة الروم كانوا وثنيين في القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح ، لا يؤمنون بدين سماوى . فقاموا باضطهاد النصارى أتباع دين النصارى ، يسومونهم سوء العذاب وكان من أشد الأباطرة تعذيبا أربعة : ١ - ميروز سنة ٦٤ م ، ٢ - ترجان سنة ١٠٦ م ، ٣ - ديميون سنة (٢٤٩-٢٥١م) ، ٤ - دقلديانوس سنة ٢٨٠م. فتشرد أتباع دين النصارى في الارض حتى اتخذ فريق منهم الأديرة والملاجئ في أطراف الأرض فرارا من العذاب . (٣)

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٩.

(٢) أفكار ورجال تاليف جرين برنتن ص ١٨١ و محاضرات في النصرانية لأبو زهرة ص ١٣٥ و معالم تاريخ الانسانية ، ويلز ج ٣ ص ٧٢١ .

(٣) راجع مذاهب فكرية معاصرة ، المصدر نفسه ص ١٠. وأما الأربعة فهم : ١ - ميروز سنة ٦٤م ، ٢ - وترجان سنة ١٠٦م ، ٣ - وديمسيون سنة (٢٤٩ - ٢٥١م) ، ٤ - دقلديانوس ٢٨٠م.
راجع كتاب محاضرات في النصرانية للامام محمد أبو زهرة دار الفكر العربي ص ٣٠.

واليك فيما يلي ما يقول بعض أقطاب التاريخ الأوربي بهذا الصدد وكلهم يؤكدون أن الدين الذى وصل الى أوربا كان محرفا ، فقد حرفه بولص أولا ثم قضى قسطنطين على البقية الباقية الذى دخل في المسيحية بجميع وثنيته القديمة فامتزجت بدين عيسى عليه السلام ويقول المؤرخ الانجليزى ويلز :

" وظهر للوقت معلم آخر عظيم يعده كثير من الثقات المعاصرين المؤسس الحقيقي للمسيحية وهو شارل الطرسوسي أو بولس (١) والراجح أنه كان يهودى المولد وان كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك ولا مراء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود بيد أنه كان متبحرا في لاهوتيات الاسكندرية الهلينية ،وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفي للمدارس الهلنسية . وبأساليب الرواقيين . كان صاحب نظرية دينية ومعلما يعلم الناس قبل أن يسمع

---

(١) ترجمة بولس " القديس " تذكر المصادر أن بولس كان من أعظم رجال التاريخ المسيحي وقد ولد في طرطوس في آسيا الصغرى . اسمه الأصلي شاؤول روماني الجنسية ولكن الراجح أنه يهودى الجنسية درس في القدس ونشأ نشأة يهودية متحمسا لأبيه ووطنه وكان يضطهد المسيحيين الأول كلف من قبل رئيس الكنيس بالذهاب الى دمشق لمقاومة المسيحية سنة ٣٥ وفي طريقه قال : انه رأى بغتة نورا ساطعا وسمع صوتا يقول له شاؤول شاؤول لم تضطهدني ؟ فقال : من أنت يا رب ،فأجابه الصوت : " الذى يسوع الذى يضطهده " فأصاب شاؤول عمى وذهب الى دمشق حيث نزل عند المسيحيين وانخرط في سلكهم .
راجع الموسوعة العربية الميسرة ص ٤٤٠ .

بيسوع الناصرى بزمن طويل .. ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثراكية اذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثراكية ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبا الى جنب مع الأناجيل ان ذهنه كان مشبعا بفكرة لا تظهر قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم.. ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قربانا لله كفارة عن الخطيئة، فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الانسانية . أما ما عليه بولص فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء لاسترضاء الاله ."(١)

ويقول أيضا :

" وفي أثناء ذلك المد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من (الثيوكرازيا) أى (التوحيد والمطابقة بين الالهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التي تكاد تضارعها في سعة انتشارها بين سواد الشعب ونحلة" سيرابيس حورس .

" على أن ما أسهمت به نحلة الاسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدرا أو يكاد .. اذ كان طبيعيا أن يجد المسيحيون في شخصية حورس الذى كان ابنا لسيرابيس وهو سيرابيس في نفس الوقت شبيها مرشدا لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا .."(٢) هكذا امتزجت المسيحية بالفكر الفلسفي اليوناني في هذا الوقت المبكر ولم تعرف أوربا من دين الله الا المزيج الذى نشهده على المؤمنين بها .

---

(١) معالم تاريخ الانسانية ٢/٧٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٧٠٨ - ٧٠٩ .

وراجع كذلك دائرة المعارف الفرنسية ٥/١١٧ .

ثانيا (طغيان رجال الدين الكنسي) :

وقد تحدثنا فيما مضى أن الكنيسة حولت الدين الرباني الى نطاق ضيق وهو حصره في القلوب فقط أوما يسميه البعض بالروحانيات وتركت الحياة العملية - أى الشريعة - لقيصر يتصرف فيه كما يريد ..

وكان من المنتظر من الكنيسة أن تجعل في مقدمة اهتماماتها تعميق الايمان في قلوب أتباعها ، وأن تكون وسيلتها الى ذلك هي التربية الروحية التي تجعل صلة بين الانسان وربه .

ولكن الكنيسة لم تفعل شيئا من ذلك بل اتجهت بهذا الجانب الضيق من الدين ، الجانب الروحي ، الى تأسيس سلطان دنيوى ضخم بعيد عن الجانب الروحي أيضا الذى تدعى أنها اكتفت به فقد أبت الكنيسة أن تتصل القلوب ، قلوب المؤمنين بربهم مباشرة بلا وسيط ، وأصرت أن تكون هي وحدها - ولا سواها - الواسطة التي لا يمكن بحال من الأحوال أن يتصل بالله أحد الا عن طريقها .

ولقد أتت الكنيسة بطغيان في دينها يجعل العاقل حيرانا بحيث شمل هذا الطغيان جميع شئون الحياة الانسانية :

طغيان روحي ، طغيان مالي ، طغيان عقلي وفكرى ،
طغيان سياسي ، طغيان علمي .." (١)

----

(١) نحيل القارئ الى معرفة تفاصيل هذا الطغيان الى كتاب أستاذنا الفاضل محمد قطب حفظه الله تعالى (مذاهب فكرية معاصرة من ص ٢٥ - ٧٨ وكذلك الكتاب القيم للدكتور :

===

وفساد خلقي وانحراف فكرى وسلوكي ومساندة للظلم في جميع ألوانه وفرضت رجالها على الناس صكوك الغفران وقرارات الحرمان (١) وراحوا يتاجرون بها ويتخذونها للكسب الحرام .. بل وقفت الكنيسة أمام كل اكتشاف علمي وطبقت عمليا ما يثبت اصرارها على الحجر على العقول أيضا وحشدت الجيوش الجرارة لمحاربة من سولت له نفسه مخالفة آرائها أو اعتنق ما يخالف عقيدتها ..

وغرقت أوربا في دماء ضحايا الكنيسة حين سقط المئات من الآلاف في محاكم التفتيش ومشانقها غير الذين غيبوا في غياهب السجون (الباستيل) ،لا لشيء الا أنهم خالفوا رأيها أو أتوا باكتشاف علمي جديد . ولا أقصد بذلك المسلمين أو اليهود بل الطوائف النصرانية التي اختلفت على الكنيسة في قضية من قضايا العقيدة أو الشريعة أو أية فكرة أخرى ..

ان من أوضح الشواهد على هذا الحدث الأليم في تلك العصور الأوربية الوسطى المظلمة ما تعرض له (الكاثاريون) و (الوالدونيون) وغيرهما/ الذين لم يتخلوا عن الدين النصراني بل كانوا يطالبون بحياة مسيحية حقيقية تستمد مقوماتها من الكتاب المقدس نفسه وأنكروا على الكنيسة ثراءها ودنيويتها ومع ذلك فقد أعلنت الكنيسة الحرب عليهم. (١)

=== سفر عبد الرحمن الحولي (العلمانية وأثرها في الحياة الاسلامية) ففيهما الكفاية لمعرفة مدى هذا الطغيان الذى أتى به رجال الكنيسة في دين الله المنزل على عيسى عليه السلام.

(١) تعاليم تاريخ الانسانية ،ويلز ٣/ ٩٠٥م
وراجع كذلك كتب غيرت وجه التاريخ ،داونز .

وهناك شواهد كثيرة تدل على هذا الطغيان الكنسي لنذكر من ذلك اضطهاد ثلاثة علماء من رواد الفكر الأوربي الحديث وهم : كوبرنيق (١) وبرونو (٢) وجاليليو (٣) .

----

(١) كوبرنيق أوكوبرنيكوس ،نيقولا (١٤٧٣ -- ١٥٤٣م) فلكي بولندي واضع نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس ،والتي على أساسها بنى علم الفلك الحديث وقد أهدى هذا البحث الى البابا بول ٣ ،ولكنه لم ينشر الا في سنة ١٥٤٣ م في أخريات أيام كوبرنيق .
راجع الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٤٩٥.

(٢) جوردانو برونو (١٨٥٨-١٩١٧م) فيلسوف ايطالي تحدى اللاهوتيين واعتقد أن لكل انسان وجهة نظر الى العالم خاصة به لتهم بزندقة وأحرق في البندقية .
المصدر السابق ١/٣٦٣.

(٣) جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) م عالم ايطالي اشتغل بالفلك والرياضة والطبيعة وضع أسس العلم التجريبي الحديث وفي سنة ١٦٠٩ صنع أول منظار فلكي . أيد نظرية كوبرنيق في دوران الشمس فحوكم وأرغم على نبذها .
المصدر السابق ١/ ٥٩٧.
معالم تاريخ الانسانية ،ويلز ٣/ ٩٠٥ وراجع كتب غيرت وجه العالم وراجع العلمانية المصدر السابق د. سفر حوالي ص ١٥٠.

وأما كوبرنيق فقد كانت جريمته عند الكنيسة أنه يقول بدوران الأرض حول الشمس بينما كانت الكنيسة اعتنقت بطريقة بطليموس التي تجعل الأرض مركز الكون وأن الأجرام السماوية كافة تدور حولها . فحرمت الكنيسة كتابه وقالت أن ما فيه هووساوس شيطانية مغايرة لروح الانجيل فلما أرادت قبضه عاجلته المنية فكان ذلك نجاة له من محكمة التفتيش (١).

وأما (جوردانو برونو) بعث هذه النظرية بعد وفاة كوبرنيق ، فكانت نتيجة ذلك أن زج في السجن ست سنوات من قبل الكنيسة التي أحرقته أخيرا سنة (١٦٠٠ م) لما أصر على رأيه من دوران الأرض حول الشمس وثم ذرت الكنيسه رماده في الهواء وجعلته عبرة للآخرين من الباحثين والمفكرين والشعراء . والعلماء (٢) وانتهى هذا الاتجاه باعلان العلمانية التي تعني بادئ ذي بدء ،فصل الدين عن الدولة ،وبتعبير أدق فصل الدين عن الحياة ،فليس غريبا أذن أن ترفض هذا الدين المحرفة عقيدته المفصولة عقيدته عن الشريعة الذى يطغى رجاله هذا الطغيان الذى يمنع العمل في الحياة الدنيا ويمنع التفكير و يمنع العلم.. وقد تعرض كثير من هؤلاء العلماء للشنق والحرمان لأنهم في نظر الكنيسة هراطقة.

وأما الجماعات التي أعدمت فأكثر من أن يحصيها عد . وقد ذكر الباحثون أن في اسبانيا فقط قدمت محكمة التفتيش للنار أكثر من

---

(١) العلمانية ،المصدر السابق ص ١٥٠.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٠.

واحد وثلاثين ألف نسمة ، وحكمت على أكثر من مائتين وتسعين ألفا بعقوبات أخرى تلى الاعدام.(١)

وأما الطامة الكبرى فهي تتمثل في مذبحة باريس التي يحكيها الدكتور توفيق الطويل اذ يقول :

" ولما ظهرت البروتستانت اتجهت الكنيسة لهم بالاضطهاد العنيف وكثرت المذابح ومن أهمها مذبحة باريس في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢م والتي سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت . هؤلاء الذين دعوا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر ثم قتلوا خيانة وهم نيام ، فلما أصبحت باريس كانت شوارعها تجرى بدماء هؤلاء الضحايا ، وأنهالت التهاني على تشارلس التاسع من البابا و من ملوك الكاثوليك وعظمائهم على هذا العمل الدنيء ".(١)

وأما الثالث فهو (جاليليو) لم يقتل ولكنه عذب تعذيبا شديدا ولما خشي أن يموت مثل برونو أعلن تنازله عن رأيه بدوران الأرض لأنه بعد موت برونو ببضع سنوات استطاع جاليليو أن يصنع المرقب " التلسكوب " فأيد تجريبيا ما قال كوبرنيق وبرونو . كذلك ألقى عليه القبض وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات .

---

(١) الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ص (٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٠) ، وانظر كذلك التعصب والتسامح لأستاذنا محمد الغزالي حفظه الله ص ٣١٤ - ٣١٥ . المصدر السابق .

وبعد هذه المحنة ارتد عن رأيه كما قلنا مخافة أن تنتهي حياته كحياة برونو ،فأمره رئيس المحكمة أن يعلن كره بهذه النظرية وهو راكع على قدميه فقال :

" انا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمرى ،سجين راكع أمام فخامتك والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدى ،أرفض وألعن واحتقر القول الالحادى الخاطئ بدوران الأرض ". (١)

هؤلاء هم رواد الفكر في أوربا حينذاك وهذا موقف الكنيسة منهم واذا كانت سنن الله في الكون : " ان لكل فعل رد فعل مساوى له في القوة ومضاد له في الاتجاه .." فقد وقع الصراع بين الكنيسة وبين المفكرين في أوروبا وانتهى هذا الصراع بانتصار العلمانية على الكنيسة المحرفة عقيدتها عن واقع الحياة الانسانية.

---

(١) معالم تاريخ الانسانية ١٠٠٨/١ المصدر السابق وراجع قصة النزاع بين الدين والفلسفة ، توفيق الطويل ص ٢٠٥.
وانظر كذلك تكوين العقل الحديث ٣٤٨/٣ ج. هـ. راندال
وانظر كذلك الاسلام والنصرانية مع العلم الحديث والمدنية للامام محمد عبده ص ٤٠.
وانظر التعصب والتسامح لأستاذنا محمد الغزالي حفظه الله ص ٣١٤ - ٣١٥ وانظر أيضا العلمانية ص ١٥٠ المصدر السابق
انظر أيضا حرية الفكر ،سلامة موسى ص ٦٩ بيروت ١٩٦١.

هل يستطيع الناس أن يصبروا على هذه الحالة الى الأبد ،
والنتيجة الطبيعية لهذه الأعمال الاجرامية ،كانت نفورا من الدين
و محاولة اقصائه اقصاءا تاما عن واقع الحياة ...

" هذه هي بذرة العلمانية والسبب الممهد لها ". (١)

و بعبارة أخرى ،وهل كانت نتيجة منتظرة من هذا الموقف
الا أن يترك الناس ذلك الدين الذى يحجبهم عن العلم و يحجرعليه
وأن يسيروا مع العلم مع تياراته الزاخرة التي تأتي كل يوم بجديد ..
ولكن الشر الذى كانت الكنيسة السبب الممهد لها ،لم يقف - مع بشاعته -
عند هذا الحد أى عند النفور من الدين بل وصل هذا الشر المتصاعد كل
يوم ، الى نفي اسم الله من مجال البحث العلمي على وجه خاص .

و اذا ذكر أحد "بسم الله" تشمئز نفوسهم بذلك بل لما تقدم
هذا العلم الذى اتخذ هذا الاتجاه المنحرف نفوا تدخل الله في الخلق
نفسه فقال تشارلز داروين قولته المشهور :

" ان تدخل الله في الكون بمثابة تدخل عنصر خارق للطبيعة على
وضع ميكانيكي بحت ". (٢)

---

(١) مستفاد من محاضرة ألقاها لنا أستاذنا محمد قطب وألقاها بمبنى
كلية الآداب من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢) راجع التطور والثبات في حياة البشرية تأليف أستاذنا محمد قطب
ص (٣٧) .
وراجع كتابه أيضا : "جاهلية القرن العشرين" ص ٤٠.

بهذا كرهوا الكنيسة ورب الكنيسة بل كرهوا جميع الأديان السماوية وينفرون من سماع ذكر الله/ كما قال تعالى (وكأنهم حمر مستنفرة* فرت من قسورة) (١).

وصدق الله العظيم.

* وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون *. (٢)

وقد أكد على ذلك أستاذنا محمد قطب أيما تأكيد في كثير من كتبه النيرة إذ يقول :

" لا تجد في الجاهلية المعاصرة حقيقة علمية واحدة تسند بارجاعها الى أصل ديني ، بل على العكس (٣) مجرد ذكر الدين والله - سبحانه وتعالى - في مجال البحث العلمي كفيل - عندهم - بالشك في الحقيقة العلمية ، أو باستهجان المنهج على الأقل لأنه منهج غير علمي !!! كفيل باثارة الامتعاض في جميع الأحوال .

---

(١) سورة المدثر الآية ٥٠ ، ٥١.

(٢) سورة الزمر الاية ٤٥.

(٣) يقول وليم جيمس : لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادى اليوم قائلا : هناك اله واحد مقدس يقف في جلاله وعظمته بين أنقاض كل اله غيره ، وكل وثن وهو الحقيقة العلمية وليس له الا أمر واحد وقول واحد وهو ليس لكم أن تؤمنوا باله " .
راجع العقل والدين : ٩٨.

وقال أيضا :

" واقامة التصور - في أى مجال من مجالات البحث - على أساس المفهوم الديني هو عندهم هدم للمنهج العلمي وتسوية له واعطاء حصيلة محوطة بالشك ولو كانت كل الأدلة تؤيدها ".(١)

مصداقا لقول أستاذنا محمد قطب ،لنأخذ مثالا لهذا الموقف المعادى للدين من قبل الهاربين من الكنيسة وربها ، قول جوليان هكسلي في كتابه : " الانسان في العالم الحديث " :

(Man in the modern world)

" وهكذا يضع العلم الحديث الانسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان ... ولم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة في تفاصيلها أو في كثير مما تضمنته .. ولكن كان لها أساس جيولوجي متين ".(٢)

وهكذا سار العلم الحديث على هذا المسار البعيد من كل جو ديني بل نفى أصحاب هذا الحديث (القصد والغاية) من الكون لأن ذلك يؤدى الى الاعتراف بالله وهم يكرهون (الله) سبحانه وتعالى انتقاما من موقف الكنيسة التي حاربت العلم باسم (الله) .

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة المصدر السابق ص ٥١ .

(٢) من فصل تفرد الانسان ص ٣٦ الترجمة العربية نقلا عن المصدر السابق الصفحة نفسها (٥١) . وانظر كذلك البيان الشيوعي كارل ماركس فريدريك أنجلز ،الشركة اللبنانية للكتاب بيروت .

و ياليت الأمر يقف عند هذا الحد ،بل وصل الأمر بأصحاب الجهالة العلمية الذين نفوا تدخل الله في كونه وخلقه بأن يقولوا صراحة :

" بأن الكون المتقن هذا وجد بالصدفة " الصدفة العمياء الخرقاء .. وأن الحياة قد ظهرت على سطح الأرض بالصدفة ، بدون قصد ولا تدبير مسبق (١) ، بل ان الطبيعة (La nature) أوجدت نفسها بنفسها دون احتياج الى موجد ،ويقول دارون : (ان الطبيعة تخبط خبط عشواء) "

ان مروق أوربا من الدين الى مثل هذا الحد ونفورها منه ، لهي احدى الخطايا المترتبة على الخطيئة التي اقترفتها الكنيسة من قبل ... بوقوفها موقف العداء من الحقائق العلمية والعلماء سواء من الأوربيين والمسلمين ،وهي التي ألجأت الأوربيين الى اتخاذ " الصدفة " أو الطبيعة الها ليست له كنيسة ولا التزامات ولا صكوك الغفران ولا الحجر على العقول والجلود ..

---

(١) ولولا محاولة الانتقام من الكنيسة لما ادعت أوربا أن الطبيعة الخرقاء هي الخالقة . والا فما " الطبيعة " في مجال البحث العلمي على وجه أخص ؟ ومن أين لها صفة الله الخالق .. فاذا كانت الطبيعة مادة خرقاء لا ارادة لها ولا قصد كما يدعون فكيف استطاعت أن توجد شيئا أعقل منها من ذلك الانسان " هل فاقد شيء يعطيه ؟" الجواب : لا يقول بذلك الا المجنون . ولهذا عرفنا أن أوربا لم ترفض فكرة الدين بذاتها وانما رفضت الدين لأجل طغيان الكنيسة وحماقاتها ".

وبتعبير آخر : " ان تأليه الطبيعة - سواء في مجال العلم أو الفتن أو أى مجال آخر - لهو المهرب الوجداني لجأت اليه أوربا لتهرب من اله الكنيسة الذى تستعبد الناس باسمه في كل مجالات الحياة الروحية والفكرية والمالية والسياسية والعلمية .. الخ وتخترع الها آخر له معظم صفات الله الخالق البارئ المصور ،ولكن ليست له كنيسة ولا التزامات من عبادة وتقديم القرابين " (١)

تلك هي الجريمة الكبرى التي جنتها الكنيسة على دين الله وعلى البشرية جمعاء .. ولولا هذه الجريمة النكراء التي اقترفتها الكنيسة بحماقاتها وطغيانها لما نفرت أوربا من الدين هذا النفور الغريد ولولا ما أقامته الكنيسة من هذه الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ـ التي ظلت تتفاقم حتى وصلت - على يد الشياطين - الى استخدام العلم كسلاح للقضاء على الأديان السماوية بل على فكرة التدين نفسها .. بهذا نقول :

ألا بعداً للكنيسة كفرت بربها وأضلت أوربا عن سواء السبيل ..

وصدق الله العظيم :

* ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل *. (٢)

----

(١) مذاهب فكرية ،المصدر السابق ص ٥٢.

(٢) سورة المائدة الآية ٧٧.

وبعد هذه الحادثة الأليمة التي أبعدت أوروبا عن كل جو ديني ، وبعدها آلت أمور أوربا الى أيدى العلمانيين المارقين الهاربين من دين الكنيسة وربها فكانت الحياة كلها حياة علمانية بحتة[1] وصارت الكنيسة مدفوعة الى داخل الجدران ،جدران الكنائس وأبعدت عن المجتمع الأوربي بعد كل ذلك. اضطرت الكنيسة أن تتقلص داخل جدرانها بدينها هذا ففكرت في تعديلات جديدة لأجل المصالحة بينها وبين أرباب " العلمانية " الحاكمة الصاعدة ، فاذا بالصلاة الكنسية قد صارت تؤدى على أنغام الموسيقى ثم تعقبها حفلات الرقص بين الجنسين ، [2] تحت الأضواء الخافتة الحالمة وبين الألحان الدافئة والساخنة تحت سمع وبصر رجال الكنيسة بل تحت رعايتهم وتوجيههم السديد ".

وياليت هذه الاضافات التي أضافتها الكنيسة الى دين الله المنزل على سيدنا عيسى عليه السلام وقفت عند هذا الحد مع بشاعته وكراهته ولكنها (الكنيسة) أتت بالمضحكات المبكيات في غرب أفريقيا . .

---

(١) ثلاثة قرون من الأدب أشرف على التأليف فورستروفوك وأشرف على الترجمة جبرا ابراهيم بيروت ١/ ٤٤، ٤٥ .

(٢) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين محمد علي يوسف ص ١١ ، وعن تحطيم الأسرة في المجتمع العلماني اقرأ في كتاب الصنم الذى هوى ص ٢٤.

بحيث صورت للافريقيين عيسى أسود مشيرة الى أن سيدنا عيسى كان رجلا أسود لا لشيء الا للغزو الفكرى واستجلاب قلوب السودانيين بهذه الطريقة الملتوية . ." (١)

وهكذا أفسدت الكنيسة دين الله بهذه الاضافات المضللة التي كانت أمضى سلاح بأيدى العلمانيين لضرب الكنيسة . .

وقد أشار الى هذه الحقيقة ، حقيقة أن ما أضافته الكنيسة في دين الله المنزل على عيسى كان السلاح القوى لضرب الكنيسة التي منيت بخسارة فادحة في معركتها مع العلمانية والالحاد والمادية الديالكتية الماركسية اللينية ، فمثلا يقول (ليكونت نوى) :

" ان ما أضافه الانسان الى الديانة المسيحية والتفسيرات التي قدمها والتي ابتدأت منذ القرن الثالث بالاضافة الى عدم الاكتراث بالحقائق العلمية . . . كان كل ذلك مما قدم للماديين والملحدين أقوى الدلائل المعاضدة في كفاحهم ضد الدين . ." (٢)

---

(١) راجع موسوعة التاريخ الاسلامي ، المرجع السابق ص ٦٥ جـ ٦ بتصرف .

(٢) الجفوة المفتعلة المرجع السابق ص ١١
ومن هذه المعلومة المضللة اعتقاد الكنيسة ان الله خلق العالم سنة ٤٠٠٤ ق.م وتاريخ الطوفان فهو يرى أنه وقع بعد خلق آدم ٢٢٦٢ سنة ومعنى ذلك أنه وقع في سنة ١٧٤٢ ق.م
راجع اظهار الحق ص ٢١٨ .
وراجع كذلك : قصة الحضارة ١٤/٣٧٩ .

كما أرى أن قيام العلمانية في أوربا أدى الى نتيجة أخرى لا تقل شراسة مما ذكر وهي :

القضاء على وحدة أوربا . فلما انهزمت الكنيسة في عاقبة الأمر وانفرط عقدها ،استقلت الأمم وأصبحت أوربا لا تربطها رابطة ولم تزل كل يوم تزداد استقلالا في شؤونها وتشتتا فنشأت القومية الأوربية التي بلغت سمومها في جميع أنحاء العالم الاسلامي ،لأن الدين والقومية على حد تعبير الأستاذ أبي الحسن الندوى " ككفتي ميزان ،كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى ".(١)

وقد أشار الى هذه الحقيقة أيضا الانجليزى المعروف لورد لوثين ، السفير البريطاني في أميركا في خطبة ألقاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٣٨م اذ يقول :

" لما قضت حركة لوثر التي تدعى حركة اصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية ،انقسمت هذه القارة في امارات شعبية مختلفة وأصبحت منازعتها ومنافساتها خطرا خالدا على أمن العالم .. ".(٢)

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) معالم تاريخ الانسانية ،ويلز ٣/٩٨٩- ٩٩١.

وهكذا رجحت كفة العلمانية في أوروبا .. ولكن على الرغم من ذلك كله فقد كان يمكن أن تسير الثورة الفرنسية في تمردها وقضائها على الظالمين مسارا آخر ،لولا أن يداً خبيثة تدخلت وسارت بالثورة في مسار معين. وهي اليد اليهودية الخفية التي وجهت الثورة الى الانفصال التام بين الدين والحياة . ان اليهود لا ينشئون الأحداث ولكن ينتهزونها للوصول الى أغراضهم الشيطانية .

فقد استخدمت اليهود نظريات لمحاربة الكنيسة مثل نظرية دوران الأرض والنظرية الداروينية التي تقول ان أصل الانسان يرجع الى القرود وغيرها فأدى كل ذلك الى بغض رجال الدين الكنسي في قلوب الجماهير .

هكذا كانت نتائج الصراع بين رجال الدين وبين العلمانيين فكان ما أضافته الكنيسة في الدين المسيحي أمضى سلاح بأيدى العلمانيين لضرب الكنيسة نفسها . (١)

وقد أشرنا الى ذلك سابقا .

---

(١) مثل نظرية فرويد في علم النفس القائل ان في الانسان طاقة جنسية فائقة انظر الموجز في التحليل النفسي لفرويد ٢٢-٢٤ ونظرية دوركايم في علم الاجتماع القائل : ان الدين نتيجة العقل الجمعي ،انظر قواعد المنهج في علم الاجتماع ص ٤٢ وص ٢٢٢ ومثل نظرية كارل ماركس القائل (ان الدين أفيون الشعوب) راجع معركة التقاليد ص ١٨ لأستاذنا محمد قطب .

وهكذا رأينا كيف نشأت العلمانية في أوروبا ولكن قبل أن ننتقل الى المبحث التالي نود أن نشير الى نقطة هامة توضح قصدنا في هذا المبحث وهي :

اننا لا نقصد بهذا المبحث بالذات محاولة التهجم على الكنيسة وبيان طغيانها وتصرفاتها التي كانت أوروبا تئن تحتها ردحا من الزمان ولا كذلك تبرير التمرد الذى تبجحت به أوروبا الملحدة العلمانية على باريها في أثناء الصراع الذى داربينها وبين طغيان الكنيسة لأنه لاشيء على الاطلاق يبرر بُعْدَ الانسان عن خالقه. ونبذه لعبادته على النحو الذى افترضه على عباده سواء بالاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى، أو بتوجيه الشعائر التعبدية اليه وحده أو بتنفيذ شريعته . .

لا يعنينا هذا ولا ذاك ان الذى يعنينا هو شرح هذه الانحرافات وبيان الصورة التي حدثت عليها . والظروف التي أحاطت بها منذ مبدئها حتى صارت الى ما صارت اليه . لأنها قضية لم تصبح خاصة بأوروبا فقط وانما تعدت أوروبا حتى بلغت سمومها العالم الاسلامي بصفة عامة وافريقيا الغربية بصفة خاصة.

فكان لزاما علينا - اذن - أن نبين الأسباب والظروف التي نشأت فيها العلمانية في أوربا ليعلم هؤلاء المسلمون الذين اتخذوا العلمانية دستورا لدولهم. ان ظروف أوروبا التي نشأت فيها العلمانية غير ظروفنا . فان صحت دعوى العلمانيين في أوربا بالنسبة للدين الكنسي أنهم يتعايشون معه تعايشا سلميا دون تدخل من أحدهما في شئون الآخر - وهي كما رأينا ليست صحيحة في حدا ذاتها - فانها بالنسبة للاسلام لا تصح على الاطلاق .

لقد كان الدين الكنسي منذ اللحظة الأولى دينا يهتم بالآخرة ويدير ظهره للحياة الدنيا . لما وقع فيه من تحريف للعقيدة وفصل هذه العقيدة المحرفة عن الشريعة . وأما الدين الاسلامي لم يسمح ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة ، فالالتزام بالشريعة (١) - في دين الحق - هو مقتضى العقيدة ذاتها .. مقتضى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة ان لم تؤد عند صاحبها هذا المفهوم .. يعني الالتزام بما جاء من عند الله والتحاكم الى شريعته ، ورفض التحاكم الى أى شريعة سوى شريعة الله سبحانه وتعالى .

هذا هو حقيقة الاسلام ومقتضى الايمان بالله . وأما الاكتفاء بمجرد العقيدة ثم القيام بتطبيق القوانين المستوردة من فرنسا وغيرها في بلد اسلامي ، فان هذا يتنافى مع مقتضيات لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل قد نفى الله سبحانه وتعالى صفة الايمان الحقيقي عن كل من يقوم بمثل هذه التفرقة بين العقيدة والشريعة يقول تعالى :

* فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما * (٢)

---

(١) راجع مذاهب فكرية معاصرة ، المصدر السابق ص ٤٩٦ مع تغييرات وتقديم وتأخير .

(٢) سورة النساء الآية ٦٥ .

فالتحاكم - اذن - الى كتاب الله وسنة رسوله المطهرة ، واجب من الواجبات فمن ترك ذلك فقد ترك واجبا ومن ترك واجبا فلا شك أنه صار من أهل الوعيد ، هذا ما أكده شيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى اذ يقول :

" والمقصود هنا ان كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الايمان والاسلام والدين والصلاة والصيام والطهارة والحج وغير ذلك فانما يكون لترك واجب في ذلك المسمى .. ومن هذا قوله تعالى :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون الآية .. ﴾

فلما نفى الايمان حتى توجد هذه الغاية دل ذلك على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد .. "(١)

هذا هو موقف الاسلام من العلمانية فانهما نقيضان لايجتمعان في قلب انسان يؤمن بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا . لماذا ؟ لأن هذا الدين قد نزله الله سبحانه وتعالى ليعطي التصور الصحيح لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية . وليقيم في عالم البشر واقعا محكوما بهذا التصور ، منبثقا عنه مرتبطا به متناسقا معه في كليته وجزئياته فالله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالألوهية والربوبية وهو المستحق للعبادة وحده بغير شريك .

---

(١) كتاب الايمان ص ٣٣ من طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

يقول تعالى : ﴿ الا له الخلق والأمر ﴾ (١)

﴿ ان الحكم الا لله أمر أن لا تعبدو الا اياه ﴾ (٢)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(انه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ،فمن كره فقد بريء ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي و تابع ". (٣)

فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ،ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل " .

هذا هو مرة أخرى حكم الله ورسوله في العلمانية والعلمانيين من المسلمين . فكيف يجوز لأحد من هؤلاء الحكام في غرب أفريقيا أو في غيرها أن يقول ان العلمانية يمكن أن تلتقي مع الاسلام في دولة واحدة ؟

أو يقول : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ،ويقول : ان الاقتصاد لا علاقة لهابالدين . . أو يفصل بين الدين والحياة ؟ (٤)

الجواب : لا فكل من يتصف بذلك فهو من أهل الوعيد كما أشار الى ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية.

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٤ .

(٢) سورة يوسف آية ٤٠ .

(٣) انظر : كتاب مذاهب فكرية معاصرة لأستاذنا محمد قطب ص ٤٩٩ بتصرف.

(٤) رواه مسلم .

وهكذا تبين قصدنا في بيان نشأة العلمانية في أوروبا ولطالما كانت الكنيسة -ولم تزل = تخفيها على أتباعها . ولا تبين لهم أن طغيانها هو سبب هروب أوربا من الدين كل الدين فكان من واجب كل باحث أن يبين هذه الحقائق التاريخية لأنها لم تعد قضية تخص أوروبا فحسب وانما تمس البشرية كلها ، كيف لا ، وقد تعدت سمومها نطاق أوروبا حتى وصلت الى العالم بأسره فتعذبت بها الناس . وكان من أكثر الدول عذابا بها سكان غرب افريقيا التي وقعت ضحية في أيدى العلمانيين الفرنسيين . وكانت هذه المنطقة ولم يزل تصلى بنيران هذه العلمانية.. فأكبر دليل على ذلك أن جميع دول غرب افريقيا " الفرنسية " ما عدا موريتانيا أختار رؤسائها العلمانية دستورا لدولهم كما قلنا سابقا اعتقادا منهم أن الاسلام والعلمانية يمكن أن يتعايشا تعايشا سلميا ، لذا أوضحنا هنا أن الاسلام برىء من العلمانية بل انهما في خطين متوازيين لا يلتقيان مهما امتدا .

وبعد ، قد آن الأوان أن ننتقل الى جولة أخرى لنتحدث فيها عن مظاهر العلمانية في غرب "افريقيا" الفرنسية ".